



غرناطة وقصر الحمراء

وصف لمدينة غرناطة القديمة وقصرها الإسلامي

تأليف: ألبرت كالفرت

ترجمة: د. أحمد إيبش

غرناطة وقصر الحمراء

وصف موجز لمدينة غرناطة القديمة
ولمحة تفصيليّة حول قصرها الإسلامي





دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى [illegible]هـ [illegible]م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: [illegible]

publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

روّاد المشرق العربي

غرناطة وقصر الحمراء

وصف موجز لمدينة غرناطة القديمة

ولمحة تفصيليّة حول قصرها الإسلامي

للرحّالة البريطاني

آلبرت فريدريك كالڤرت

ترجمة وتعليق

د. أحمد إيبش

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السّلسلة الثّقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشّرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثّقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشّريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس

ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيليوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطّمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثّقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثّمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطّباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة

هذا الكتاب

نقدّم للقرّاء الكرام اليوم كتاباً هو أشبه بالتّحفة الفنيّة، يتناول وصف درّة الأندلس (الفردوس الإسلامي المفقود) غرناطة، وقصرها الرّائع الفريد قصر الحمراء، الذي يشمخ أمام عين الدّهر مثالاً سامياً لروعة فنّ العمارة الإسلاميّة في القرون الوسطى، وشاهداً حيّاً أمام أنظار العالم أجمع على عظمة المسلمين ورقيّ دولتهم. هذه الدّولة التي ازدهرت يومذاك على أرض الأندلس، فأهدت البشريّة علوماً وفنوناً وشعراً وآداب. وما برحت تذكّر كلّ عربي يزور الأندلس بعبقريّة أجداده وتستثير وَجدَهُ على هذا المجد الذي بلغوه في زمن مضى ثم دثر وباد، فلا يجد أمامه مواسياً غير أبيات الصّمّة بن عبد الله القُشيري:

بروحيَ تلكَ الأرض ما أطيبَ الرُّبى

وما أحسنَ المُصطافَ والمُتربَّعا

وأذكرُ أيام الحِمى ثم أنثني

على كبدي من خَشية أن تَصدَّعا

وليستْ عشيّاتُ الحِمى برَواجعٍ

إليكَ ولكنْ خَلِّ عينيكَ تَدمعا

كأنّا خُلقنا للنَّوى وكأنّما

حَرامٌ على الأيّام أن نتجمّعا

كتب الأديب الأميركي واشنطن إرڤينغ: «كم حيكت عن هذه الأبنية الشرقية أساطيرُ وحكاياتٌ، صحيحةٌ وخرافية، وكم أُلّفت عنها قصائدُ وأغانٍ، عربية وإسپانية، تتغنّى كلّها بالحبّ والحرب والشّهامة!». فما الصّرح العظيم الذي ألهمه بهذه الكلمات؟ إنّه بلا ريب قصر الحمراء الفريد الذي تزدان به مدينة غرناطة الإسپانية، أرفعُ مثالٍ رائع أخّاذ للفنّ العربي الإسلامي في

جنوب أوروبا، شيّده المغاربة المسلمون الذين سادوا إسپانيا قروناً عدّة، فجمع بين التّحصينات الدّفاعية في أسواره وأبراجه الخارجية، وروعة القاعات والصّحون، والعقود المُقرنصة وأشغال الجَصّ الفريدة، والقباب المُرصّعة بالمقرنصات، وهندسة البساتين انّضرة الفيحاء.

بلغت غرناطة تحت حكم المسلمين المغاربة أوج مجدها بعد أن دخلها بنو نَصْر عام 1237 م فغدت عاصمة الدّولة الإسلامية في الأندلس، وقام الملوك المتعاقبون عليها ببناء مجمّع قصر الحمراء، فلم يوجد له مثيل في أوروپا بأسرها. وقد وصف أحد الكتّاب هذا القصر بأنه «أروع الابنية في العالم أجمع». ولا يقلّ موقع قصر الحمراء عظمة عن البناء نفسه، فخلفه تنتصب بكل شموخ قمم جبال سييرّا نيڤادا المكللة بالثلوج ويتعدّى ارتفاعها 3,400 متر. كما أنّ القصر نفسه مشيَّد على تلة مكسوّة بالاشجار تشرف على المدينة من علوّ 150 مترا تُدعى السّبيكة. وقد شبَّه الشاعر ابن زمرك في القرن الرابع عشر موقع التلة بالنسبة الى مدينة غرناطة بزوج مُحبّ يتأمل زوجته.

تقع غرناطة في الجنوب الشرقي للأندلس، على الضّفّة اليمنى لنهر شنيل، ويخترقها نهر حَدره Darro الذي أتاح للجنان والبساتين أن تحيط بالمدينة. ويحدّها من الجنوب جبل شُلَيْر الذي تكسوه الثّلوج صيفاً وشتاء، أطلق عليه العرب جبل الثلج، ومن الشّرق جبل شلير ومدينة ألميرية، ومن الشّمال جيان، ومن الغرب لوشة ونهر شنيل، وتتمتّع بموقع في غاية الحسن، فهي على وادٍ عميق يمتد من المنحدر الشّمالي الغربي لجبل شلير، وتظلّلها الآكام العالية من الشّمال والجنوب، ويبلغ طول هذا الوادي ثلاثة عشر ميلاً، وبه بُستان من أجمل بساتين الأندلس. ولهذا الوادي ربوتان كبيرتان يخترقهما نهر «حَدره» ربوة في الجهة الجنوبية وهي ربوة الحمراء، وربوة في الجهة الشّمالية وهي ربوة البيازين والقصبة. وهكذا تُشرف غرناطة من تينك الرّبوتين على غوطتها التي تجري فيها الأنهار.

أرضٌ خصبة ذات وديان وأنهار تظلّلها الأشجار وتنتشر بها الجنائن الخضراء والمروج الخصبة، وبها أشجار الزّيتون والتّفاح والمشمش والخوخ والرُّمّان والبرتقال والدّرّاق واللّيمون واللّيم والأترج والموز والنّخيل ذي الثّمار مختلفة الأنواع. وصفها لسان الدّين ابن الخطيب قائلاً:

«ومن كرم أرضنا أنها لا تعدم زريعةً بعد زريعةٍ، ورعياً بعد رعى، طول العام، وفي عمالتها المعادن الجوهرية من الذّهب، والفضة، والرّصاص، والحديد، والتّوتية. وبناحية دلاية من عملها، عود اليلنجوج، لا يفوقه العود الهندي ذكاً وعطر رائحة. وقد سيق منه لخيران صاحب المرية أصلٌ كان منبته بين أحجار هناك. وبجبل شلير منها سُنبل فائق الطيب، وبه الجنطيانا، يُحمل منه إلى جميع الآفاق، وهو عقيرٌ رفيع، ومكانه من الأدوية، التّرياقية مكانه. وبه المرقشيثة على اختلافها،

واللازورد. وبفحصها وما يتّصل به القِرمِز. وبها من العقار والأدوية النباتية والمعدنية ما لا يحتمل ذكرها الإيجاز. وكفى بالحرير الذي فضلت به فخراً وقيتةً، وغلّة شريفة، وفائدة عظيمة، تمتاره منها البلاد، وتجلبه الرّفاق، وفضيلة لا يشاركها فيها إلا البلاد العراقية. وفحصُها الأفيح المشبّه بالغوطة الدمشقية حديثُ الرِّكاب، وسمرُ الليالي، قد دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المذانب، وتتخلّله الأنهار جداول، وتتزاحم فيه القرى والجنّات».

وجال بها ابن بطوطة في رحلته ببلاد الأندلس، فقال عنها: «قاعدة بلاد الأندلس وعروس مُدنها، وخارجُها لا نظيرَ له في بلاد الدّنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين والجنان والرّياضات والقصور والكُروم مُحدقة بها من كل جهة، ومن عجيب مواضعها عين الدّمع، وهو جبل فيه الرّياضات والبساتين لا مثيلَ له بسواها».

* * *

أمّا مؤلف الكتاب آلبرت فريدريك كالڤرت Albert Frederick Calvert فهو كاتب ورحّالة ومهندس تعدين بريطاني ولد في كنتيش تاون بمِدلسِكس عام 1872، وربّاه جدّه جون كالڤرت عالم الفلزّات. قام بين 1891–1892 برحلات استكشافيّة في أوستراليا وظلّ يكتب عنها ويغامر بمشاريع التّعدين فيها إلى عام 1898، حينما حلّت بالشّركات التي يعمل بها خسائر أدّت إلى إفلاسها. ومن جرّاء ذلك زال اهتمامه بأوستراليا وابتدأ حياته من جديد في إسپانيا التي ألّف عنها وعن فنونها 36 كتاباً حتى عام 1924، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا أحد أخصّها وأجملها، وقد صدر عام 1904. ومُنح رتبة فارس في سِلك الملك ألفونسو الثّاني عشر والملكة إيزابيلّا.

* * *

حول قواعد اللفظ الإسپانيّة

لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّ ثمّة خصوصيات تنفرد بها هذه اللغة عن سواها، لا يستقيم لفظ أسماء الأعلام والأماكن إلّا بها. كحرف V الذي يلفظ باءً بالقشتاليّة كقولهم: «پور فابور» por favor أو «برابو» bravo، ومع ذلك فقد فضّلتُ في بعض الأحيان الإبقاء على حرف ڤ بدلاً من (ب) لأنّ الأخير يبقى لفظاً عامياً كما يطالعك في مدريد مثلاً اسم: غران بيا Gran Via (أحد أشهر شوارع العاصمة). ولذلك كتبت: دي لا پولڤورا بدلاً من پولبورا، وأونتيڤيروس بدلاً من أونتيبيروس. والمسألة على أيّ حال تبقى سجالاً ما بين لهجات الكاستيّانو والآراغونيس أو القَطلانو، والخوض فيها هنا أمرٌ لا طائل منه.

أمّا حرف H فهو في الإسپانية يُكتب ولا يُلفظ إطلاقاً، مثل: آستا مانيانا hasta mañana. ولذلك كتبتُ: لوس إيدالغوس Los Hidalgos، أوميناخِه Homenaje، لاس إرماناس Las Hermanas. ومن الخطأ أن نكتب بالعربيّة: هرناندز، هندوراس، هاڤانا (صوابها آبانا Havana).

وأمّا حرف S فهو يلفظ في الإسپانية سيناً بالمُطلق، وحتى قد يأتي مشوباً بشين كقولك: پاشكوال Pascual أو: ريوش كاتوليكوش. ولا يُلفظ زاياً أبداً مهما أتى بعده من حروف علّة فهو لا يأبه لها شروى نقير، كقولهم في اسم البرازيل: «براسيل»، وفي اسم ملكة قشتالة إيزابيلّا: «إيسابيل». لكنني اضطررت لكتابة اسمها كما هو شائع بالعربيّة.

وغنيّ عن التّعريف أنّ حرف Z يلفظ ثاءً، كقولهم: إيبيثا Ibiza أو إرناندِث Hernandez أو ثارا Zara. ومثله حرف C إن أتى متبوعاً بحرفي العلّة e أو i كقولهم: ثِنترو centro، ثيوداد ciudad. وسماعيّاً، قد يلفظ الحرف D ذالاً في آخر الكلمة، كقولهم: مَدريذ Madrid. وقد تُلفظ الجيم اللّهويّة G غيناً، كقولهم: آراغون Aragón، پريغونتا pregunta.

وأمّا حرف X فهو من الأحرف غير النّظاميّة في اللغة الإسپانيّة، ويمثل أسطع دليل على أنّ المعايير اللّفظيّة في هذه اللغة لا تنتظمها قواعد ثابتة. فكثيراً ما يلفظ هذا الحرف كالإنكليزية في وسط الكلمة، وخاصة إن تلاه حرف ساكن غير معتلّ، مثل: expedición إكسپيديثيون. ولكن إن جاء في أول الكلمة (وهذا نادر وغير إسپاني) فهو يلفظ بسين، مثل: xenofobia سينوفوبيا. ولكنه في اللهجة القطلانيّة ولهجة الباسك يلفظ شيناً، مثل: Xavi شابي. وهذا ما نراه في بعض لهجات أميركا اللاتينيّة وأميركا الوسطى، ولو أنّ لهجة المكسيك ترمي بهذه القاعدة عرض الحائط، فتلفظ اسمها Mexico «ميخيكو» كلفظ حرف J في الإسپانية. وكذلك في الأندلسيّة: خيريث Xerez، كيخوتِه Quixote.

ومن خصائص الإسپانية حرف ñ الذي يُلفظ (ني) كقولهم: España، واللام المثنّاة ll التي تلفظ ياءً مشدّدة حتى لو أتت بمطلع الكلمة مثل: Llama ياما، وثنائية ch التي تلفظ (چ – تش)، مثل: Echeveria إچيبيريا.

أخيراً، فلفظ الحرفين G و J ما بين الجيم اللّهويّة والخاء أو الشّين، أمرٌ متشعّب ويتعذّر تفصيله هنا، ويمثّل إحدى أعسر المهارات اللفظيّة التي تواجه الطلّاب الأجانب عندما يشرعون بدراسة الإسپانيّة. هذا طبعاً ما عدا اختلاف اللفظ ما بين إسپانيا وأميركا اللاتينيّة. فالإسپان يسمّون لغتهم: كاستيّانو Castellano بينما يسمّيها أهل الأرجنتين: كاستيجانو. ويقول الإسپاني: يو سوي إسپانيول، بينما يقول الأرجنتيني: جو سوي آرخنتينو.

ومن شاء الاستزادة في أصول ضبط اللفظ الإسپاني بمنطوقه القشتالي، فخير مرجع هو:

Mariano Velázquez de la Cadena, Edward Gray, Juan L. Iribas: A New Pronouncing Dictionary of the Spanish and English Languages, D. Appleton, London, New York.1900 - 1902.

* * *

أمّا حواشي المؤلف فقد ميّزتُها عن سواها، وكل ما عداها فهو لي. وأرجو أن يكون في عملي هذا ما يفيد ويمتع.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، 13 أبريل 2013

د. أحمد إيبش

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكّن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1- بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التّركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2- **الحرف (چ) يُلفظ:** تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سَلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في التّركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التّركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż والچيكيّة ž.

3- أمّا عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كِلوقز، قَلف. ومن مظاهر التّشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلَنط Galant، كتالوج Catalogue جَندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع

أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: (ڠ) تمييزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميّز: وليكن بقلم المُسنَد الحِميَري اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللّسانيّات التِّيمانيّة» تحتمل الإقلاب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم اللّهويّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المفتقرة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسّريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما في اسم: Guillaume (غيّوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرفٌ ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گ. وفي التّركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غرچِك)، وحرف c للجيم الشّجريّة، كقولهم: geceler (غجِلار)، Avcı (آوجى)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجريّة أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غڤير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربيّة لقوا التّباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسبان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهويّة (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragón: «آراخون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التّعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) يمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتّعبير عن جميع الكلمات الأجنبيّة، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرتُجال، بلجاريا، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التّركيّة bulgur).

4- ثمّة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أو Gervais ، ونظراً لانعدام وجود الكسرة المُمالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة

والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورحّالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتّاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللّغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أريبه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وسنتّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليه، رُنيه، غارنييه، جِرڤيه. والأسماء الإسپانيّة: خوسيه، پيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مَدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسپاني Condé كوندِه، أو Enrique إنريكِه، والألماني Porsche پورشِه، أو Pritzke پريتسكِه، والهولندي Goeje خوْيِه، والپولوني Tyskie تيسكِه، والإيطالي Simone سيمونِه، أو Michele ميكيلِه.

5- نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصح بالألمانيّة: مدينة لايپتسيك وليس لايبزغ، زولنغن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، ڤِلهِلم وليس وليَم، ريخارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميرِكا وليس أمْريكا، ڤارشاڤا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس بكين. وفي البرتغاليّة الأصح لفظ: كريشتيانو، كوشتا، جوزيه، جُواو. ولكنّ ثمّة أسماءً رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربيّة مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلانيّة: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتاليّة: دون كيخوتِه)، باريز أو باريس (وصوابها بالفرنسيّة: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دى لوزينيان)، وليَم الصُّوري (غيّوم)، برج إيڤل (وصوابه: آيفِل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسيّة يصرّون على لفظ الكنى الأرمنيّة المنتهية جميعها بلاحقة: ian بلفظ فرنسي فيه غُنّة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التّركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسيّ، علماً أنّ ثمّة شيئاً في التّركيّة يسمّى: Yumuşak Ge أي الجيم الطريّة، تلفظ كمَدّة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آآچ.

6- حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينيّة: الإيطاليّة والإسپانيّة والپرتغاليّة والفرنسيّة والرّومانش والرّومانيّة، ما خلا حالة في الپرتغاليّة بآخر الكلمة مع الألف والواو فيُلفظ ياءً،

مثل: Covilhã كوڤيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أُنري، وهو بالإيطاليّة إنريكو، والإسپانيّة إنريكِه. وأيضاً ڤيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7- وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربيّة التي ترد على ألسنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظيّة مختلفة دون انتباه لأصولها العربيّة، كالاسم التُّركي ميرڤَت Mervet الذي ترنّمت به الأسماع دون إدراك أنّ أصله: مَروَة. أو اسم فتاة الشّاشة التّركيّة Tuba الذي يُكتب لدينا بالعربيّة «توبا» على أنّه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبَى.

وثمّة كنية عريقة في لبنان: جانْبَيْه، يطيب للنّاس أن يلفظوها بلكنة فرنسيّة: Jean-Béy بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتّركيّة: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نَفْس. وكذلك اسم قَبَلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتّركيّة: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلّينيّة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سُمّيت بها بلاد الشّام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أنّ حرف الشّين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأُقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتّسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة.

وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش



المؤلف، آلبرت فريدريك كالڤرت، في قصر الحمراء

غرناطة

مدينة المسلمين المغاربة

ليست مدينة غرناطة سوى إبداعٍ صرف للمسلمين المغاربة Moros، فتاريخها تاريخهم جميعاً بلا استثناء، وماضيها سجلٌّ لأمجادهم وذكرى زوال دولتهم. تلك الرُّمّانة، كما سمّاها فاتحُها، لم تُثمر وتتألّق إلّا في شمس المسلمين السّاطعة ولم تذوِ إلا بانحسارها. ثمّ إذا بها في ظل الحكم المسيحي تهوي منزلتها من عاصمة متألّقة إلى مجرّد ضاحية فقيرة، وما هي اليوم إلا نصبٌ تذكاريٌّ عظيم يشهد على سلالة تلاشت وحضارة دالت وبادت.

أمّا فيما يتعلق بتاريخ غرناطة قبل أن تصبح مركز مملكة مستقلّة، فلا حاجة بنا إلى كبير عناء في البحث، إذ أنّ أهميتها الفعليّة تعود إلى عهد نشوء سلالة بني نَصْر الحاكمة وذلك في النّصف الأول من القرن الثّالث عشر، وهو عصر انبثاق دولة الموحّدين العظيمة. ربما كان للأندلس بأكملها أن تشاطر مصير قرطبة وإشبيلية، ولكان ملوك الكاثوليك افتتحوا البلاد قبل قرنين من الزّمان، لولا أنّ شاباً يدعى ابن الأحمر أتى من أرخونا Arjona (بالعربيّة أرجونا) وعقد العزم على إنشاء مملكة لنفسه على أطلال إمبراطوريّة مجزّأة. وعقب الازدياد المطّرد لعدد أتباعه، تمكّن من السّيطرة على خاين Jaén (بالعربيّة جيان) عام 1232، وأخضع غرناطة نفسها عام 1237. وهكذا دانت له المدن الواحدة تلو الأخرى تفتح أبوابها بما فيها مالَقة والمريّة، وما كاد عام 1241 يحلّ حتى اعتُرف به حاكماً وسلطاناً على كل المنطقة الواقعة ما بين جبال سييرّا مورينا Sierra Morena وأعمدة هرقل من رُندة Ronda إلى باثا Baza (بالعربية بسطة).

كان مؤسّس السّلالة النَّصريّة هذا رجلاً عظيماً بكل ما للكلمة من معنى، امتاز بحضوره اللافت القوي وأسلوبه المُرهف اللطيف، أما شجاعته فتدرجه في مصاف الأبطال. وإلى جانب بسالته في ساحة القتال، لم يضاهه في حبّه للسّلام ملكٌ آخر. ولقد أثبت نفسه كبطل قوميّ حقيقي وكأبٍ لشعبه، إذ شجّع على الصّناعة والزّراعة، وكان راعياً – كباقي سلالته – للفنون والآداب، ومشجّعاً على الهجرة بكل ما أوتي من قوّة. كان رجلَ دولة ذا بصيرة نافذة يعي تماماً بأن دولة محدودة المساحة كدولته يتوقّف وجودها على ازدياد تعداد رعاياه بشكل غير عادي، فلذلك بذل كافّة الإغراءات للمسلمين المقيمين في الأقاليم الخاضعة لسيطرة المسيحيين لكي يستوطنوا ضمن حدود أراضيه.

وكانت غرناطة آخر أمل للمسلمين في أوروپا، فبذل كل وسيلة ممكنة ليصونها ويحميها. وقد بادر إلى التّحالف مع حكّام المغرب، وتلمسان، وتونس، وحتى بغداد البعيدة. وهذا لم يمنعه أيضاً من التّودّد إلى أهل قشتالة واستمالتهم، فعقد مفاوضات تحالف مع فرناندو الثّالث وألزم نفسه

بحضور القداديس Cortes (وهذا خارج عن المألوف بالنّسبة لمسلم) داعماً الملك في حروبه بعدّة 1500 رمح. وهذا الجزء الأخير من المساومة التي دُعي لإنجازها على وجه السّرعة ضد إخوانه في الدّين في إشبيلية بدا أمراً غير اعتيادي، لكن تبريراً لما قام به وتخفيفاً لحدّة الأمر نعزو فعله إلى أنه، أي ابن الأحمر، كان يرى في الموحّدين في إشبيلية مجرد زنادقة مارقين. وبكل الأحوال، وسواءٌ ارتضى ضميره ذلك الفعل أم لا، فإنّه قد أسهم بقدر لا بأس به في نجاح فرناندو، ورُحّب به بحرارة كفاتح لدى عودته إلى غرناطة.

والدّليل على أن المساعدة التي قدّمها لم يُنظر إليها بشكل عام على أنها طوعية من قبل أهالي إشبيلية، قد تمّت البرهنة عليه بهجرة الآلاف منهم إلى أراضيه واستقرارهم فيها.

خشي ابن الأحمر من قوّة قشتالة، وكان يعلم بأنّ الأمل الوحيد لمسلمي إسبانيا يكمن في أمن دولتهم وتماسك أركانها، وبحذر، ولئلا يُسيء لجيرانه المروَّعين، استقبل بحفاوة الثّائر والمنفي الأمير دون إنريكِه Infante Don Enrique عندما التمس هذا الأخير اللّجوء إلى غرناطة، إلا أنّه أرسله فيما بعد إلى تونس برسائل توصية إلى سُلطان تلك المنطقة. مع ذلك، فإنّ لباقته ودبلوماسيته لم يجنّباه حرباً مع ألفونسو واستمرّت متاعبه قائمة، فقد ثار ولاة وادي آش Guadix ومالَقة Málaga وقُمارِش Comares ضدّ سلطته.. وسُرعان ما ظهر عصيانٌ آخر في قشتالة، وأُجبر ألفونسو على ترك الوِلاة يقتتلون فيما بينهم.

أضحى ابن الأحمر رجلاً طاعناً في السّنّ في الثّمانين من عمره، ينتضي درعه بمَللٍ لحملة أخرى من تلك الحملات التي راحت نفسُه تعافُها. ولكنّ وقت الرّاحة قد جاء أخيراً. فعلى بعد أميال من أبواب عاصمته وقع مُصاباً وكان على رأس جيشه، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة عند الغروب على جانب الطّريق، محاطاً بمحاربيه الذين بكوه. وكانت تلك في تاريخ غرناطة ليلةً مُدْلهمّة ظلماء.

* * *

أما ابن ابن الأحمر، محمّد الثّاني، فقد خَلَفَه وكان في الثّامنة والثّلاثين من عمره في الحادي والعشرين من يناير عام 1273. وبدأ المؤرخون العرب بإطرائه بكثير من عبارات المديح كما اعتادوا مع معظم أسلافه من الحكام؛ فوُصف بأنه محاربٌ ورجلُ دولة، وأديبٌ وشاعرٌ ذو موهبة كبيرة. وخلال فترة حكمه التي دامت 29 سنة لبث في حالة حرب دائمة. فمباشرة بعد تبوّئه الحكم قام بسحق الولاة المتمرّدين في آنتيكيرا Antequera وقام بعدها بزيارة لألفونسو العاشر في إشبيلية، بهدف إبعاد الملك القشتالي عن تحالفه مع المتمرّدين المنهزمين. والواقع أنه قد نجح في ذلك، إلا أن الملكة ڤيولانتِه Violante في نهاية زيارته طلبت منه التّكرّم بمنّة لخاطرها، ولكونه فارساً حقيقياً وبحسب تقاليد ذلك الوقت لم يرَ بُدّاً من الموافقة. إلا أنه اكتشف، متأخراً جداً، بأنه خُدع بموافقته على سنة هدنة مع الوِلاة. وبغضب مكبوت، عاد إلى غرناطة وأمضى السّنة في التّخطيط لإلحاق الهزيمة الكاملة بأعدائه. ولقد تحقق له ذلك بالمعونة التي قدّمها له يوسف سلطان المغرب، بجيشه الذي يقدّر بـ 100,000 رجل نزلوا في طريف Tarifa عام 1275.

أثبت الأفارقة، كما في مناسبات سابقة في تاريخ العرب الفاتحين، أنهم حليفٌ يُحسب له أيّما حساب. فألفى محمّد نفسه وقد تورّط في حرب طويلة لا طائل منها مع قشتالة، وشعر بالخزي لرؤية الأفارقة وقد احتفظوا لأنفسهم بالجزيرة الخضراء Algeciras وطريف Tarifa ومالَقة. فاستعاد ملكيّة المدينة الأخيرة برشوة الحاكم وذلك بمبادلتها بمدينة سالوبرينيا Salobreña (شلوبينية بالعربيّة) واعتبر ذلك مكسباً شخصياً له، وخلّص نفسه أخيراً من المعضلة التي ورّطه فيها بعض الأفارقة بتحالفه مع سانشو صاحب قشتالة. وفي عام 1302 نراه مجدّداً في حرب ضد المسيحيين، مقاتلاً ثم مقتولاً على أيديهم.

كان محمّدٌ الثّالث خيرَ خَلَفٍ لأبيه، وقد عُرف بطاقته الكبيرة التي لا تنضُب. ولقد اختصر الطّريق مع الخونة حتى في تلك الأيام العصيبة. فبعد عزل السّلطان لابن نَصر حاكم وادي آش Guadix، قام هذا الأخير بتشكيل فرقة لخدمة مصالحه. ولما سمع محمّد الثّالث بذلك، استدعاه لمحاكمته وأمر بقتله أمام ناظريه. ومن مآثره المشرّفة فتحه لمدينة سَبتة Ceuta قبالة جبل طارق Gibraltar عام 1306، ومن غنائم الغزوات الكثيرة بنى مسجداً في غرناطة، طُعّم بالذّهب والفضة، واليَشب والرُّخام. ولعلّ نجاحه هذا هو ما أثار غيرة الممالك الكاثوليكية، فهوجم من كل جهة من قبل ملوك قشتالة وآراغون Aragón، وأُجبر على إبرام صُلحٍ مهين. وفي طريق عودته إلى عاصمته اعتُقل في الحَمْراء ذاتها على يد عُصبة من المتآمرين وأُجبر على التّنازل لصالح أخيه «مولاي نصر». بدأ السّلطان الجديد حكمه بعدد من النّجاحات العسكرية عام 1309 م. فلقد أجبر خايمي دي آراغون Jaime de Argón على أن يرفع الحصار عن المريّة Almería، إلا أنه بالمقابل كان عليه أن يفضّ النّزاعات في دياره والمؤامرات وحركات العصيان المحلّيّة. وأعظمها تلك التي تزعّمها ابنُ أخيه أبو الوليد.

في خضمّ هذه التّعقيدات حصلت حادثة غير متوقعة، فلقد أُصيب نَصرٌ بسكتة دماغية وتُرك ليموت. أُطلق سراح أخيه المعزول محمّد الثّالث على يد بعض رجال البلاط وأُحضر إلى غرناطة، ليجد أن مغتصب العرش قد استردّ صحّته وتاجه. لم يعش محمّدٌ سيّء الحظ طويلاً بعد هذا الخطأ الفادح، إلا أن العقوبة سرعان ما لحقت بأخيه. فأُجبر على أن يخضع لأبي الوليد، وكان من حُسن طالعه أن سُمح له بأن يتراجع إلى وادي آش Guadix، ويعلن سيادته عليها. ومع أنه كان مغتصِباً، فلقد ركب نَصر مبتعداً وعليه وقار الفلاسفة. صحيحٌ أنّه تكدّر بعض الشّيء لنصر منافسه، لكنه عندما دُعي من قبل پدرو الأول Pedro I لينضمّ إليه في هجوم على غرناطة، رفض بروح وطنية. لقد كان رجلاً شجاعاً، ولم يتبرّم من مواجهة المصير الذي حلّ بسواه.

أمّا ملك غرناطة الجديد أبو الوليد إسماعيل، فكان رجلَ حربٍ ومتعصّباً. مولعاً بالإشادة بإيمانه بالله وحده وبسيفه العادل، مبرّراً بذلك لجوءَه إلى السّلاح. نتيجةً لذلك، أباد الجيش الإسپاني الذي دنا من غرناطة، وقد كان بين القتلى الأميران دون خوان Don Juan ودون پدرو Don Pedro وهما من أبناء الملوك، وأخذ جيشه المنتصر شرقاً منتزعاً باثا Baza (بالعربيّة بسطة) ومارتوش Martos من أعداء بني جنسه.

لكن آخرين أيضاً ربطوا إيمانهم بحدّ السّيف، وعلى غرار الملك الإغريقي أغاممنون Agamemnon، استولى على غنيمة كبيرة بأسره للشّاب محمّد حاكم الجزيرة الخضراء Mohammad de Algeciras. إلا أنه بعد ثلاثة أيام من دخوله المظفّر إلى عاصمته قُتل غيلةً على أبواب الحَمْراء بحدّ خنجر رجل كان قد جرحه في السّابق. فلمّا أدرك الوزير أنّ الملكَ سيوافيه الأجلُ قريباً، ومصمّماً

على تجنب تداعيات عنيفة، استدعى وجهاء غرناطة إلى القصر، وأعلن أنّ أبا الوليد قد تعافى من جراحه. كان المرسوم الملكي، يقتضي بأن يؤدّي الحاضرون اليمين لمبايعة الأمير الابن مولاي محمّد ابن إسماعيل كخليفة للملك. وعندما تحقق له ذلك، أعلن الوزير الماكر وفاة ابن الوليد وتولّي محمّد الرّابع، وكان ذلك في غضون عام 1325.

عندما حرّر نفسه من سيطرة وصيّ على العرش غير محبوب، كشف السّلطان الشّاب عن مقدرات شخصيّة وذهنية لا تقلّ قدراً عن أسلافه. وحريّ بنا أن نعترف بأن المؤرخين العرب كانوا يجمّلون سيرة الملوك أيّما تجميل، فنادراً ما كان يوصف أحدهم بما يخالف النّموذج المثالي للفضائل. كان على محمّد الرّابع أن يقاتل حفاظاً على عرشه بقسوة ضد الإسبان من جهة والأفارقة من جهة أخرى. فكان أن استولى على جبل طارق Gibraltar ليفقده ثانية لصالح أبي الحَسَن حاكم فاس. لكن الملك الأفريقي سرعان ما طلب مساعدته للصّمود أمام المسيحيين، تجاوب محمّد بشهامة مع مناشدته، فانقضّ كالصّاعقة على معسكر الإسبان ورفع الحصار. إلا أنه لم يكافأ بشكل لائق – كما أن تهوّره في شهر أغسطس عام 1333 دعاه لأن يوبّخ حلفاءه الأفارقة لعدم قدرتهم على الاحتفاظ بتحصيناتهم، وفي غضون يوم أو اثنين، وبعد إعادة جيشه إلى الوطن، قام بنزهة إلى قمّة الصّخرة، فتبعه بعض الذين كان تعرّض لهم بتقريع، وسرعان ما لقي حتفه طعناً بخناجرهم. ولقد عُثر على جسده عارياً ومشوّهاً عند أسفل الصّخرة، ونُقل إلى مالَقة. لكن لم تجرِ أيّة محاولة لمعرفة هويّة القتلة أو معاقبتهم.

خَلَفَ محمّداً المنكوبَ أخوه يوسفُ الأول، أبو الحجّاج. ومع امتلاكه، بطبيعة الحال، للفضائل التي يبدو أنها كانت متوارثة في السّلالة النَّصرية، كان هذا الأمير استثنائياً بحماسه وتأهّبه للسّلام. آمن، كما يقول دون فرانثيسكو پي مارغال Don Francisco Pi Margall، بأنه من الأجدر أن تعالج الخطر القديم عوضاً عن الدّخول في مغامرات جديدة محفوفة بالمخاطر. وبمساعدة وزيره البارع رضوان، عدّل القوانين وطهّر إدارة القضاء. وبنى قصراً عظيماً في مالَقة، والجامع الكبير في غرناطة الذي لم يبقَ منه أيّ أثر. ومتخلّياً لأول مرّة عن سياسة السّلام، تحالف مع الأفارقة في حرب ضد قشتالة، مُني على أثرها بهزيمة ساحقة، فبادر من تلقاء نفسه إلى التّفاوض على هدنة مُدّتها عشر سنوات. وفي نهاية ذلك العهد، توفي ألفونسو Alfonso ملك قشتالة، ولقي سلطان غرناطة حتفه غيلةً مطعوناً على يد رجل مختلّ خلال أدائه الصّلاة في المسجد، وكان ذلك في عام 1354.

كان محمّد الخامس رجلاً فاضلاً ومنكودَ الحظ كأبيه. حكم لمدة أربع سنوات وحسب، عندما هوجم في قصره الخاص من قبل الموالين لأخيه من أبيه إسماعيل. وبصعوبة نجا من الموتّ فاراً إلى مجلس الحريم، متنكراً بزيّ الخدم، واستطاع التّملّص من مطارديه آخذاً طريقه نحو وادي آش Guadix. أما إسماعيل الثّاني فلم تُكلّل فترة حكمه القصيرة بالنجاح، وسرعان ما خُلع عن العرش وقُتل في عام 1360 على يد «ملك بني الأحمر» أبي سعيد. في غضون ذلك، تبنّى پِدرو الأول Pedro I في قشتالة قضيّة السّلطان العادلة واجتاح أرض غرناطة. لكن المسلم الشّهم أبى تسنّم العرش على حساب دم شعبه. فما كان من پِدرو Pedro إلا أن انسحب، لكنه خلّص محمّداً من أعدائه حيث قتل أبا سعيد على حين غرَّة عندما كان هذا الأخير يقوم بزيارة إلى إشبيلية.

أُعيد محمّدٌ إلى عرشه، وكردّ للجميل والمساعدات التي قدمها له پِدرو Pedro، زحف لدعمه بجيش غرناطي ضدّ إنريكِه دي تراستامارا Enrique de Trastámara. جعلت مأساة مونتييل Montiel

استمرارية النّزاع عديمة الجدوى، وقرّر السّلطان العربي على إثر ذلك تكريس الوقت المتبقّي من حكمه لتحسين وضع رعيّته. فأسّس جمعياتٍ خيرية وملاجئَ ورفع غرناطة إلى ذُروة العلياء والازدهار. أصبحت المدينة، برأي الكاتب المعاصر ابن الخطيب عاصمة للشّرق، ومركزاً تجارياً ضخماً، ووطناً عاماً لكل القوميات. وفي ظلّ حكم محمّد الخامس، يمكن اعتبار المملكة بأنها قد وصلت إلى أقصى مجدها، ومنذ تلك المرحلة وحتى انحطاطها نُحصي قرناً من الزّمان.

كان يوسف الثّاني، الذي خَلَف أباه عام 1391، يكره الحرب لدرجة جعلت رعاياه يشتبهون بأنه ربما كان يتعاطف مع المسيحيين. فثار ابنه ضدّه، وكان الملك الهادئ ليفضّل التّنازل عن العرش أكثر من امتشاق السّيف. إلا أن تحذيرات الموفد المغربي لأخذ موقف أكثر رجولة، جعلته يترأس جيشاً (انحاز ضدّه فيما بعد) وينطلق مخرّباً مُرسية Murcia بقوة النّار والسّيف. فما كان من دون مارتين دي لا باربودا Don Martín de la Barbuda، سيد كالاترابا Calatrava الكيخوتي Quixotic إلا أن شنّ حملة وحشية ضدّ هذا السّلطان المحبّ للسّلام هازماً إياه، كما هو متوقّع. ولقد تنكّر له أيضاً وبشكل لافت للنظر إنريكِه Enrique الثّالث، ملك قشتالة.

أما ابن يوسف الشّاب ووريثه، محمّد السّابع فكان أميراً ذا طبيعة مختلفة جداَ. اصطحب معه 25 فارساً فقط وتوغّل في طليطلة وتفاوض في قلب قشتالة مع إنريكِه Enrique الثّالث، لكن الهدنة المُبرمة سُرعان ما خُرقت وأشعل محمّدٌ الحرب بسرعة في طول الأندلس وعرضها. ولبثت الحرب تتراوح بين نتائج متفاوتة، وتبعتها كما كان معتاداً في تلك الأيام سلسلةٌ من الغزوات، لم يبذل فيها أيٌّ من الطّرفين جهداً حاسماً للاستيلاء على عاصمة الآخر أو لحماية مناطق فتوحاته.

ولدى شعوره بقرب نهايته، فكّر السّلطان المولع بالحرب بأخيه الأكبر يوسف، الذي كان سَجَنَه في قلعة سالوبرينيا Salobreña (شلوبينية بالعربيّة). وخوفاً من إمكانية تسبّب الأسير المتاعب لابنه، فقد أرسل محمّد رسولاً لتنفيذ حكم الإعدام فيه. كان يوسفُ يلعب الشّطرنج مع حاكم القلعة عندما وصل الأمرُ القاتل. فطلب السّماح له بإنهاء اللعب ومغادرة المبعوث، وقبل أن يقوم بالحركة الأخيرة، وصلت الأخبار بموت محمّد وإعلانه كسُلطان لغرناطة. وأبدى يوسف هدوءاً وثباتاً لدى قبوله تولّي العرش، كذاك الذي أبداه عند مثوله بين أشداق الموت.

مع طبعه السّلمي الذي جُبل عليه كأبيه، كان على يوسف الثّالث أن يصدّ أشدّ الاعتداءات التي شُنّت على مملكته المتهالكة. وفي زمن حكمه وقع الحصار الشّهير للأنتكيرة Antequera (أو الأنتقير أيضاً بالعربيّة) على يد القشتاليين، أسّس على أثره النّاجون ضاحية آنتيكيرويلا Antequeruela المجاورة لغرناطة. نَعِمَ يوسف بالسّلام أخيراً، وحظي بحليف قيّم جرّاء قصّة غريبة من العداء الأخوي.

وذلك أنّ أهالي جبل طارق Gibraltar ثاروا بعد مدّة في وجه غرناطة وأعلنوا خضوعهم لفاس، فأرسل سُلطان تلك المملكة أخاه المكروه أبا سعيد، ليستولي على المدينة وعامله كما فعل النّبي داود مع أوريا، تاركاً إيّاه طُعمةً لسطوة العدو. إلا أنّ يوسفَ، عامل الأمير الأسير بكرم، وأظهر له الرّسالة التي استلمها على الفور من سُلطان فاس، طالباً فيها قتله بالسُّم. وبتعطّش كبير للانتقام حصل أبو سعيد على أسلحة وجنود من غرناطة، واجتاح المغرب، خالعاً أخاه الغادر عن العرش. ومنذ ذلك الوقت أصبح الحليفَ المؤكّد لسُلطان غرناطة، التي لن تتجرّأ قشتالة وآراغون Aragón بعد الآن على أن تقلق راحتها. وكانت وفاة يوسف الثّالث في عام 1417.

يمسي تاريخ غرناطة من الآن فصاعداً زاخراً بالثّورات المتتالية والاضطرابات. فقد سيق محمّد الثّامن إلى المنفى على يد سَميٍّ له أضحى يُعرف بمحمّد التّاسع. ثم أُعيد إلى الحكم بثورة مناهضة. وداهم الجيش القشتالي سهلَ غرناطة (ڤيغا) Vega وصولاً إلى أسوار العاصمة. وكادت غرناطة نفسها تسقط لو لم يخفّ كلّ من خوان Juan الثّاني والكونستابل رفيع الشّأن ألڤارو دي لونا Alvaro de Luna إلى قشتالة نتيجة الفوضى التي نجمت عن التّداعيات الأخيرة. لقد هزّت الزّلازلُ المملكة المنشغلة، وحسبُنا أن نفترض بأنّ محمّداً التّاسع لم يتولَّهُ النّدمُ عندما تخلّى عن عرشه وفرّ إلى مالَقة.

تولّى السّلطان الجديد، يوسف الرّابع، عرشَه الذي أُلحق بقشتالة كمقاطعة تابعة لها، مُرغَماً على التماس دعمها له بتنازلات مُخزية. ولقد استبقَ بموته بعد ستة عشر شهراً من تسلُّمه السّلطةَ اغتيالاً حتميّاً كان سيطاله. وللمرّة الثّالثة، نودي بمحمّد الثّامن والياً على غرناطة عام 1432. وما كان من الأعمال العدائية مع قشتالة إلا أن تجدّدت في الحال. لكنّ الحظّ هذه المرّة حالف العرب الذين هزموا مناوئيهم في إيّورا Íllora، وأرشذونة Archidona، وكاستريل Castril. غير أنّ نجم محمّد الثّامن الصّاعد سُرعان ما خبا. فقد اصطدم مع أسرة ابن سرّاج Abencerrages القوية، وحُرم من دعمها، وأخيراً طُرد من مملكته من قبل أحد أقاربه ويدعى ابن عُثمان Aben Osmin. انتصر الغاصب على المسيحيين مستولياً على عدّة معاقل، لكنّ جيشه عانى في النّهاية من هزيمة نكراء في ألپورتشونِس Alporchones. وأفقدت تلك الحادثة ابن عثمان عقله، فبدأ يتصرّف من الآن فصاعداً كطاغية على الطّراز الرّوماني القديم.

إثر ذلك، طفقت الثّورات تتكرّر في غرناطة على طريقة الولايات الأميركية الجنوبية، فأكمل الغاصب حكمه الوجيز وأُجبر فيما بعد على التّخلّي عن منصبه لسعيد ابن عم محمّد الثّامن. كانت غرناطة تنادي بالسّلام، ولقد دفعت الجزية لإنريكِه Enrique الرّابع في قشتالة، وأُطلق جميع الأسرى المسيحيين – بلا جدوى، إذ أنّ الصّراعات المتقطّعة استمرّت كما كانت. وفُقدت خاين Jaén (جيان بالعربيّة) وأرشذونة Archidona وجبل طارق Gibraltar على الرّغم من بسالة الأمير مولاي الحَسَن، وقائد القوات إبراهيم، الذي لمّا عاين الكسرة اندفع على صهوة جواده في أعماق الوهاد لا يلوي على شيء. وأخيراً، استطاع ابن إسماعيل المتألّم على بلده الممزّق أن يُحرز السّلام إثر مقابلة شخصية عقدها مع إنريكِه Enrique، خارج أسوار غرناطة. كرّس على أثرها ما تبقّى من فترة حكمه لتشجيع التّجارة، والصّناعة، والزّراعة في مقاطعته، غير أنّه لم يجنِ ثمار ذلك ولا حتى أولئك الذين تلوه، ذلك أنه توفي في المريّة Almería في السّنة 1465. ومع وفاته، راح ناقوس الخطر يدقّ مؤذناً بنهاية عصر الإمبراطورية الإسلامية في أوروبا.

استغرقت فترات حكم علي أبي الحَسَن، محمّد الحادي عشر (أبو عَبديل Boabdil) ومحمّد الثّاني عشر الشّهير بالزَّغَل (أي الجَسور) السّنوات الممتدة بين 1465–1492 تمّ خلالها سقوط المملكة وزوالها. ولقد ملأ تاريخ هذه الحوادث كتباً ضخمة كثيرة أصبحت مألوفة لدى القراء الإنكليز من خلال أعمال بريسكوت Prescott، وأما عُجالتنا المُختصرة هذه (من جهة أخرى) فلا يمكن أن تتمّ بغير موجزٍ عن الفصل الأخير لقصة غرناطة.

* * *

كانت شخصية مولاي علي أبي الحَسَن، على عكس أسلافه، مُمعنة في الغطرسة. فقد كان عديم الرّحمة، مولعاً بالحرب، وكارها للمسيحيين متعصّباً ضدّهم ومسلماً غيوراً. أحرز في السّنوات الأولى من حكمه بعض الانتصارات على إنريكه Enrique الرّابع الضّعيف، وأثبت قوّةً مكّنته من قمع ثورة في مالَقة. لكنه أضاع فرصة مهاجمة ملكي إسپانيا الجديدين فرناندو وإيزابيلّا Fernando y Isabel عندما كانا في حرب مع المناهضين لهما في لا بِلترانيخا «La Beltraneja» ولم يقم بأيّة محاولة إقامة حلف مع أعدائهما الكُثر. لم تكن الحنكة في فنّ إدارة شؤون الدّولة من خصال سلالة بني الأحمر.

وفي عام 1476، حاول أبو الحَسَن التماس تجديد للحِلف مع ملكة قشتالة، ولكن عندما جعل فرناندو ملك آراغون Fernando de Aragón دفع الجزية المتّفق عليها من قِبل ابن إسماعيل شرطاً للمعاهدة، ثارت فيه حميّةُ المسلمين العرب وإباؤهم فقال للرُّسُل الإسپان: «ارجعوا إلى ملوككم، وقولوا لهم إنّ السّلاطين الذين كانوا يؤدّون الجزية للنّصارى قد ماتوا، أمّا نحن فليس لدينا لأعدائنا إلا أسنّة الرِّماح». ختمت هذه الكلمات مصير المسلمين المغاربة Moros في إسپانيا، على الرّغم من أنّ الحاكم الذي نطق بها ظنّ أنها مجرّد دعوة إلى الاشتباك بحرب حدودية كتلك التي كانت تجري من وقت لآخر.

كان المشهد الأول في الدّراما الطّويلة المتداركة هو الاستيلاء على الزّهراء Zahara على يد جماعات من غرناطة، ففي عام 1481 وبتحريض من غارات مركيز قادس Cádiz الوحشية، فوجئت الحامية المسيحية في خضمّ عاصفة هوجاء فلجأت إلى السّيف، أما باقي السّكان فقد سيقوا أسرى إلى غرناطة. عاد أبو الحَسَن، بكل فخر وكبرياء، إلى عاصمته حيث استُقبل بابتهاجات شعبية، لكنّ العربَ الحُكماء هزّوا رؤوسهم وتنبّأوا بأن أطلال الزّهراء سوف تتداعى قريباً على رؤوسهم.

لم يتوانَ فرسان الأندلس الغاضبون عن الانتقام. فبعد شهرين من الاستيلاء على الزّهراء Zahara، تمّ الاستيلاء بهجوم من قبل قوات مركيز قادِس Cádiz على المعقل القوي والأهم في غرناطة وهو الحَمْراء. ونشرت الأخبار رُعباً في غرناطة، فانطلق أبو الحَسَن في الحال على رأس 53,000 رجلاً طوّقوا المكان. أما فرناندو Fernando الملك الكاثوليكي، الذي خلُص إلى فكرة القضاء على مملكة غرناطة بأكملها، فقد أسرع لنجدتها، لكنه ما أن وصل إلى لوثينا Lucena (ليسانة بالعربيّة) حتى شاعت الأنباء عن رفع الحصار عنها من قبل خصم المركيز الوراثي، دوق مدينا سيدونيا (شذونة) Medina Sidonia. عاد أبو الحَسَن للهجوم بعد عدّة أسابيع، واستأنف فرناندو Fernando تقدّمه الذي تراجع العرب أمامه. فما كان من الملوك الكاثوليك إلا أن دخلوا إلى الحَمْراء في 14 مايو 1482.

تمّ اتخاذ استعدادات كبيرة في كل مكان في قشتالة وآراغون لمتابعة الحرب، لكن الجيش الذي حُشد فعلياً أمام لوجا Loja (لوشة بالعربيّة) في 1 يونيو ويقارب عديده 16,000 رجلاً، كان بعيداً عن تطلّعات فرناندو وتوقعاته. وتمّت حماية البلدة على يد أحد أشجع قوّاد العرب المسلمين هو علي العطّار، الذي ردّ هجوم المسيحيين ملحقاً في صفوفهم خسارةً فادحة. واستطاع الملك أن ينجو بنفسه بصعوبة، وقد أُجبر على قرع الطّبول داعياً إلى الانسحاب. واكتسح أبو الحَسَن البلاد حتى ريو فريو Rio Frio (النّهر البارد).

لو أنّ نجاحاً كهذا أُحسن استغلاله لكانت كفّة الميزان انقلبت لصالح العرب، لكن الخيانة كانت في غرناطة دوماً تتبع أعقاب النّصر. فقبل عدّة سنوات، أُضفيت الأسيرة المسيحية الجميلة

دونيا إيسابيل دي سوليس Doña Isabel de Solis ابنة حاكم مارتوش Martos إلى حريم السّلطان، تحت اسم ثُريّا Zoraya ومع مرور الوقت ولدت له صبياً هو أبو عبد الله، مرتفعة بذلك إلى منزلة السّلطانة المفضّلة. ثم اعترتها الغيرة كما قيل، من جارية يونانية أو ربما بسبب عداوة من قبل السّلطانة الأولى عائشة Ayesha، فأثارت مؤامرة ضد سيّدها العجوز، سُجنت على أثرها مع ابنها في الحَمْراء. وهناك رسما خطّة للهرب، محرّضين العامّة لمصلحتهما، وأجبرا أبا الحَسَن على اللّجوء إلى مالَقة.

أما أبو عبد الله المعروف جيداً باسم «أبو عَبديل» Boabdil أو «إل چيكو» el Chico أي «الصّغير»، فحكم نيابةً عنه، لكنّ وادي آش Guadix وباثا Baza (بسطة بالعربيّة)، ومدناً شرقية أخرى بقيت وفية لولائها القديم. هذه الشّقاقات بين العرب، على الرّغم من أنها أعانت الإسپان بشكل أساسي، ساهمت من جهة أخرى وبطريقة غير مباشرة في إلحاق أخطر الكوارث بحملتهم. ذلك أنّ حملةً ضد مالَقة بقيادة مركيز قادس Cádiz وحاكم سانتياغو Santiago الكبير هوجمت بينما كانت تسلك طريقها بحذر عبر الشّرقيّة Ajarquía من قِبل فرسان الأسد العجوز أبي الحَسَن، ومُزّقت إرَباً. وقُتل من الإسپان في ميدان المعركة 800 رجل. لكنّ «أبو عَبديل» Boabdil، الحريص على تدعيم أُسس المجد الذي أحرزه والده، حَمَلَ خارج غرناطة بـ 9,700 رجل، وشنّ حرباً على العدو تحت قيادة كونت كابرا Cabra (قبرة بالعربيّة)، قرب لوثينا Lucena (ليسانة بالعربيّة)، هُزم على أثرها العرب بشكل تام، أمّا قائدهم الشّجاع علي العطّار فقد قُتل، وأمّا «أبو عَبديل» نفسه فقد أسره جندي يُسمّى مارتين أورتادو Martín Hurtado.

ولو أن هذا الأمير قليل الحظ تُرك بين يدي أعدائه، لأخذت الحرب مجرى مختلفاً، لكن والدته وأتباعه قاموا فوراً بالمقايضة لإطلاق سراحه. وعُقدت على الأثر معاهدة مُخزية تقضي بمنح «أبو عَبديل» Boabdil سنتي هدنة تشمل جميع الأماكن التي تخضع لسُلطته، وبالمقابل قُيّد «أبو عَبديل» ليس فقط بدفع الجزية المقدّرة بمبلغ 12,000 دوقيّة ذهبية، بل بمدّ القوّات الإسپانية المارّة في الأراضي الخاضعة لسيطرته بالمؤن لمواجهة والده. وهكذا قايض شرفه مقابل حرّيته. عاد السّلطان البائس إلى عاصمته ليجد الملك العجوز قد استأثر بالحَمْراء، فغمر الصّدام بين الحزبين شوارع غرناطة بالدّماء. ثم أقام الفقهاء alfakis أخيراً هدنة، وما كان أمام «أبو عَبديل» إلا أن يُجبَر على التّراجع إلى المريّة Almería التي خضعت له كعاصمة ومقرّ إقامة.

في السّنوات الأربع القادمة، أحجم الملوك الكاثوليك عن أيّة حملة عسكرية مهمّة، مكتفين بتخريب المدينة الممزّقة وخرق حدودها بغزوات مستمرّة وحملات نهب وسلب. في هذه الأثناء، ظهر رجل قويّ إلى السّاحة يتمثل في شخص أخي أبي الحَسَن، وهو عبد الله الزَّغَل Abdullah Az-Zaghal، الذي قرّر وضع حدّ للانقسامات التي كانت تجلب الخراب لمدينته أكثر مما تدلّ على بسالة الإسپان. فاندفع هذا الأمير نحو المريّة Almería وقتل حاكمها، وأخذ ثُريّا Zoraya سجينة، لكنه توانى للأسف عن تشديد الحراسة على «أبو عَبديل»، الذي فرّ إلى قُرطبة واضعاً نفسه تحت حماية فرناندو Fernando.

سُرعان ما أصبح أبو الحَسَن بعد فترة وجيزة مسنّاً ومُرهقاً، فتنازل لمصلحة أخيه المولع بالحرب، وتوفي في موندوجار Mondújar. قوّت هذه الحادثة من شكيمة «أبو عَبديل» فطالب بالعرش المُتداعي، ودخل في اتفاق مع عمّه الذي بموجبه يحكم الطّرفان في غرناطة، الأول في البيازين Albaicín والآخر في الحَمْراء. ومتلهفاً لاسترداد سمعته، هاجم الملك الجديد العائد إلى

عرشه المسيحيين بالقرب من لوجا Loja (لوشة بالعربيّة) بجيوش ضئيلة فهُزم وأجبر على الاعتصام في قلعة لوجا Alcazar de Loja، التي لم يُسمح له بالخروج منها إلا لتجديد المعاهدة المخزية التي عقدها في قرطبة.

لم يكن مستعدّاً للتّنازل عن العرش لمنافسه، وفي طريق عودته إلى غرناطة فاجأ القصبة وحاصرها. ثم حدثت إحدى أكثر الاصطدامات تهوّراً سجّلها تاريخ المدينة بين أشياع السّلاطين المُتنازعين. وأخيراً تمّ تجنّب إراقة دماء جديدة بتدخّل من سفراء أرسلهم فرناندو Fernando. وبدت التّسوية الثّنائية القديمة وكأنها قد استؤنفت بشكل مؤقت. أثناء ذلك، استحوذ فرناندو وإيزابيلّا Fernando y Isabel مرّة أخرى على الميدان، وفي عام 1487 حاصرا ڤيليث مالقة Velez-Málaga واستوليا عليها وعلى مدينة مالَقة المهمّة، على الرّغم من مساعي وجهود الزَّغَل لتحرير المكانين.

في ذيّاك الحين، تنازل السّلطان الشّجاع عن عاصمته لابن أخيه، وأقام مراكزه الرّئيسية في المريّة Almería. ونجح طوال سنة 1488 بصدّ غزو على مقاطعته، ولكنه في السّنة التّالية، وبعد سقوط مدينة باثا Baza (بسطة) القوية، أذعن، كما عبّر هو بنفسه، أمام إرادة الله، وتنازل عن كل الأماكن الواقعة تحت سيطرته، بما في ذلك المريّة Almería ووادي آش Guadix إلى الملوك الكاثوليك. أما محمّد الثّالث عشر فقد انسحب، كما يروي المؤرخون المسلمون المغاربة Moros، إلى الجزائر حيث مات بعد عدّة سنوات في فقر وظروف غامضة.

لم يبق آنذاك، من جميع أقاليم العرب في أوروپا قاطبةً، إلا مدينة غرناطة الوحيدة، التي أصبح محمّدٌ الثّاني عشر، أبو عبد الله الصّغير Boabdil أخيراً ملكها بلا منازع. ولقد أصدر قراراً جريئاً ببيع تاجه الذي استحقّه عن جدارة بأغلى ثمن ممكن، ومن غرناطة أغار على آلِندين Alhendín وعلى مارتشينا Marchena مدمّراً البلاد الخاضعة للمسيحيين. فما كان من فرناندو وإيزابيلّا إلا أن طالبا بتسليم المدينة تقيّداً بالمعاهدة المزعومة، فأجاب بكل صدق بأنّ إباءه وغضب أتباعه يمنعانه من ذلك. وبدأ عدد سكان غرناطة بالتّزايد بسبب اللاجئين الوافدين إليها من جميع أجزاء المملكة ليصل إلى ثلاثة أضعاف حجمها الطّبيعي. فأدرك الملك الإسپاني أن الطّريقة المثلى لتقليل عددها هو بحصارها.

وعلى رأس 20,000 رجل، بما فيهم بعض أفضل فرسان أوروپا، دخل سهل غرناطة (الڤيغا) Vega وبنى مدينة سانتا فيه Santa Fé، عند بوّابات المدينة المُحاصَرة. لقد أدّى هذا الاحتشاد الطّويل الأمد للكفرة في عقر دار العرب إلى غمرهم بكآبة كبيرة. ولم يبق أمام «أبو عَبديل» البائس أيُّ بريق أمل على الإطلاق، فلقد رزحت المدينة تحت نير المجاعة، كما أعاق الأسطول الإسپاني كل أمل بوصول المؤن من أفريقيا إلى مدينةٍ ما برح أهلها البائسون يطلبون المساعدة. أمّا المفاوضات من أجل معاهدة الاستسلام فلم يدخلها السّلطان إلا بتلكّؤ شديد في شهر أكتوبر من عام 1491. كان يريدها أن تُدار بسرّية تامة خشيةً من العامّة. وبالفعل، ففي اللحظة الأخيرة وبخطر يتهدّد حياته، توسّل «أبو عَبديل» (أبو عبد الله الصّغير) إلى فِرناندو ليعجّل دخوله إلى المدينة.

وفقاً لذلك، وفي 2 يناير عام 1492، حضر الملك العربي مع 50 من الفرسان ليسلّم المفاتيح إلى الملوك الكاثوليك على ضفاف نهر خِنيل Genil (شنيل بالعربيّة) راحلاً إلى المقاطعة التي خُصّصت له من قبل الظّافرين في ألپوجارّاس الصّخرية Alpujarras (البشرات بالعربيّة). هذا وإنّ حكاية وقوفه ليرنو للمرّة الأخيرة إلى مملكته السّابقة وتقريع والدته له مشهورة جداً. ولا نعلم فيما إذا لمحت عيناه وميض الصّليب الفضّي الكبير الذي رفعه فوق الحَمْراء الكاردينال مِندوثا Mendoza

إشارةً للإسبان بأن احتلال غرناطة قد تمّ، وبأن غلبة الإسلام على إسبانيا قد ولّت ومضت إلى الأبد.

* * *

استمرّ حكم المسلمين 781 سنة، تنقص ستين سنة فقط عن مدّة الفتح النّورماني لإنكلترا. وجديرٌ بالملاحظة أنّ سلطنة غرناطة قد صمدت وبقيت حتى بعد الانكسار الفعلي لإمبراطورية المسلمين بأكثر من قرنين. وعندما نأخذ بعين الاعتبار، مساحتها المحدودة، وموقعها المنعزل، وقوّة وعداء الدّول المجاورة، والهجمات التي كانت تخضع لها باستمرار، لا يمكننا إلا أن نشعر بالإعجاب الشّديد لشجاعة حكّامها وذكائهم وصلابة شعبها. ولو لم يكُ البلاط مسرحاً لنزاعات تنافسية، ولو لم تكن هذه النّزاعات قد جرّدت سيوفهم ضدّ بعضهم، لفاقت سلطنة غرناطة جيش إسبانيا العسكري ونزعته الوطنية، ولبقيت إلى يومنا هذا كتُركية أخرى في الغرب. ذلك أن رُوح طارق، وعبد الرّحمن أو المنصور لم تمت فيهم بشكل كامل، ولا حتى لدى ذلك الملك الشّجاع سيّء الطّالع الذي يعزو له المؤرخون سقوط المملكة، ويتّهمونه – على نحو مُستهجن حقاً – بالتّخنّث والضّعف.

كان مسلمو غرناطة يعرفون كيف يخوضون حرباً خاسرة، حتى لو كان ذلك ينطوي على رهان غير مضمون، وكانوا عندما يعدمون الحيلة للنّصر ينافحون من أجل كسب شرفهم. لقد أثبتوا أنفسهم بأنهم جديرون بأسلافهم، وأمّا أروع صرح يدلّ على هيمنة المسلمين على إسبانيا وأكثرها بهاءً وآخرها زمنياً، فكان دونما ريب غرناطة النّبيلة الشّامخة.

قصر الحَمْراء

من نافل القول إنّ قصر الحَمْراء بالنسبة لغرناطة يعادل بالنّسبة لأثينا معبد الأكروپوليس Acropolis، ولا ريب أنه أعظم تذكار حيّ قدّمه المسلمون لأوروپا. وهو ينتمي إلى آخر حقبة من الفن الإسپاني العربي، وذلك عندما بدأت بذرة أفكار المسلمين وثقافتهم تضرب جذورها عميقاً في التّربة وتبتكر أسلوباً يمكن تسميته بالأندلسي أكثر من العربي. وإذا كان المسلمون قد تركوا بصمة عميقة في الفكر والفن الإسپاني، فهذا لا يعني أنهم قد خرجوا عموماً من تأثير جيرانهم المسيحيين. فخلال القرنين الأخيرين من احتلالهم تراخى التّشدّد الصّارم لعقيدتهم بشكل كبير، وبالأخصّ فيما يتعلق بالفن، الذي هو دائماً انعكاسٌ لعادات النّاس وروحهم. لم تترك موجة عصر النّهضة الإمبراطورية العربية المنكمشة دون أن تؤثر فيها، وبينما لم يتردّد الملوك القشتاليون في توظيف الحرفيين المسلمين في بناء كاتدرائياتهم، فإنّ سلاطين غرناطة كذلك لم يهملوا دور الفنانين المسيحيين في تزيين قصورهم.

تبقى «الحَمْراء» صرحاً إسلامياً بحتاً، لكنها ترمز أيضاً إلى مرحلة مؤسّساتية وثقافية متميّزة وفريدة بالنسبة لوطن وعهد محدّدين. والواقع أنّ المسلمين لم يصلوا ولا في أي مكان آخر إلى مثل هذه الذّروة السّامقة من التّفكير والرِّفعة. إنّ الحَمْراء تقف كأسمى ذروة تبلغها بفنّها وحضارتها.

لن تُشيّد أبداً حمراءُ جديدة ولا پارثينون Parthenon جديد ولا أهرامات جديدة، لأنّ تلك الصّروح العظيمة كانت تعابيرَ وَسَمتْ أفكاراً وطموحاتٍ خاصّة بمجتمعات آلت منذ زمن بعيد إلى الزّوال. وهكذا فإن «قصر الحَمْراء» في غرناطة ليس مهمّاً لمجرّد أنه صرح إسلامي تُرك منعزلاً في الغرب البعيد في أوروپا، بل كأثرٍ حيّ باقٍ لشعب وحضارة زالا منذ زمن طويل. وهناك مسحة من الحزن ترتبط به، تنبعث من ذكرى إحباطٍ عنيف نال ذلك الشّعب ومهمّة لم يتمّ إنجازها، مفعمة جداً كما هو واضح بالنّور والجمال للعالمين المسيحي والإسلامي على حدٍّ سواء.

ينبثق عن سلسلة جبال السّييرّا نيڤادا رعنٌ صخري يشرف على غرناطة من جهتها الجنوبية الشّرقية، يتفرّع عنه واديان ضيّقان بداخل ثلاث ربوات. وقد توّج أقصى الشّرق منه بجنّة العريف Generalife، وأقصى الغرب بالحصون القديمة المعروفة بتورّس بِرميخاس Torres Bermejas أو الأبراج القرمزيّة Vermilion Towers. والتلّ الواقع بين الاثنين – شبّه فورد Ford شكله بحقّ بپيانو ضخم – أُقيمت عليه المباني المختلفة التي شكلت بمجملها الحَمْراء. هنا ظهرت مستوطنات في أيام السّلتيين Celtiberian الغابرة، ومدينة إليبيريس Illiberis أو إلبيرة Elvira كانت تقف هنا، وربما امتدّت إلى أبراج التّورّس بِرميخاس Torres Bermejas.

وعندما أتى العرب شيّدوا حصن القصبة Al Cazaba – على رأس تلّة الحَمْراء مطلاً على الأبراج القرمزيّة Vermilion Towers. ولهذا أطلقوا اسم «الحَمْراء» كما يعتقد ريانيو Riaño، لتمييزها عن القصبة Alcazaba في حي البيازين Albaicín، أو ربما لتمييزها عن فوضى تداخل بعض المباني الحديثة مع القديمة. كان الباني حسب ما يذكر ابن الخطيب زاوي بن زيري Sawar Alcaysi الذي

عاش في النّصف الثّاني من القرن التّاسع، بالرّغم من أن كونتريراس Contreras يقول بأنه كان يُعرف ببرج ابن جعفر Ibn Jaffir، ويعتقد فورد بأنّ حبوس ابن ماكسن Makesen هو المؤسّس. في كل الأحوال، يعود تاريخ البناء إلى الفترة الأقدم للفتح العربي، وأقام بنو الأحمر هنا، مسيطرين على غرناطة كمدينة صغيرة محاطة بالأسوار ومحميّة بقلعة.

يصف ابن الخطيب قلعة غرناطة على هذا النّحو: «الجزء الجنوبي من المدينة تشغله ضاحية الحَمْراء أو مدينة الحَمْراء، قصر السّلطنة، الذي يتوّجها ببريجاته التّزيينية وأبراجه الشّامخة، معاقله (حصونه) القوية، والقصر Al Cazar الرّائع، وصُروح فخمة أخرى تفتن العين والرّوح بروعتها. هناك أيضاً وفرة في المياه التي تفيض في سيول من الخزّانات، مشكّلة فوق المنحدرات جداولَ وشلّالاتٍ صغيرة يُسَمع صوتُ خريرها الرّنّان من بعيد. وعند أسفل الأسوار هناك حدائق فسيحة هي موئل السّلطان. والبساتين المورقة، بخُضرتها الكثيفة تغطي الشّرفة البيضاء حتى تومض كالنّجوم. باختصار، لا توجد بقعة حول محيط الأسوار إلا وقد زرعت بالحدائق وبساتين الفاكهة».

لم يتغيّر المشهد كثيراً منذ أن دوّن وصفه المؤرّخ العربي. فما زال خرير الجداول يُسمع ويجري أسفل منحدرات تلّ الحَمْراء، والعنادل تشدو في غابات الدّردار الكثيفة.

بالنسبة للقصبة Alcazaba، فعلى اعتبارها القسم الأقدم في حصن القلعة، ينبغي أن تُدرس أولاً. يُدخل إليها عبر البرج وبيت السّلاح – من خلال قنطرة على شكل حدوة من القرميد الأحمر مع زلّيج azulejos رائع، وهو قرميد مزجّج. وإلى اليسار هناك برج أوميناخِه Homenaje (العرفان) الذي ترك الزّمن والحرب بصماته عليه. وهو يحتوي (وهذا أمر جدير بالملاحظة) على مذبح نذري روماني، طُوّق بإحكام من قبل البنّائين العرب في المبنى، ويحتوي على هذه الكتابة :«المعترف بالجميل ڤاليريوس Valerius إلى زوجته المتسامحة كورنيليا Cornelia».

وعلى الطّرف المقابل للقصبة Al Cazaba يوجد تورّه دي لا ڤيلا (برج الحراسة الليلية) Torre de la Vela، أو برج السّاعة Tower. ويقع في طابقين، يتصل بعضهما بالآخر بدرج مظلم وضيق، مع فتحات لحلقات في الجدار. وقد عُلّق في هذا البرج جرسٌ مشهور، ليُسمع، كما قيل، في لوجا Loja (لوشة بالعربيّة) على بعد ثلاثين ميلاً. ويُدقّ في الذّكرى السّنوية لفتح غرناطة، وفي هذا اليوم يقتضي العُرف الذي تمليه اعتقادات محلّية أن تقوم الآنسات التّوّاقات إلى الزّواج إلى ضربه بكل ما أوتين من قوة. وعلى قمّة هذا البرج هناك الصّليب الذي ثبّته للمرة الأولى الكاردينال مِندوثا Cardinal Mendoza. والمنظر من الشّرفة لجبال السّييرّا نيڤادا المكسوّة بالثّلج، والسّهل الخصب (الڤيغا) Vega، والمدن ذوات الجدران البيضاء، والقرى، فسيح بقدر ما هو جميل. وعند أسفل التّورّه دي لا ڤيلا Torre de la Vela يمتدّ بيت الأسلحة، محمياً ببرجين، ويُلقب الآن ببرج دي لوس إيدالغوس (النّبلاء) de los Hidalgos وبرج دي لا پولڤورا (البارود) de la Polvora وكان يُعرف سابقاً بالپانياغوا Paniagua وكريستوبال دِل سالتو Cristóbal del Salto – وهي أسماء توحي بأساطير قد آلت إلى النّسيان.

هناك وثيقة قديمة في سيمانكاس Simancas تذكر من الأبراج التي تربط القصبة Al Cazaba مع باقي الحصن، برج أدارغيرو Torre del Adarguero» البرج الذي سكنه خادم الدّكتور أورتيث «Doctor Ortiz، وبرج ألكيثا Torre de Alquiza، وبرج أونتيڤيروس Torre de Hontiveros (والآن يدعى برج الدّجاج Torre de las Gallinas)، وبرج وغرفة ماتشوكا Machuca. كما يوجد من هذه البقايا برج آخر، مشار إليه باسم: Torre de la Tahona، لكن لم يبق له أثر.

لقد انفصلت القصبة، بحسب معظم الدّراسات الحالية، عن موقع القصر بوادٍ صغير مُنحدر، حيث بُنيت بعد الفتح أحواضٌ، بأمر من كونت تِنديّا Conde de Tendilla وأنشئت فوقها ساحة الأحواض Plaza de los Algibes الحالية. يبدو أن هذه الأعمال استلزمت تدمير جدار امتدّ من التّورّهِ دي لاس غاييّناس (برج الدّجاج) Torre de las Gallinas في الشّمال إلى پويرتا دِل بينو (بوّابة النّبيذ) Puerta del Vino الجميلة في الجنوب. هذا المدخل عُزل تماماً الآن عن الجدار (السور) المحيط. وفوق قنطرة الحدوة يوجد نقش على الجصّ، بالحرف العربي العادي يخصّ بالعناية الإلهيّة بانيه (السّلطان محمّد الخامس)، ويبدو أنه يحيي ذكرى نصرٍ مؤزّر. ومجدّداً، فوق القنطرة نافذة مزدوجة رائعة أو (آخيميث) ajimez. وفي الحجر المركزي يظهرُ المفتاح، وقد تكرّر هذا الرّمز في كل أقسام الحَمْراء بعلامة (غ) بالحرف الكوفي، ربما كان يعني الحرف الأول للمدينة. وواجهة المبنى الدّاخلية لها قنطرة على شكل حدوة كبيرة ونافذة مزدوجة تعلوها. وعلى الأغلب أنّ لا پويرتا دِل بينو La Puerta del Vino (باب النّبيذ) كانت هي المدخل إلى قصور القصر وحدائقه.

لدى عبورنا ساحة الأحواض Plaza de los Algibes، نترك خلفنا أعمال العرب الأولى ونقترب من المباني التي تدين بتأسيسها إلى السّلالة النَّصرية أو الغرناطية الحاكمة. والقصّة التي تعطي الاستحقاق للأحمر (محمّد الأول) لبنائه القصر الأحمر في منتصف القرن الثّالث عشر يبدو بأنها تستند إلى وقائع لا غبار عليها. فعندما يُشار إلى أن الحَمْراء كانت موجودة في الأزمنة السّابقة، فالمقصود بلا شك القصبة Al Cazaba. وإلى نفس الأيدي ربما يُعزى بناء السّور الخارجي العظيم للحمراء الذي يحيط بالقصر والحصن، متّبعاً التّفاوت في محيط التّلّ. ترك ابن الأحمر شعاره «ولا غالب إلا الله»، في أقسام كثيرة من البناء، وكان قد تلفّظ بهذه الكلمات في استنكاره المكتئب لتهليلات رعاياه لدى عودته من مساعدة المسيحيين في فتح إشبيلية. وخلال قرنين ونصف من الحكم النَّصري خضع القصر لتعديلات وتجديدات كثيرة لدرجة يصعب معها التّفريق بين أعمال السّلاطين المختلفة. يعتقد فورد Ford، وبحقّ كما يبدو لنا، من التّكرار الدّائم لاسميهما على الجدار بأنّ يوسف الأول، ومحمّد الخامس، لهما الحصّة الأكبر في تزيين الصّرح وترميمه. فمنذ الفتوحات الجديدة طرأت تغييرات وإضافات كثيرة وخاصّة لقصر كارلوس الخامس (شارلكان)، الذي سنأتي على ذكر مفصّل له فيما بعد.

كانت قمّة تلّ الحَمْراء مأهولة بالسّكان في أيّام ابن الأحمر، واستمرّت كذلك أثناء حكم خلفائه. أما السّكان الذين كانوا يقطنون أسفل القصر فيتألفون بشكل رئيسي وفي الأزمنة الأخيرة على الأقلّ، من روّاد القصر من: المحظيّات من الجواري السّابقات والسّلطانات المنبوذات، العلماء وكبار القضاة، جنود المرتزقة، السُّفراء الدّائمين وفوق العادة. قبائل قوية كبني سرّاج، الذين مارسوا تأثيراً كبيراً جداً في المراحل الأخيرة من حكم بني نَصر، وهناك أيضاً أحياءٌ لقادتهم فيها والبلدة الصّغيرة – التي يبدو أنه لم يكن لها مثيل من قبل – كانت تمتدّ من أقصى التّلّ الشّرقي إلى الدّاخل حتى أبواب القصر حسب ما يمليه مزاج الملك في ذلك الوقت.

لم يجرِ التّحقيق أبداً في الحدود الأصلية للقصر، حتى في وقت فتح الملوك الكاثوليك، وثمّة أجزاءٌ منه قد هُدمت دون شك لفتح مجال بناء قصر كارلوس الخامس (شارلكان). ومن جهة أخرى، فقد ورد في محفوظات الحَمْراء أن بيوتاً خاصّة كثيرة قد تم الاستيلاء عليها بهدف توسيع المبنى القديم. لكن إذا التمسنا الأعذار لأعمال الهدم، والتوسعة، والتّرميم التي حدثت منذ القرن الخامس عشر، نجد أمامنا في قصر الحَمْراء مثالاً رائعاً لآخر للمرحلة الثّالثة من فن العمارة الإسپاني – العربي.

في الخريطة العامة للصَّرح، تستحق ملاحظات كونتريراس Contreras الذّكر برمّتها: «نحن نتغلغل في كل نُصب تذكاري عربي عبر بُرجٍ ناءٍ، أو بين برجين، باستثناء البيوت المأهولة بالسّكان، في هذه الحالة فإنّ الدّخول يتم عبر مربّع صغير مفتوح، عديم الأهمية بالنسبة إلينا ومع ذلك يتكرّر في البيوت القديمة للأندلس. هناك رواقٌ طويل وضيّق يقطع المحور بشكل عمودي قاسماً المبنى إلى جناحين. وعند التقاء المحورين نجد المدخل، ونجد أمامه تأثير المنظور الرّائع جداً في هذه المباني. وبعد المدخل نجد بهواً فيه بركٌ ونوافيرُ، وأروقةٌ جميلة مضاءة.

وخلف الرُّواق الثّاني، وعلى طول المحور الرّئيسي، هناك محاور طولية تتقاطع مع بعضها بزوايا قائمة حتى أقصى نهاية البناء، حيث القباب أو أبراج الشّقق الدّاخلية المأهولة بالسّكان تسمو شامخة فوق مستوى المبنى وتنعكس في مياه البرك. ورُدهات المنزل من هذا النّوع، قد رُتّبت بحسب منزلتها أو فخامتها، في سُرادقات صغيرة على جانبي القصر، متنوّعة في أسلوب زخرفاتها كما الخيام في معسكر تركي، حيث من الممكن لمساكن الأمير أن توجد إلى جانب مساكن جنود عاديين. وإذا كانت هذه الصّفوف من الحجرات قد وُجدت الآن مرتّبة بحسب الرّصف الدّقيق لإفريز إسلامي مدجَّن Mudéjar، فهو دلالة على أنّ عبقرية الفاتحين المسيحيين قد منعت القمم المدبّبة crests، والقباب، أو أبراج الكنائس من تشويش تناسق منظور الزّخرفة.

«خارجَ هذه الخريطة التّقليدية، التي يمكن أن نقارنها بصليب مع ذراع معترضة تقطعه عند مسافات مختلفة أذرع عمودية متوازية مع بعضها، ولكن بأطوال مختلفة، لم يجد العرب الإسپان أسهل من هذا المنهج في البناء، فمع انقاص أو إطالة أذرع المحور بقدر ما قد تتطلبه ملاحق القصور الكبيرة، لم تنفصل أبداً عن النّظام، حيثما وأينما بنيت... هذا إذن هو المخطّط الحقيقي للحمراء، وهو يختلف تماماً عما فُهم من قبل الكلاسيكيين في القرن الثّامن عشر، بواجهاته، وزواياه، وتربيعاته».

يجب الاعتراف، من ناحية ثانية، بأنّ روعة الطّراز المعماري في الزّخرفة تفوق تصميم مخطط أرضيّة القصر. فقد بُنيت كلّ الزّخرفة العربية على مخطّط هندسي صارم، وكل تصميم قد حُدّد بترتيب متناسق للخطوط والانحناءات في أبعاد متساوية، ونقطة تقاطع الخطوط عند الزّوايا

هي سرّ النّظام. تتدّفق كل هذه الخطوط من رسم محدّد ولا يقدَّم أيُّ شكل أو زخرفة بشكل عشوائي. إنّ الزّخرفة الإسلامية تمقت عدم الانتظام أو العشوائية وترفض الرّمزية. ومع ذلك لم يُراعَ شرع الإسلام الذي يحرّم تصوير المواضيع الحيّة، دائماً في هذا القصر نصف الأوروپي – نصف العربي.

إنّ البساطة والبدائيّة تميّز أيضاً ألوان الزّخرفة، التي استخدمت في الأعمال على الجصّ، إذ تظهر الألوان الرّئيسية: الأزرق، الأحمر، الأصفر، أما الألوان الثّانوية فتظهر فقط في الأجزاء الدّنيا dados للفسيفساء. واللون الأخضر في كثير من زخرفة اليوم كان أزرق في السّابق، وتغيّر لون الصّباغ المعدني المستخدم بعامل الزّمن، ويبدو أنّ زخرفة الأسطح قد خُطّطت بتمعّن دقيق للّون الذي ستتلقّاه. وسواء فيما يتعلّق بالزّخرفة أو باللّون، أصبح هناك تسامحٌ في درجة التّجديدات منذ أن انتقلت الحَمْراء إلى أيدٍ مسيحية.

يقول السّيد جون لوماس John Lomas: «لنمعن النّظر برهة في بعض التّفاصيل – وخاصة في مجال الزّخرفة، فأينما تقع العين، تقع فوق رواق مقنطر أو بهو معمّد، دقيق جداً في التّوريق الشّفّاف الغني لتيجان الأعمدة، وفي رشاقة دعاماته، حيث أنّ أحدنا سيُدهش من معجزة صمود تلك المنشآت حتى على مدى جيل واحد. وكذلك «دموع العشّاق» كما سمّي هذا العمل المخرّم، إذ يطلبون من الشّخص أن يقف مباشرة داخل القاعة المظلمة أو الرُّدهة وينظر إلى السّماء الزّرقاء خلفه وكأنها غيمة صغيرة من الياقوت الأزرق. لكن الأفضل من ذلك بالتأكيد – التّبصُّر في آية من بدائع الفنّ – وهو أن تقف خارج الجوسق الشّرقي لقصر الأسد وتنظر عبر الفُسحة المثلثية والدّهليز والقاعة، لتلتقط الضّوء الذي ينعكس عبر النّوافذ المقابلة البعيدة، شفافية التّأثير. كل هذا يدعو المرء إلى أن يتمنّى مقابلة المهندس المعماري الذي صمّمها.

وبعض المنشآت غير المنتظمة تتّسم بروعة لا تُعقل. فما عساه يكون أجمل من سلسلة الرُّواق المقنطر هذا، رشاقة أعمدته التي تشبه جذع النّخلة أم قناطره المرتكزة إلى القوائم المتناسقة، أم العمل الدّقيق للفُرجات المثلثية؟ يبدو أنه لا توجد بُقعة واحدة من شأنها أن تزعج العين، علاوة على ذلك، هناك تقريباً 12 قوساً متنوعة، تختلف في الشّكل، أو الارتفاع، أو العرض، ويتفاوت الرّواق المعمّد المسقوف في الاتساع عند كل منعطف، أما الأروقة العليا فغير مستوية. والمداخل ذات طابع شخصي توضّعت فيها الأعمدة بشكل منفرد أحياناً، ومجتمع أحياناً أخرى، وعددها على الجانبين غير متطابق على الإطلاق.. ومع ذلك، فهناك تناسق عام، وتناظر. والكلّ بمجموعه انعكاسٌ لانتصار جمال التّأثير».

في مذكرته يضيف السّيد لوماس «كشاهد على الطّريقة الدّقيقة التي يذهب للعمل بها معماريّو تلك الأيام القديمة، يمكننا التّنويه بأن العلاقة بين البُعد غير المتساوي للرّواق المعمّد

المسقوف على الجوانب الطّويلة والقصيرة للقصر، هي تربيعات على جوانب المثلّث قائم الزّاوية. وهذا التّناظر الجميل الحاصل من خلال عدم انتظام المسافات هو فنٌّ قد فقدناه بشكل غريب».

سنقوم الآن بوصف مفصّل لقصر الحَمْراء.

El Patio De la Mezquita

فناء المسجد والأبنية المجاورة

أظهرت الدّراسات الحالية بأنّ المدخل القديم إلى قصر الحَمْراء كان عن طريق مدخل يؤدّي إلى داخل ما يسمّى اليوم بالكنيسة. إنه مربّع في شكله رُفعت فيه جدران منذ زمن طويل. وتقول الكتابات التي نُقشت فوقه: «النّصر والتّمكين والفتح المُبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين...» وتشير الكتابة إلى أنه أقيم بأمر الإمام محمّد المظفر «في ظله يرعى العباد»، ويُعتقد بأن هذا النّص يشير إلى محمّد الثّالث (1302–1309).

وإنّ الكنيسة التي أسّسها فرناندو وإيزابيلا Fernando y Isabel المجاورة لبهو السّباع Patio de los Leones قد نُقلت إلى هذ الجزء من قصر فيليپ Philip الرّابع في العام 1621. في ذلك الوقت حُوّلت موقدة رائعة من طراز عصر النّهضة إلى مذبح. وتحتوي الشّقّة على بقايا قليلة من عمل بنائيها العرب، وخارجها يوجد فناء المسجد Patio de la Mezquita بواجهته الفاتنة، إلا أن رواقاً حديثاً قد شوّهها كثيراً. أما الجدران فزُيّنت بنسق متكرّر لنقش زخرفي «ولا غالب إلا الله»، وجُمل تمجّد الملوك وأنواع كثيرة من فن الزّخرفة العربي (الأرابيسك). وتشير الكتابة حول النّافذة الرّئيسية إلى محمّد الخامس (1354–1391).

بُني جامع الحَمْراء الكبير عام 1308 من قبل محمّد الثّالث. وقد حُفظ بشكل جيّد حتى الاحتلال الفرنسي الذي، وفقاً لدون پاسكوال دي غايانغوس Don Pascual de Gayângos، دمّره بشكل كامل. ولقد وصلتنا عنه رواية بقلم ابن الخطيب، وزير يوسف الأول: «وأعظم مناقبه المسجد الجامع بالحَمْراء، على ما هو عليه، من الظُّرف والتّنجيد، والتّرقيش، وفخامة العُمُد، وإحكام أنوار الفضة، وإبداع ثُريّاها، ووقف عليه الحمّام بإزائه وأنفق فيه مال الجزية، وأغرمها لمن يليه من الكفار، فدوا به زرعاً، نهد إليه صائفته لانتسافه، وقد أهمّتهم فتنة، فظهر بها منقبة يتيمة، ومعلوة فذة، فاق بها من تقدمه، ومن تأخره من قومه». بقي من هذا المعبد الفخم بقايا قليلة عدا عن قاعة صلاة تدخلها عبر باب في الجدار المقابل للكنيسة الصّغيرة تدخل إليها عبر باب في الجدار المقابل لمذبح المصلى. لا يزال المحراب بارزاً هنا. وأمامه، بينما كان يوسف الأول يؤدّي صلاته، سقط ضحية خنجر غادر في السّنة 1354.

إلى جانب المحراب، يوجد برج پونيالِس (الخناجر) Puñales المتهدّم، الذي يقدم نقاط اختلاف معمارية كثيرة عن باقي القصر، وفيه مزايا قد توحي بخصائص أسلوب العمارة المدجّن Mudéjar المشاهَد في مناطق أخرى في الأندلس. وقد زُوّدت النّافذة الرّئيسية للبرج بشرفة خشبية مع نوافذ شبكية مشابهة لتلك الموجودة في القسطنطينية والقاهرة.

لنرجع بخطواتنا نحو صحن المسجد Patio de la Mezquita نصل إلى القصر الرّحب قصر الآس العطري أو بركة السّمك Patio de los Arrayanes أو de la Alberca. هذا هو القصر الذي يدخله الزّائر أولاً عبر المدخل الحديث. وهو واحد من أجمل أجزاء القصر، ويقدّم أنموذجاً عن الانتصارات وراءه. يخيل للمرء بأنه انتقل مباشرة إلى الشّرق. «أصالة فن العمارة – يقول دون فرانثيسكو مارغال Don Francisco Margal – الأروقة المهواة، والمقاصير alhamis الوفيرة، الشّقق الرّائعة التي تلمحها من خلال قناطرها، النّوافير وأوراق النّبات، انعكاس جدرانها الجصّية في مياه البركة، حفيف النّسيم الذي يحرّك الآس العطري الكثيف، شفافية السّماء، السّكون الذي يسيطر في كل الأرجاء – كل ذلك يخلب الرّوح في وقت واحد، ويتركنا لبعض اللحظات غارقين في بحر من الأحاسيس التي تكشف لنا عن تناغم المشهد الكامل. يشكّل القصر مستطيلاً، محدّداً من الشّمال والجنوب برواقين يقومان على ثمانية أعمدة من الرُّخام الأبيض، وإلى الشّرق والغرب جدران فُتحت فيها أبواب ونوافذ مزدوجة مغطاة بزخرفة عربية (أرابيسك)، ولكنها تختلف بدرجة زخرفتها. عند كل زاوية نجد حنية alhami أو مقصورة alcove، حيث اعتاد العرب أن يتراخوا في النّهار، متمدّدين على سجّاد ودواوين فخمة. أما جدران تلك الأماكن الصّغيرة فمطعّمة بنحت نافر من الجصّ، وسقوفها تزخر بنقوش النّوازل. وعلى طول منتصف القصر تمتدّ البركة، أو حوض السّمك، حوافها مخبأة بأشجار البرتقال والآس العطري. يتدفق الماء الصّافي إلى الأعلى في حوضين مستديرين عند النّهاية، إلى الشّمال، يغلق المشهد بشرفة برج قُمارِش Torre de Comares، إلى الجنوب بأسوار قصر كارلوس الخامس (شارلكان). وعبر أحد المداخل يمكن أن تُشاهد نافورة بهو السّباع. ويرفل القصر باسترخاء، بغنى الشّرق وروعته.

يتكوّن كل رواق من سبع قناطر نصف دائرية، تصل الرّئيسية فيها بارتفاعها إلى الافريز، بينما تنخفض البقيّة عنها كثيراً، وتُغلق بخشب مزخرف، أو بنوافذ شبكية. أما سقف الرّواق الجنوبي فيأخذ شكل حوض أو رقش أرتيسونادو artesonado، ويحمل سبع قباب صغيرة، وفوق القنطرة الرّئيسية للرّواق الشّمالي قبة منفردة طُليت بنجوم ذهبية صغيرة على خلفية زرقاء.

وفي هذا القصر كتابات متعدّدة، أهمها:

«نصرٌ من الله وفتحٌ قريب وبَشِّر المؤمنين».

«النَّصر والتّمكين والفتح المُبين لمولانا أبي عبد الله أمير المُسلمين».

«عِزٌّ لمولانا السّلطان أبي عبد الله بن مولانا السّلطان أبي الحجّاج».

وكتابة ترجمتها: «أنا كحلّة العروس، مزيّنة بأتم الجمال والكمال».

في بهو البِركة Patio de la Alberca قنطرة تختلف كلياً عن الأخريات في القصر، فسطح واحد فقط قد زُيّن، بصورة ملونة لشخص. والزّخارف هنا هي أقرب إلى الأشكال الطّبيعية منها الى فنّ العمارة الأندلسية، والقنطرة ذات طابع عجمي.

يُعتقد أنّ البهو وُجد للفصل بين شقق الذّكور، التي ترتادها العامة، وقد وصفناها سابقاً، وشقق الحريم Harem، أو المساكن الخاصّة، بما فيها بهو السّباع.. إلخ.

نمرّ عبر قنطرة جميلة مزخرفة بتصاميم نباتية رفيعة الذّوق في داخل قاعة البِركة Sala de la Barca أو رُدهة قاعة السُّفراء. هذه الشّقة الرّائعة التي كانت تشعّ بالألوان، قد تضرّرت بشكل كبير في حريق عام 1890. وسقفها الدّاخلي، كما يقول المعمار أوين جونز Owen Jones، عبارة عن قبّة من الخشب المزخرف بنماذج شديدة الإتقان، تدعمها مقرنصات ذات تشكيل حسابي دقيق جداً، حيث يمكن أن تقارن حساسية تركيباتها بتنوع الألحان التي تؤلفها النّغمات السّبع للسلّم الموسيقي، وما لتلك العناصر البسيطة من قوّة وتأثير عند تكرارها».

وخلف هذه القاعة يرتفع برج قُمارِش Tower of Comares الذي يبدو وكأنه يستريح على دعائم في منتهى النّحول ويتأرجح في الهواء، أما الدّعائم الحقيقية فقد حُجبت عن النّظر بشكل متعمّد، والمنظر من قمة شرفة البرج رائع. ومن هذه المنصة، كما يُعلّق واشِنطُن إرڤينغ Washington Irving، راقب ملوك غرناطة الفخورون وملكاتها تقدم جيوشهم، أو أشرفوا على المعارك في سهل غرناطة Vega. وجدران البرج تمتاز بسماكة مذهلة.

أما الدّاخل، وهو عبارة عن مربع 75 × 37 قدماً فيرتفع حتى مركز القبّة، وتتخلّله قاعة السُّفراء (سالا دي إمباخادورِس) Sala de Embajadores، وغرفة استقبال السّلاطين. وهي الأكبر وربما الأكثر مهابة بين قاعات الحَمْراء. إذا نظرنا إلى الأعلى، نشاهد قبّة هوائية رائعة بأسلوب سقوف الأرتيسونادو artesonado، مع نجوم وزوايا مطلية بالألوان. ويعتقد أوين جونز Owen Jones بأن السّقف الحالي يحلّ محل سقف أقدم، كانت تدعمه قنطرة من القرميد. وتفتقر القاعة إلى أرضيتها الرُّخامية السّابقة، ونافورتها الرّئيسية، والشّبكيات الخشبية التي كانت تسُدّ نوافذها المزدوجة. لكنها لا تزال مزخرفة (بعمود سفلي) dado جميل فسيفسائي (معروف باسم sofeisfa) يصل إلى الإفريز الخشبي. وثمّة كثير من النّقوش الكتابيّة الكوفية والمغربيّة تتداخل ضمن الزّخرفة، وقد تكرّر شعار بني الأحمر فيها. هناك تسع مُختليات أو مقاصير تنفتح على القاعة، كل واحدة بنوافذ مزدوجة، حلّت محل الشّرفات. أما المقصورة مقابل المدخل فكانت مكان عرش السّلطان، وتشهد على ذلك الكتابات الشّعرية الطّويلة. ترى، أيّة اجتماعات مبهرة كانت تملأ هذا البهو في السّنوات الماضية – وأيّة مشاهد عنيفة وقرارات مصيرية قد جرت هنا!

El Patio De Los Leones

بهو السّباع والشّقق المجاورة

يحتلّ بهو السّباع Patio de los Leones، مع الحجرات المفتوحة عليه، الرُّبع الجنوبي الشّرقي من القصر. «لا يوجد قسم في هذا القصر من شأنه أن يعطينا فكرة كاملة عن جماله الأصلي وروعته أكثر منه»، كما يقول واشِنطُن إرڤينغ Washington Irving «إذ أنّه على نقيض البقيّة، لم تطله يد الزّمان بالتّخريب إلا قليلاً. تقوم في المركز النّافورة المشهورة التي تغنّوا بها في الأغاني والحكايا. وأحواض المرمر لا تزال تصبّ قطراتها الماسية، يدعمها الاثنا عشر أسداً تجعل نبعها البلّوري يتدفّق كما في أيام أبي عبد الله الصّغير (أبو عَبديل) Boabdil. يتميّز أسلوب العمارة، كما في باقي أقسام القصر بالأناقة أكثر من الفخامة، وينمّ ذلك عن ذوق جميل ونزعة إلى المتعة الخاملة. عندما ينظر المرء إلى التّوريق للبهو المعمّد والنّقش الشّبكي للجدران الذي يبدو هشّاً ظاهرياً، فإنه يصعب التّصديق أنّ كل ذلك قد نجا من بلاء القرون وصدمات الزّلازل وعنف

الحرب، واختلاس الرّحّالين من ذوي الذّوق الرّفيع، فلذا قد يكون حريّاً بنا أن نعتقد بأنّ المكان محروسٌ بفتنة سحرية».

والقاعة عبارة عن مستطيل مساحته 116 × 66 قدماً، على كل جانب منها امتدّ بهوٌ معمّد أو رواقٌ معمّد، وعند كل نهاية أنشيء سُرادق جميل مع قبّة رائعة. أمّا عدد الأعمدة الرُّخامية فهو 124، وارتفاعها 11 قدماً. توضعت بشكل عشوائي، منفردة أحياناً، وأحياناً أخرى مزدوجة – دون أن يخلّ هذا التّرتيب بالتّناسق العام والتّجانس. وكذلك القناطر ذات الانحناءات المختلفة التي تبرز عبر تيجان مزخرفة بأوراق نبات غنية بالتّصاميم المتنوعة. ويغطّي الأرابيسك أو الزّخرفة العربية التّقليدية المسافة فوق القناطر، وتزيّنها آيات من القرآن. أما السّقوف الدّاخلية للأروقة المعمّدة فتزخر بنقش جصّي دقيق وتغطّي الجدران إلى ارتفاع خمسة أقدام بالدّادو Dado من الزّلّيج azulejos الأزرق والأصفر، وتحفّ بشعارات النّبالة الملوّنة بالأزرق والذّهبي وتحمل شعاراً عربياً بشكل ملتوٍ.

في مركز القصر نافورةٌ يُشتق منها اسمه. وهي تتألف من حوضين (في زمن العرب كان هناك حوض واحد فقط) يدعمهما 12 أسداً رخامياً. نُحتت تلك التّماثيل العربية، كما يلاحظ فورد Ford، وكأنها شعار بطريقة خشنة، وتشبه إلى حدّ قريب تلك التي تعلو مدافن المسلمين والنّورمان في پوليا Pulia وكالابريا Calabria (في إيطاليا)، «وُجوهها مطموسة، وقد نُحتت أعرافها كحراشف الغرفين griffin (نصف طائر ونصف أسد)، وأقدامها كدعائم السّرير، بينما أنبوب المياه الملتصق بأفواهها لا يضيف إلى وقارها». وبالفعل، فالكتابة الطّويلة حول الحوض تؤكد بأن لا شيء يستدعي الخوف من هذه المخلوقات، لأنّها «لا حياة لها لتقدر على إظهار ضراوتها»، ويبدو ذلك سخيفاً وغير ضروري. ومع ذلك فكنماذج للنحت العربي تبدو فريدة، والظّاهر أن بنّائي الحَمْراء لم يكونوا صارمين كثيراً في تطبيق دينهم (الذي يحرّم الأشكال التّصويرية) والكتابة المُشار إليها قد نظمها ڤيليرا Velera شعراً يقع في 44 بيتاً من الشّعر بالقشتاليّة.

على الجانب الجنوبي لبهو السّباع تقع Sala de los Abencerrages (قاعة بني سَرّاج)، سُميت هكذا لأنه يعتقد بأنها كانت مسرح أحداث مذبحة 36 رجلاً من أعيان تلك الأسرة بأمر من أبي عبد الله الصّغير (أبو عَبديل) Boabdil. وهناك عِرق مُحمرّ في الأرضية الرُّخامية يُشار إليه على أنه لطخات دم ضحايا يتعذّر محوها. وللقصّة أساسٌ تاريخي ضئيل، نشرها للمرة الأولى كاتبٌ اسمه خينيس پيريث دي إيتا Ginés Pérez de Hita، عاش في القرن السّادس عشر. يقول البعض بأنّ مغتصب الحكم ابن عثمان (1446) قد قُطع رأسه هنا بأمر من الأمير مولاي الحَسَن، لكن آخرين كتبوا عن تلك الفترة المشوّشة من تاريخ غرناطة، ذكروا أنّ الطّاغية قد فرّ إلى الجبال. وهذه الحجرة، التي ربما كانت الأكثر أناقة في الحَمْراء، لا تبدو مكاناً مناسباً لإراقة الدّماء. يُدخل إليها عبر قنطرة جميلة، تظهر منها أكثر مما ينبثق عنها، أعمدةٌ رخامية. والغرفة عبارة عن مربّع يمتدّ شرقاً وغرباً بمُختلَيين أو مقصورتين يُدخل إليهما عبر قناطر منحنية متقنة الصّنع. لكن شهرة قاعة بني سَرّاج Sala de los Abencerrages بسقفها– صُمّمت كنجمة، بقلادات أو هوابط، و16 نافذة في سقوفها المعقودة.

كتب الدّون فرانثيسكو پي مارغال Don Francisco Pi Margall: «آلاف المقرنصات، ألوانها، قناطرها التي لا تُعدّ، تيجان نجومها، نتوءاتها وانخفاضاتها المعقدة، مخاريطها، مضلّعاتها، تشابك أضوائها، تأثيرات الضّوء وظلّه chiaro scuro، كل ذلك يبدو عند النّظرة الأولى مشوّشاً، يتعذّر تعريفه وفكّ رموزه، مشعّاً، وغامضاً، كذلك النّطاق العريض، درب التّبّانة، الذي يعبر قبّة السّماء. ومع

ذلك، فإنه منتظمٌ في الواقع أكثر ممّا قد يبدو ظاهرياً. لقد عمل فرجار الرّياضي في تخطيطه أكثر ممّا عملت عبقرية الفنّان في تنفيذه. لكنّ خطوطَه كثيرةٌ جداً، وتركيبها يتغاير بسرعة كبيرة، حيث لا تستطيع فهم المخطط إلّا بعد دراسة وصبر طويلين.

يعود الزلّيج azulejos الذي يواجه الجدران إلى زمن كارلوس الخامس (شارلكان). وفي مركز القاعة يوجد الحوض الرُّخامي الذي وقعت إلى جانبه مذبحة بني سرّاج حسب ما تدّعيه الرّواية.

قبالة هذه القاعة، في الجانب الشّمالي من بهو السّباع، هناك قاعة سالا دي لاس دوس إرماناس Sala de las Dos Hermanas (قاعة الأُختين)، سمّيت هكذا، بعد إدخال بلاطتين رخاميتين مزدوجتين في الأرضية. وتسمح قنطرة باهرة بالدّخول من البهو إلى دهليز ضيّق يتصل من جهة اليمين بالطابق العلوي، وبالنافذة النّاتئة أو الشّرفة الشّبكية، والتي من خلالها تجول نساء الحريم بطرفهنّ إلى البهو في الأسفل. والقاعة غنية، أنيقة، توحي بالتّرف الشّرقي والاسترخاء كتلك التي تركناها للتو. وفي كل جدار فتحة مقنطرة، وفتحتان كمداخل، والبقيّة تؤدّي إلى المُختليات أو المقاصير الثّانية أكثر من باقي أجزاء الحَمْراء. وفوق كل قنطرة نافذة متناظرة مع الشّقق في الطّابق العلوي قد تلاشت الآن. يبدو السّقف بالتّركيب المدهش ذاته للأشكال الهندسية، نفس التّناظر المشوّش الذي يُرى في قاعة بني سرّاج Sala de las Abencerrages. وفي الحقيقة، تعتبر هذه القاعة بشكل عام (وليس ككلّ) الأروع بين الاثنتين، فلقد أُخفي سطح الجدران تحت منحوتات نافرة ثمينة من الجصّ والزّلّيج azulejos. وثمّة كتابات فوق الميداليات السّت عشرة والأطر المزخرفة Cartouches قد حُلّت رموزها في قصيدة طويلة من قبل ابن زمرك Ibn Zamrek نُظمت على شرف محمّد الخامس، وتُرجمت في 11 أبيات إسپانية verses من قبل ڤاليرا Valera. بيتٌ واحد منها يجلب انتباهنا: «انظرْ بتمعّنٍ إلى أناقتي واجنِ فائدة من تلك الحُلل، هنا أعمدةٌ تزدان إلى حدّ الكمال، جمالُها مضربٌ للمثل».

احتوت تلك الشّقة الرّائعة على آنية زهور شهيرة: «إل خارّون» (el jarron)، قيل بأنّها اكتُشفت في إحدى الغرف الأرضيّة للقصر وكانت مليئة بالذّهب. وهي الآن في متحف الحَمْراء الصّغير. هذه الآنية، التي يعود تاريخها إلى القرن الرّابع عشر، قد طُليت بالمينا بشكل جميل بالأبيض، والأزرق، والذّهبي، وقد وصفها البارون داڤيّيه Baron Davillier في كتابه عن الخزف الإسپاني.

وراء قاعة الأختين شقّة طويلة وضيّقة تُدعى (سالا دي لوس آخيميثيس) Sala de los Ajimeces (قاعة النّوافذ المزدوجة)، لكن سقفها وزخرفاتها لا تضاهي تلك الموجودة في القاعة الأكبر. وتنفتح على الجانب الشّمالي ميرادور دي لينداراخا Mirador de Lindaraja، أو حجرة المشهد، لتطلّ على مشهد خلّاب للحديقة في الخلف.

يفوق هذا القسم الصّغير الذي لا تتجاوز مساحته 15 × 10 قدماً كل أجزاء القصر في غنى تفاصيله وزخارفه. في أيام العرب كان بوسع السّلاطين أن ينظروا من خلف شبكيات النّوافذ الثّلاث نحو المدينة وسهل الڤيغا Vega. وعندما تملّ أعينهم من المشهد يقرأون الشّعر الوفير المكتوب على الجدران.

بالعودة إلى بهو السّباع، ندخل من طرفه الشّرقي، سالا دِل تريبونال Sala del Tribunal أي قاعة القضاء، أو سالا دي لا خوستيثيا de la Justicia أي قاعة الشّريعة (العدل)، التي تتألف من

سبع حجرات مفتوحة على ردهة عامة. والغرف الأربع الصّغيرة مربّعة، تفصلها ثلاث شقق مستطيلة أكبر. الألوان البهية ذاتها، والإسراف عينه في الزّخرفة الهندسية، هنا كما في أيّ مكان آخر في الحَمْراء! أمّا القنطرة فوق الحجرة المركزية الصّغيرة أو الدّيوان فربما تكون الأروع في القصر بكامله. ولكن ما يجعل هذه القاعة الأكثر تميّزاً في القصر هو أنها تحوي ربما النّماذج الوحيدة للفن التّصويري الإسلامي في العصور الوسطى. فسقف المُختلى الرّئيسي أو المقصورة قد زُخرف بلوحة تمثل عشر شخصيات يُفترض أنهم قضاة سابقون. ولذلك أعطي الاسم للقاعة. والأرجح أنهم يمثلون السّلاطين العشرة الأوائل لسلالة بني نَصر الحاكمة. والصّورة مثل باقي القباب الأخرى، نُفّذت بألوان ساطعة (ذهبي، أخضر، أحمر.. الخ). على جلد محضّر مع خليط الجبس. تبدو التّصاميم وكأنها خُطّطت بالبنّي. واللّوحات في المُختليات الأخرى أو المقاصير ذات مواضيع أكثر تشويقاً. ففي الأولى، تُشاهد قلعة مع ميدان أبراج وشرفات، وفي خارجها يوجد أسدٌ يُسحب بسلاسل بيد فتاة، وقد أمسك رجلٌ ذو شعر أشعث ولحية يديها بوحشية. ويهبّ لمساعدتها منقذٌ في شخصية فارس مسيحي، مسلّح من رأسه حتى أخمص قدميه. في الجانب الآخر من الصّورة، يظهر نفس الفارس وقد هُوجم من قبل فارس عربي، يسدّد رمحاً في صدره. والعربي كان خارجاً للصّيد، ، إذ بدت كلابه وهي تطارد الخنزير البري والثّعلب في أسفل المشهد تحت أحصنة المقاتلين. ومن أبراج القلعة ظهرت سيدتان جميلتان تستمتعان بمنظر المسيحي المهزوم بسعادة واضحة. وفي جزءٍ آخر من اللّوحة يظهر الفارسان كلاهما وهما يلاحقان الطّريدة، ويُرى غلامُ الفارس مستنداً إلى شجرة ومعه سيفٌ وترس، من المحتمل أنه كان ينتظر عودة سيده.

خُصّصت اللوحة الثّانية بشكل كامل لمشاهد الصّيد. ويظهر العرب وهم يطاردون الخنازير البرية، بينما شغل المسيحيون أنفسهم بالدّببة والأسود. يظهر الصّيادون أيضاً وهم يعودون ويقدّمون غنائم الصّيد إلى سيداتهم. يُحيّي العربي سلطانته بكبرياء معتدلّ ومهذّب، بينما يركع المحارب المسيحي أمام سيّدته ليقدّم غنيمته.

توصّل أكثر النّقّاد كفاءة إلى نتيجة مفادها أنّ هذه اللّوحات هي من القرن الرّابع عشر، ولذلك فقد أُنجزت في عهد الملوك المسلمين الذين تجاوزوا نواهي القرآن. وليس من السّهل الجزم بأنها من عمل المسلمين. أشار غايانغوس Gayângos إلى تشابه ملحوظ بين هذه اللوحات وتلك التي في الكامپو سانتو Compo Santo في پيزا Pisa، وفي المجمل فإنها كلّها على الأغلب قد أُنجزت من قبل فنان إيطالي، لم يتردّد المسلمون في توظيفه لإنجاز فنّ يُعتبر غير شرعيّ عندهم. وهناك مثال آخر مشابه يخصّ يهود لندن، الذين في أعياد معينة كانوا يوظّفون المسيحيين ليؤدّوا ما يحرّمه دينهم. كما ينبغي التّنويه إلى أنه برأي بعض الباحثين المسلمين المعاصرين لا يُعدّ النّحت والرّسم من المحرّمات المطلقة.

كانت في قاعة الشّريعة (العدل) Sala de la Justicia بركة للوضوء، هي الآن في المتحف. وعليها منحوتات نافرة جميلة لأسود، وغزلان، ونُسور. ووفقاً للكتابة، فقد صُمّمت في العام 1305 لخدمة المسجد، وحقيقة تبدو أنها تدعم وجهة نظر الباحثين التي ذكرناها للتوّ.

وفي تلك القاعة أمر فِرناندو وإيزابيلّا بإقامة قدّاس للاحتفال بعودتهما إلى العرش، وهنا رُفع الصّليب بيد الكاردينال مِندوثا Mendoza. أمّا شعارات ملوك الكاثوليك – النّير Yoke وجعبة السّهام

– فقد أدخلت في زخرفة المُختليات أي المقاصير.

أما البرج المتهدّم والشّقّة الواقعة إلى جنوب قاعة القضاء التي تُدعى الرّوضة Rauda فيبدو أنها ضريحٌ للسّلاطين. والكوّة التي وُضعت فيها التُربة، ما زالت موجودة، وكذلك الحوض الضّيّق الطّويل المستخدم في غسل الجُثمان. يمكننا في المتحف مشاهدة ثلاث ألواح تحتوي على نقوش تذكارية لأضرحة السّلاطين يوسف الثّالث، ومحمّد الثّاني وأمير يدعى أبو الحجّاج، وهو ابن الأخير غالباً.

من الشّقق القليلة المتبقّية في الحَمْراء، وربما الأكثر أهمية شقّة التّوكادور tocador، أو غرفة ملابس الملكة الواقعة إلى جانب الپاتيو دي ليندارِاخا Patio de Lindaraja، مقابل غرفة المشهد Mirador de Lindaraja. أقام في تلك الشّقة واشِنطُن إرڤينغ Washington Irving، وحسب رؤيته الشّخصية: «خلال إقامتي في الحَمْراء، كانت نهاية جناح ذي غرف فارغة من الفن المعماري الحديث مخصّصة لإقامة الحاكم، قد أُعدّت لاستقبالي. كانت مواجهة للقصر... وكنت مستاءً لكوني أُودعت في شقة حديثة... وجدت، في رواق بعيد، باباً يتصل ربما بشقة واسعة مقفولة أمام العموم... ومع ذلك، حصلت على المفتاح دون مشقة ففُتح الباب على عدد من الحجرات الشّاغرة كلها من الفن المعماري الأوروپي، على الرّغم من أنها بُنيت فوق قنطرة عربية.

... هذا الجناح الخيالي من الغرف انتهى إلى رِدهة مفتوحة بدرابزينات، نُصبت على زوايا قائمة مع جانب الحديقة... وجدتُ بأن تلك الشّقّة قد أُعدّت زمن فيليب الخامس والجميلة إليزابيت دي پارما Elizabeth de Parma اللذين حلّا ضيفين على الحَمْراء. وقد خصّصت للملكة ووصيفاتها إحدى أكثر الحجرات ترفاً هي غرفة نومها، وسلّمٌ ضيّق يخرج منها... ينفتح على منظر بهيج، وقد كان في الأصل شرفة السّلطانة العربية، التي لا تزال تحتفظ باسم توكادور Tocador. قرّرت في الحال أن تكون إقامتي في هذه الشّقة، وسبّب قراري مفاجأة عظيمة، لكنني لم أتحوّل عن قراري».

هذه الشّقة الفاتنة قد زُيّنت بأربع لوحات من القرن السّادس عشر، تمثّل أسطورة فايتون الإغريقيّة Phaeton. على سقف الأرتيسونادو artesonado المطلي والمذهب، يمكنك قراءة الدّعاء: «مولانا أمير المسلمين، السّلطان المجاهد العادل أبو الحجّاج يوسف، ابن مولانا السّلطان المجاهد المقدس، أبي الوليد بن نصر، كافي الله في الإسلام... جعله الله عزّة وافية وكتبه في الأعمال الصّالحة الباقية». وحول المخدع رُدهة من تسع قناطر على أعمدة عربية، طُليت وزُخرفت بصور تمثل: الإيمان، الأمل، الإحسان، القضاء، القوّة، ضبط النّفس، المشتري، نپتون، الوفرة، نار العذراء ڤيستا. وتلك اللوحات من عمل فنانين ايطاليين هما: جوليو آكويلا Giulio Aquila وساندرو ماينيرِه Sandro Mainere، اللذين كانا من تلاميذ رافاييل Raphael.

تبيّن أن الحديقة الصّغيرة السّاحرة أو رُدهة المشهد Patio de Lindaraja أو Daraja التي تتخلّل المخدع الفخم والشُّرفة البارزة العربية mirador كانت في الأصل تدعى Jin Dar Aja أي: «جِنان دار عائشة». والحديقة العربية القديمة التي امتدّت حتى برج قُمارِش Torre de Comares قد سُوّرت الآن بأسوار صالة النّوافذ المزدوجة Sala de las Ajimeces وثلاث قناطر من البناء الحديث. ويعود تاريخ النّافورة في المركز إلى القرن السّابع عشر. وهي بقعة ساحرة، بسَروها، وشجر برتقالها، وشجر اللّيمون الذي يرتفع من سياج أشجار الآس العطري والورد.

بين هذه الحديقة وقصر البركة Alberca تمتدّ الحمامات – وهي ملاحق أساسية للدّار الإسلاميّة – وقد رُمّمت بكل براعة وبشكل فنّي على يد كونتريراس Contreras. والتّصميم هو المُتبع عادةً في كل مكان في الشّرق. مروراً عبر سالا دي لاس كاماس Sala de las Cámas أو غرفة تغيير الملابس، حيث تنبعث أغاني المحظيات من رواق عالٍ وحتى الأسفل حيث يتّكئ السّلطان في إحدى المُختليات أو المقاصير، تدخل إلى قاعة الحمّامات (سالا دي بانيوس) Sala de Baños، بحمّامها الرُّخامي الأبيض وأرضيّتها من الآجرّ اللمّاع. تسمّى تلك الغرفة لدى العرب بغرفة الحرارة، أو حمّام البخار. وقد وصفها إدوارد لاين Edward Lane في كتابه «عوائد المصريين المعاصرين وسلوكيّاتهم»، وتقع تحت القناطر الجميلة التي تدعم القبّة التي يخضع فيها المستحمّون إلى عمليات التّدليك والفرك التي وصلت مؤخّراً إلينا. وأُضيئت الحجرة من الأعلى عبر فتحات على شكل نجوم، كما تشير الكتابات إلى الهناء الذي يترقّبه الرّجال في قصر البهجة هذا. وتتألف شقق الاستحمام من ثلاث قاعات وحجرتين صغيرتين، تدعى بالعامية حمّامات الأميرات Infantas.

أبراج قصر الحَمْراء وبواباته

يكتب السّنيور فِرناندِث خيمينيث Señor Fernández Jiménez: «سور النَّصْريين بقيت منه بَدَنة لم تتلف عرضُها حوالي 1400 متر من طرفها الأول إلى الآخر، ويحميها 26 برجاً، اعتبرت الدّعامتان كدعامة واحدة فقط تحمي بوابة الطِّباق السّبعة Siete Suelos. وإلى هذا العدد من الأبراج يجب أن يضاف بُرج السّلاح (تورِّه دي لاس آرماس) Torre de las Armas، الذي اختُرق ببوابة مشتركة للقصبة Al Cazaba والحَمْراء، وهو أيضاً من عمل بني نَصر. حُصّنت القلعة علاوة على ذلك بخمسة معاقل، وبوابات كثيرة، ومحميات خارجية عديدة، ما تزال آثارها في بقعة السّرو alamedas الحديثة. وتتفاوت سماكة الأبراج وفقاً للموقع والهدف، تتراوح المسافة بينها بين 34 إلى 64 متراً تقريباً».

في يومنا الحالي نستطيع احصاء 15 برجاً فقط، أسماؤها:

La Justicia, Las Cabezas, Los Siete Suelos, Las Aguas, Las Gallinas, Las Armas, La Vela, Los Hidalgos, La Polvora, De la Cautiva, Del Candíl, Los Picos, Las Damas, Las Infantas, Los Puñales.

وباب الشّريعة (پويرتا دي لا خوستيثيا) Puerta de la Justicia هو المدخل الرّئيسي إلى الحَمْراء، بناه كما تروي الكتابات فوق القنطرة، السّلطان يوسف أبو الحجّاج في عام 1348. وكان القضاء هنا في أيام العرب يتبع نظام المشيخة القديمة. فوق القنطرة نُحتت يد مفتوحة، ومعناها محط جدل. التّفسير المرجح هو أنها رمز ديني، تمثل الأصابع الخمسة أركان الإسلام: شهادة الإيمان بالله ورسوله، الصّلاة، الصّوم، الزّكاة، والحجّ إلى مكّة. زُخرفت القنطرة الدّاخلية بشكل جميل بالفنّ العربي (الأرابيسك) وبرمز المفتاح. يستمرّ المدخل عبر بوابة أخرى، مع ممرّات مُلتوية صُنعت على هذا الشّكل لإرباك العدو. ويظهر على القنطرة التي توفر مخرجاً من البرج بعضُ الطِّلاء من المينا الرّائع، والزّخارف التّزينية.

مباشرة خارج هذه البوابة هناك عضادة كارلوس الخامس (شارلكان) Pilar de Carlos v.، وهي نافورة على الطّراز الرّوماني – اليوناني شُيّدت بأمر الحاكم مِندوثا Alcaide Mendoza عام 1545.

وزُيّنت بالأسلحة الامبراطورية، ورؤوس (آلهة الأنهار) شنيل Genil، وحدره (دارّو) Darro ، وبيرو Beiro.

أما برج الطِّباق السّبعة Torre de los Siete Suelos المزدوج فيقع على جانبي مدخل هو الآن مسدود، وكان في السّابق المدخل الرّئيسي إلى الحصن. قيل إنّ «أبو عَبديل» Boabdil (أبو عبد الله الصّغير) سيء الحظ قد مرّ عبره في طريقه إلى المنفى. سمّي البرج هكذا لأنه يُعتقد بأنه يتحدّر نزولاً بسبعة طوابق تحت الأرض. ولقد استُقصيت أربع حجرات سفلية. وهنا تقول الرّوايات الشّعبيّة إنّ المكان خُصّص للكنوز الدّفينة. وتروي الأساطير عن حرّاس غير مرئيين وآخرين سحريين.

عند الزّاوية الجنوبية الشّرقية للسّور هناك برج الماء Torre del Agua المتهدّم، والذي يشتقّ اسمه من القناة التي تنبثق عند تلك النّقطة من الوهد. وعلى الجهة الشّمالية الشّرقية نصل إلى برج الأميرات (تورِّه دي لاس إنفانتاس) Torre de las Infantas، وداخله نموذج كامل للبيت الشّرقي الصّغير. عبر رُدهة صغيرة نصل إلى فناء مغطى مع بركة في المنتصف، ومُختَلَيات أي مقاصير مفتوحة من ثلاث جهات. والزّخرفة جميلة وأصيلة. والبرج هو واحد من أجمل أقسام الحصن. أما البرج المجاور ويدعى برج الأسيرة، فإلى حدّ ما أقلّ كمالاً وانتظاماً في تصميمه، ولكنه زُخرف بشكل أنيق بألواح الآجرّ الوردي اللون. تمجّد الكتابات هنا أبا الحجّاج وتشير إلى الأسد المقيم داخل هذه الأسوار، لكن ذلك – ليت شعري – لا ينطبق على وصف الأسيرة!

يبدو برج الآكام (الذُّرى) Torre de los Picos قد صُمّم هكذا، من الفتحات التي تتوّج ذروة الحصن. ولكنه خضع بشكل واضح لإعادة تصميم واسعة زمن الفتح الإسپاني. إلا أن آثار الحكم النَّصري بقيت في شكل بعض النّوافذ المزدوجة المنحوتة بشكل جميل.

أمّا برج إسماعيل Torre de Ismaíl، أو de las Damas (برج السّيدات) فقد وهبه محمّد الخامس إلى ابنه إسماعيل، وفيه شرفة belvedere مزيّنة بوفرة، وقاعة قد زُخرفت بذوق رفيع جداً. وفي برج پونيالِس (الخناجر) Puñales المتهدّم تزيينات جصّية غريبة، تختلف عن تلك الموجودة في أقسام أخرى من القصر.

وبين برج الآكام (الذُّرى) Torre de los Picos وبرج السّيدات de las Damas محرابٌ صغير بُني على الجدار. خُصّص زمن الفتح الإسپاني للاستخدام الشّخصي لشخص هو أستاسيو دي براكامونتِه Astasio de Bracamonte. وعلى الرّغم من أنه خضعت لترميم يرثى له، فالقِبلة Kiblah أي المحراب الشّرقي ودلالات أخرى للمذهب الإسلامي لا تزال ملحوظة. وأغرب ما في الأمر أنّ المدخل قد حُرس بأسدين عربيين جُلبا من دار سكّ العملة القديم. فيبدو أنّ وصايا الدّين الإسلامي قد تم تجاهلها حتى في المصلّى ذاته!

بنيت أبرشية كنيسة القدّيسة مريم Santa Maria، في عام 1581، وتحتلّ موقع الجامع الذي كان يظهر فيه [لسان الدّين ابن] الخطيب مُشيداً بمآثر محمّد الثّالث (1302-1309) إذ كتب: «وأعظم مناقبه المسجد الجامع بالحَمْراء، على ما هو عليه، من الظُّرف والتّنجيد، والتّرقيش، وفخامة العُمُد، وإحكام أنوار الفضّة، وإبداع ثريّاها، ووقف عليه الحمّام بإزائه وأنفق فيه مال الجزية، وأغرمها لمن يليه من الكفار».

أمّا الكنيسة الحديثة فمبنيّة بالقرميد، ولا تحتوي شيئاً ذا أهمية، باستثناء نقش ڤيزيقوطي Visigothic، يشير إلى بناء المعابد الثّلاثة، التي كُرّست للقدّيس يوحنّا St. John، والقدّيس إسطفان St.

Stephen، والقدّيس ڤِيثِنتِه St. Vincent في العامين 594 و607.

قصر كارلوس الخامس

إنّ القصر المهجور، المبني على الطّراز التّلقيدي دون سقف، والذي بُني في غير موضعه بين هذه المباني الشّرقية، قد أُسّس بأمر من الامبراطور كارلوس الخامس (شارلكان) في عام 1538، ولم يكتمل أبداً. ويبدو أن هدف هذا القيصر الفلمنكي كان إقامة مسكن دائم هنا، يستطيع من خلاله أن يتأمّل جمال القصر العربي. والبناء رباعي الزّوايا ذو واجهات أربع، ارتفاع كل منها 17 متراً. الطّابق الأسفل على الطّراز التّوسكاني (الإيطالي)، والعلوي على الطّراز الإيوني (اليوناني). بعض المداخل الرُّخامية جميلة الصّنع. وتظهر في الزّخرفة تلميحات إلى الحملات في البحر والبر، التي قادها الامبراطور، وشعاره Plus Oultre (أكثر بعداً)، أما رمزه فهو الخروف Fleece الذّهبي.

داخل القصر مشغول بقاعة دائرية مهيبة، مع رواق مدعم بـ 32 عموداً. صُمّم الدّرج بفخامة، وبشكل عام لو أن القصر كله قد أُكمل وبني في أي مكان آخر، لكان تذكاراً يشاد به لعهد كارلوس.

جنّة العريف

عبر وادٍ معرّش باللبلاب ثمّة بناءٌ أخضر وأحمر، هو قصر الاستجمام المعروف بجنّة العَريف Generalife الذي يشرف على أسوار الحَمْراء الضّخمة. ويُعتقد بأن الاسم مشتق من Jennatu-l'arif «جنّة العريف» أي جنّة المعماري. ويبدو أن القصر قد بُني على يد عربي يدعى عُمر، ومنه اشتراه السّلطان أبو الوليد. وزمن الفتح الإسپاني أصبح مُكاً للأمير المرتدّ سيدي يحيى، الذي اتّخذ اسم دون پدرو دي غرانادا Don Pedro de Granada، وأحفاده آل كامپوتيخار Campotéjar هم المُلّاك الفعليون حتى اليوم.

لا تُعتبر جنّة العَريف Generalife من الفنّ المعماري الإسلامي الأندلسي المهمّ. عبر فنائها الرّئيسي، الذي يبلغ 34.70 × 12.80 متراً، تمرّ القناة التي تروي قطعة الأرض بأكملها، وتتصل بالسّقيّة Acequia أو قناة الحَمْراء. أما الواجهة الجنوبية المقنطرة والقاعة الواسعة المجاورة فقد عُدّلت من أجل إنشاء رُدهة كبيرة. ويشبه الرّواق المقنطر ذلك الذي في بهو «بركة السّمك» وعليه كتابة شعرية تشيد بأن أبو الوليد رمّم القصر في السّنة 1319.

وقاعات جنّة العَريف Generalife بحدّ ذاتها قليلة الأهمية، وتحتوي على عدّة لوحات يُشكّ في أنها حقيقية. أهمها لفِرناندو وإيزابيلّا، وخوانا لا لوكا Juana la Loca وزوجها، والزّوجة الرّابعة لفيليپ الثّاني. وبين لوحات عائلة غرناطة لوحة يُفترض أنها لابن هود المتوكّل، غريم الأحمر وسلف سيدي يحيى. وتلك هي اللوحة التي يُصرّ الرّحّالون الإنكليز عن طريق الخطأ على أنها تمثّل «أبو عَبديل» Boabdil.

لكن إذا كان القصر غير جدير بالأهمية، فإنّ الحدائق آية في الجمال والبهجة. فنوافير الماء ترتفع عالياً في كل مكان وترطّب جذور الآس العطري، والأرز، والسّرو الطّويل، أروع شجر في إسپانيا بأسرها. كشفت أسطورة عن ابن سرّاج Abencerrage في موقف مداعبة مع السّلطانة، تحت إحدى أشجار السّرو، وليس لذلك أساس من الصّحّة. هذا على الرّغم من أنّ طبيعة المكان هي أنسب مكان يتخيّله المرء لالتقاء المحبين كما توحي القصة.. لكن الحديقة مهملة، وكثير من الأشجار الرّائعة قد قُطعت.

* * *

إنّ الصّروح التي بقيت إبّان السّيطرة العربية في مدينة غرناطة نفسها قليلة، وقد اختفت بسرعة. وفي سوق السّقطيين Zacatín، الذي كان في الزّمن القديم السّوق الشّرقي الرّئيسي، يوجد بناء كان يلقب سابقاً بكاسا دِل غايّو دي بيينتو Casa del Gallo de Viento (بيت ديك استشعار الطّقس) ويُعرف الآن بكاسا دِل كاربون Casa del Carbón (بيت الفحم)، وذلك بسبب تحويله إلى مخزن لتلك المادة المفيدة. تؤكد المرويّات الشّفهيّة بأن القصر (لأنه كان قصراً في زمن ما) قد بُني من قبل باديس بن حبوس Badis Ibn Habus حاكم غرناطة، الذي حكم حوالي عام 1070 بعد الميلاد، والذي بتوجيهاته صُنعت دوّارة تدلّ على اتجاه الرّياح بشكل محارب على مطيّة ومسلّح بترس ورُمح. ثم فيما تلا من سنين استُخدم البناء كمركز لتجارة الذّرة. وأهم ما يستحق الذّكر فيه مدخل مع قنطرة على شكل حدوة، ونوافذ مزدوجة. ورُدهة مع قبة ومقصورة. إلى جانب الكاسا دِل كاربون Casa del Carbón منزل الدّوق أبرانتِس Duque de Abrantes. وقيل إنّه يوجد بأسفله ممرّ يتّصل مع الحَمْراء – وهو مسدودٌ الآن، وهذا أمر غريب، من قبل المالك الحالي للموقع، دون أي استكشاف أو فحص.

أمّا الحمَّام العربي الذي كان فخماً فيما مضى فتدخله من مجرى نهر دارّو Carrera de Darro، وهو الآن في آخر مراحل الخراب والإهمال. ويُعتقد بأنه يعود إلى الفترة الأولى لحكم المسلمين. القناطر على طراز الحدوة القديم، والأعمدة وتيجانها من الطّراز العتيق البدائي. والكتابة : «بسم الله الرّحمن الرّحيم» ما تزال واضحة.

الحمّام نفسه، مع الحجرات المتنوعة للاسترخاء وتغيير الملابس، والمقاصير alhamies المألوفة، ما تزال موجودة. أما دار سكّ العملة العربية القديم فقد هُدمت عام 1643، وبوابة «باب الرّملة» Bivarrambla الشّهيرة لا يمكن بعد الآن أن توصف بأنها عمل إسلامي.

إنّ طمس الشّخصية العربية لغرناطة، مقارنةً مع خلودها في إشبيلية، مثالٌ جليّ يصلح لإظهار كيف أصبحت النّزعة الدّينية والعنصرية شديدة في إسپانيا خلال المئتي سنة ونيّف التي انقضت بين فتوح المدينتين. وإنّ الرّوح التي تعامل بها كلٌّ من فِرناندو St. Fernando، وألفونسو إل سابيو (العالم) Alfonso el Sabio، وپدرو الأول Pedro I مع أعمال خصومهم المسلمين ورعاياهم، تمثّل تبايناً واضحاً مع ما أظهره الملكّان الكاثوليكيّان كارلوس الخامس (شارلكان) وفيليپ الثّاني.

غرناطة الكاثوليكية

إنّ أوّل عمل يقوم به ملك إسپاني لدى دخوله إلى مدينة مسلمة مفتوحة هو أن يحوّل المسجد (الجامع) الرّئيسي فيها إلى كنيسة مسيحية. وهذا ما حدث أيضاً في غرناطة، لكن مصلّى الحَمْراء بقي لبعض الوقت كاتدرائية الأبرشية الجديدة. أماالجامع في المدينة، فقد رُفع إلى تلك المرتبة فيما بعد، ولقد وُصف من قبل الأسقف بيرتو من روان Abbé Bertaut of Rouen (نقله ڤايّادار Valladar)، الذي كتب سنة 1609: «إنه مربّع وطويل أكثر منه عريض، لا توجد فيه قناطر والسّقف مغطّى بالقرميد، وفي جزء كبير منه لم يكن مترابطاً حتى. وقد دُعم الكل بعدد من الأعمدة الحجرية الصّغيرة، المرتبة بتناسق». يقول خوركيرا Jorquera إنّ المسجد كان يتألف من خمسة صحون منخفضة. وسواءٌ كان أم لم يكن أصلاً كنيسة ڤيزيقوطيّة، كما يزعم بعض الكتّاب، فتاريخ يعود المعبد على الأغلب إلى القرون الأولى للفتح الاسلامي، والبرج الذي يحوي المحراب قد اشتُهر لوقت طويل باسم برج توريپانا Torre Turpiana.

بعد أن استُخدم البناء للمذهب الكاثوليكي لمدّة قرنين، اختفى ما بين 1705 و1759 لتحلّ محله غرفة المقدّسات الحالية. وككاتدرائية، ألحقت بالبناء القائم المجاور، وكُرّست كذلك في 17 أغسطس 1561.

وقبل حوالي ربع قرن من تأسيس الكاتدرائية كانت توجد الكاپيّا ريال Capilla Real، أي الكنيسة الملكية، وتُعدّ التّذكار الأهم والأخّاذ لفتح غرناطة. أُنشئت عام 1505 ككنيسة للملكين الكاثوليكيين فِرناندو وإيزابيلّا، بتوجيه من إنريكِه إيغاس الشّهير Enrique Egas، وتمّ بناؤها عام 1517 – أي بعد وفاة الملك بسنة وبعد وفاة الملكة بـ 13 سنة. صُمّمت الكنيسة على هيئة صليب لاتيني، وهي إحدى النّماذج الأخيرة للطراز القوطي الإسپاني. والبناء معتدل نسبياً وبسيط، يتباين بقوة مع الأبنية المزخرفة والمتقنة للعصر اللاحق. تتألف زخرفة الدّاخل بشكل كامل تقريباً من إفريز يحمل كتابة طويلة بأحرف مذهبة تقول: «هذه الكنيسة أُمر ببنائها الكاثوليكيان المعظمان دون فِرناندو ودونيا إيزابيلّا Don Fernando y Doña Isabel» الخ... الخ... وثمّة تأثير قوطي في الدّرابزين الرّائع، أو القضبان المتصالبة، المكونة من الحديد في قسم، ومن الذّهب في قسم آخر. وهي تفصل صحن الكنيسة عن جناحها، وقد صُنعت عام 1522 على يد المعلّم بارتولومِه Maestre Bartolome. وتُشاهد صورتا الملكين الكاثوليكيين على جانب من المذبح العالي. وهي، كما يقول فورد: «جديرة جداً بالاهتمام، كونها تصاوير دقيقة لوجهيهما، وشكليهما، وزيّيهما: خلف فِرناندو Fernando تظهر راية قشتالة الظّافرة، والهدف الذي من أجله عاشا وماتا كلاهما: الانتصار على المسلمين Moros وهداية الكفرة – متجسّدة تحتهما في نحت ملوّن فريد، يُعزى إلى فيليپه بيغارني Felipe Vigarny، وهذا ذو قيمة أثرية عالية جداً. وفي استسلام الحَمْراء، تُصوَّر إيزابيلّا و هي تمتطي جوادها الأبيض الصّغير بين فِرناندو والكاردينال مِندوثا Mendoza الكبير، الذي يجلس فوق بغله المُجمّل مثل وولزي Wolsey. هو وحده يرتدي القفازات، ووجهه النّحيل يتباين مع بدانة الملك والملكة. يفتح يده ليأخذ

المفتاح، الذي يقدّمه له أبو عبد الله (أبو عَبديل) Boabdil المترجّل مُمسكاً به من أعلاه. وفي الخلف ظهرت السّيدات، والفرسان، وحاملو الحراب والفؤوس الحربية، بينما خرج الأسرى من البوابات بالأزواج. ولا يوجد ما يفوق هذا المشهد أهمّية في إسپانيا. ويصور المنحوت البارز الآخر «اهتداء الكافر» الجمهور المقهور وهو يخضع قسرياً لمراسم التّعميد بالجملة، الأشخاص الأساسيون يتحوّلون إلى رُهبان حليقي الرّأس. أمّا الوشاح وأغطية أرجل النّسوة (الـ fasciae الرّومانية) فما زالت تُلبس في تطوان حتى اليوم.

تعتبر تلك المنحوتات النّافرة دون شك أكثر قوةً وفنّاً، وفي تناسق أكثر مع البناء بشكل عام، من منحوتات القبور البهيّة في عصر النّهضة لِفرناندو وإيزابيلّا – التي أنجزها النّحّات الإسپاني بارتولومِه أوردونييث Bartolome Ordoñez، على الأغلب. حيث يظهر الملكان العظيمان مستلقيين جنباً إلى جنب، ويُعبّر وجهاهما عن وقار وهدوء لا محدودين. وعند كل زاوية من الضّريح يوجد أحد المطارنة الأربعة للكنيسة وتحتهم ظهر تمثال نصفه إنسان ونصفه أسد. كما توجد ميداليات على جهتين فقط من أربع جهات تمثّل على التّوالي التّعميد وقيامة المسيح، والقدّيس جرجس والقدّيس خايمي (يعقوب). وقد أُنجزت أشكال الحواريين الاثنى عشر بشكل جميل، وكذلك درع النّبالة، وفي الحقيقة فإن كلّ تفاصيل هذا التّذكار فخمة ولكنها غير معبّرة.

ضريح ابنة فرناندو وإيزابيلّا المجاور هو للملكة المنكودة خوانا Juana، وزوجها فيليپ الأول الوسيم، وهو أقلّ شأناً من ناحية التّصميم والتّنفيذ. ورؤوس الأشخاص المتكئة لا تنقل سماتهم الحقيقية، وتُمثل المنحوتات النّافرة ميلاد المسيح، وحكماء المجوس يحملون الهدايا إلى المسيح عند ولادته، وحقل الآلام، والدّفن. وفي الكوى صور عن فضائل الكادرينال (التي لم تكن من خصال فيليپ)، وفي الزّوايا تماثيل القدّيسيين ميخائيل، جرجس، أندراوس، ويوحنّا اللّاهوتي. وكم هي جميلة صور الأطفال، وكثير من زخرفة الشّعارات. كل ذلك يظهر في أجمل أساليب ازدهار عصر النّهضة، وتمّ نحته في جنوة بأمر من ابن خوانا كارلوس الخامس (شارلكان).

وتختلف المراقد الحالية للملوك المخلّدة ذكراهم بشكل رائع بالحجر في القسم العلوي. ونزولاً إلى سرداب ضيق تحت القبور نجد خمسة توابيت ذوات أشرطة حديدية. في هذا الموضع يستريح رُفات فرناندو وإيزابيلّا، وخوانا وفيليپ، وابنهما الأمير خوان. يُعرف تابوت فرناندو من حرف (F). يكتب پي مارغال Pi Margall: «هنا يرقد في الضّوء الخافت آباء وأبناء ملوك ثلاث سلالات اتحدوا في أقلّ من قرن من أجل مجد وطن الآباء الأعظم، هنا يرقد آخر أمراء العصور الوسطى، وأولئك الذين افتتحوا العصر الحديث. هنا يرقد الأبطال وآباء الأبطال – ملوك لم يتراجعوا أبداً في وجه الخطر، وملكات ذَوَت حياتهنّ بنار حبّ عميق. مظفّرين عادوا من المعركة، ليجدوا راحةً وسعادة بين أيدي حبيباتهم، وأرواح تعسة شربت كأس المعاناة، دون أن تسكر من شدّة الأسى. مَن منا يستطيع دخول هذه المنطقة المظلمة دون أن يشعر باختلاج عواطفه – دون أن ينحني بمهابة أمام الشّواهد التي يغطّي رجالاً أنقذوا الأمم من عبثية الإقطاع؟ وهو يذرف دمعة على تابوت العظيمة (إيزابيلّا Isabel)، لا يستطيع أحد أن يكبح لجام أسفه على تلك الملكة التّعيسة (خوانا Juana) التي ثملت من الحب، ممضية الليل تنتظر بزوغ الفجر لكي تسير قُدُماً وحدها، حتى آخر أصقاع الدّنيا، باحثة عن زوجها الحبيب، فلا تترك تابوته حتى يغلق القبر عليه؟».

نترك هؤلاء العظماء والتّعساء من عصر أفل، رحلوا إلى العدم في قصرهم المعتم الأخير، لنصعد إلى الكنيسة. وليس هناك الكثير لنراه. في غرفة المقدّسات حُفظ تاج الملكة الكاثوليكية

وصولجانها، وسيف فرناندو، وبعض الأثواب القوطيّة الفاخرة. وفوق مذبح على الجانب الجنوبي هناك مشهد يمثل «النّزول عن الصّليب» وعنه يتحدّث فورد Ford بتبجيل. تتّصل الكنيسة الملكية مع الكاتدرائية بمدخل فخم من الطّراز القوطي القديم. وزُيّنت الأعمدة على كل جانب بتماثيل لملوك مع أسلحتهم. وفوق المدخل تمثال نسر يرفع أسلحة إسپانيا. شعارات النّبل، رموز دينية، ومنحوتات نافرة لقدّيسين وملائكة قد امتزجت في الزّخرفة، الجميلة وغير المبالغ في صنعها.

أمّا الكنيسة الملكية، فمع أنها تشكّل معمارياً جزءاً من بناء الكاتدرائية، فإن لها تنظيماً كنسياً مستقلاً، برهبانه ورجال الدّين. وقد سُجّلت مشاهد طريفة تدلّ على علاقة لا تتّصف بالودّ كانت تدور بين كهنة الكاتدرائية والقساوسة الملكيين. هذه العداوة (كما يقول ڤايّادار Valladar) وصلت ذات مرة إلى أقصى حدّ عندما عبَّر رئيس الأساقفة كارّيّو دي ألديريتِه Carrillo de Alderete عن رغبته في زيارة الكنيسة مع كهنته، فرفض القساوسة إدخالهم. ووفقاً لذلك، دعا رئيس الأساقفة إلى اعتقال الكهنة، وتبعت ذلك دعوى قضائية طويلة. للقساوسة حق المرور عبر جناح الكاتدرائية إلى پويرتا دِل پردون Puerta del perdón أي باب الغفران، الذي هو المدخل الرّسمي إلى الضّريح الملكي – وهو امتيازٌ يبدو أنه أغاظ الكهنة. غريبة تلك الشّجارات المضحكة التي تحدُث في زمن يشهد أعظم أحداث تاريخية يسجّلها التّاريخ الوطني. ما بين السّمو إلى المهزلة هنالك خطوة واحدة فحسب!

الكاتدرائية

بُنيت كاتدرائية غرناطة مجاورة ومتّصلة بالكنيسة الملكية وغرفة المقدّسات، أو الجامع القديم، بين عامي 1523 و 1561. لقد كان كارلوس الخامس (شارلكان) يفضّل الطّراز القوطي، ولكنه أخيراً وافق على اختيار تصاميم دييغو دي سيلوِه Diego de Siloé. يصف فورد Ford الكنيسة كواحدة من أروع الأمثلة للطراز اليوناني الرّوماني، لكن المخطّط قوطي بشكل واضح، ولا يستحقّ الصّرح عبارات التّفخيم التي تقول :إنه «أعظم معبد في أوروپا بعد الڤاتيكان». فهو مؤثّر في صرامته واتساعه، ويمكن وصفه بأنه مهيبٌ أكثر منه جميل.

والواجهة، التي قيل بأنها صُمّمت من قبل ألونسو كانو Alonso Cano، أحيطت ببرجين (أحدهما لم ينتهِ) مقسمين بأربعة أعمدة حجرية ضخمة تدعم إفريزاً. وترتكز عليه أربع دعائم، تحمل ثلاث قناطر مظلمة وعميقة. وعند أسفل هذه الدّعائم، على الإفريز هناك تماثيل للحواريين. وقد زُخرف الباب الرّئيسي بنُحوت نافرة تصوّر تجسُّد المسيح أنجزها ريسوينيو Risueño، كما زيّنت الأبواب الجانبية بنُحوت نافرة لعيد البشارة وارتقاء مريم العذراء. ويرتفع البرج على اليسار 75 متراً فوق مستوى السّطح الحالي. ومنصاته الثّلاث تتبع على التّوالي الأنواع الثّلاثة لطراز الفن المعماري الإغريقي المعروف.

وتختفي جدران الكاتدرائية، إلى حدّ كبير، كما هو الحال غالباً في القارّة الأوروپيّة، بأبنية محاذية. وباب الغفران Puerta del Perdón الذي، كما قلنا، ينتمي رسمياً إلى الكنيسة الملكية، هو تحفة دييغو دي سيلوِه Diego de Siloé. وقد نُحت بإتقان شديد. كما ظهر فوق القنطرة شخصان رمزيان يرفعان لوحاً نُقش فوقه إهداءٌ إلى الملوك الكاثوليك. أمّا الأعمدة الجانبية الضّخمة للمدخل فقد زُيّنت بشعارات نبالة ضخمة. إنّ إقحام الرّموز والشّعارات في فنّ العمارة الدّيني في غرناطة لا يضاهيه أيّ مثال في مكان آخر.

أمّا داخل الكنيسة الذي رُصف بالرُّخام الأسود والأبيض، فمؤلف من خمسة صحون مع قناطر متصالبة على الطّراز القوطي، تدعمها خمس ركائز، كل واحدة منها مؤلفة من أربعة أعمدة كورنثية. وترتفع فوق المذبح العالي عند النّهاية الشّرقية للبناء قبّة مهيبة بارتفاع 220 قدماً، ترتكز على ثمانية أعمدة، وتنفتح بقنطرة رئيسية واحدة بارتفاع 190 قدماً. إنّ امتداد الكنيسة الرّئيسية كاپيّا مايور Capilla Mayor عند هذه النّقطة من وتر الدّائرة هو عمل بارع للفنّ المعماري. يقول لافوينتِه Lafuente: «إن جرأة القنطرة الرّئيسية مثيرة للإعجاب، وطريقة إنجازها تخلق تأثيراً رائعاً: فعند النّظر إليها من الأقواس البيضوية تبدو وكأنها تمتدّ وعلى وشك أن تضمُر، لأنها تنخفض تحت مستواها».

والكنيسة الرّئيسية بناء فخم زُخرف بإسراف، يقوم على 22 عموداً كورنثياً من طبقتين. وبين الأعمدة السّفلية القناطر البيضوية المشار إليها، وعلى الطّبقة العليا اللّوحات السّبع الجميلة لمشاهد من حياة العذراء الطّاهرة، التي أنجزها ألونسو كانو Alonso Cano. وبين الطّبقتين لوحات جميلة لخوان دي سيڤيّا Juan de Sevilla وبوكانيغرا Bocanegra. ونسبة كبيرة من أعمال النّحت جيدة، والزّجاج المصبوغ المعشّق الفلَمَنكي في النّوافذ الأربع عشرة غنيّ بالألوان وقد أُنجز بمهارة. أمّا المذبح العالي بحدّ ذاته، وهو من عمل خوسيه دي بادا José de Bada، فقد صُنع على طراز قبيح. ولكن رداءته قد عُوّضت بتمثالين يمثلان فرناندو وإيزابيلّا راكعين، على كل جانب قام بنحتهما مينا Mena ومادرانو Madrano، وبالرّأسين العظيمين والواضحين لآدم وحواء، اللذين نُحتا فوق منابر الوعظ بيد ألونسو كانو Alonso Cano.

في مركز صحن الكنيسة الأوسط المنفصل عن الكنيسة الرّئيسيّة Capilla Mayor بجناح الكنيسة، هناك غرفة جوقة التّرتيل وقد نُفّذت بأسلوب صاحب Churrigueresque يتحدّث الواحد فيها بصعوبة. ولا يميّز مكان جوقة التّرتييل تلك إلا آلات الأرغن الجميلة، والصّليب المنفّذ بيد پابلو دي روخاس Pablo de Rojas. وتحت جوقة التّرتيل دُفن ألونسو كانو (المتوفى سنة 1667)، وكان واحداً من أعظم الفنّانين الأندلسيين، وكاهناً ثانوياً في الكاتدرائية.

إحدى أهم الصّور المميزة هي أيقونة العذراء الحزينة Virgén de la Soledad، موجودة فوق مذبح كنيسة القدّيس ميغيل Capilla de San Miguel (الكنيسة الأولى على اليمين لدى دخول الكنيسة). وكانت قد سُرقت في العام 1873، ثم أعيدت إلى المدينة بعد فترة وجيزة. زُخرفت الكنيسة بشكل جميل بالرُّخام الأحمر والأخضر المرقّط (السّرپنتين) وأمر بإنشائها رفيع العلم والشّأن، المحسن، رئيس الأساقفة موسكوسو Moscoso عام 1804. أما قبرُه فمن صنع النّحّات فولتش Folch. ولقد وضعت في الكنيسة – ولا نعرف لماذا – آنيتا زهور صينيّتان أنيقتان.

بين هذه والكنيسة الأخرى مدخل إلى غرفة المقدّسات أو الجامع القديم، وإلى يسارها صورة صغيرة، وأمامها اعتاد القدّيس يوحنّا اللّاهوتي St. John of God أن يصلّي بورع. وفي كنيسة الثّالوث Capilla de la Trinidad بعض اللّوحات الجيدّة، من بينها أيقونة الثّالوث Trinity لكانو Cano، ومنمنمتان صغيرتان على النحاس للفنّان ذاته، وموت القدّيس يوسف Death of St. Joseph لماراتّا Maratta. ونسخ أعمال لرافئيل وريبيرا Ribera. وأعمال ريبيرا الحقيقية (المسيح الطّفل Child Jesus، والقدّيس لورنس St. Laurence، والقدّيسة مريم المجدليّة St. Mary Magdalene) وأعمال أخرى لكانو Cano في كنيسة يسوع النّاصري Jesus Nazareno الفخمة التي تعود إلى القرن الثّامن عشر. ويأتي بعد هذا، الباب القوطي الضّخم للكنيسة الملكية لإنريكِه إيغاس، ووراء باب كنيسة سانتياغو Chapel of Santiago مع تمثال رائع للقدّيس الأكبر حامي إسپانيا Patron Saint of Spain على حصانه، قُدّم

إلى الكاتدرائية من المدينة عام 1640. أمّا الأيقونة القديمة عذراء الغفران Virgén del Perdón فقد منحها للملكة الكاثوليكية إيزابيلّا البابا إينوسنت الثّامن Innocent VIII، وكان من المعتاد أن تحملها الملكة. وكانت تُبجّل بشكل علني (لا تُعبد أو تُقدّس)، في مناسبة الذّكرى السّنوية للفتح الإسپاني، في الثّاني من يناير.

نعبر غرفة مقدسات الكاتدرائية ببابها الأنيق الذي أنجزه سيلوِه Siloé، لنستريح أمام باب الكلّيّة Puerta del Colegio. وخلف منحوتة «هو ذا الإنسان» Ecce Homo قيل إنّ مايّيدا Maeda قد نحت الشّيطان لوسيفر Lucifer بجمال استثنائي. فكان قد قدّم طلباً لسيلوِه Siloé من أجل العمل وامتحان براعته في النّحت، فما كان من المعماري الفاحص إلا أن قال له بازدراء: انحت الشّيطان إذن! فما كان من مايّيدا Maeda إلا أن نفّذ ما طلب منه حرفياً.

تغطي كنيسة القدّيسة حنّة Santa Ana الغرفة المقبّبة المخصّصة لرؤساء الأساقفة، وتحتوي على جزء من مذبح يعود إلى القرن السّادس عشر، ولوحة القدّيس يوحنّا St. Jean de Matha (وهو فرنسي، وليس إسپانياً) لبوكانيغرا Bocanegra. والكنائس السّت التي تتبعها ليست لها مزايا معيّنة. أما الكنيسة الرّابعة على الجهة اليسرى للكاتدرائية فتسمى La Virgén de la Antigua (العذراء القديمة)، نسبة إلى صورة قوطية بجّلها بشكل كبير فِرناندو الكاثوليكي، ونظر إليها أتقياء غرناطة بكثير من المهابة والإجلال. وهنا تظهر لوحتان بيد خوان دي سيڤيّا Juan de Sevilla تصوّر فرناندو وإيزابيلّا يصلّيان، والملك متسربلاً بدرع. رُسمت اللوحات بالأسلوب القينيسي (أسلوب البُندقية). وفي رافدة المذبح لوحة لكورنيخو Cornejo من الأفضل الاقتصاد في الكلام عنها. إنّ رأسي القدّيسين يوحنّا وبولس المرسومين بأسلوب الواقعية بيد كانو Cano يعكسان حبّ عصره لهذا النّوع من الفن. وهي الآن في كنيسة عذراء الكَرْمِل Virgén del Carmen. أما الكنيسة الأولى، أو المعموديّة فقد شيّدها، آدم Adam وأغوادو Aguado، على نفقة رئيس الأساقفة غالڤان Galvan، الذي دُفن هنا إلى جانب أحد الذين شغلوا العرش الأسقفي وهو دون بيينڤينيدو مونثون Don Bienvenido Monzón. والمنحوتتان النّافرتان الرّائعتان للقدّيسين هيرونيموس Jerome وإيزيدوروس Isidore هما للفنّان مورا Mora. الآن، وصلنا إلى أبواب المدخل، وعلى كل جانب منها عُلّقت لوحة جميلة. أمّا اللّوحات الثّلاث فوق الأبواب فتمثّل مشاهد دينية.

أهم مزيّة في صالة اجتماع الرّهبان أو Sala Capitular، هي الشّرفة المباركة مع رسوم ترمز إلى العدالة والحكمة، وهي بالإضافة إلى مجموعة الثّالوث المقدس تُنسب دون أدنى شك إلى مايّيدا Maeda.

قبل أن نغادر الكاتدرائية، يتوجّب علينا أن نزور غرفة الذّخائر، إنها تحوي عمل Assumption (لوحة رفع مريم العذراء إلى السّماء) لكانو Cano وتمثالين له أيضاً وصليباً لمونتانييث Montañez، والعائلة المقدسة لخوان دي سيڤيّا Juan de Sevilla، ومريم الطّاهرة لبوكانيغرا Bocanegra. تحتوي الخزينة على بعض الأثواب المطرّزة بشكل رائع، وأمثلة لحرفة صناعة الفضّة، وهي جيّدة لكنها ليست رائعة. وهناك خاتم للبابا سِكستوس Sixtus الثّالث، والوعاء المقدس المقدّم من إيزابيلّا له أهمية تاريخية بكل تأكيد.

علبة الجواهر أيضاً تُعرض للزوار، ويُذكر لهم على وجه اليقين بأنها هي العلبة نفسها التي وُضعت فيها الجواهر المرهونة من قبل إيزابيلّا من أجل الحصول على تمويل لرحلة كولومبوس الأولى. وإذا كان هذا صحيحاً، فإنّ أسطورة صندوق پاندورا Pandora تعتبر غير ذات قيمة مقارنة

بها! أما كتاب الملكة المقدّس من عمل فرانثيسكو فلورِس Francisco Flores فقد زُخرف بشكل جميل. وقد وُضع فوق المذبح العالي في الذّكرى السّنوية للفتح الإسپاني. أمّا الشَّغوف بالأسلحة فسوف يمسك بفضول بسيف فرناندو الكاثوليكي، وللمقبض رُمّانة كروية وحمائل Quillon متدلّية مع فروع باتجاه النّصل، الذي نقش حتى ثلثي طوله تقريباً. كما أنّ هناك بقايا أخرى كانت لملوك الكاثوليك هي صولجانهم، تاج إيزابيلّا، الرّايات الملكية التي رُفعت أثناء الفتح الإسپاني، ورداء الكاهن الذي قيل بأنّ الملكة طرّزته بيدها.

من خلال الباب إلى جانب كنيسة القدّيس ميخائيل Capilla de San Miguel نعبر السّاغراريو Sagrario (غرفة الذّخائر) التي تحتلّ موقع الجامع القديم، وقد حلّت محلّه في عام 1705. وقام بتصميمها دون فرانثيسكو أورتادو Don Fransisco Hurtado وخوسيه دي بادا José de Bada، فمسؤولية قطعة من الفن المعماري بهذا المستوى يجب أن تُلقى على عاتق رجلين جديرين بها. إذ أنه من الممكن أن تُنبذ لصخبها، لكنها ليست لحسن الحظ بلا شأن. ففي إحدى الكنائس دُفن «الفارس العظيم فرناندو دِل پولغار Fernando del Pulgar، سيّد الملح El Salar» كما تسجّل الكتابات. هذا الفارس الشّجاع، أثناء آخر حملة على غرناطة، أغار على المدينة مع 15 فارساً، ووضع فتيل شمعة على أرض المسجد، ويقول البعض، إنه ثبّت ورقة بمسمار تحمل صلاة Ave Maria (السّلام عليك يا مريم) على الباب. هذه المأثرة أكسبته وسلالته الامتياز القيّم الذي خوّلهم ارتداء قبعاتهم في الكاتدرائية. وعظام دي پولغار De Pulgar قد تآكلت أكثر من عظام رئيس الأساقفة الطّيب دي تالاڤيرا de Talavera، التي بُعثرت عندما هُدم المسجد القديم. هذا وتحتوي غرفة الذّخائر عدّة لوحات قيّمة، تتضمن أيقونة القدّيس يوسف San José لكانو Cano، وتحوي أبنية الكاتدرائية على نخبة رائعة من أعماله، كما لاحظنا. ومن خلال الباب الذي يقع إلى جانب كنيسة پولغار Capilla de Pulgar، والممرّ المظلم، يمكن الدّخول إلى الكنيسة الملكيّة.

أمّا البناء المسيحي الصّرف والأقدم في غرناطة فهو دير وكنيسة القدّيس خيرونيمو San Jerónimo، التي نقلت أساساتها إلى هنا من ضاحية سانتا فيه Santa Fé مباشرة بعد الفتح الإسپاني. والدّير الآن عبارة عن ثكنات للفرسان وبعيد عن أعين الفضوليين. والكنيسة التي بناها دييغو دي سيلوِه Diego de Siloé، تأخذ شكل صليب لاتيني بسيط، جليل وصارم. أما الجدران فزُيّنت بلوحات فِريسكو تمثل مشاهد من آلام المسيح، ولوحات لآباء الكنيسة، وملائكة تعزف على القيثارة وتغني. أُنجزت في عام 1723 على يد رسّام غامض يدعى خوان دي مِدينا Juan de Medina. وهناك ثماني كنائس مفتوحة على جناحها وصحنها، إحداها تحوي رافدة مذبح تزيّنه لوحة رائعة، موضوعها الدّفن. وتظهر الكنيسة الرّئيسية مهارة سيلوِه Siloé في أوجها. وقيل إنه حقّق في بنائها «هدفه النّبيل لإظهار نهضة إسپانية حقيقية»، حمل هذا الهدف ثمرة صغيرة، إلا أن بعض أتباعه قيّدوا أنفسهم بالأسلوب التّقليدي الصّارم (الكلاسيكي)، والبعض الآخر بتطوير أسلوب Plateresque نسبة إلى فنّاني صنع الفضّة». إنّ تزيينات الكنيسة تتمتّع بكثير جداً من روح النّهضة، وكذلك التّماثيل التي تمثّل شخصيات العصر الكلاسيكي: قيصر، پومپي Pompey، هنيبعل، هوميروس، وآخرين، وتظهر جنباً إلى جنب مع شخصيات من أسفار العهد القديم تزيّن الكنيسة. كم هو غريبٌ حقاً هذا الإعجاب بالحضارة الوثنية، وتعايشه مع التّعصّب الدّيني الشّرس ضدّ كل ما هو غير كاثوليكي معاصر!

كُرّست الكنيسة بأكملها عملياً لذكرى الجندي الإسپاني الأعظم، القائد غونثالو دي كوردوبا Conzalo de Córdova، الذي دُفن هنا، ولكنّ رفاته نُقلت إلى مدريد. يظهر البطل وزوجته الدّوقة في نحت، يركعان في صلاة على كل جهة من المذبح العالي. ويرتفع فوقه رافدة مذبح ولوحة رائعة تزيّنه مقسّمة إلى عدّة حُجيرات مليئة بالمنحوتات النّافرة والتّماثيل. والمقاطع الأفقية فيها إغريقية – دورية إيونية – كورنثية، ومختلطة مصفوفة على التّوالي. أمّا الحُجيرة الرّئيسية السّفلى فتحتوي على الهيكل Tabernacle، ومواضيع الحجيرات الثّلاث التي تعلوها مباشرة هي عن الحَبَل بلا دَنَس Immaculate Conception، والقدّيس خيرونيمو Jerome، والصّلب. وفوقها جميعاً يظهر شكل الآب الخالد. هذا العمل الرّائع، الفريد من نوعه في إسپانيا، يبدو أنه أُنجز على عدد من الفنانين، من بينهم خوان دي آراغون Juan de Aragón وپدرو دي أوريا Pedro de Orea، وپدرو دي راشيس Pedro de Raxis. والقنطرة على شكل محارة جميلة في الأعلى قد زُيّنت بصور الحواريين والقدّيسات بربارة، كاترينا، مَجدلينا، ولوسيا، والقدّيسين المحاربين: جرجس وأوستاخيوس ومارتين وسيباستيان وفرانثيس. والسّيف الذي منحه البابا إلى القائد العظيم، كان أحد كنوز الكنيسة، وقد انتزعه بالقوة سيباستيان أثناء حرب شبه الجزيرة الإيبيريّة Peninsular War.

هناك كثيرٌ من الأشياء الجميلة العظيمة في هذه الكنيسة القديمة التي تسهو عن ملاحظتها أنظار الإنسان العادي. فالمقاعد في جوقة التّرتيل قد صُمّمت بيد سيلوِه Siloé. ولوحات الفريسكو، التي تمثل انتصار الكنيسة، والعذراء، والقربان المقدّس، ورفع مريم العذراء... قد أُنجزت بشكل جيد جداً. ولكن ترميم البناء تعرّض للكثير من النّقد، إنّما من الصّعب أن تتخيّل كيف كان بإمكانه أن يكون أفضل.

في جوار كنيسة تذكار القائد الإسپاني العظيم مبنىً لبطل وشخص إسپاني عظيم من نوع آخر تماماً. لقد كرّس خوان دي روبلِس Juan de Robles نفسه للمريض والسّائل مع حماسة أفضت به إلى الحبس في قفص للمجانين. لم تُقدّر فضائله بعد وفاته فقط وكانت سبباً في طوباويته تحت اسم القدّيس يوحنّا اللاهوتي John of God عام 1669، إجلالاً لذكراه. ولو قُدّر له لكان دون أدنى شك سيُسرّ أكثر إثر بناء المستشفى الكبير الذي شُيّد بعد سنتين من وفاته وذلك في عام 1552. يوجد رُفات القدّيس في تابوت فضّي، يرقد في كنيسة المشفى، وهو عبارة عن بناء فخم باهظ الكلفة سيّء الذّوق. والواقع أنّ أسلوب تشورّيغيرا Churriguera المتكلّف في الفن المعماري الإسپاني قد طغى على الجميع. وأهم ما فيه لوحة القدّيس، وتوجد نسخة عنها في مدريد.

ارتبط اسم القائد العظيم بكارتوخا Cartuja، وهو الدّير الكارتوزي الذي قُمع، وكان قد أعطى الأرض التي بُني عليها كهبة. بني الدّير عام 1516، وهُدم عام 1842. ولم يبق منه إلا جزءٌ صغير مع الكنيسة. ولقد شُوّه الصّحن الوحيد بالزخرفة المفرطة على طراز صانعي الفضّة Plateresque. رُصّعت أبواب غرفة جوقة التّرتيل بغنىً وبذوق رفيع بخشب الأبنوس وأصداف اللؤلؤ، والأرز وصدف السّلحفاة، وكانت من عمل راهب هو مانويل ڤاسكيث Manuel Vazquez، الذي توفّي عام 1765. والصّرح مشيّد على الطّراز الباروكي، وهو غنيّ بالرُّخام النّفيس، بعضه معرّق بأحجار العقيق. وعلى بعض ألواحه، رسمت يد الطّبيعة أشكالاً تشبه الإنسان والحيوان. وفي غرفة الذّخائر المجاورة، رُكّبت أنواع متعدّدة من الرُّخام لإسباغ مظهر باهر وبهيّ لأقصى حدّ. والقاعة بالتأكيد واحدة من أروع القاعات في إسپانيا، ولا تقلّ عنها روعةً الأبواب والمصاريع المرصّعة باتقان. إن الذّوق السّيء للكنيسة بشكل عام وجد ما يعوّض عنه بتمثال للقدّيس برونو، مؤسّس المذهب

الكارتوزي Carthusian، وقد أنجز التّمثال ألونسو كانو Alonso Cano، وبعض الصّور لبوكانيغرا Bocanegra، وجاكينتو Giaquinto، وكوتان Cotán. والمذكور أخيراً راهب، كان مسؤولاً عن اللّوحات في الدّير، التي تمثّل استشهاد الرُّهبان الكارتوزيين في لندن على يد الطّاغية هنري الثّامن والسّفاحين الذين كانوا يعملون موظفين في بلاطه.

كان دير كارتوخا Cartuja سابقاً غنياً بالأعمال الفنية، ولكن مثل سان إيرونيمو، قد نُهب من قبل الفرنسيين بقيادة سيباستياني، الذي أثبت، كما في كل المناسبات، تعصّب الهاوي مقترناً مع جشع اللّص.

أمام كنيسة القدّيسين بطرس وبولس Santos Pedro y Pablo بناءٌ أنيق جداً بني عام 1539 لإرناندو دي ثافرا Hernando de Zafra أمين سرّ الملوك الكاثوليك. والباب مكون من ثلاث مراحل: يحتوي الأول على المدخل، وهو عبارة عن باب مربّع، بين الأعمدة الدّورية Doric الإغريقية، ويحمل الثّاني شعارات النّبالة للعائلة، نُحتت فوقها أسود وغرفين (حيوان نصفه نسر ونصفه أسد)، أما الثّالث فيحتوي على شُرفة بين أعمدة، منقوشة بنُحوت نافرة دقيقة. وعلى نفس الخط هناك شُرفة أخرى، تحمل كتابة غريبة تقول، Esperándola del Cielo – «فلتأملنّ بها في الجنّة» تشير هذه الكلمات إلى أسطورة مأساوية تقول إنّ دي ثافرا De Zafra ساوره الشّك في أنّ ابنته على علاقة سرّية برجل. ولكي يحسم شكوكه، اقتحم غرفتها في يوم من الأيام، فوجد حاجب الغرفة يساعد الحبيب على الهرب من النّافذة. وبعد أن يئس من ملاحقة طريدته، عاد الأب، والموت في عينيه، إلى الحاجب. فصرخ الغلام: «الرّحمة». أجاب الدّون Don: «فلتأملنّ بها في الجنّة»، ملقياً بالمتآمر مع ابنته من الشُّرفة. هكذا تروي الأسطورة. ويبدو أنّ دي ثافرا De Zafra، بحسب السّجلّات، لم يترك أولاداً، أمّا ابنته فيبدو أنها لم تعش طويلاً علاقتها الغرامية. يعلق ڤايّادار Valladar قائلاً: «لَعَمري، في القرن السّادس عشر لم يكن هناك أسهل من أن ترمي حاجباً خارج النّافذة دون أن تجلب انتباه الشّرطة أو القضاة».

لا مُشاحّة في أنّ غرناطة غنيّة بالكنائس القديمة والمنازل تماماً كإشبيلية، ويشكّل منزل القائد العظيم الآن جزءاً من دير الرّاهبات الكرمليّات Carmelite، وعلى الواجهة لوحٌ دُوِّن عليه: «في هذا المنزل عاش، وفي الثّاني من شهر ديسمبر عام 1515 مات، القائد العظيم دون غونثالو Don Gonzalo Fernandez de Aguilar Y de Córdoba، دوق سيسّا Sessa، وتيرّانوڤا Terranova، وسانت آنخيلو Santangelo، البطل المسيحي، داحر المغاربة Moros، والفرنسيين، والأتراك». يبدو أنّ أبنية كاسا دِل تيروس Casa del Tiros وجنّة العَريف Generalife وكذلك منزل المركيز كامپوتيخار de Campotejar قد أقيمت على موقع قلعة عربية محصّنة أو أنها تشكّل جزءاً منها. ويعتقد البعض بأنها أعمال تحصينية لما يعرف بالأبراج الحمراء أو الخمريّة (تورِّس بيرميخاس) Torres Bermejas. ويدلّ داخله على الطّابع العربي، كما يبدو أنّ العرب أيضاً قد أنشأوا السّلالم وهناك زلّيج Azulejos غنيّ ورقش أرتيسونادو Artesonado رائع مزين بمنحوتات نصفية مجسّمة لعظماء الإسپان مع رؤوس عربية ومسيحية ومنحوتات نافرة تمثّل: لوكريتيا Lucretia، يهوديت Judith، سميراميس Semiramis، پنثيسيلا Penthesilea.

يُحتفظ في هذا المنزل بسيف عربي ذي مقبض رائع وغمد، قيل بأنه يعود لأبي عبد الله الصّغير Boabdil. لكن غمد السّيف، بلا ريب من عمل لاحق للفتح الإسپاني، وحريّ بالمرء أن يساوره الشكّ بشأن أجزاء الزُّفات المتعدّدة المنسوبة إلى الملك المسلم الأندلسي الأخير.

في واقع الأمر، لم يبقَ من غرناطة القديمة أكثر من الأبنية التي سمّيناها سابقاً. يمكن أن نرى في برج سان خوان San Juan de los Reyes المرمّم بشكل سيء جداً، أن تشييده العربي يبدو شرقياً بوضوح أكثر من أيّ صرح غرناطي آخر، وأنه أيضاً قد طُمس بشكل كامل تقريباً. وفي كاسا دِل آيونتامييتنو Casa del Ayuntamiento (دار البلديّة) القديمة هناك بعض التُّحف التّاريخية النّادرة، وبشكل خاص، المسوّدة الأصلية للامتياز الممنوح لغرناطة من قبل الملوك الكاثوليك، والدّرع الرّسمي الضّخم للمدينة. وثمّة مواقع كثيرة، مثل ساحة باب الرّملة Plaza de Bibarrambla، التي يُحتفى بذكراها في أغانٍ وقصص إسپانية قديمة، قد حُدّثت بشكل كامل. لكنّ هناك تذكاراً – وهو عمود بسيط متوّج بصليب حديدي – أهمّ من أيّ شيء بناه العرب. تسجّل الكتابة فوق العمود أنه في هذه البقعة، في 26 شهر مايو عام 1831 خُنقت دونيا ماريانا پينيدا Doña Mariana Pineda بشكل علني في عمر 32. ماتت شهيدة الحريّة وضحيّة موجة حكم جائر مسعور غريب ساهم كثيراً في خراب إسپانيا زمن حكم فِرناندو السّابع. كان منزل الدّونيا ماريانا Doña Mariana مركزاً للإجتماعات الليبرالية الحرَة، وعندما اقتحمته الشّرطة وجدوت أنها تحوي على علم ثلاثي الألوان (فرنسي). وواجهت موتها بشجاعة جديرة بقضيّتها. بعد خمس سنوات، عندما استعادت الأمّة رُشدها، نُقل رمادها إلى البلديّة (آيونتامييتنو) Ayuntamiento. أمّا الحاكم الذي أدانها فقد أُعدم بدوره. وفي نفس الموقع لقي ثوّارٌ إسپان كثيرون حتفهم بنيران الجند الفرنسيين، كانوا وهبوا عملهم وحياتهم لخلع فرناندو السّابع عن العرش. والسّاحة التي كانت تُسمّى سابقاً الكامپيّو Campillo، تُعرف الآن باسم ماريانا پينيدا Mariana Pineda. ويمكنك أن ترى تمثالها من الرُّخام الذي نحته كلّ من مارنا Marna وموراِلس Morales.

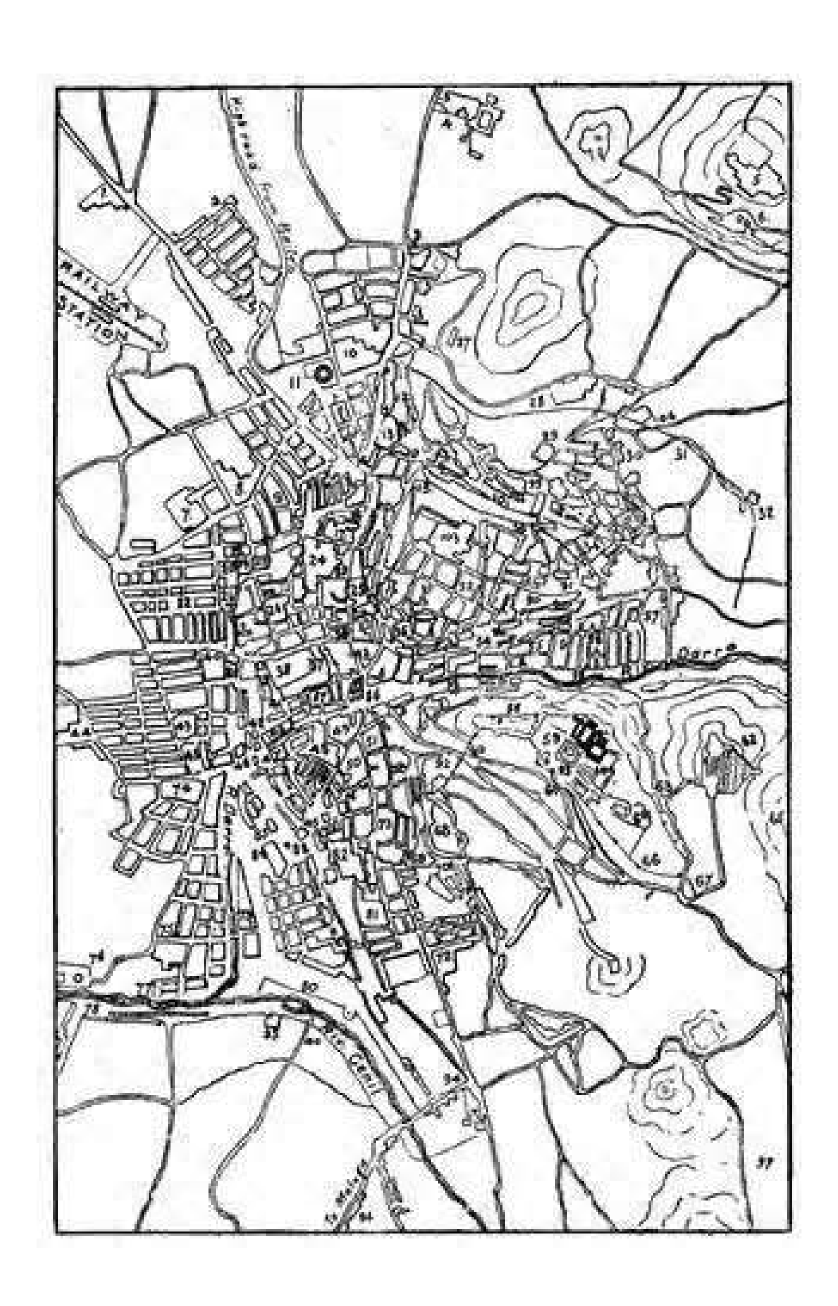
أمّا التّلّ المسمّى ساكرو مونتِه Sacro Monte (أي الجبل المقدس) فهو تحفة تذكارية للسّذاجة الانسانية. ففي عام 1594 أخبر أحدهم وهو فرانثيسكو إرنانِدث Francisco Hernandez الأسقف دون پِدرو ڤاكا دي كاسترو Don Pedro Vaca de Castro بأنّه اكتشف رُفات عدد من الشّهداء المحلّيين في كهوفٍ هنا. فشُيّدت كنيسة دون أيّة مزيّة معمارية في هذه البقعة، وأصبحت مكاناً للحجّ – أمّا الدّليل على أن الشّهداء المُشار إليهم كانوا بالفعل موجودين فما زال قيد البحث. وبداخل الكنيسة حُفظت بعض الكتب الدّاكنة، كتبت بأحرف عربية، ومن المفترض أنها تحوي أعمال القدّيسين. هذه الأعمال كانت موضوع جدلٍ عنيف في القرن السّابع عشر. وتُعدّ تلك الكهوف مهمّة من حيث مزاياها الطّبيعية وكانت غالباً مقابر استخدمت من قبل المسيحيين الإلبيريين Illiberis الأوائل. يمكن ملاحظة بعض الصّخور، وقد اهترأت في أجزاء منها من التّقبيل المتكرّر للمتعبّدين. وثمّة خرافة تقول بأن الشّخص الذي يُقبّل الحجر لأول مرة سوف يتزوّج في خلال سنة، والقبلة الثّانية تؤكّد لأولئك المتزوّجين سلفاً انفراط عقد رباطهم الزّوجي.

في الجهة المقابلة للمدينة، في الضّواحي أيضاً، مصلّىً صغير إسلامي، قد رُمّم وشوّهت معالمه إلى أبعد حد. يُدعى صومعة سان سيباستيان Ermita de San Sebastián، وكان المكان الذي سلّم فيه أبو عبد الله الصّغير (أبو عَبديل) Boabdil مفاتيح غرناطة إلى فِرناندو وإيزابيلّا Fernando y Isabel.

عندما نسير عبر شوارع غرناطة الحديثة، بكنائسها المبهرجة، وبيوتها السّكنية المألوفة، لا يبدو لنا أنها اكتسبت الكثير من جَرّاء تغيّر أسيادها. لكن انحطاطها لم يتم، على الأقل، حتى سنوات عديدة بعد الفتح الإسپاني. والواقع أنّ الاجتياح الفرنسي وأكثر من ذلك انهيار صناعة

الحرير، قد أضعفا بشكل كامل ازدهار المكان. وخلال القرن الأخير فقدت منزلتها كمقرّ للقائد العام. لكن فجر يوم جديد سيأتي لمدينة الفخر العربي والإسپاني على السّواء. فلم تعُد غرناطة تكتفي بعد الآن بماضيها المشرق. وفي الواقع، يبدو أنّ مواطنيها يعيرون النّصب التّذكارية لتلك الأيام القليل من الانتباه. وهناك مظهر عام للغنى والاناقة حول المتنزّهات الواسعة، والجادّات المضاءة جيداً، ويعزى ذلك لمصنع الشّمندر السّكري الذي دخل حديثاً في التّصنيع، لقد استردّ سهل ڤيغا Vega ابتسامته التي افترّ عنها عندما أعلنه أميرٌ مسلمٌ مُلكاً له، وسُمع فيه نداءُ المؤذّن يصدح من أعلى مئة مِئذنة.

* * *



خارطة غرناطة

دليل المواقع على خارطة غرناطة

مشفى سان لازارو.

كنيسة سان خوان دي ليتران.

صومعة سانتو كريستو دي بيدرا.

سان برونو والكارتوخا.

ساكرو مونتِه (الجبل المقدّس Sacro Monte).

القبر المقدّس.

ثكنة الجُلجلة وسان خيرونيمو.

سان خوان دي ديوس (يوحنّا اللاهوتي).

سان خوان دي ديوس (شارع).

مأوى الأمراض العقلية.

ساحة الثّيران (پلاثا دي توروس).

سان إلدفونسو، وطريق دِل تريونفو.

مكتب دفع الرّواتب.

باب إلبيرة.

باب مونايتا.

سان أندريس.

مشفى الأطفال.

مكتب الشّؤون المدنيّة.

سانتوس خوستوس وپاستور.

معهد الموسيقى.

حديقة النّباتات ودير راهبات الرّحمة.

ساحة روپل وغودينِس.

دير التجسّد.

سانتا پاولا.

إلبيرة (شارع).

سان خيرونيمو.

شرفة أورلاندو.

سان دييغو.

سان غريغوريو.

سان لويس.

التّحصينات العربيّة.

سان ميغيل الأكبر.

باب الرّايات.

إل سالڤادور.

سان خوسيه.

دير الملاك.

الكليّة الجامعة.

الكاتدرائيّة.

المدرسة العليا وقصر إقليم غرناطة.

مدرسة الاقتصاد.

ساحة السّوق، وقصر الأسقف.

محكمة البداية (پلاثا دي باب الرّملة).

دير أوغستينِس ومجدلينا.

دار البَرَكة.

پوينتيثويلاس Puentezuelas (جسر).

ساحة مارشال پريم.

دار البلديّة.

سانتا تيريسا (تيريزا).

دير الرّوح القُدُس.

المكتب العسكري.

الدّير الكرمِلي.

مشفى الجُذام.

سانتا آنا.

سانتا إينِس.

دير الحَبَل.

سان خوان دي لوس ريّيِس.

دير النّصر سابقاً.

برج حراسة الحمراء (تورّهِ دي لا ڤيلا Torre de la Vela).

قصر الحمراء.

باب لاس غراناداس.

باب القضاء (خوديثياريا).

جنّة العَريف.

باب الحديد (پويرتا إيييرّو Puerta Hierro).

سان فرانثيسكو (سابقاً دير سنت فرانسيس).

كرسي المغربي (سيّا دِل مورو Silla del Moro).

برج الطِّباق السّبعة (الحمراء).

نافورة الكفّارة.

باب الشّمس.

دير سانتا كاتالينا.

هو ذا الإنسان Ecce Homo.

سان ثيثيليو، والمشفى العسكري.

... ...

سانتا إسكولاستيكا.

الدّير الكپوچي وسانتا ماريّا إيخيپثياكا (المصريّة).

سان أنطون.

أشغال الغاز.

منطقة خربة عامّة.

سان سيباستيان وطريق الڤيولون.

لاس آنغوستياس.

إل سالون.

دير سانتياغو.

متحف أكاديميّة الفنون الجميلة.

نُصب ماريانا.

ثكنة المدفعيّة.

المسرح المركزي (پلاثا دي بايلين Plaza de Bailén).

السّاحة الجديدة.

محلّة السَّقطيين Zacatín.

سوق السّمك.

كنيسة سانتياغو.

سان نيكولاس.

دير توماساس.

الأبراج الحمراء (تورّس بِرميخاس Torres Bermejas).

قصر كارلوس الخامس (شارلكان).

باب الطّواحين.

سان باسيل.

ميدان الألعاب.

مقبرة.

دير سان برناردو وكنيسة سان پِدرو.

سان بارتولوميه.

طريق سان باسيل.

سان كريستوبال.

مشفى القربان Corpus Christi.

سانتا إيسابيل لا ريال (الملكيّة)، وسان ميغيل الأصغر.

سانتا ماريّا (المسجد القديم لقصر الحمراء).

سان ماتياس.

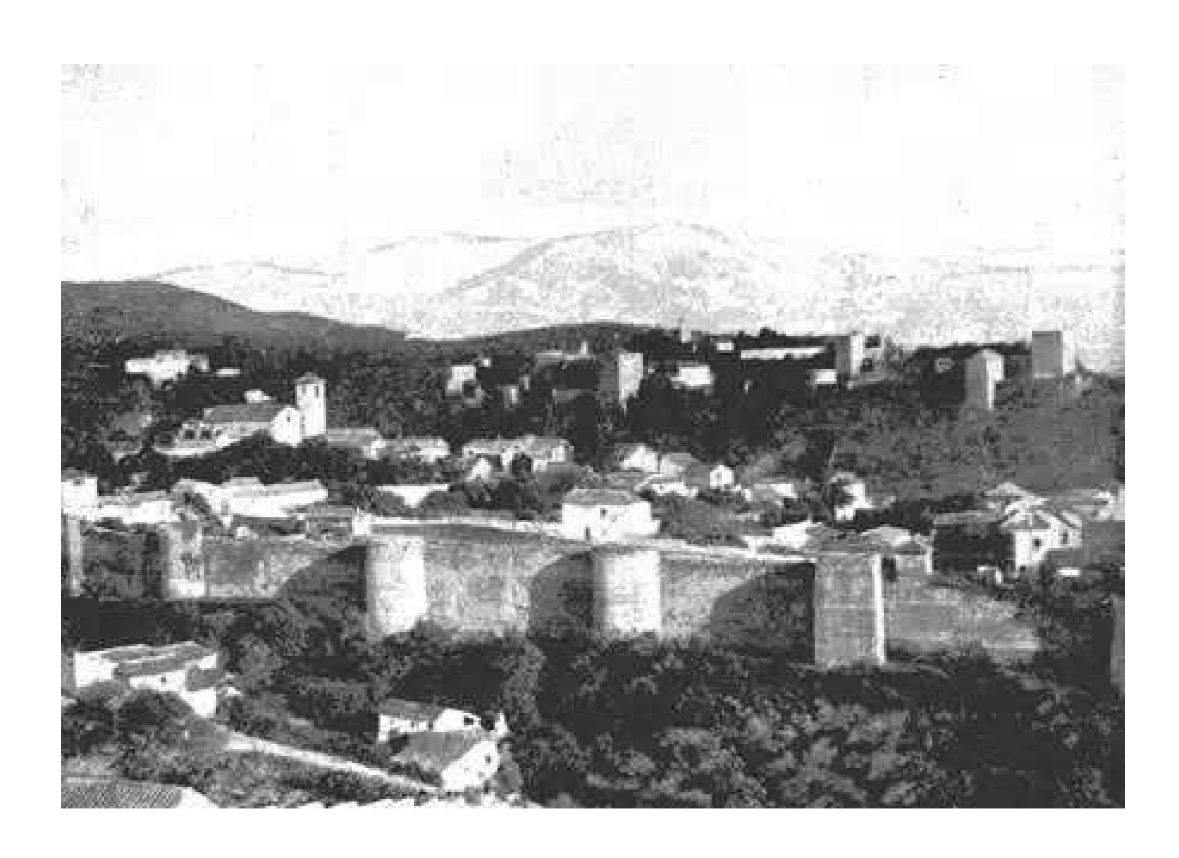
باب الفاخالانثا Puerta de Fajalanza.

مِنديث نونييث (شارع) Calle Méndez Nuñez.

* * *



منظر لغرناطة، يظهر فيه قصر الحمراء وجبال سييّرا نيڤادا



منظر عام لقصر الحمراء



منظر لقصر الحمراء من طريق جبل ساكرو مونتهِ



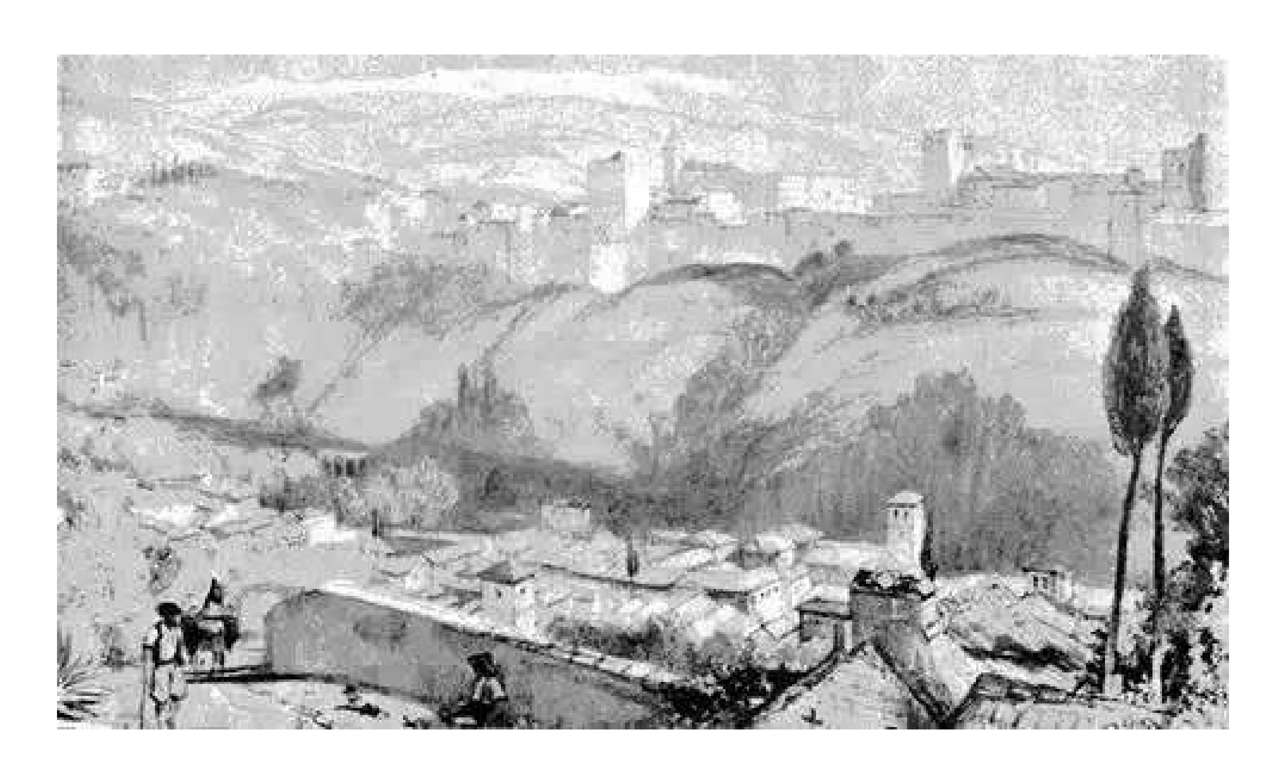
قصر الحمراء من كرسي المغربي (ستّيا دِل مورو)



منظر عام لقصر الحمراء من سان نيكولاس



منظر لباب إلبيرة



منظر لقصر الحمراء من البيازين (رسم)



منظر للكاتدرائيّة وقصر الحمراء من سان خيرونيمو



منظر لجبال سييّرا نيڤادا من كارّيرا دي لاس أنغوستياس



منظر للباب الملكي



منظر من البرج في قصر الحمراء



لا پلاثا نويڤا (السّاحة الجديدة)



نُصب كولومبوس في پالاسيو دِل سالون، وسييّرا نيڤادا عن بُعد



شارع الملوك الكاثوليك



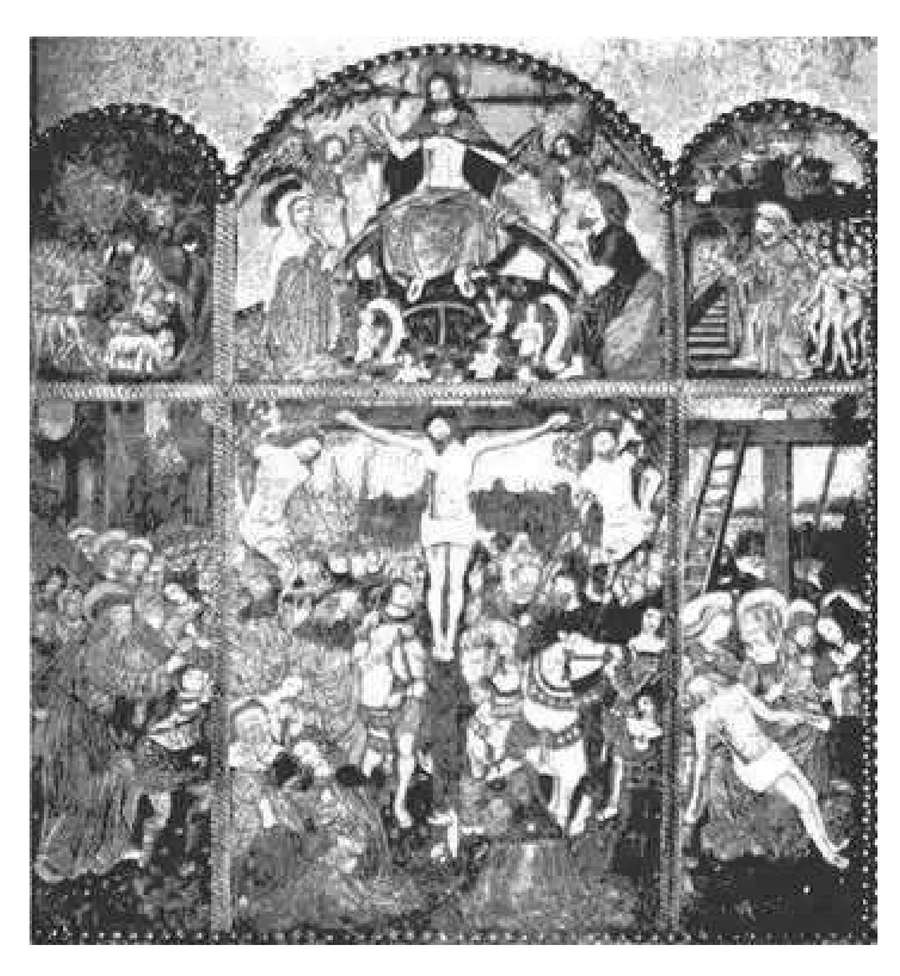
سوق الحرير العربي



لا كاسا دي لوس تيروس

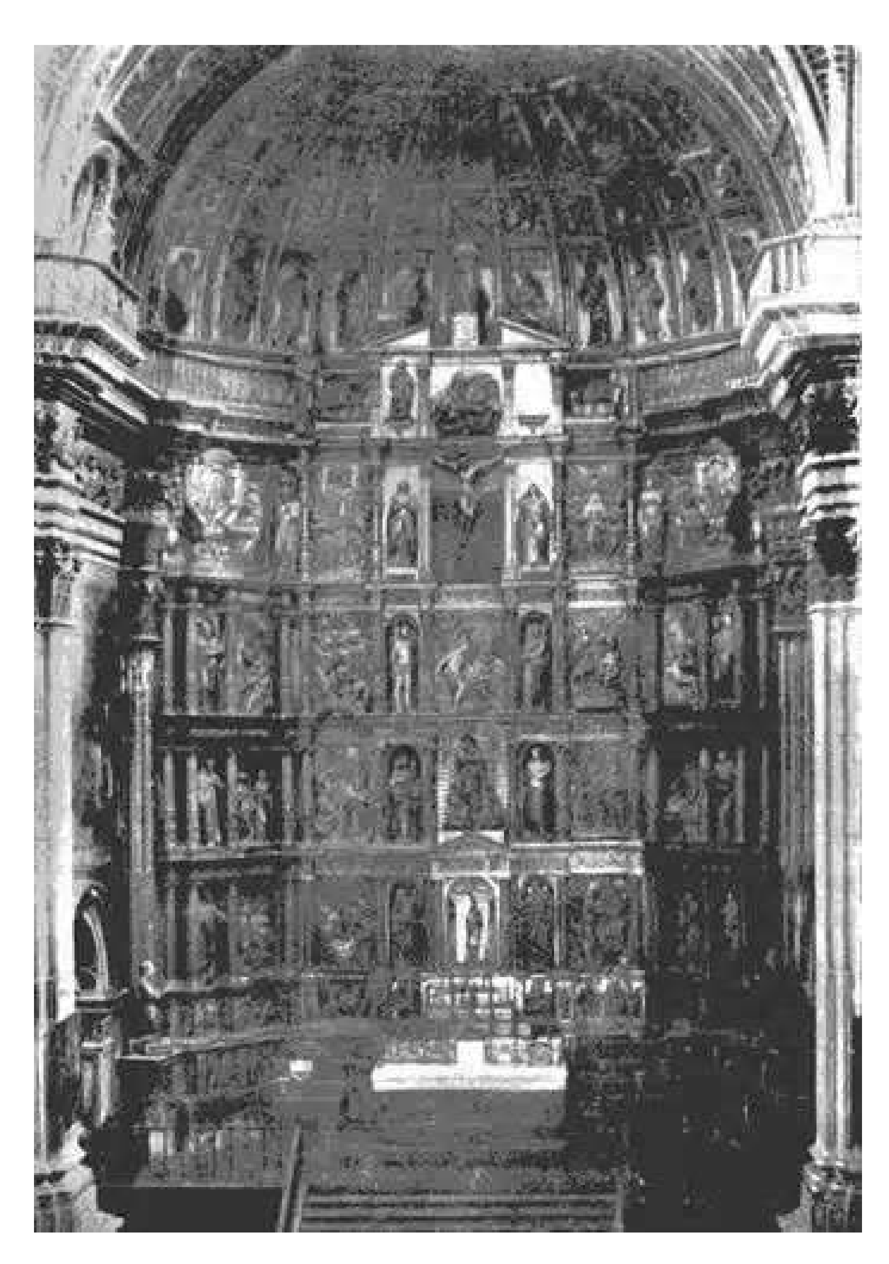


كنيسة سانتا آنا



لوح ثلاثي مطلي بمينا ليموج كان في ملك القبطان الأكبر (غران كاپيتان).

المتحف الإقليمي في غرناطة.



مذبح في كنيسة سان خيرونيمو





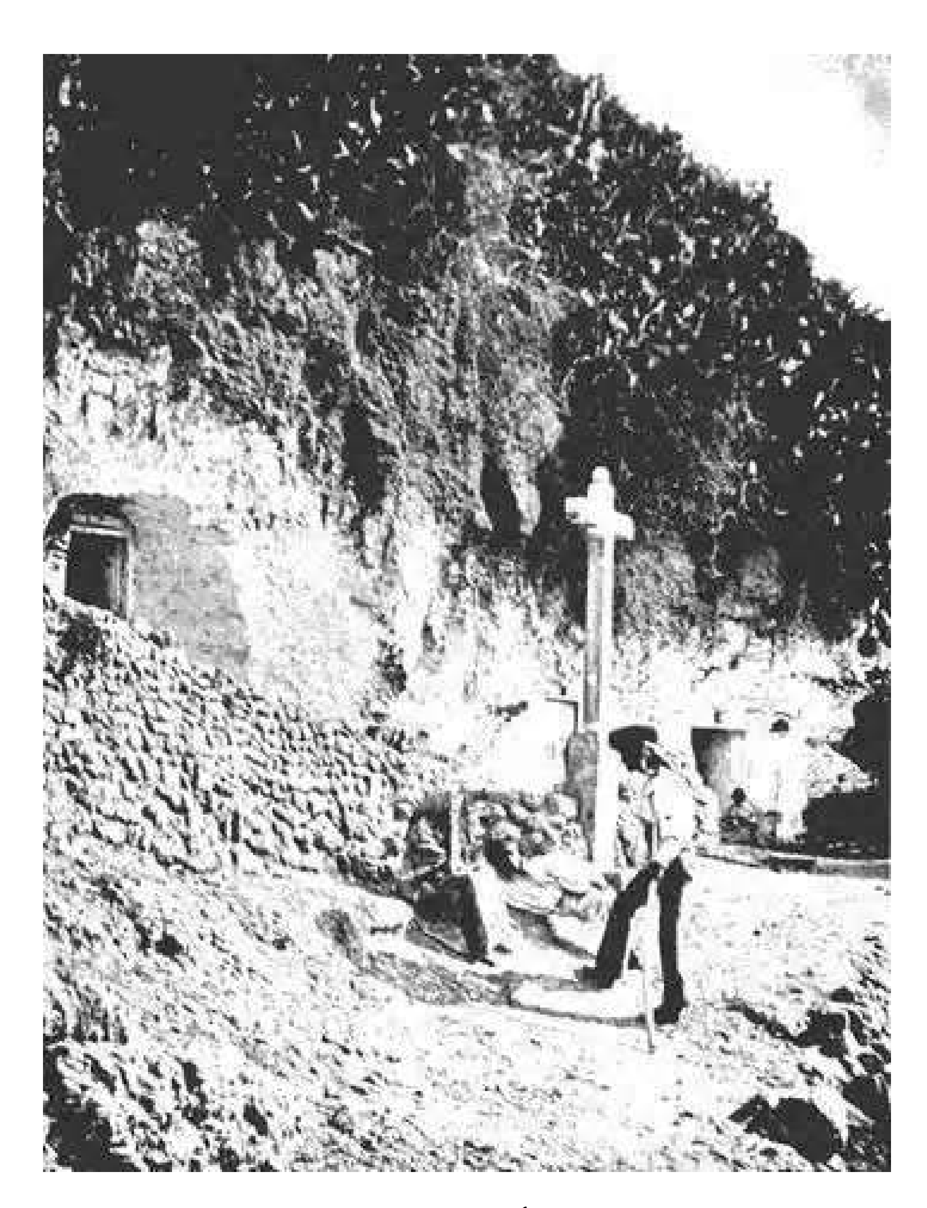
دار في شارع دارّو. قصر العدل (پالاثيو دي خوستيثيا)



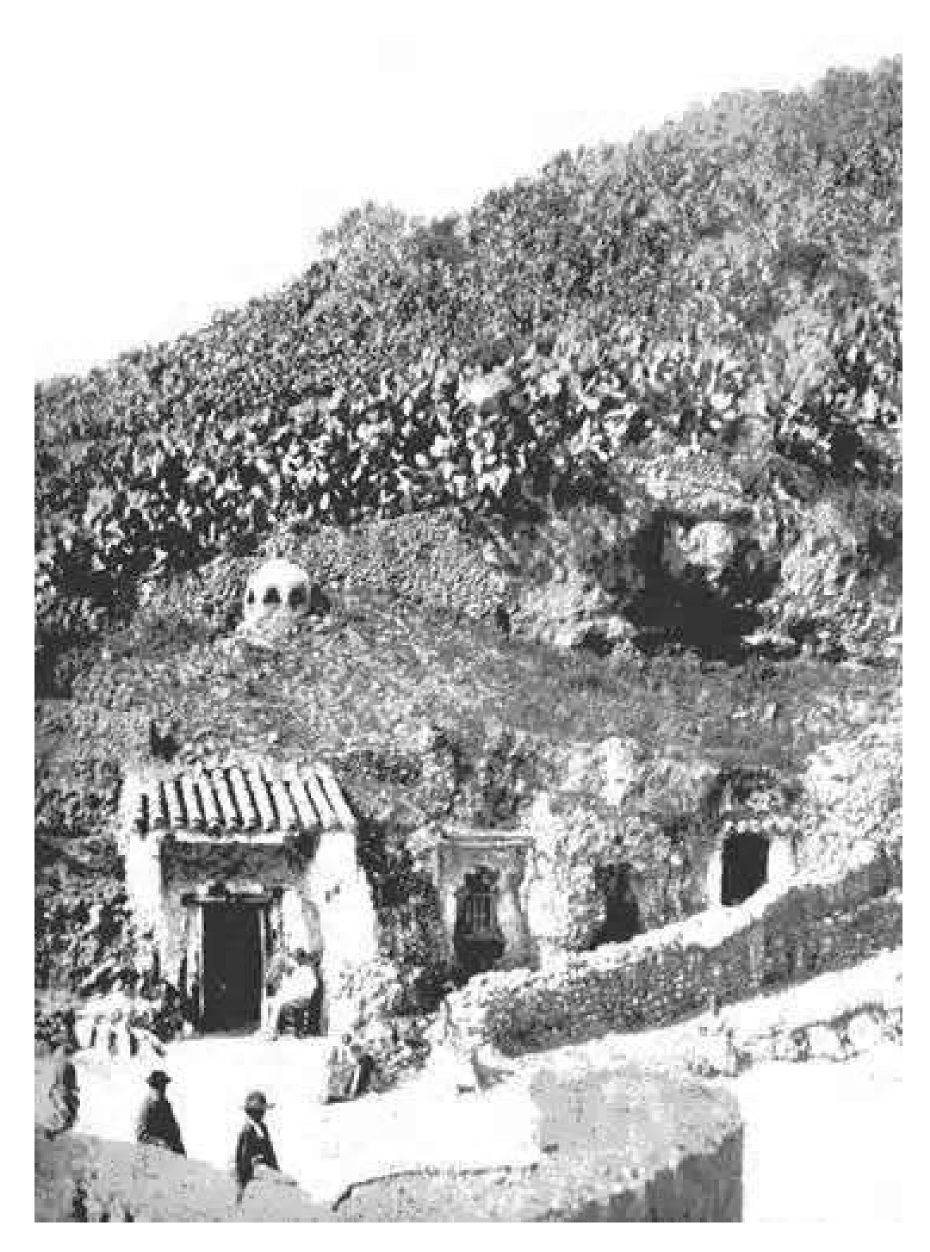
دار كاستريل



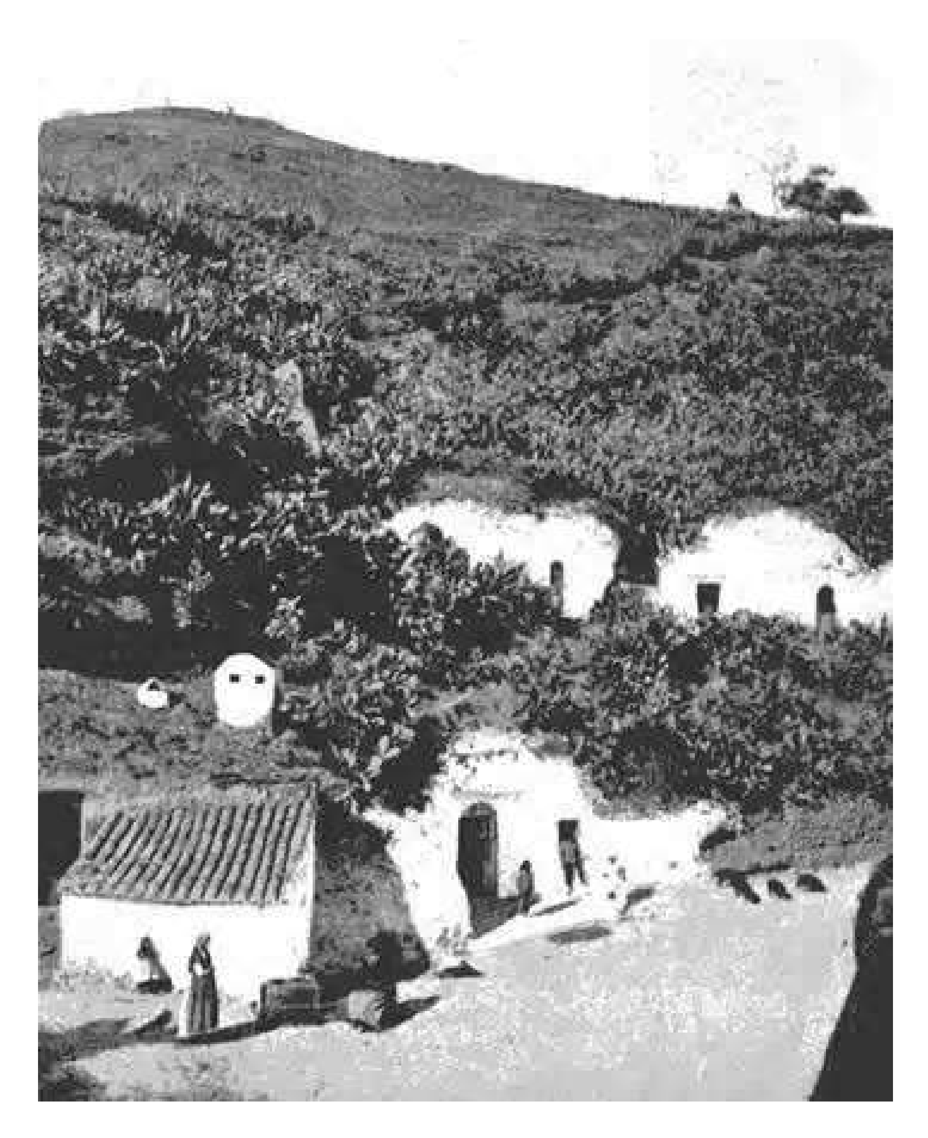
غجر نموذجيّون وحواريهم



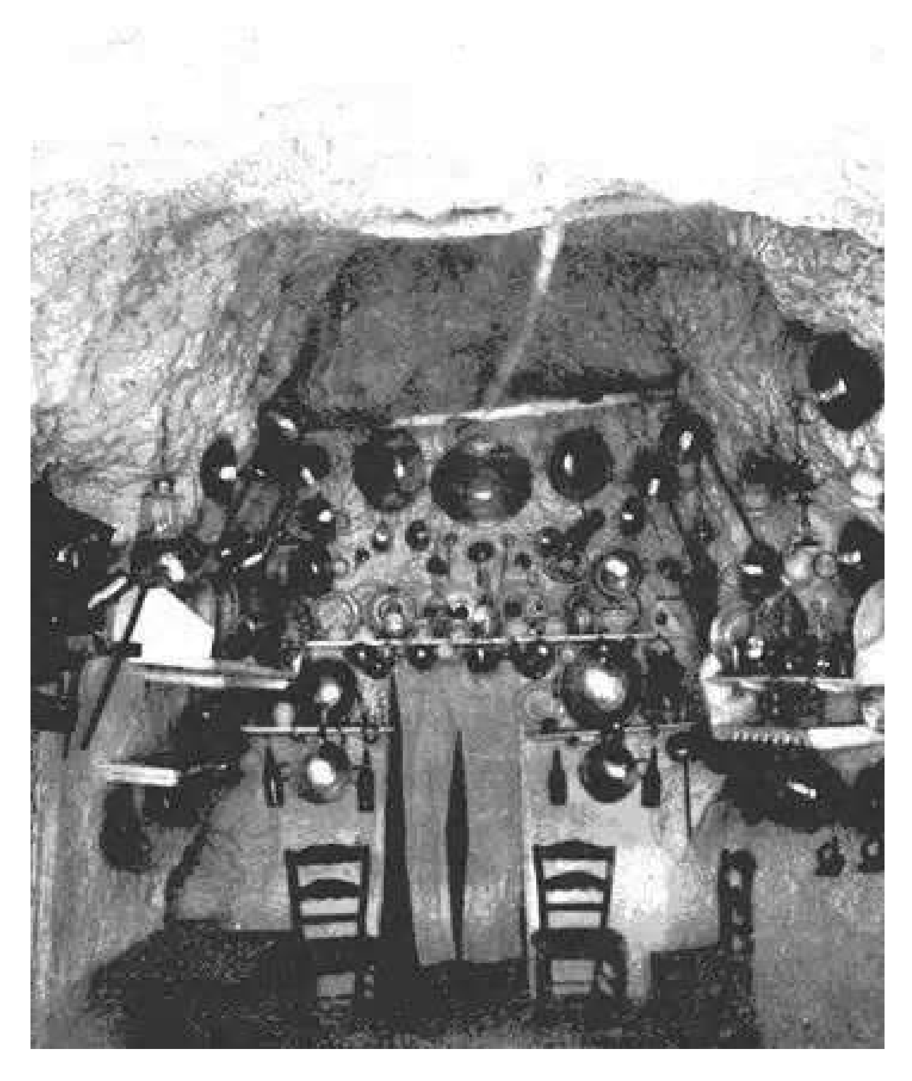
غجر أمام مساكنهم



مساكن غجريّة في جبل ساكرو مونتهِ



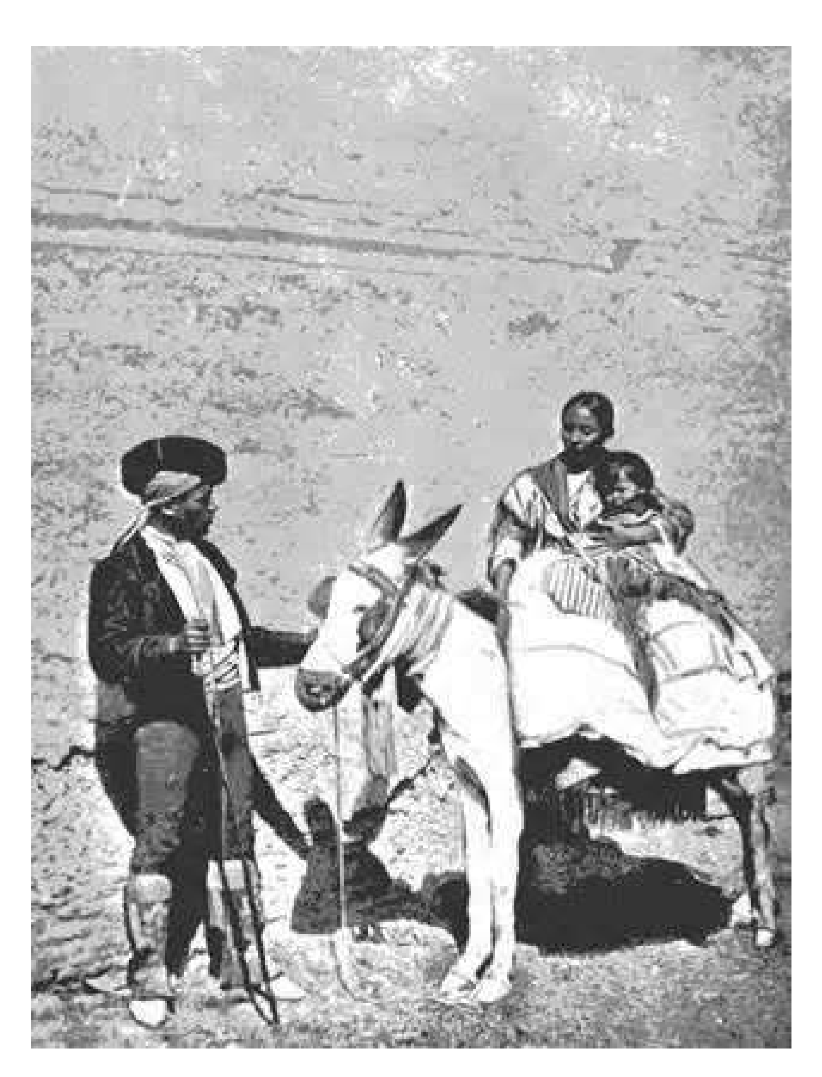
منظر عام لحواري الغجر



داخل كهف غجري



مجموعة من الغجر



عائلة غجرّية



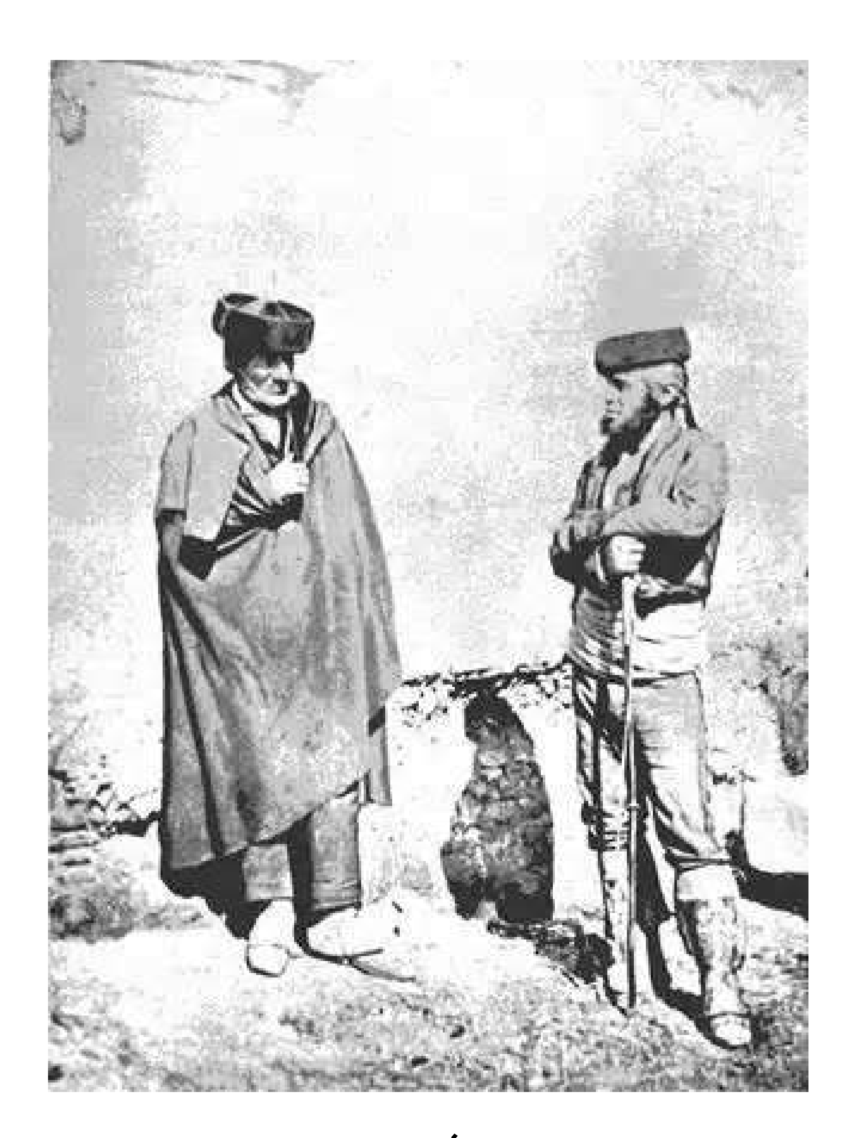
غجر يقيمون في العراء



غجر



غجر يجزّون بغلاً



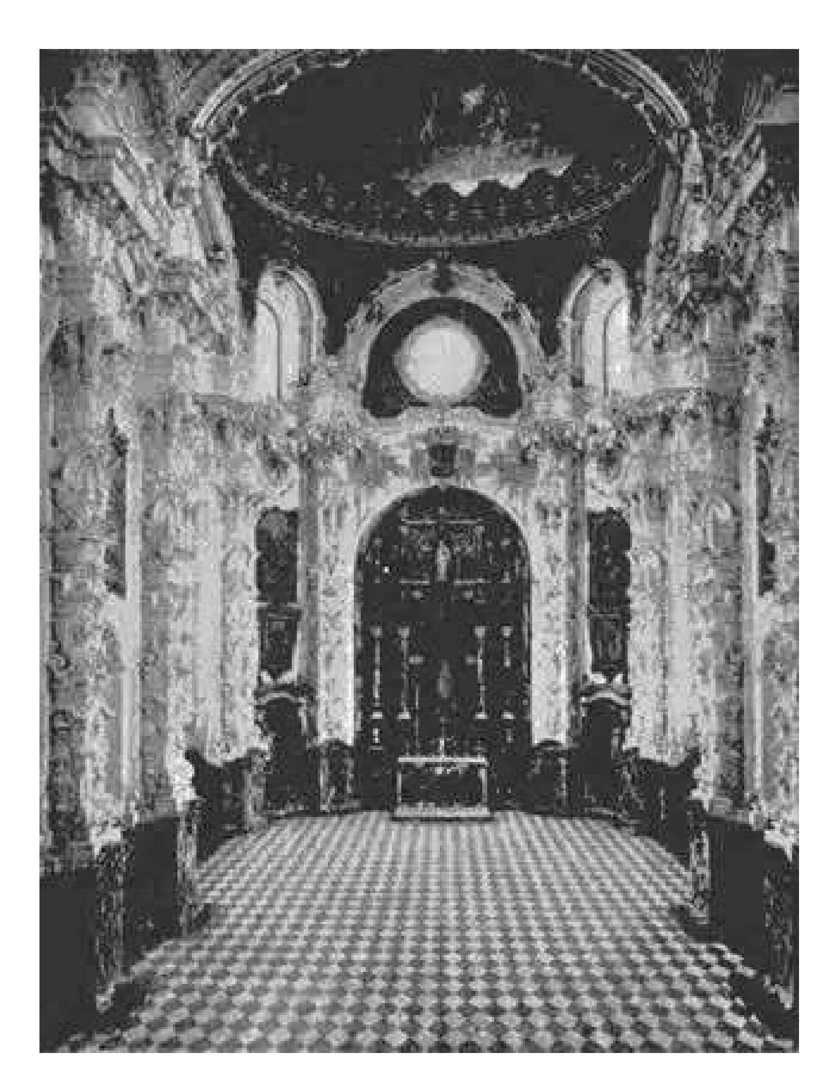
غجر



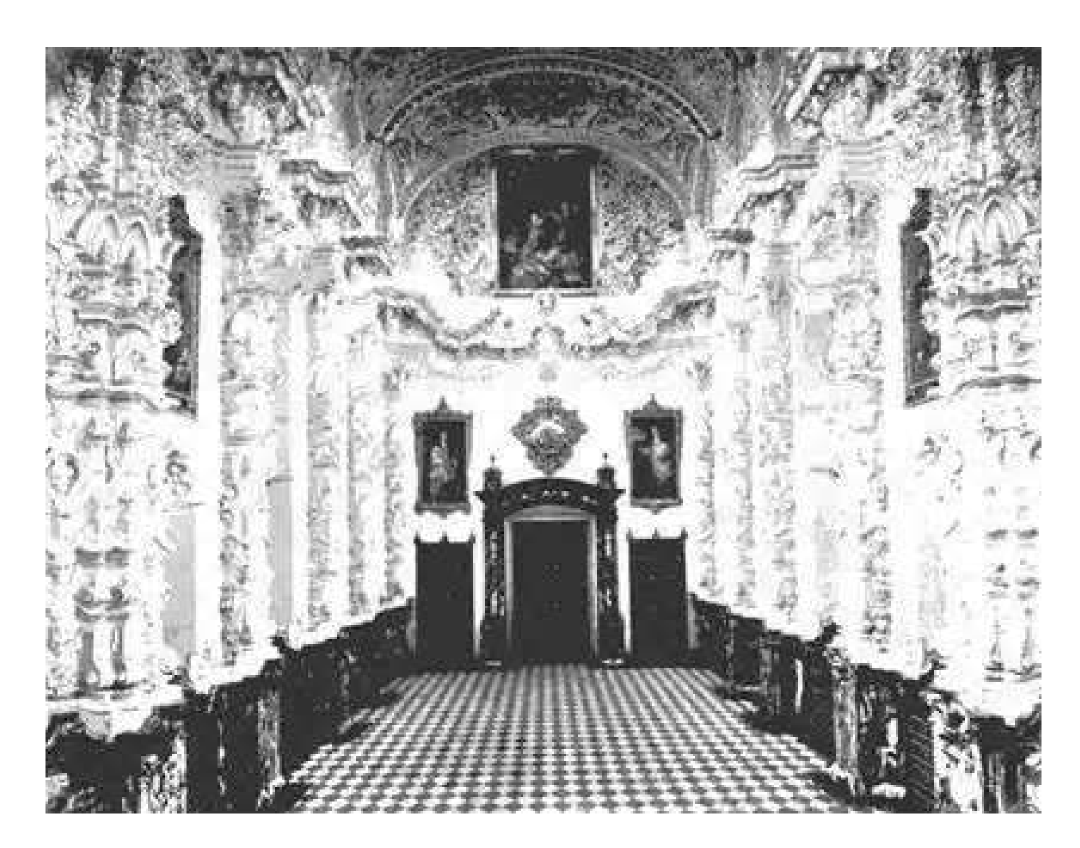
غجر



رقصة غجريّة



داخل موهف دير الكارتوخا



داخل دير الكارتوخا: الموهف (غرفة المقدّسات)



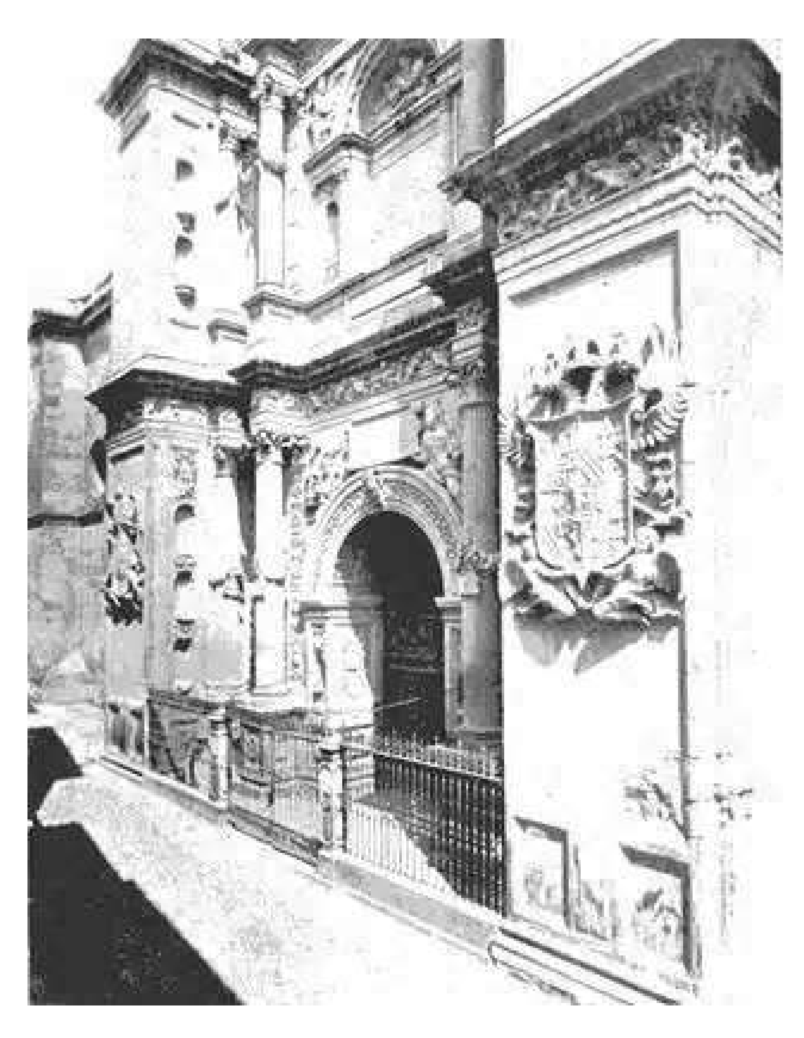
داخل كنيسة دير الكارتوخا



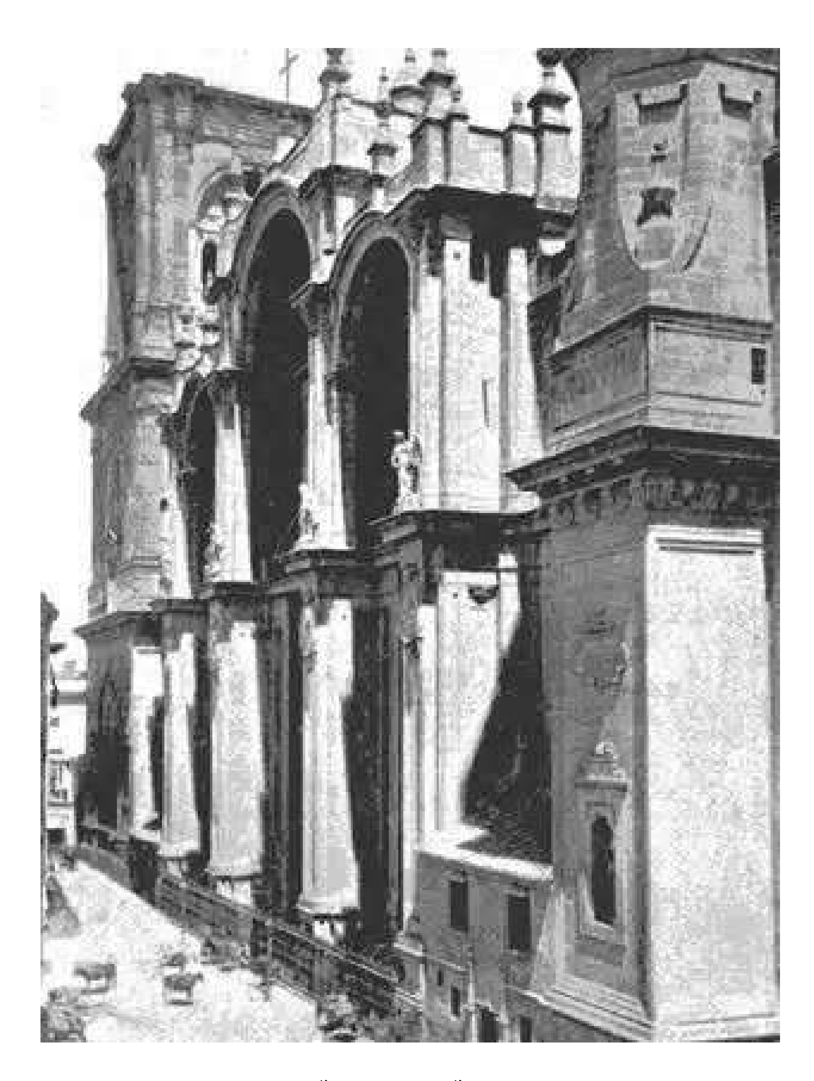
سانتو برونو، لألونسو كانو، في دير الكارتوخا بغرناطة



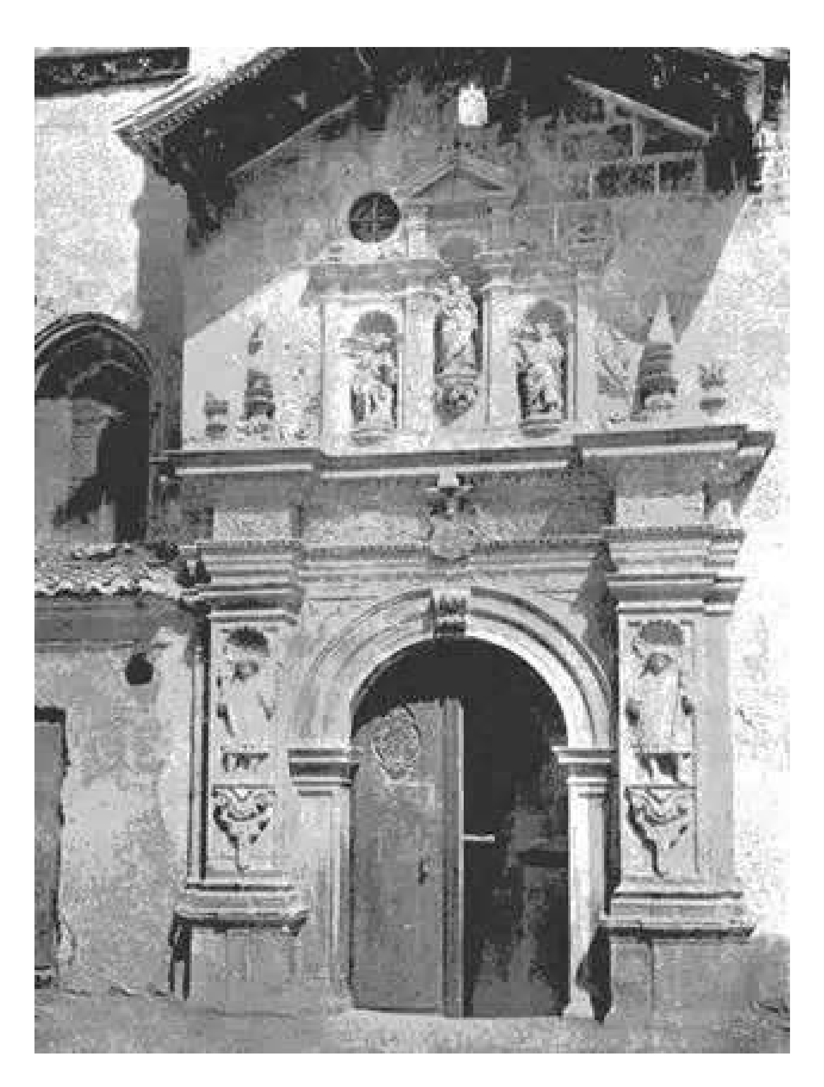
خارج الكنيسة الملكيّة



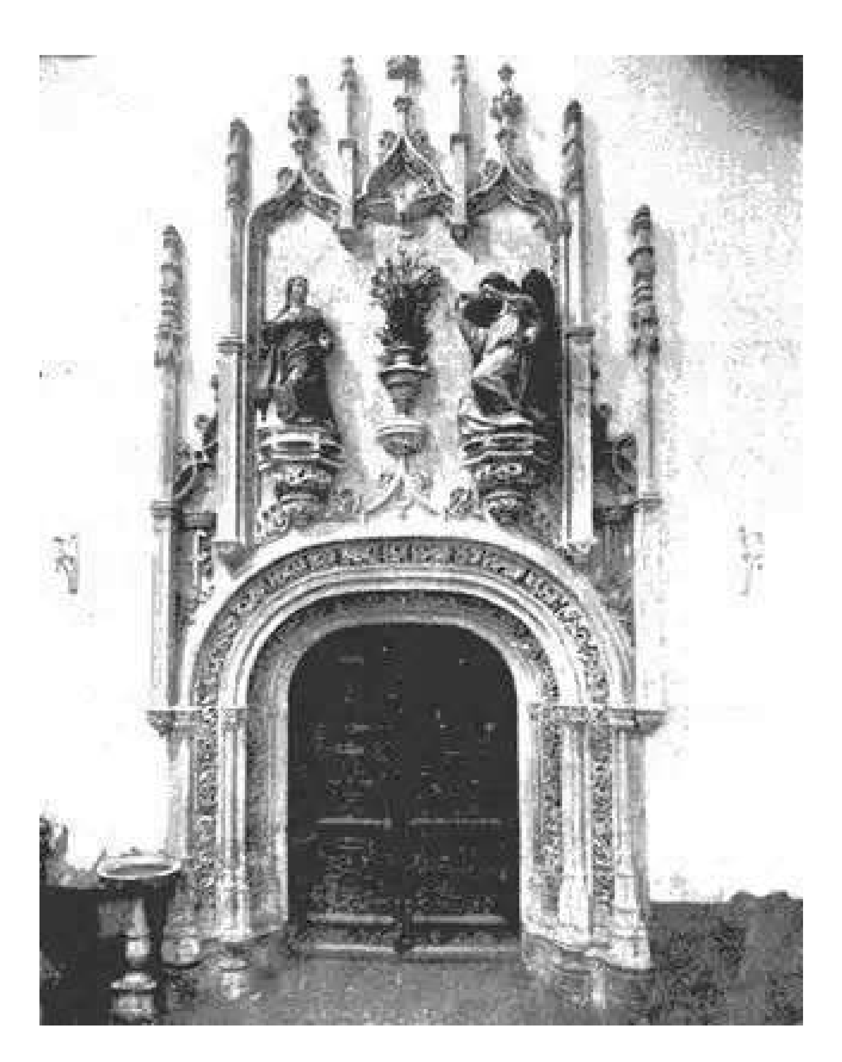
باب الغفران وخارج الكاتدرائيّة



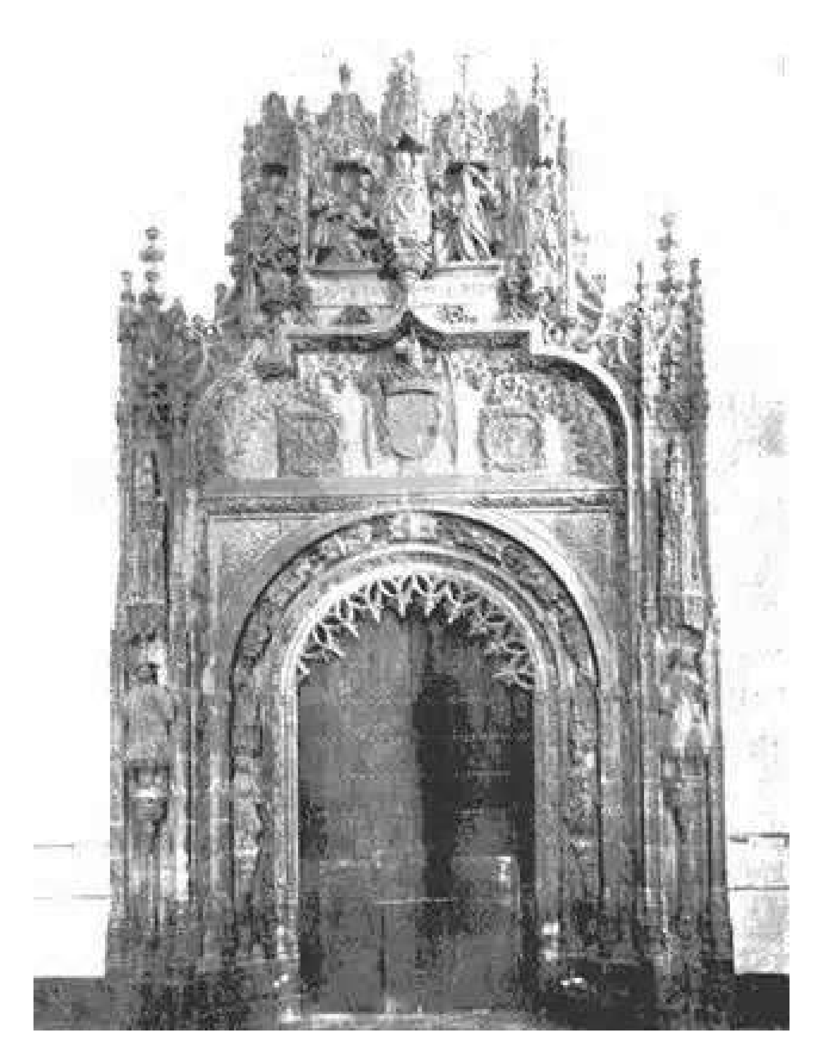
واجهة الكاتدرائيّة



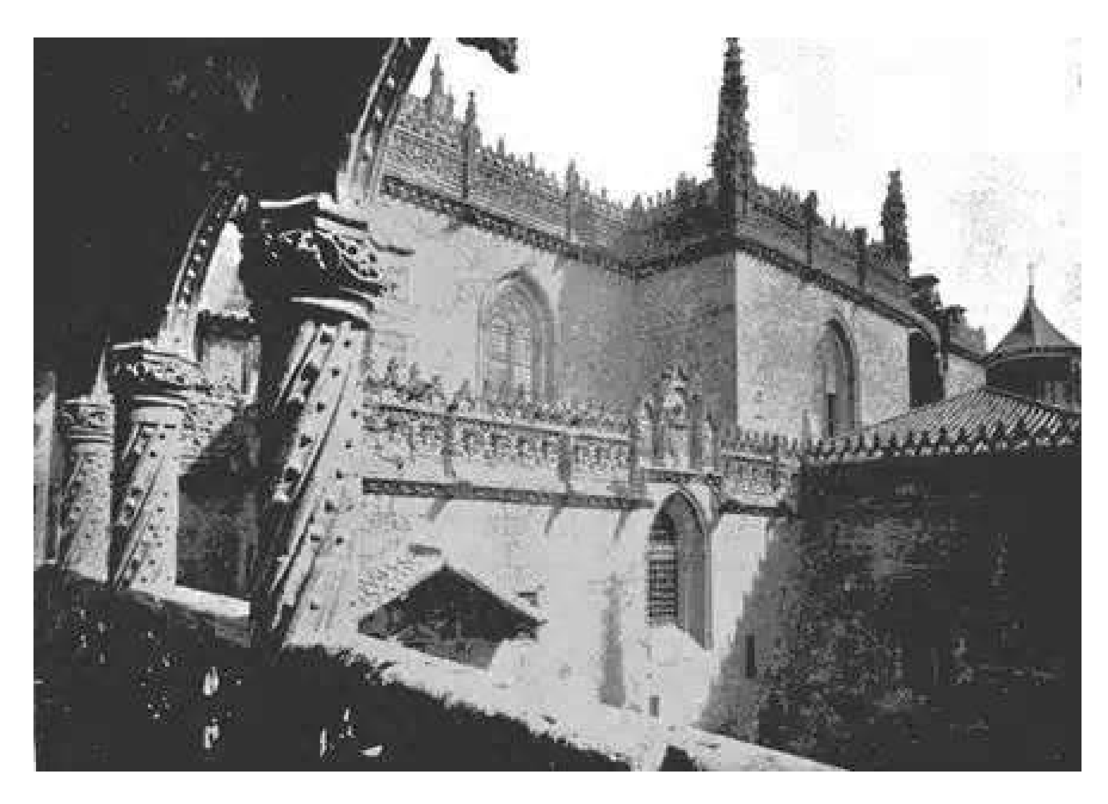
الباب الخارجي للكنيسة الملكيّة



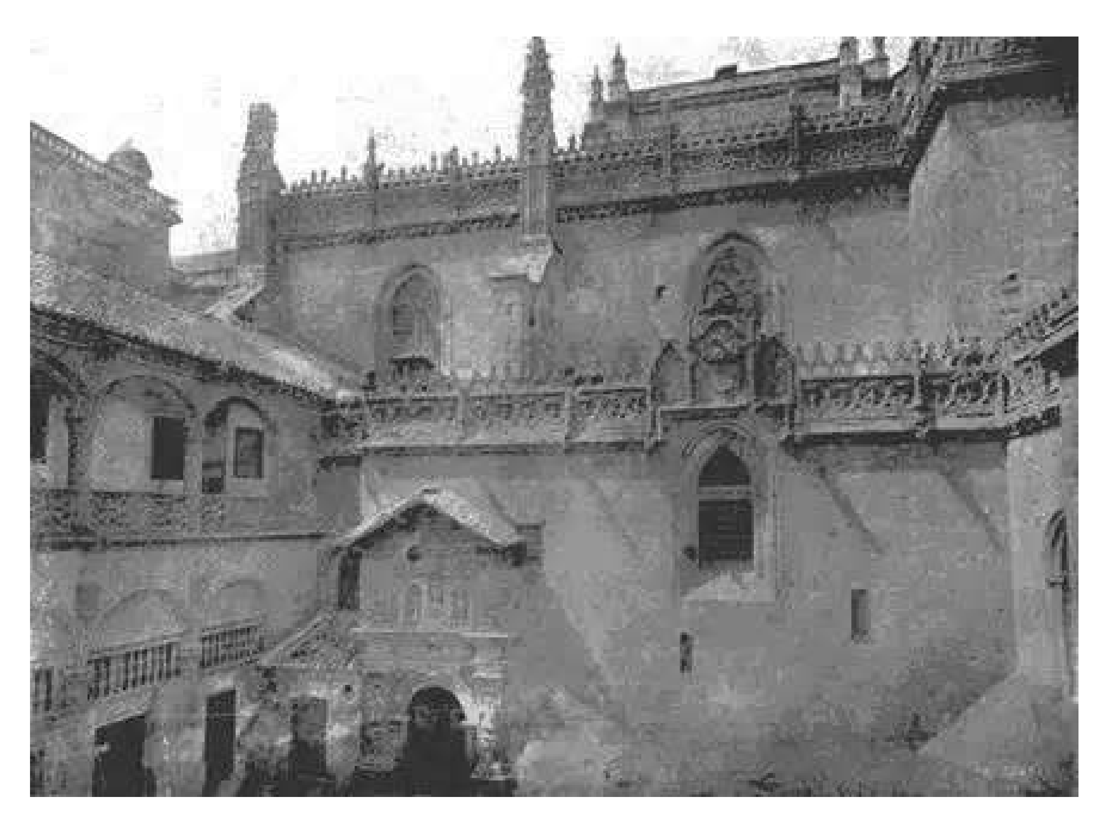
تفصيلة في الكنيسة الملكيّة



المدخل القوطي العتيق إلى الكنيسة الملكّية



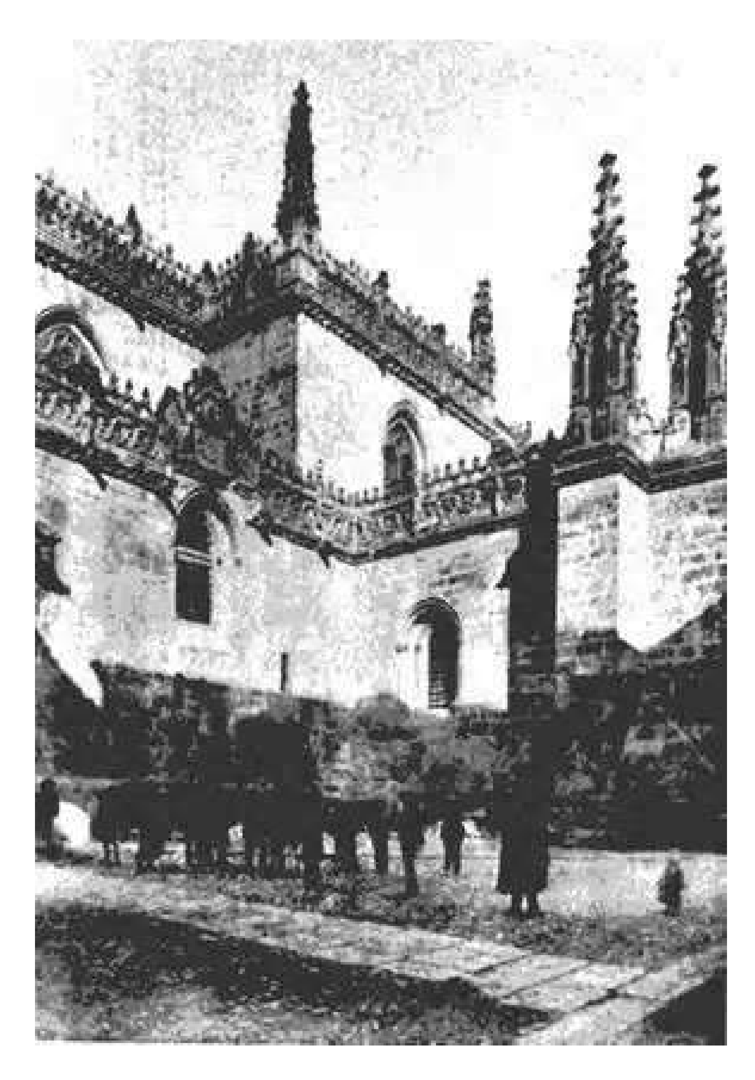
منظر خارجي عام الكنيسة الملكيّة، القسم العلوي



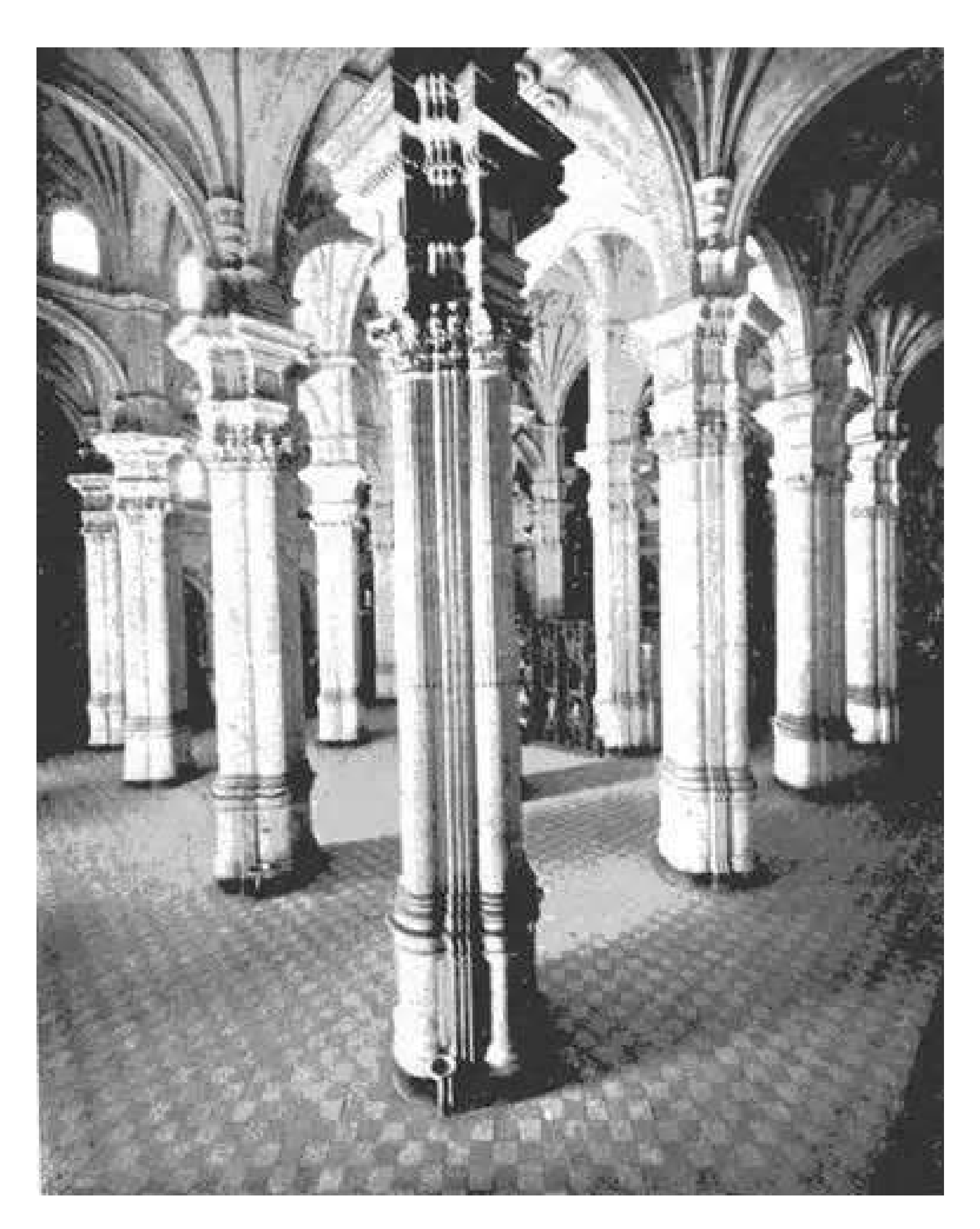
منظر خارجي عام الكنيسة الملكيّة



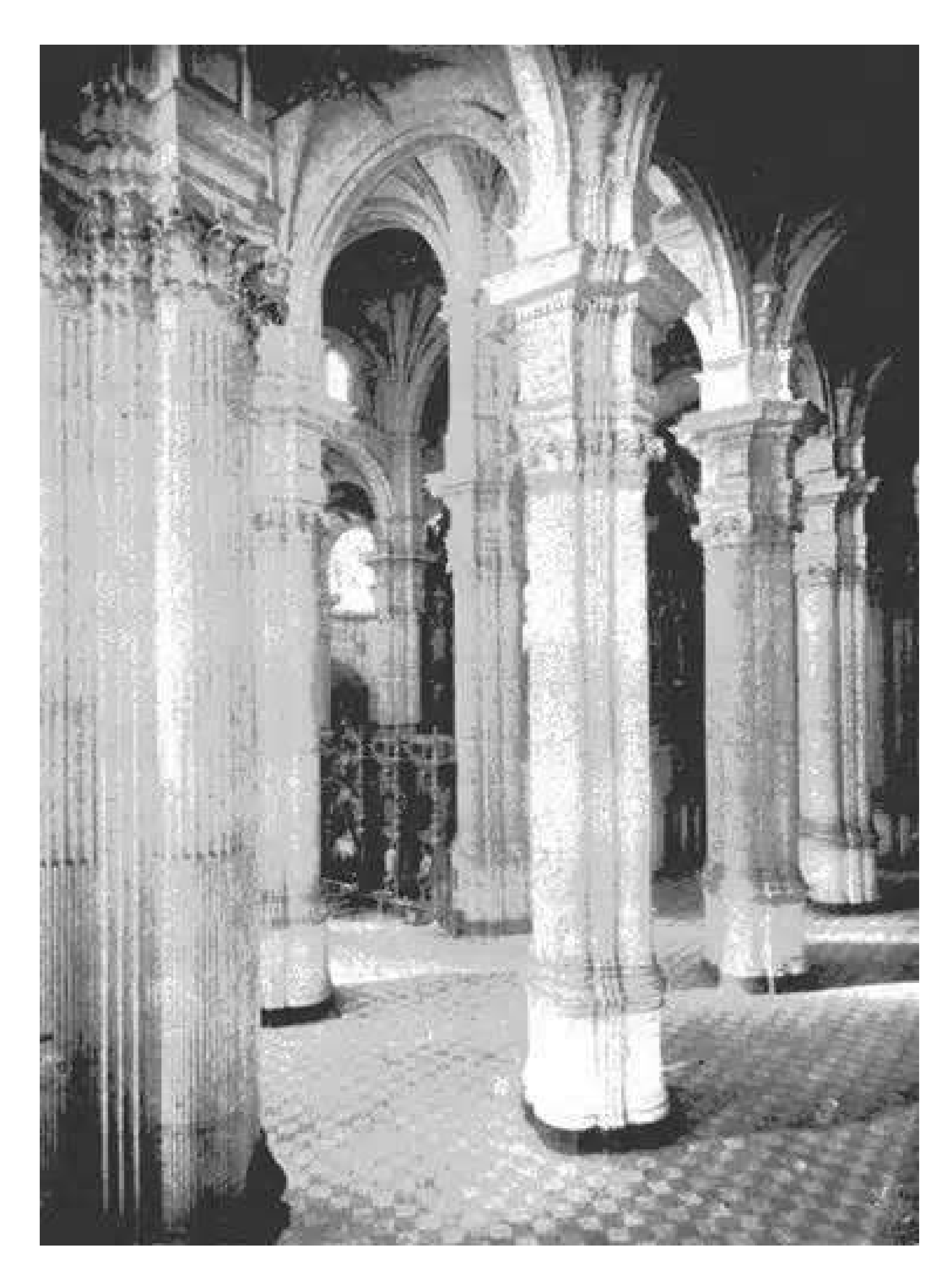
واجهة الكاتدرائيّة. خارج الكنيسة الملكيّة



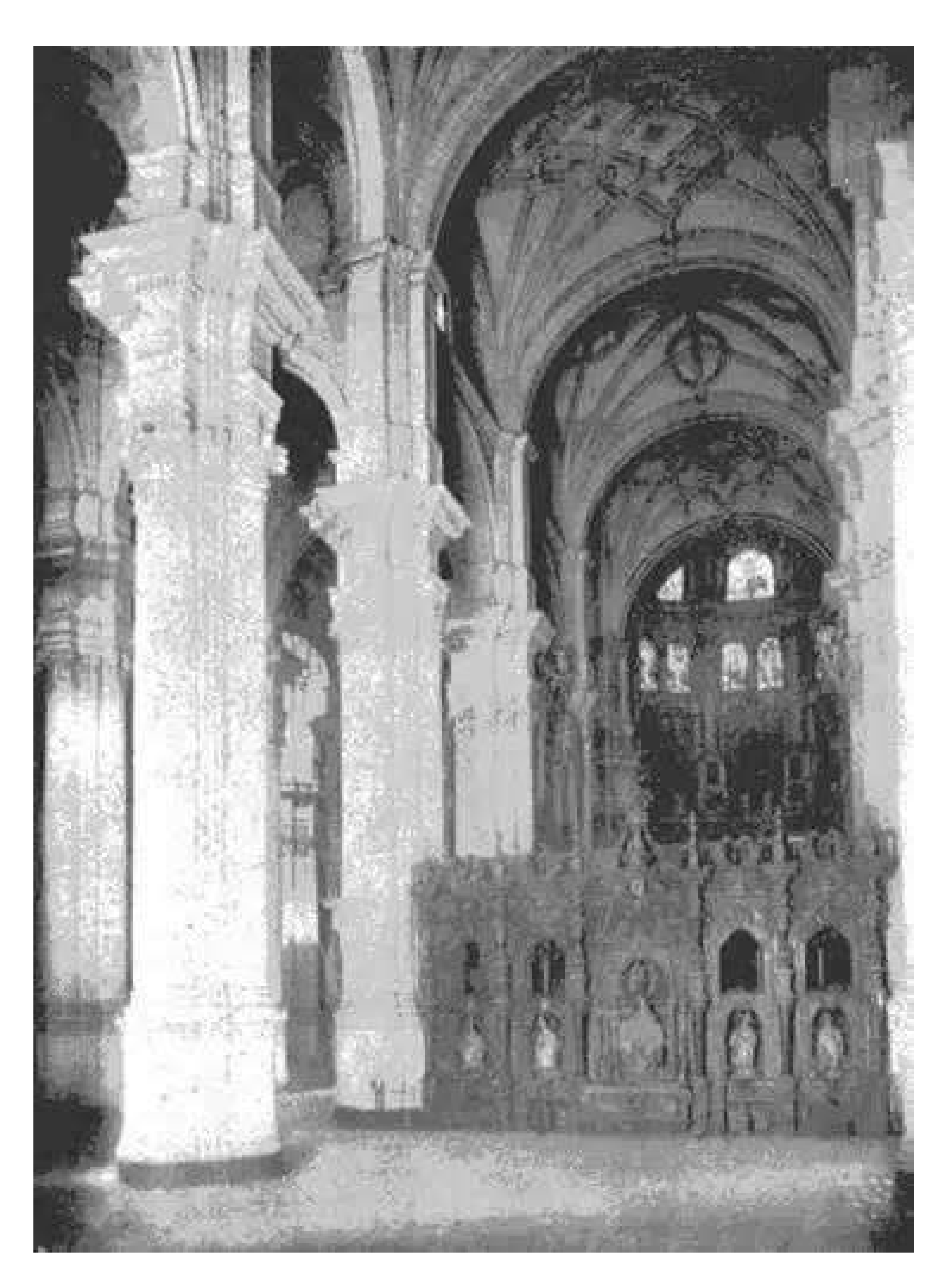
منظر عام لداخل الكاتدرائيّة



الكاتدرائيّة. منظر عام لداخلها



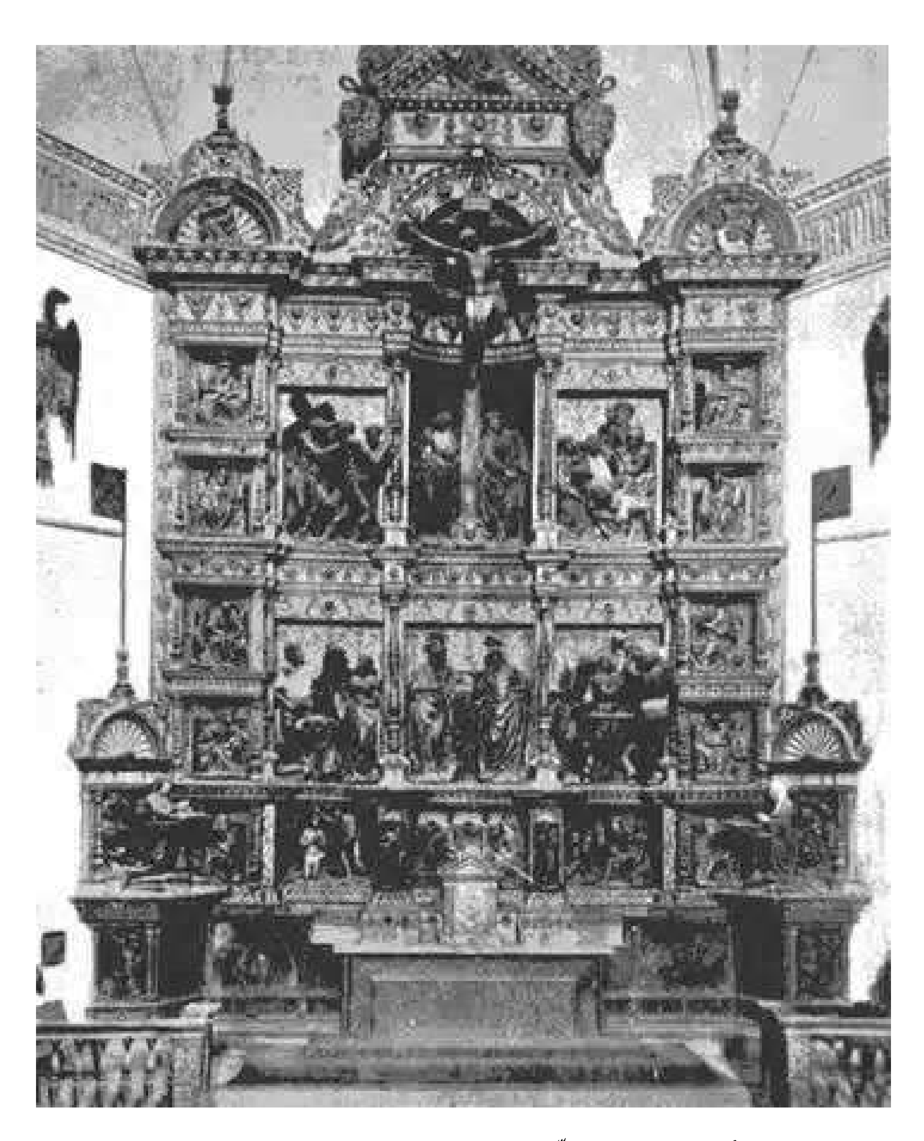
الكاتدرائيّة. منظر للصّحن الرّئيسي



المذبح العالي في الكاتدرائيّة

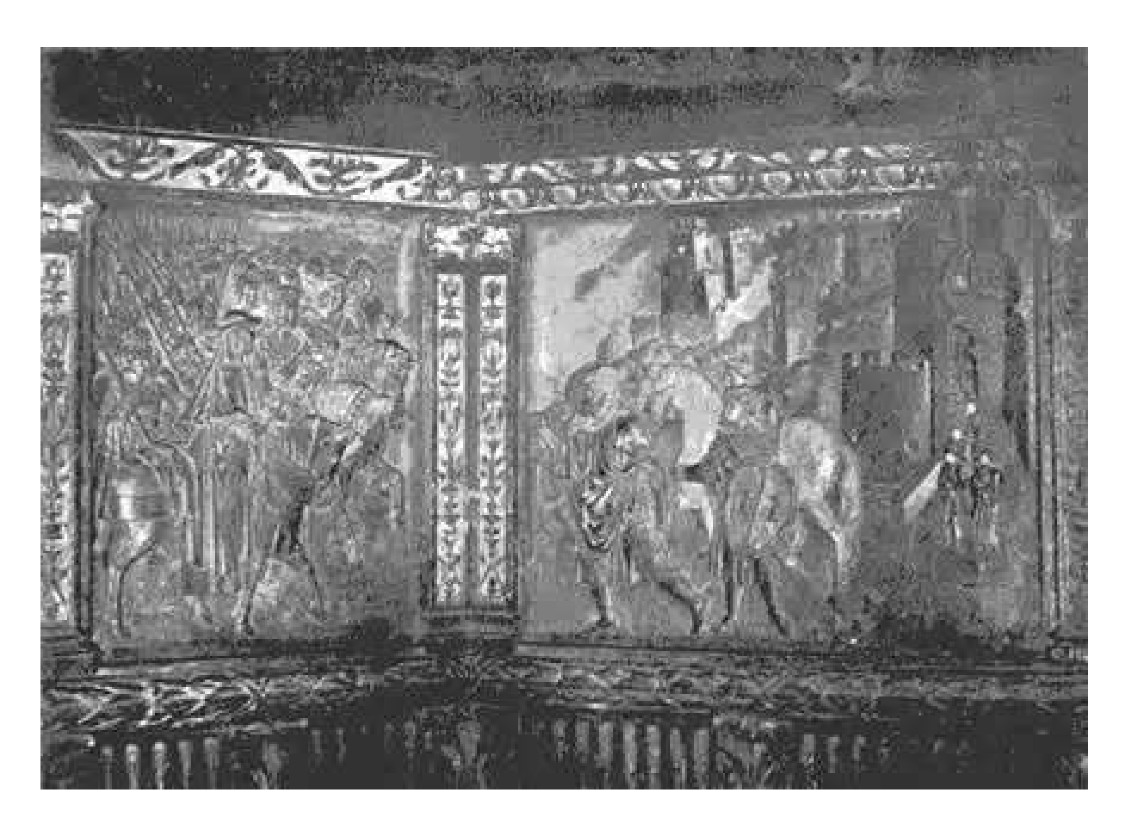


جزء المذبح في الكنيسة الملكيّة، عمل ف. دي بورغونيا

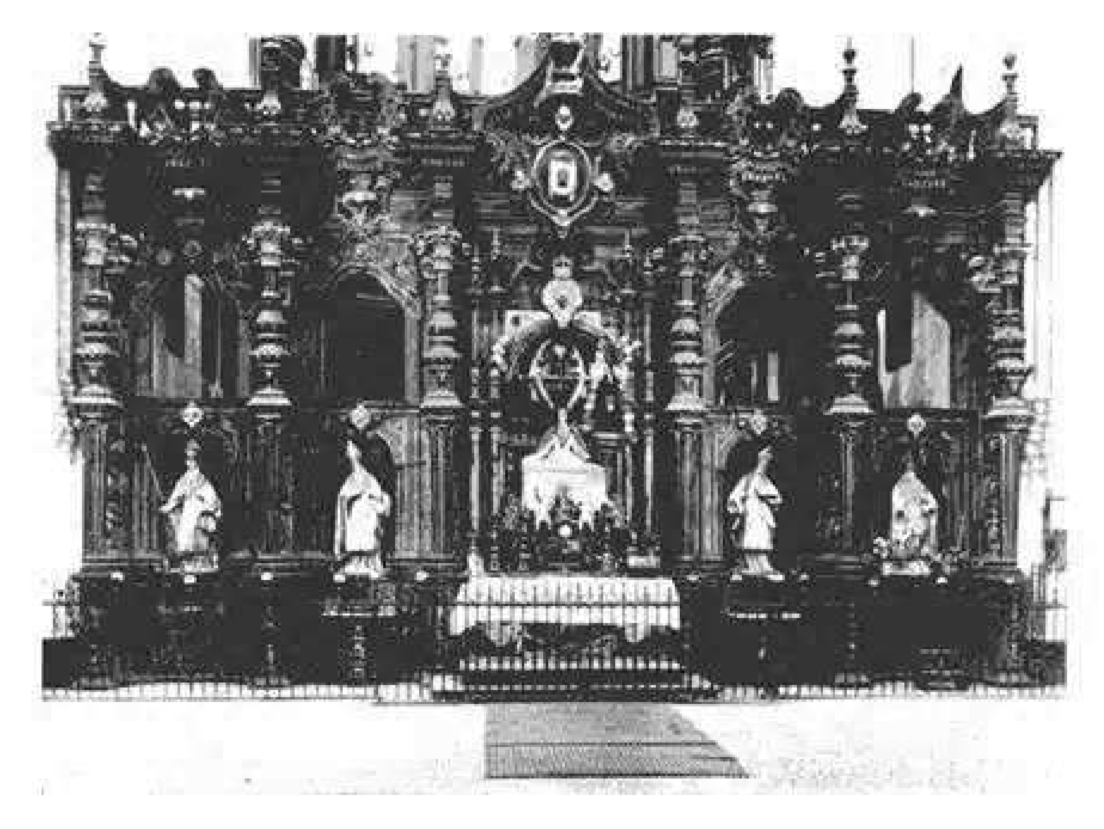


الكاتدرائيّة. أبو عَبديل يسلّم مفاتيح غرناطة للملكين الكاثوليكيين.

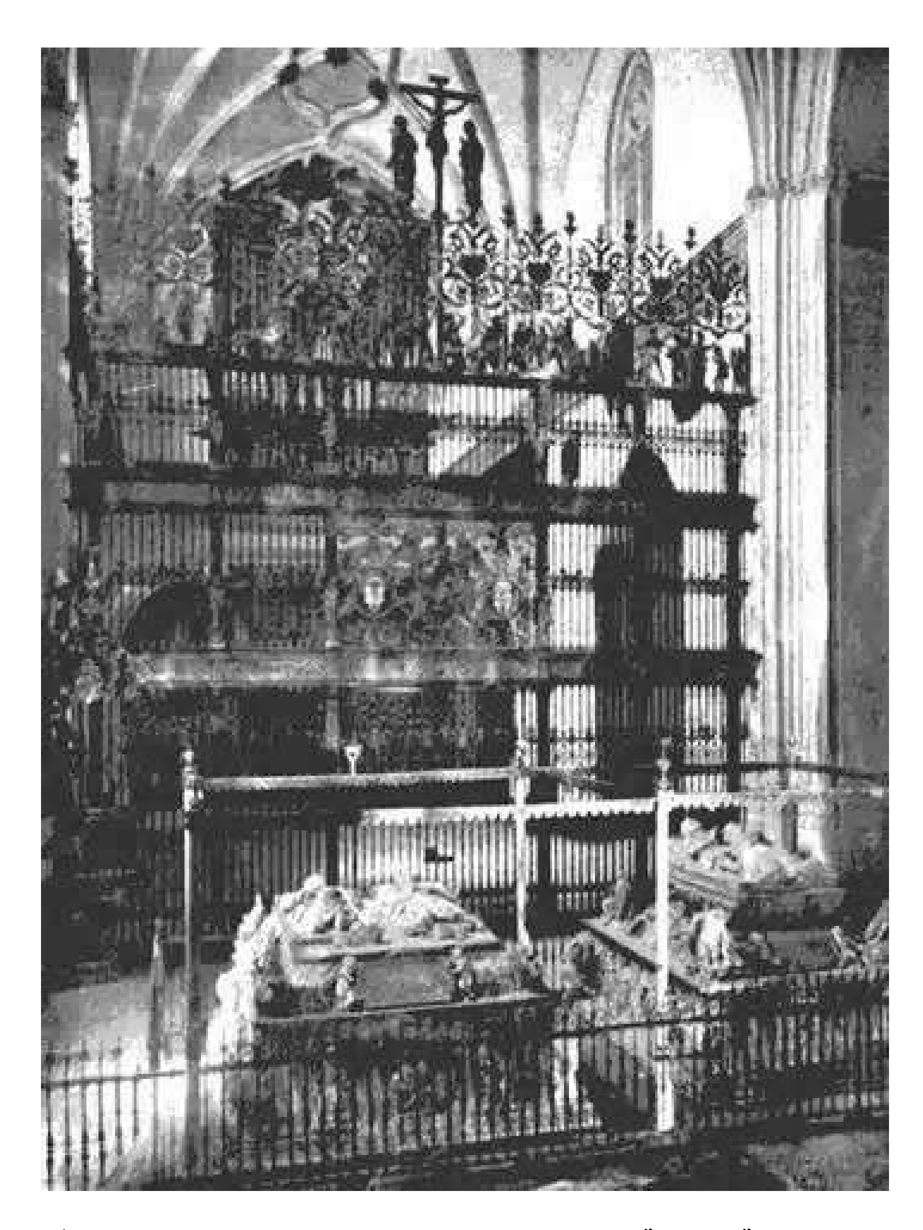
قطعة من جزء المذبح في الكنيسة الملكيّة



الكورَس الدّاخلي للكاتدرائيّة



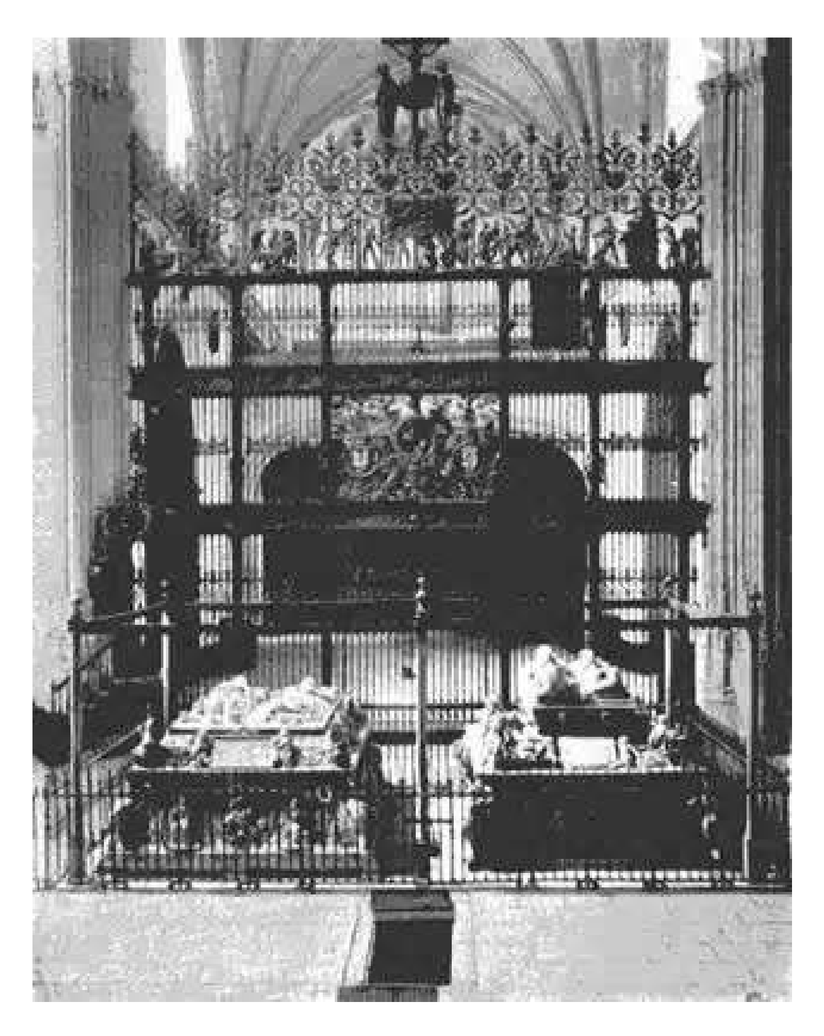
الكاتدرائيّة. قبرا الملكين الكاثوليكيين في الكنيسة الملكيّة



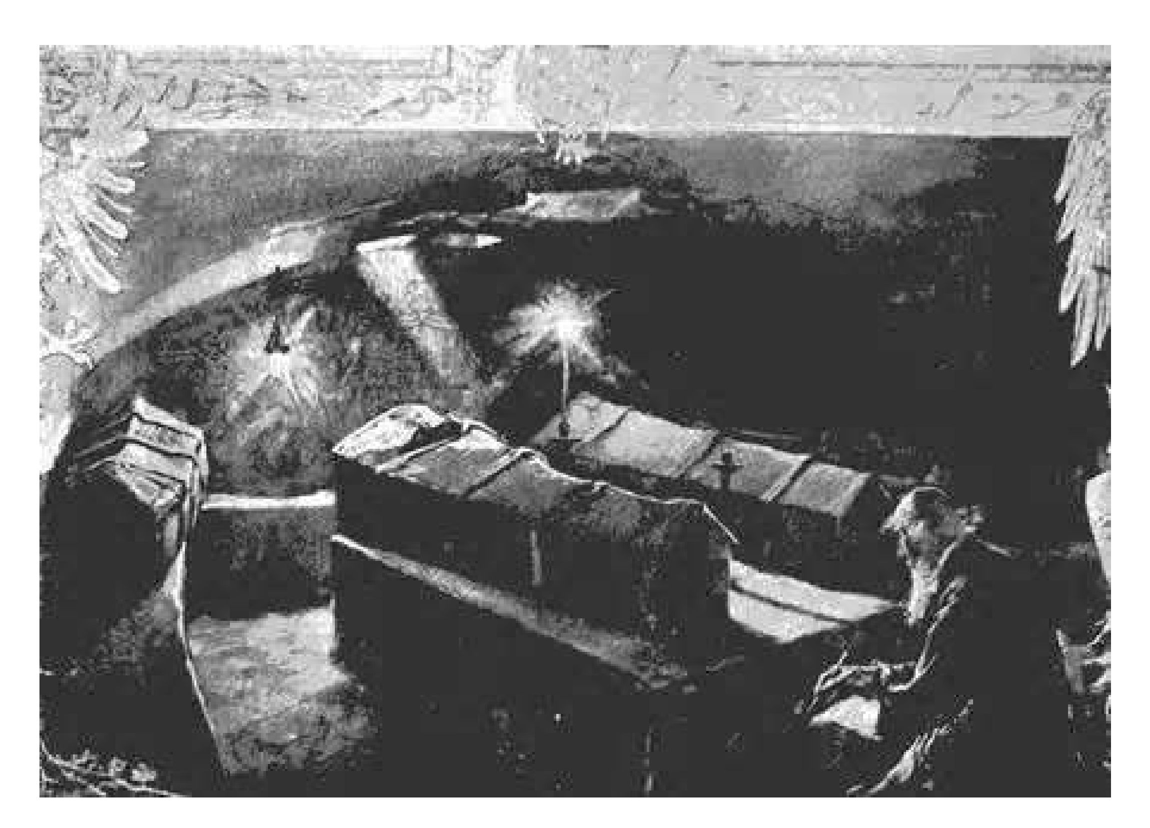
منظر للكنيسة الملكيّة وقبري الملكين الكاثوليكيين، عمل ب. غونثالڤو



الكنيسة الملكيّة. قبرا فرناندو وإيزابيلّا



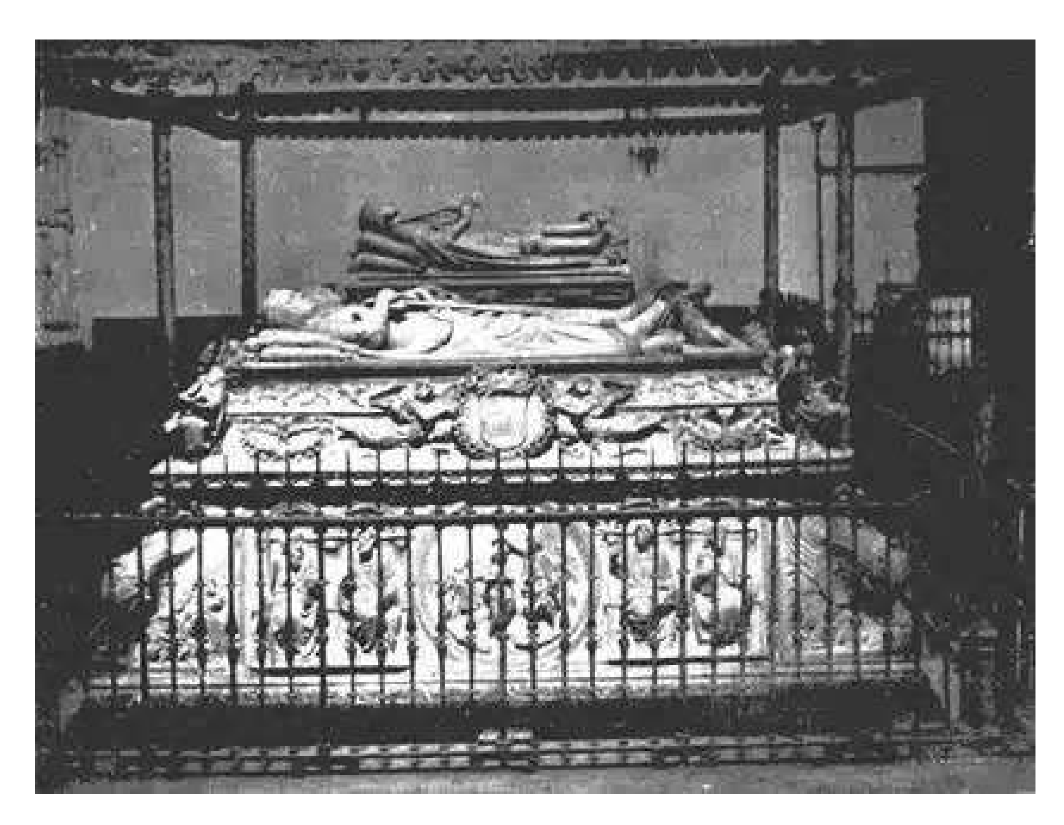
عقد سقف الملكين الكاثوليكيين في غرناطة



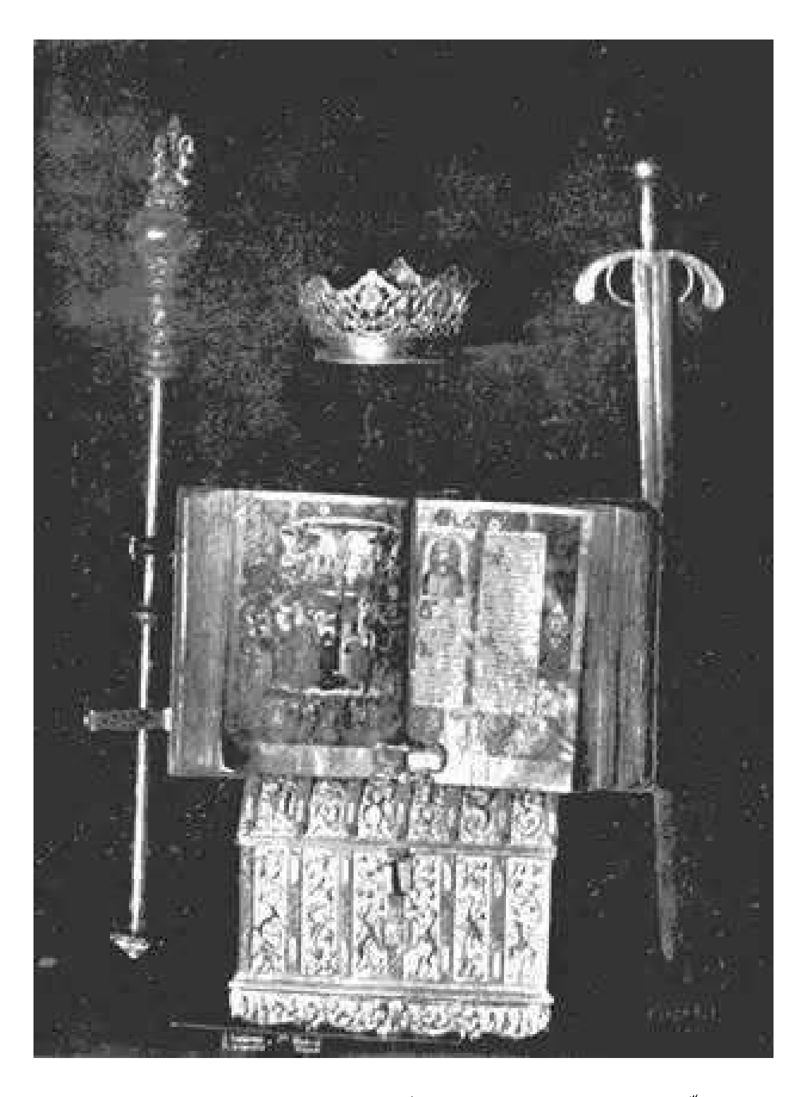
قبور فرناندو وإيزابيّلا، ودونيا خوانا وفيليپه الوسيم



قبور فرناندو وإيزابيّلا، ودونيا خوانا وفيليپه الوسيم



قبور فرناندو وإيزابيلّا، ودونيا خوانا وفيليپهِ الوسيم



الصّولجان والتّاج والسّيف وكتاب القدّاس وصندوق الملكين الكاثوليكيين



الذّخائر المقدّسة للملكين الكاثوليكيين



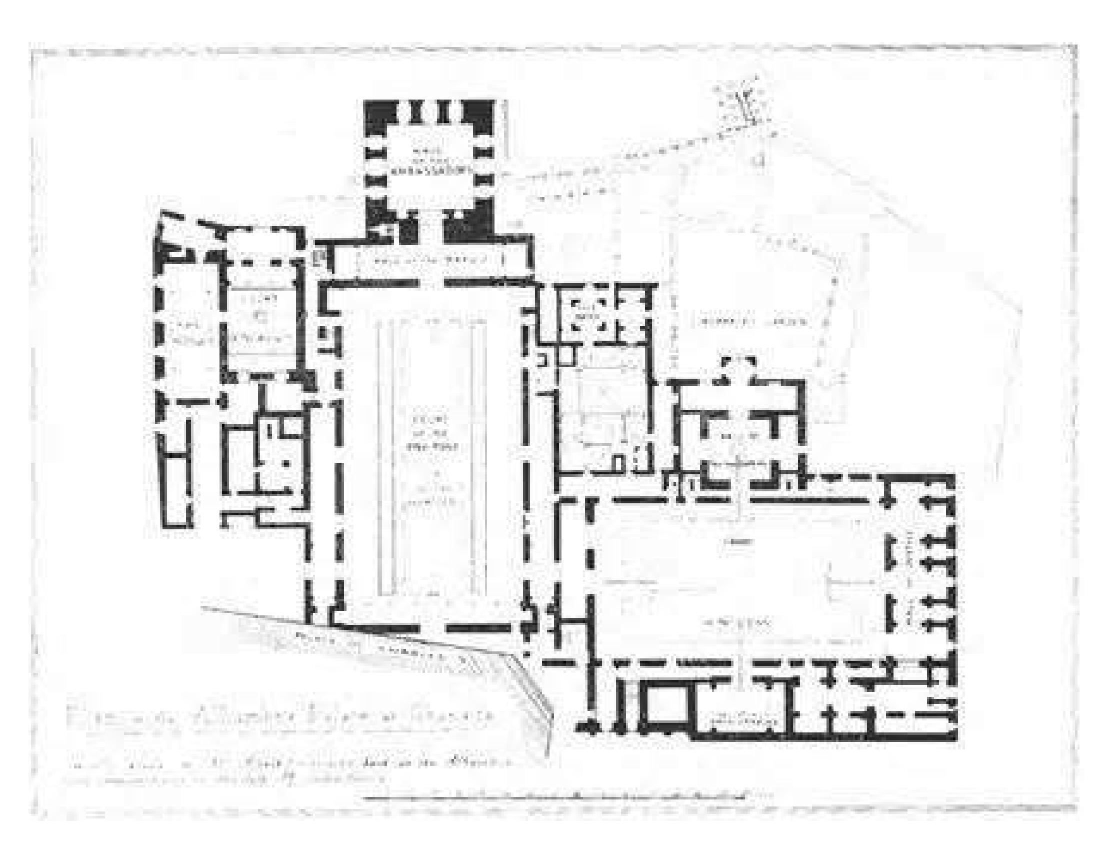
الكنيسة الملكيّة: تمثال الملكة إيزابيلّا الكاثوليكيّة



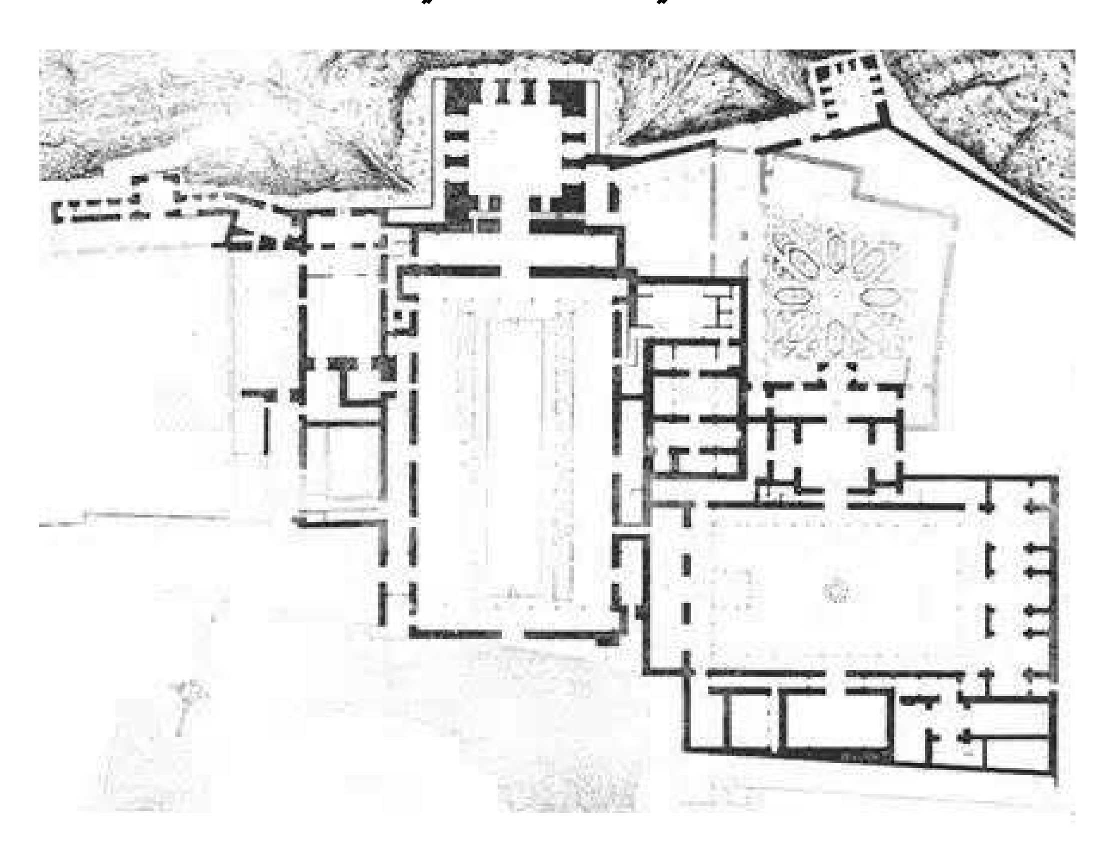
تمثال إيزابيّلا الكاثوليكيّة



كنيسة سان ميغيل في الكاتدرائيّة، ضريح رخامي



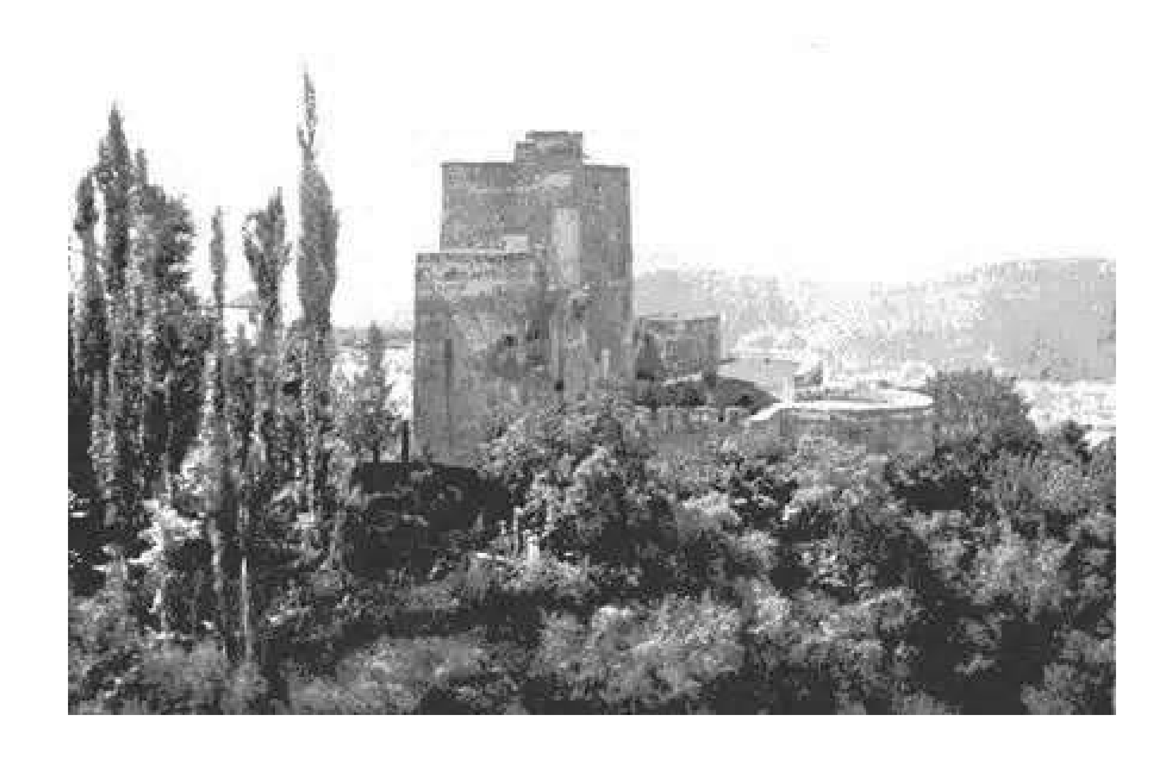
مسقط أفقي لقصر الحمراء في غرناطة



المسقط الأفقي العام لقصر الحمراء



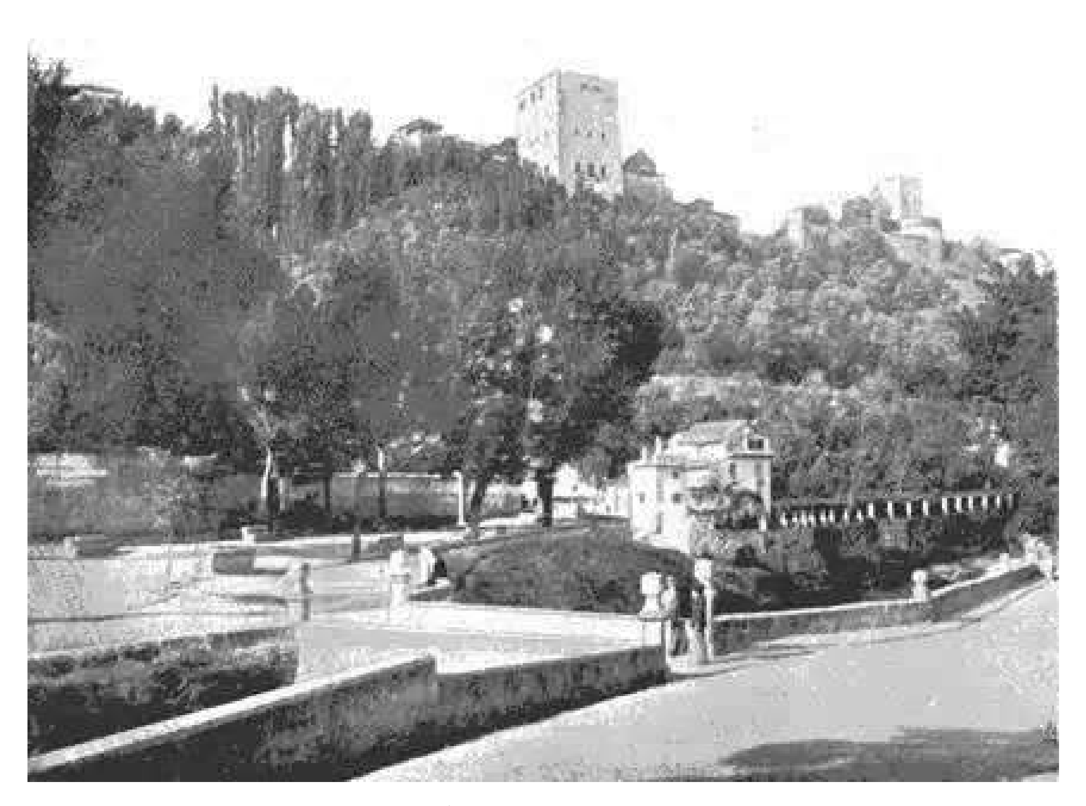
منظر عام لقصر الحمراء من سان نيكولاس



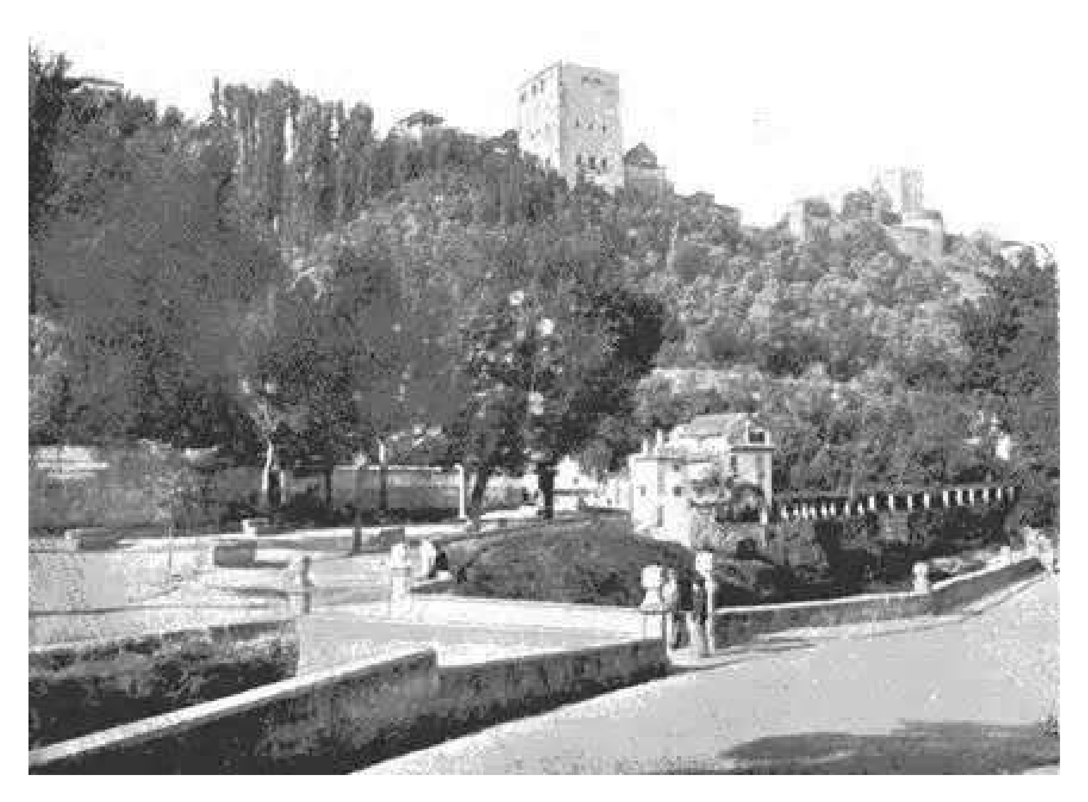
الأبراج الحمراء من التّحصينات



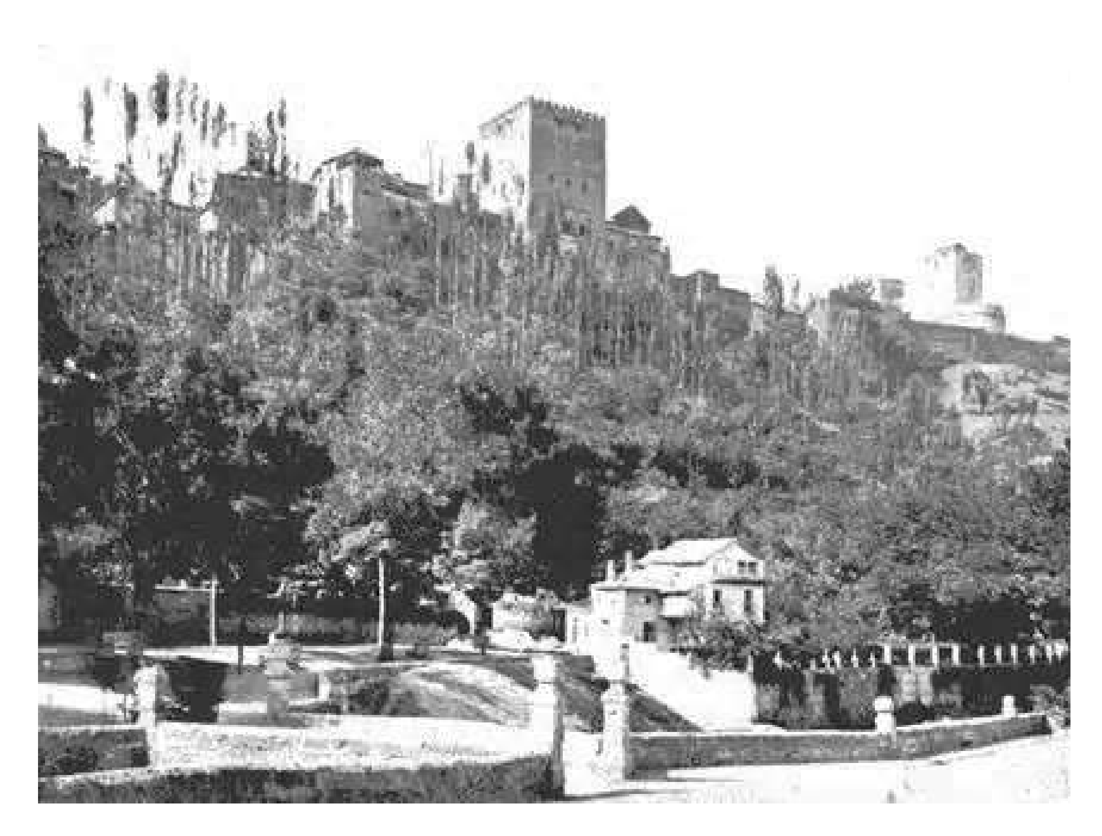
منظر لقصر الحمراء من جبل ساكرومونتهِ



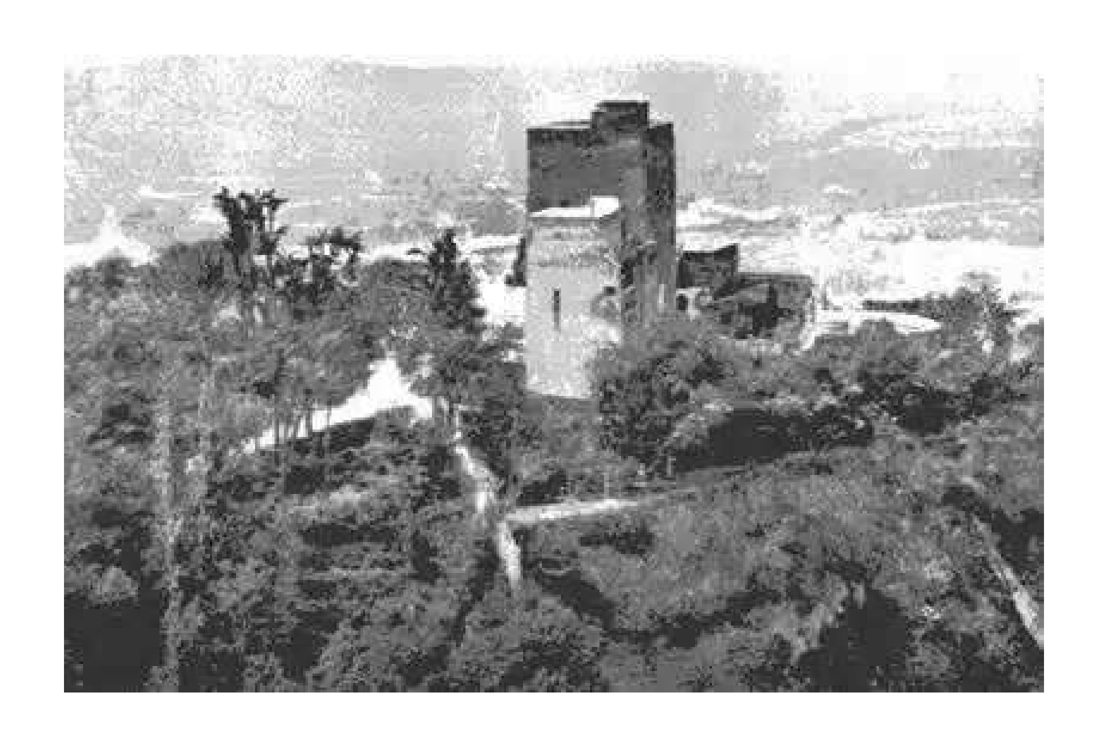
منظر عام لقصر الحمراء ونزهة ألغيبّيو Algibillo



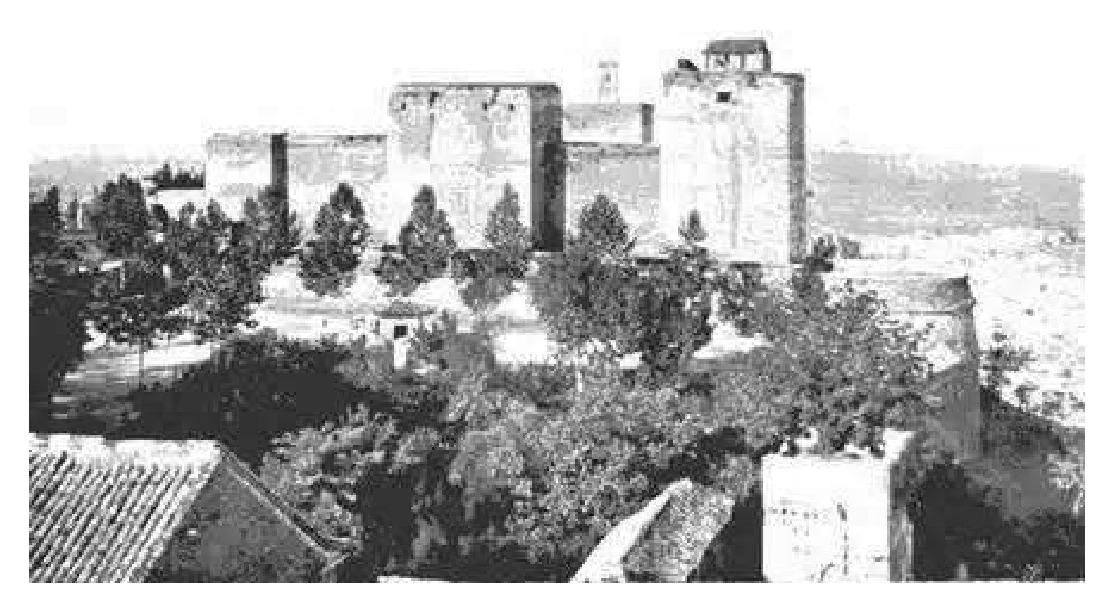
منظر لقصر الحمراء من كويستا دِل چاپيث Cuesta del Chapiz



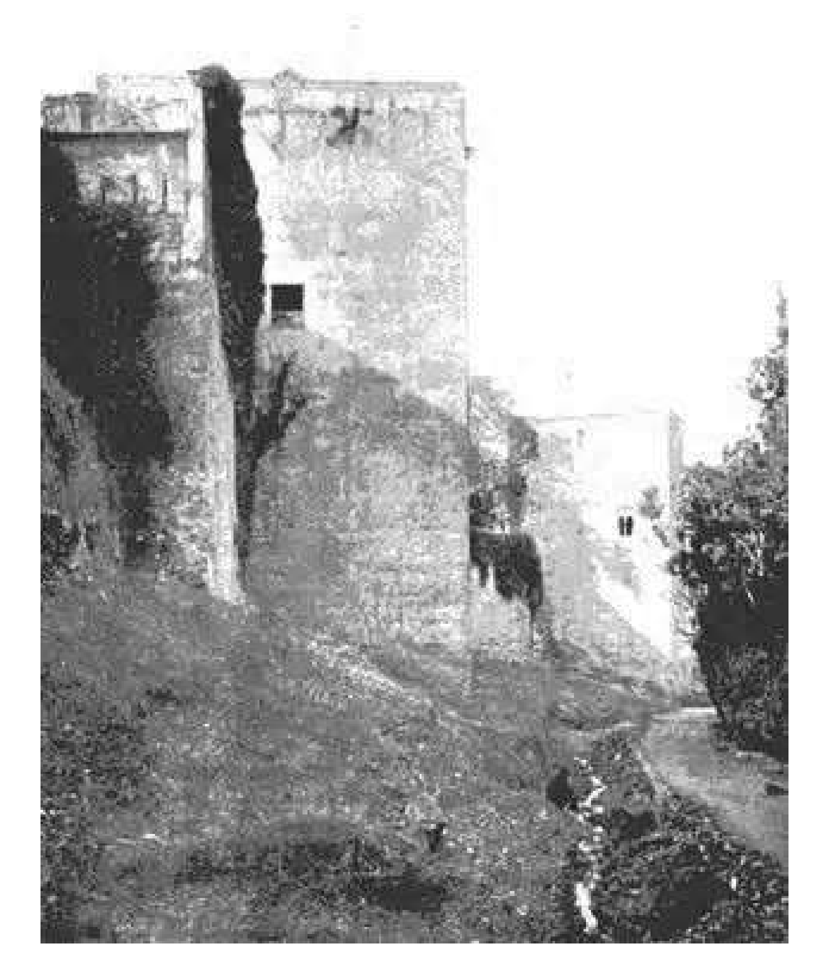
الأبراج الحمراء



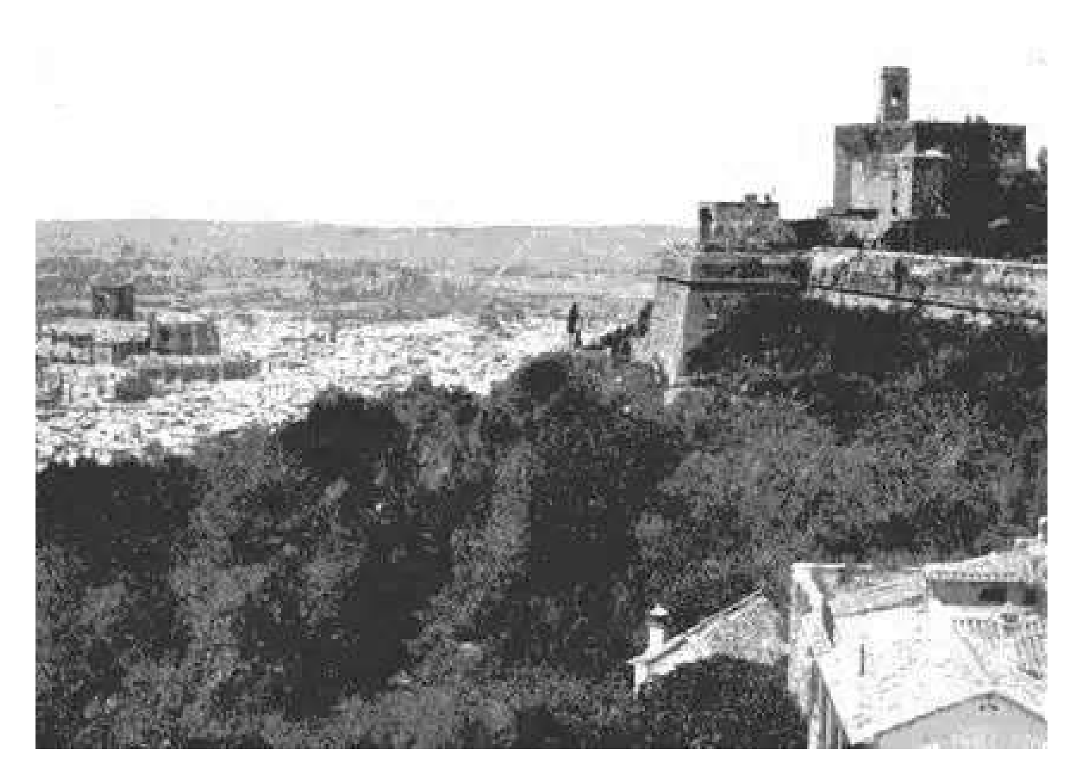
منظر عام لقصر الحمراء



برج الآكام (الذُّرى)



برج الأميرات وبرج الأسيرة



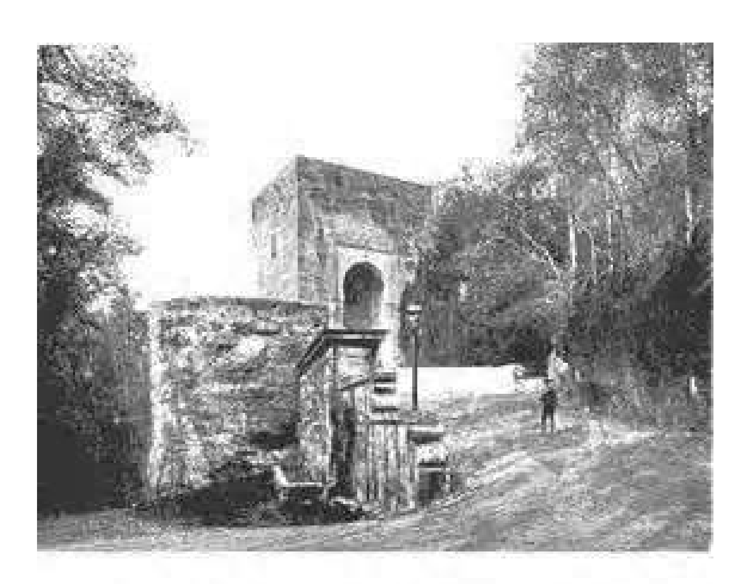
منظر لبرج الحراسة وغرناطة



منظر للتّحصينات وبرج الحراسة

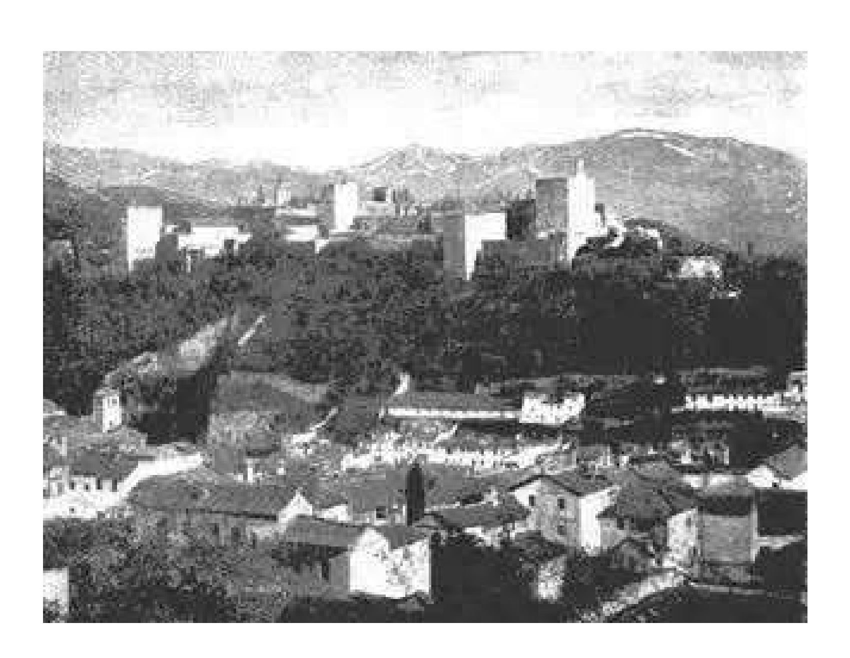


برج السّقيّة والسّقيّة ذاتها





باب الشّريعة. تفصيلة لباب في فناء الآس



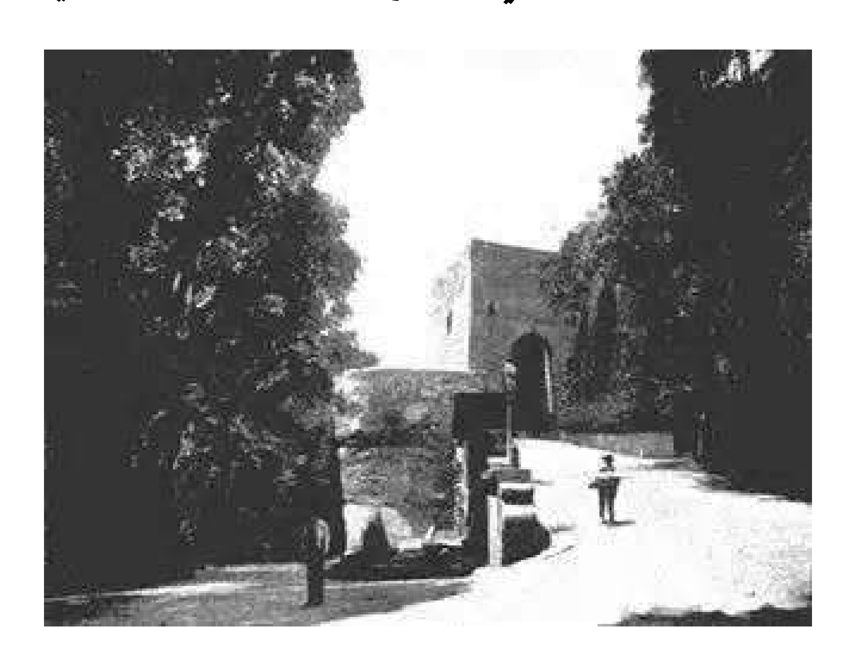
قصر الحمراء وجبال سييّرا نيڤادا



غرناطة، من برج العرفان (أوميناخِه)



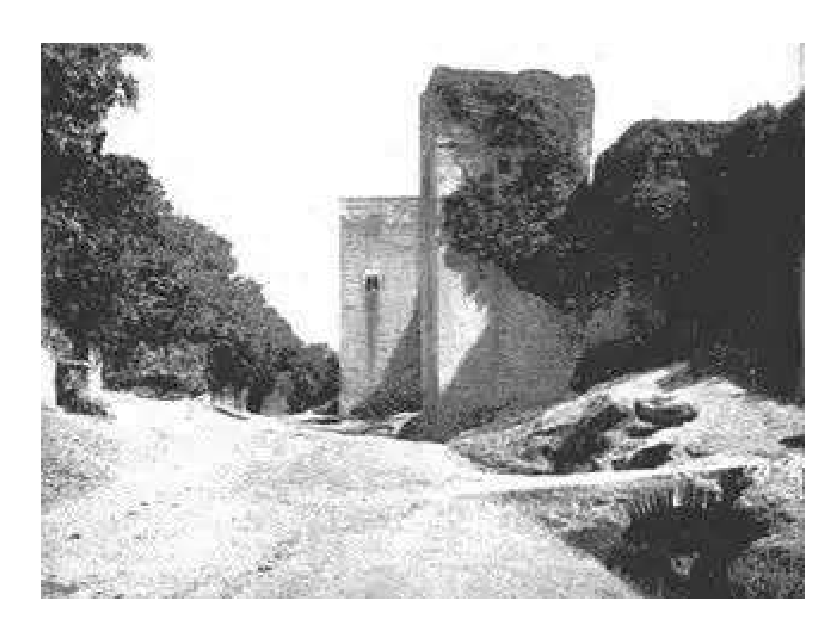
«غرفة لباس الملكة»، في قمّة برج المحراب، وتُرى جنّة العريف



باب الشّريعة، شيّده يوسف الأول



برج الآكام (الذُّرى)



برج الأسيرة



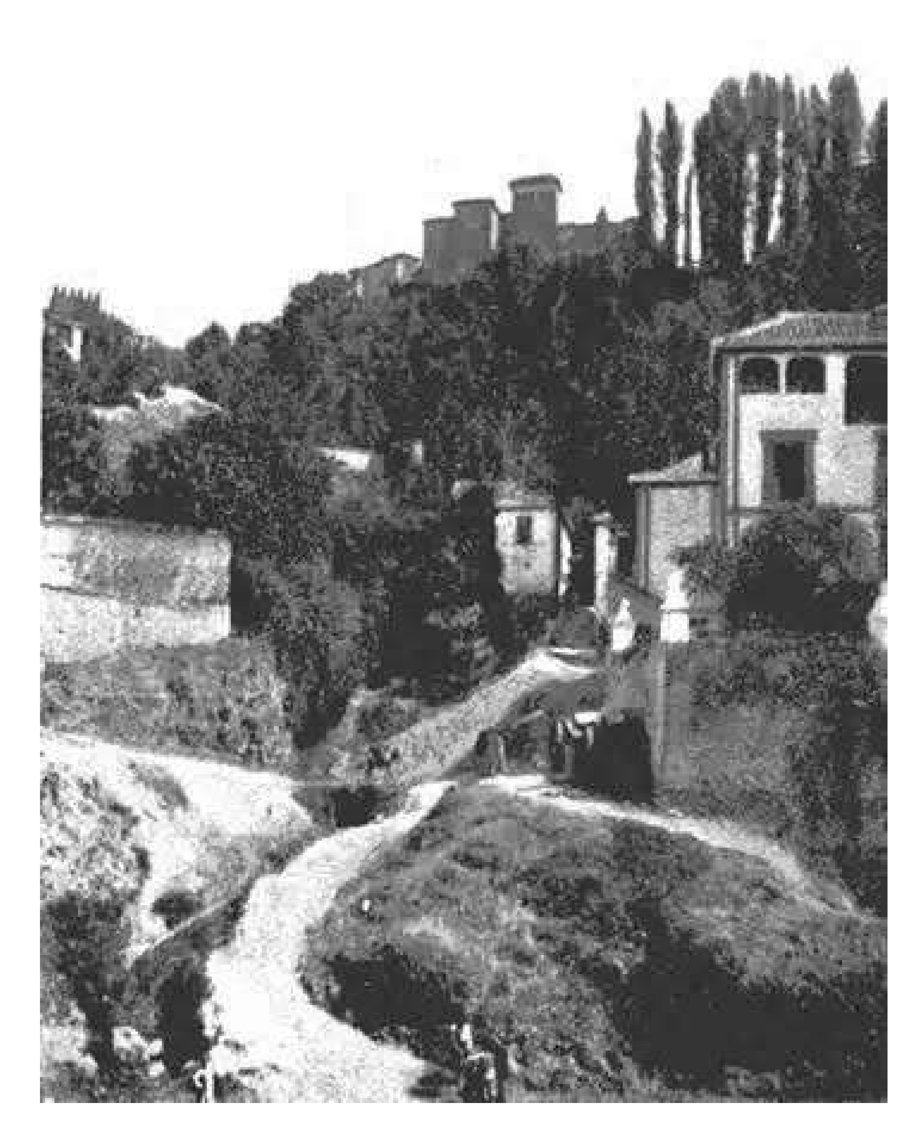
خارج المسجد، ملكيّة خاصّة



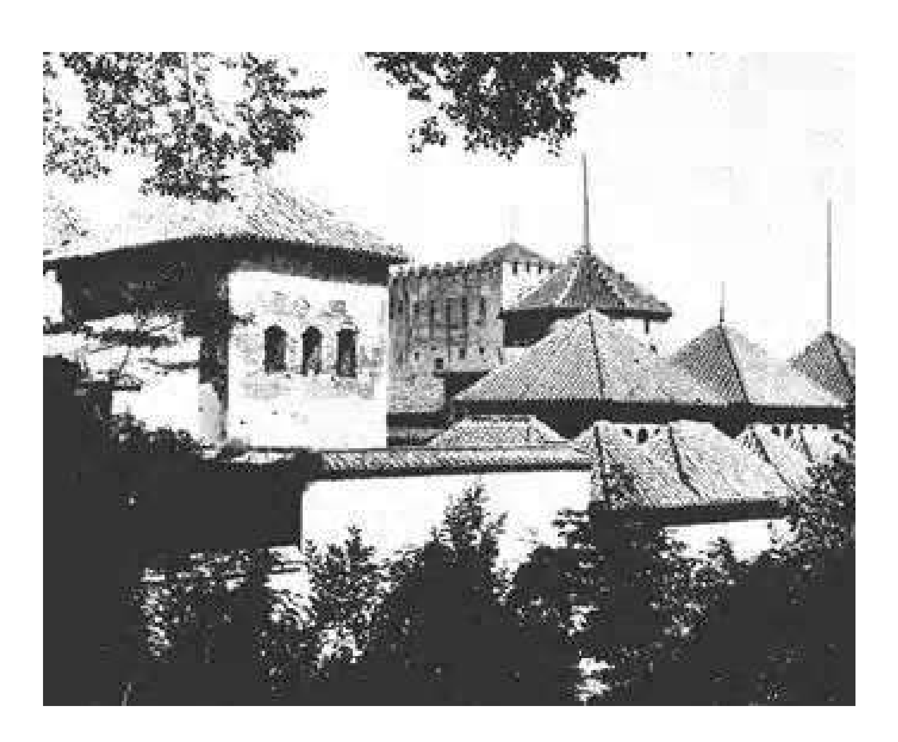
برج السّقيّة



الدّرب الصّاعد إلى الحمراء عبر كويستا دِل رَي چيكو Cuesta del Rey Chico



برج السّيدات



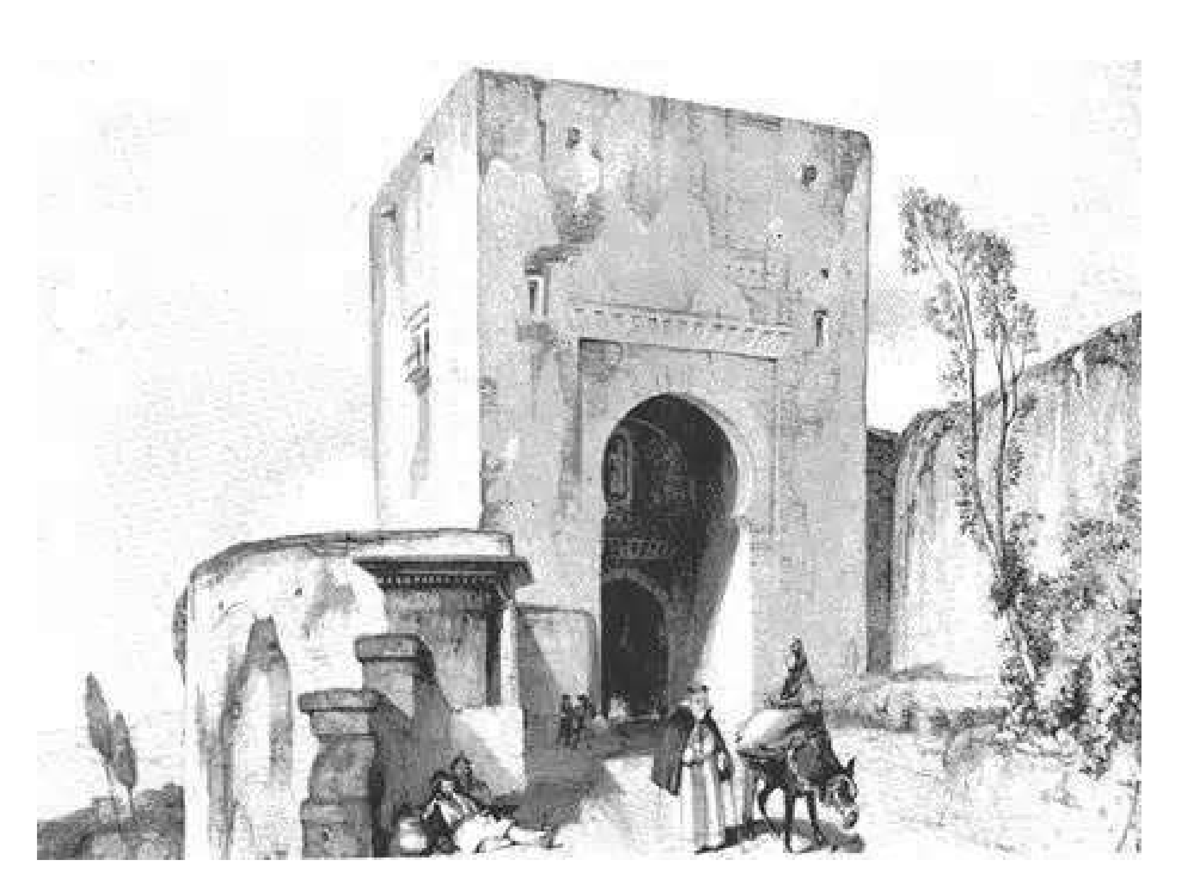
جزء من الحمراء، في خارجها



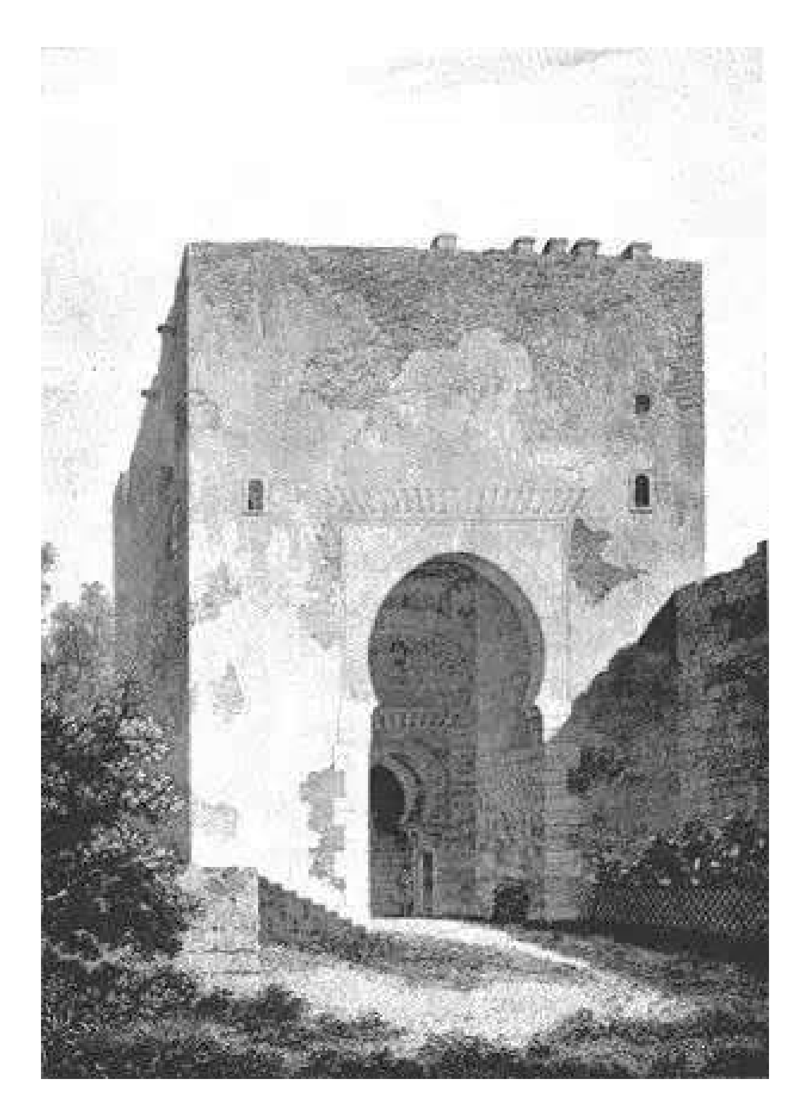
برج العرفان (أوميناخِه). أطلال عربيّة قديمة في القصبة



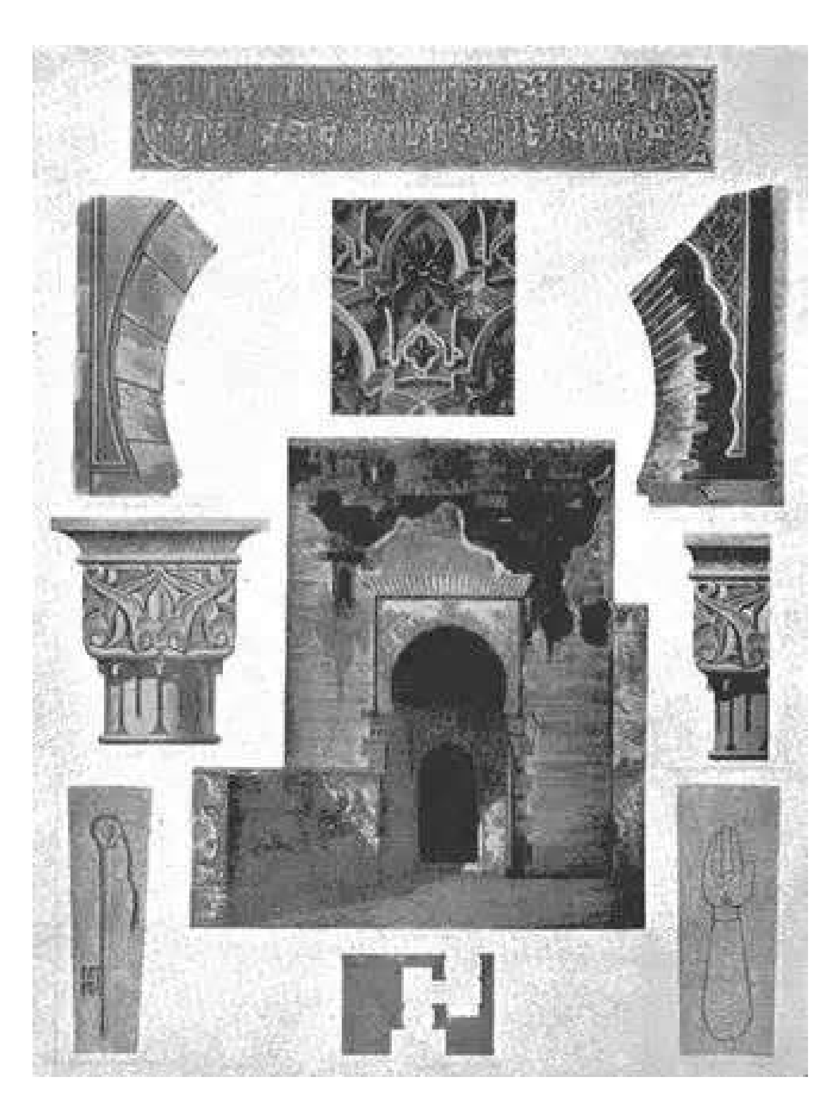
باب الشّريعة، قصر الحمراء



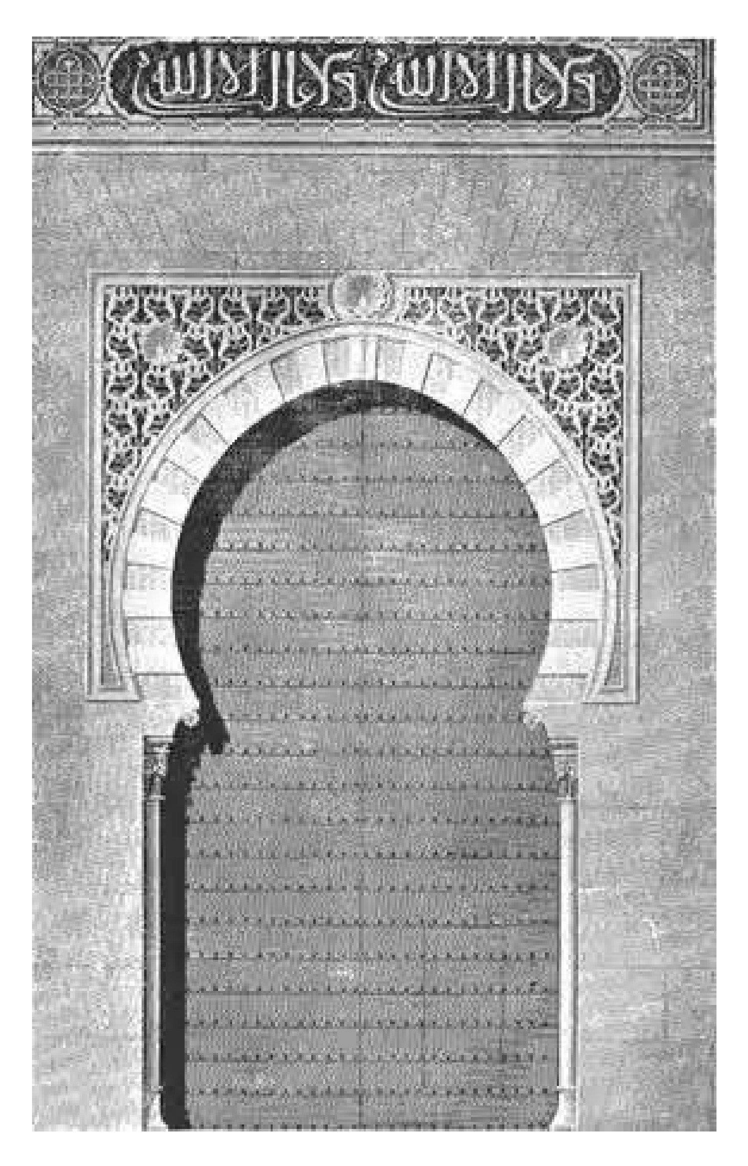
باب الشّريعة (رسم)



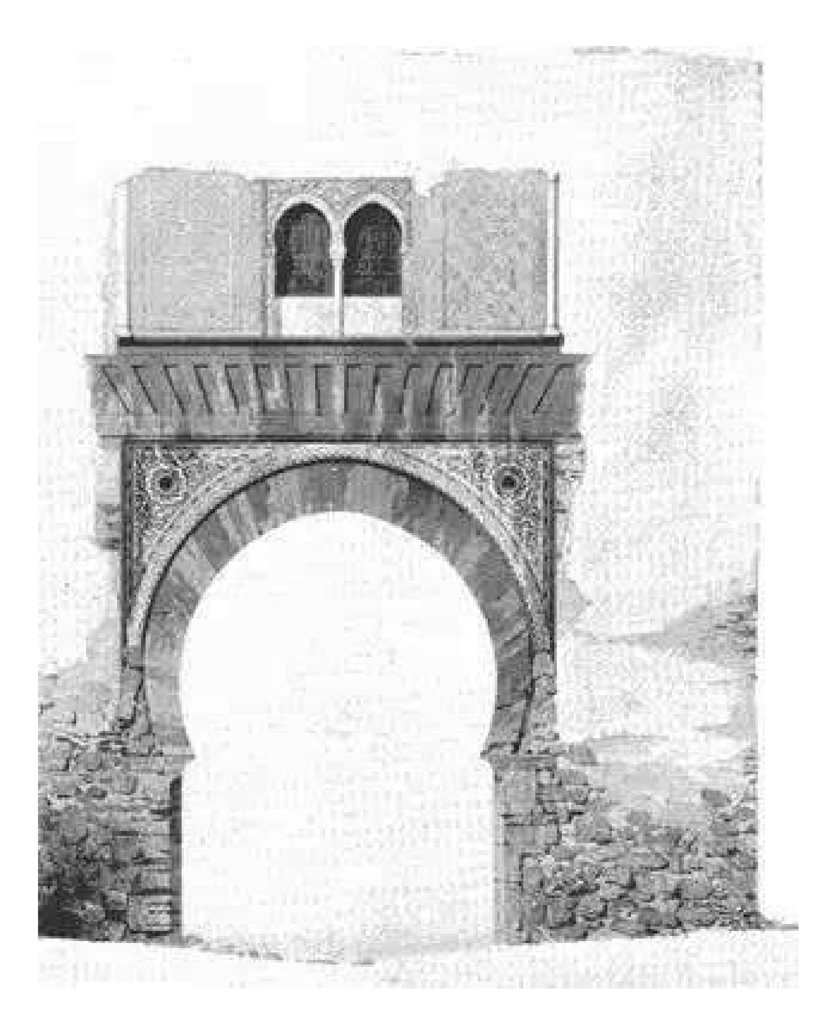
باب الشّريعة



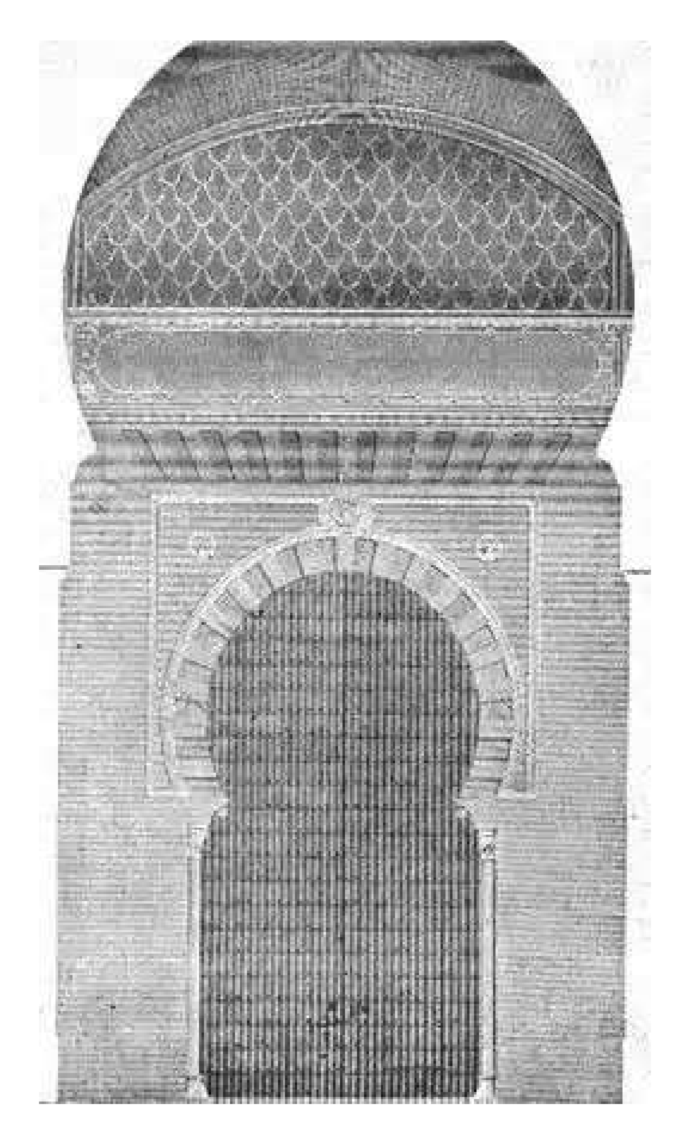
مخطّط وارتفاع وتفاصيل باب الشّريعة (لا خوستيثيا)



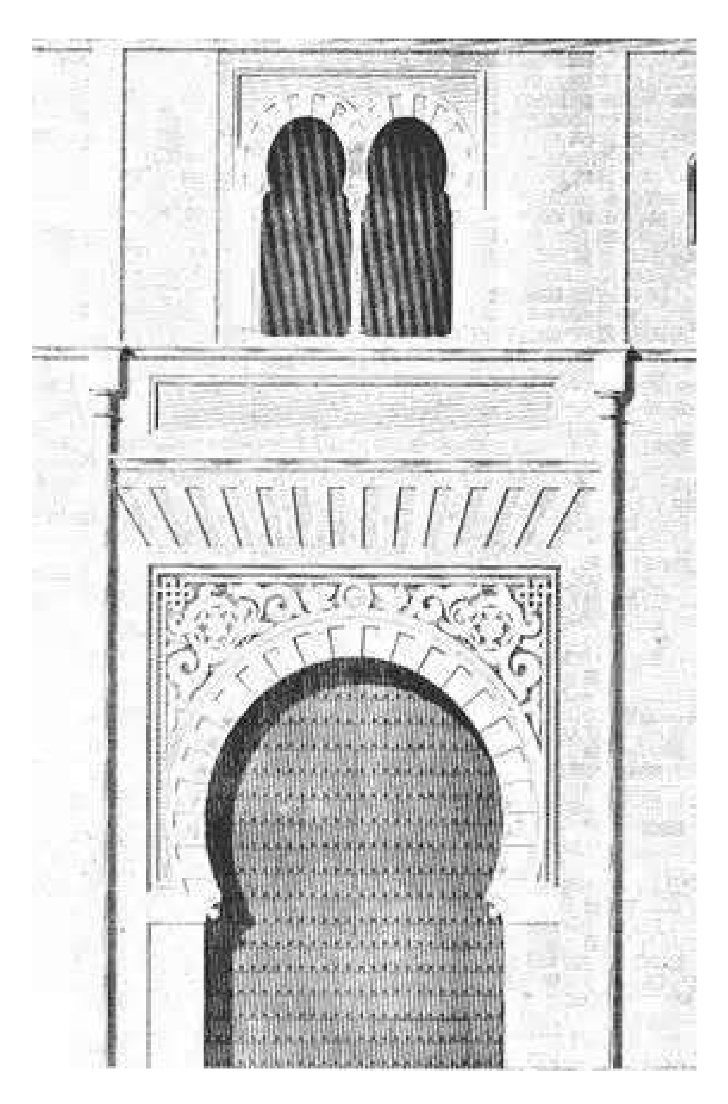
ارتفاع باب الشّريعة القديم



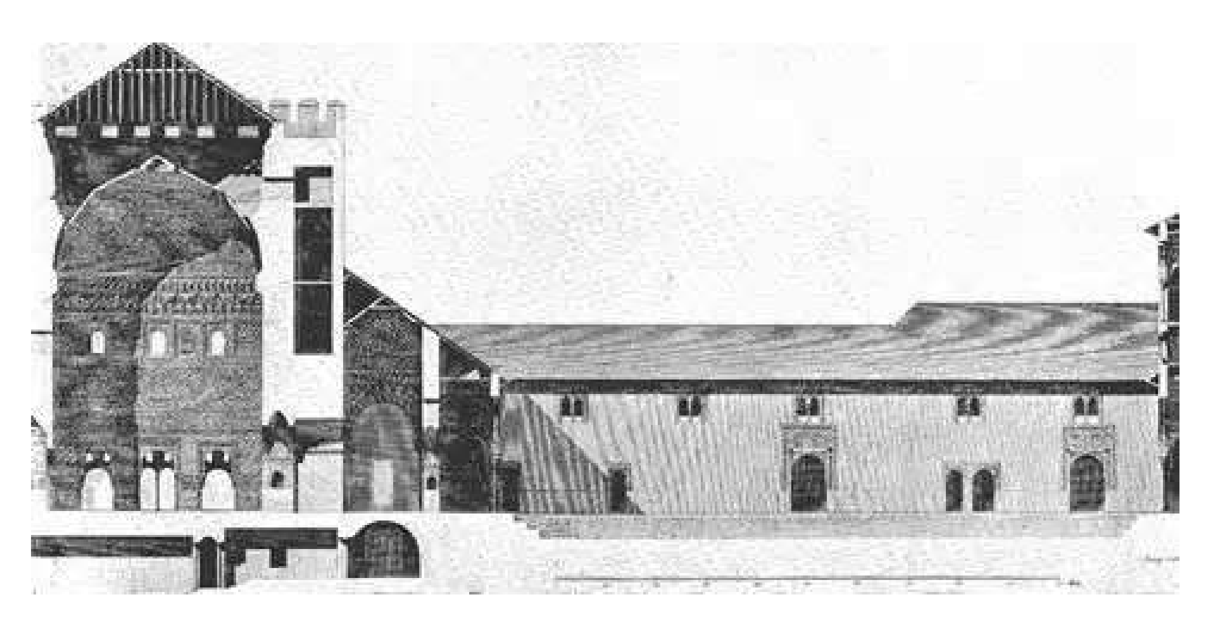
بوّابة تدعى بالتّعبير الدّارج باب النّبيذ



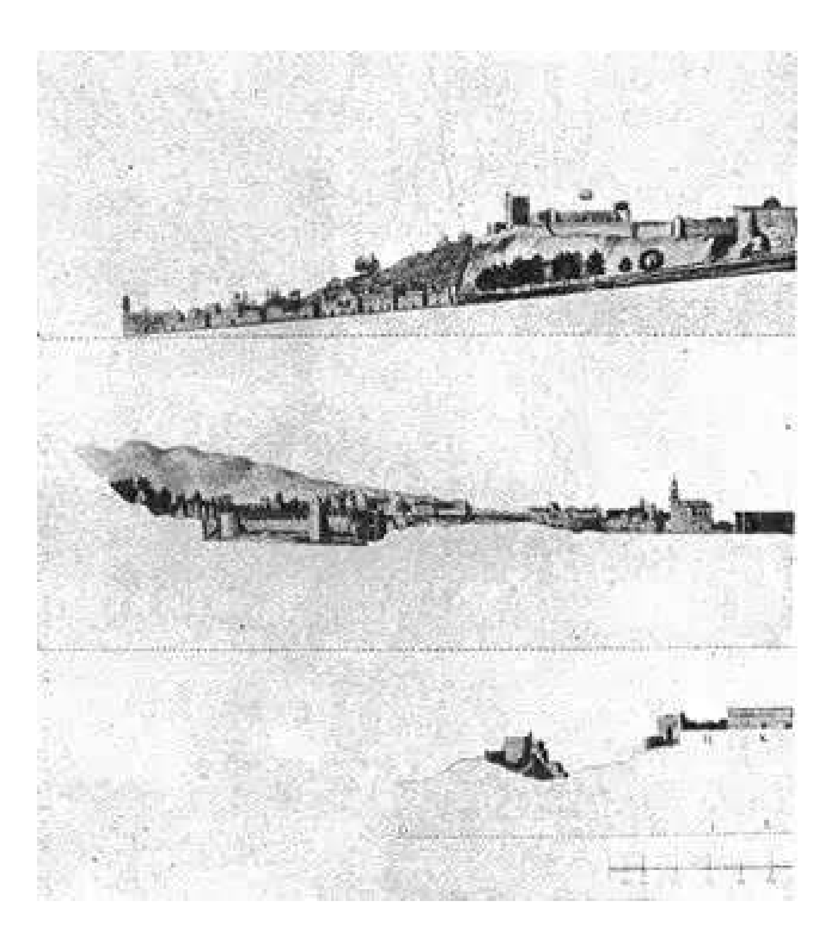
مدخل مروّق لباب القضاء



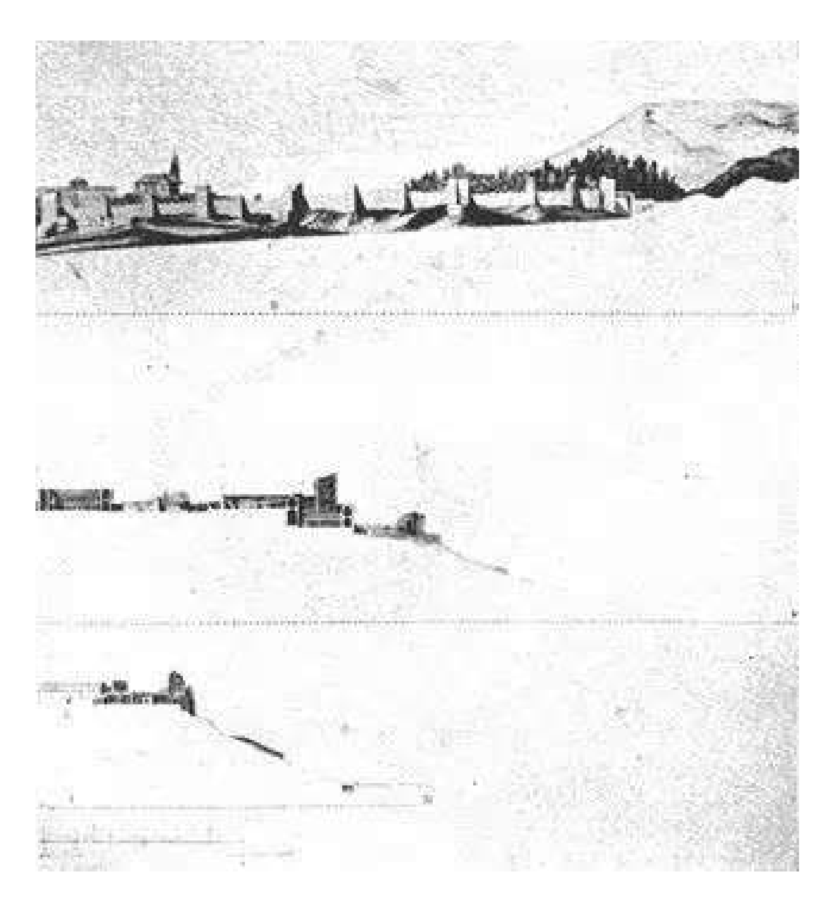
ارتفاع باب النّبيذ



مقطع عرضي لقسم من قصر الحمراء



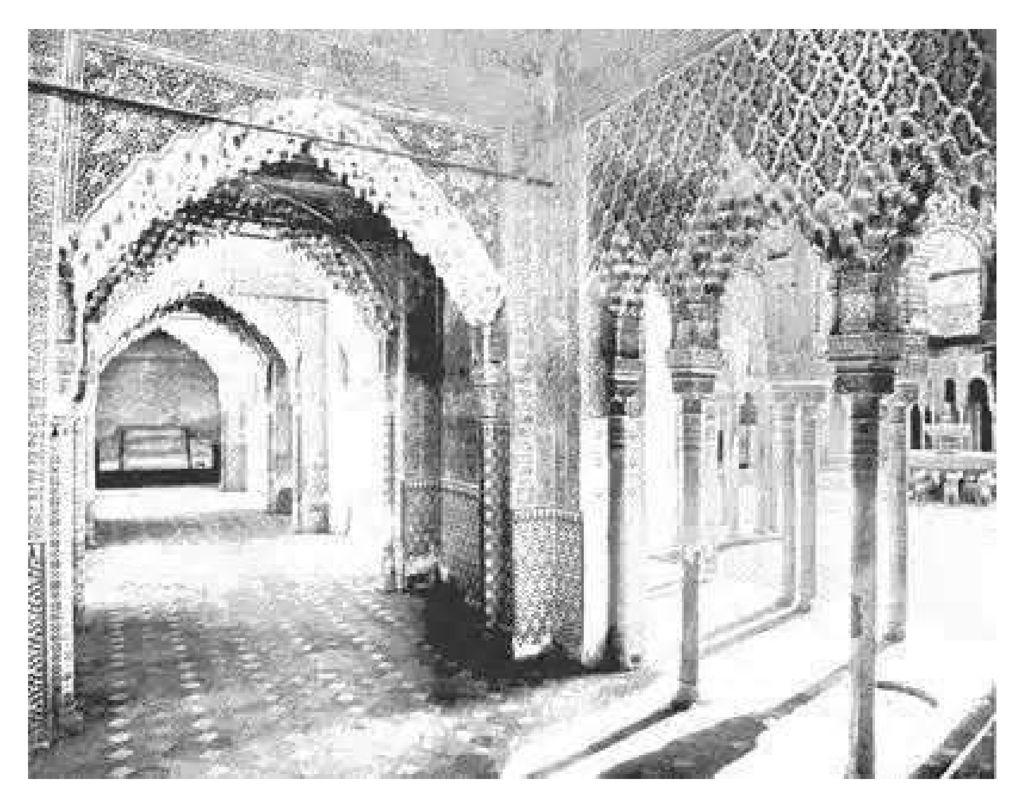
مقطع يظهر ارتفاعات قصر الحمراء



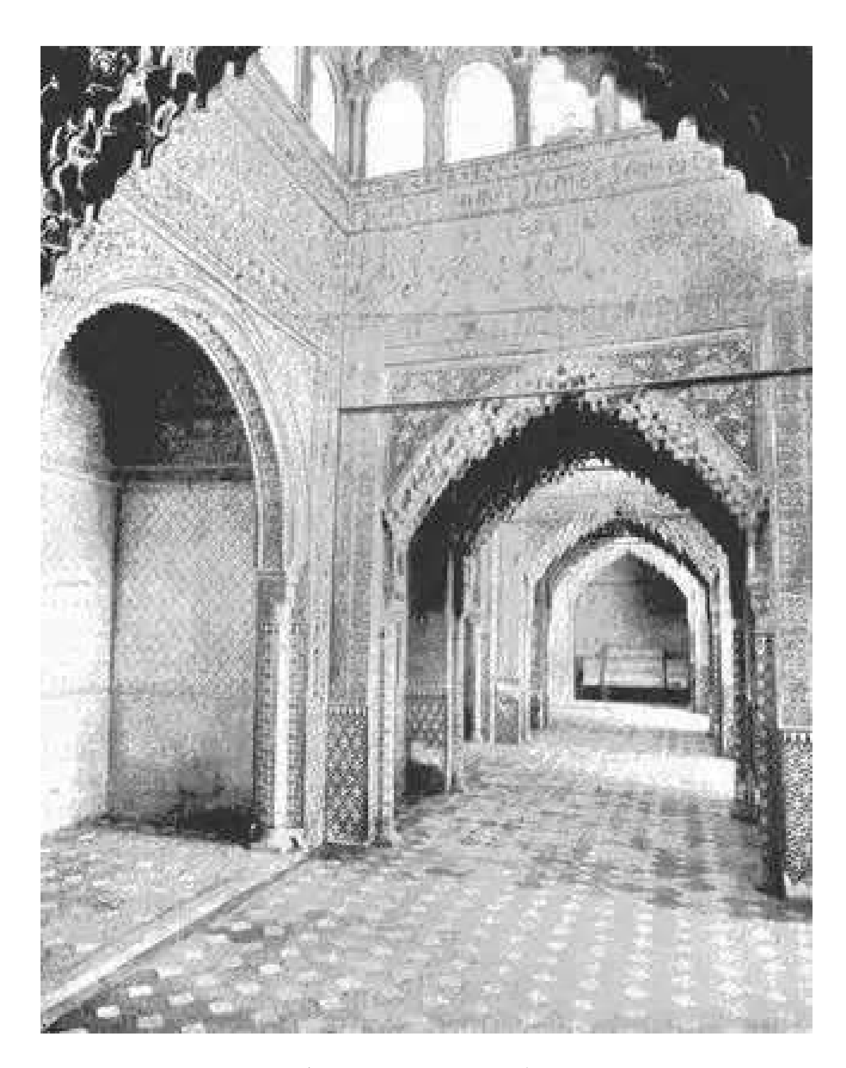
مقطع يظهر ارتفاعات قصر الحمراء



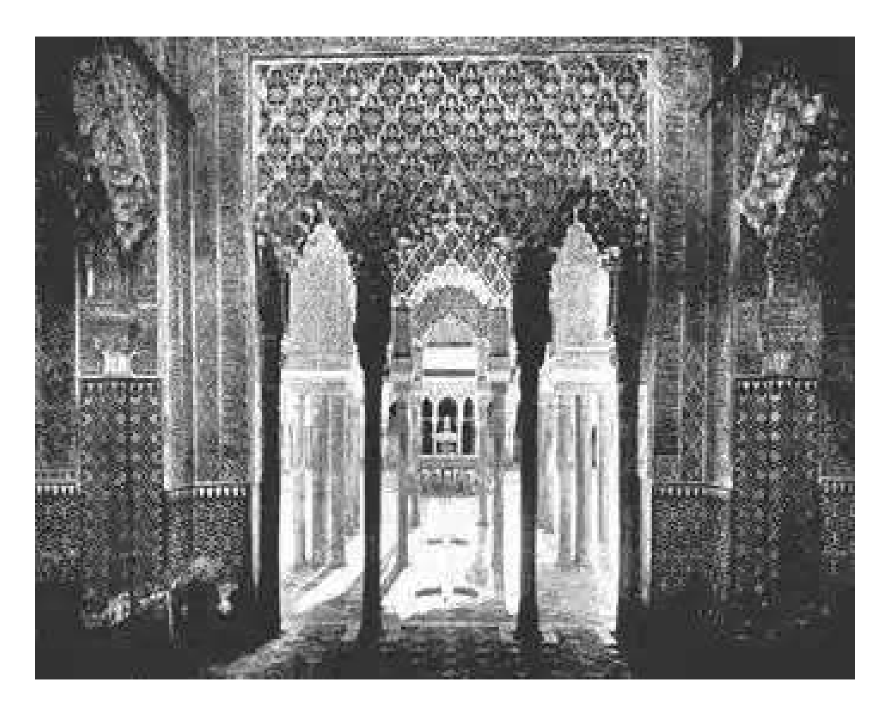
نزهات عند مدخل قصر الحمراء



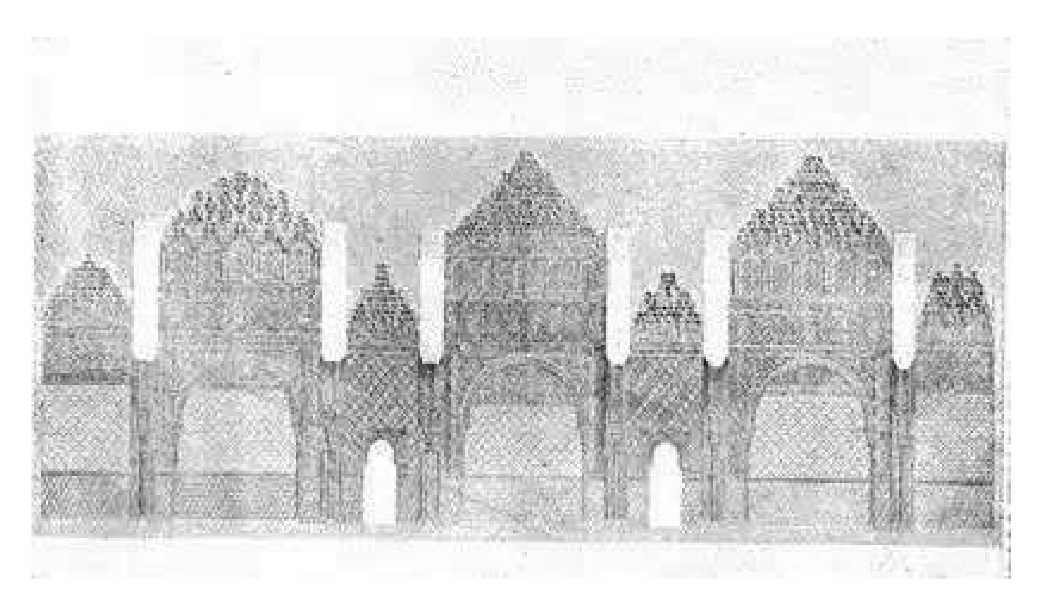
قاعة الشّريعة وبهو السّباع



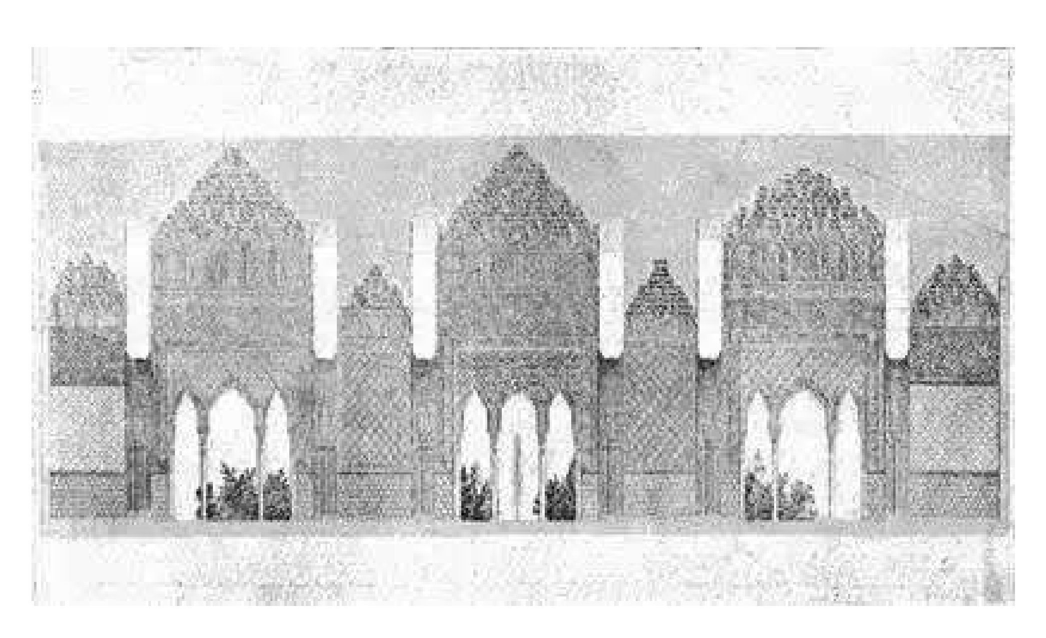
قاعة الشّريعة. الجانب الأيسر



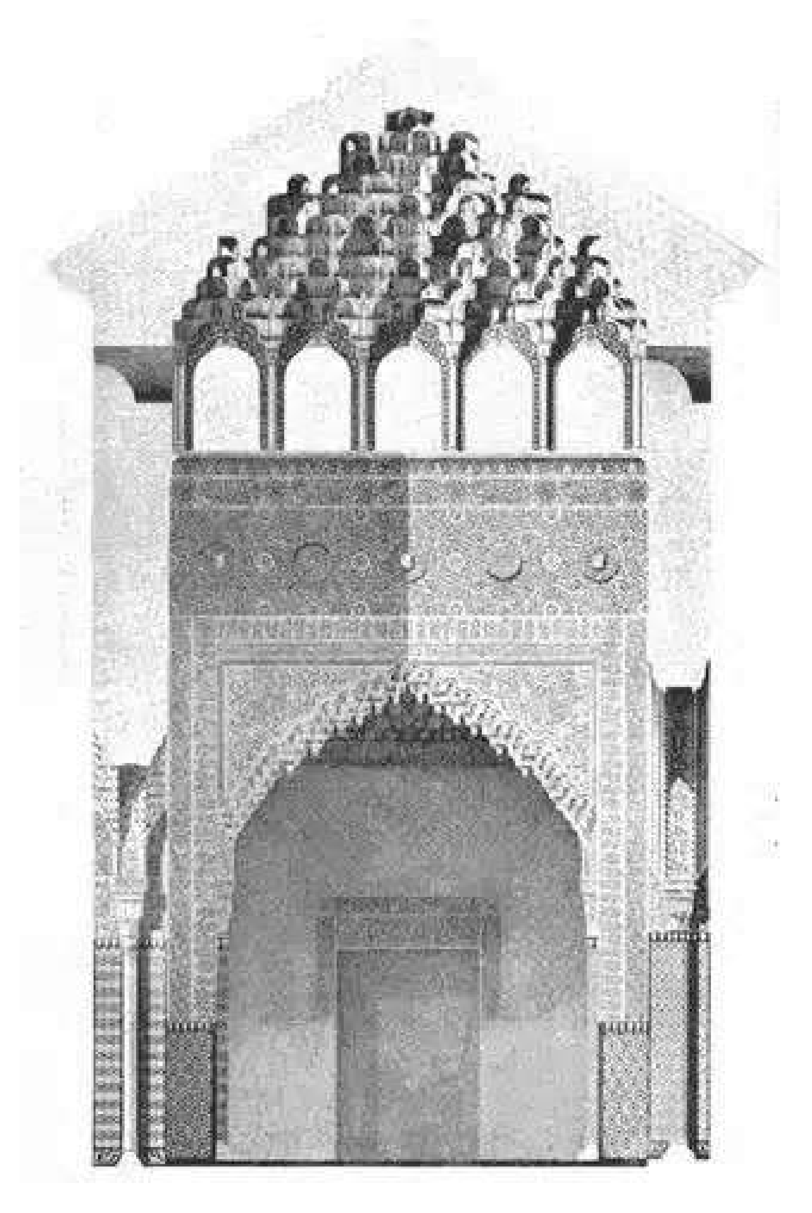
قاعة الشّريعة، وتظهر نافورة بهو السّباع



مقطع لقاعة الشّريعة، (إلى جهة الشّرق)



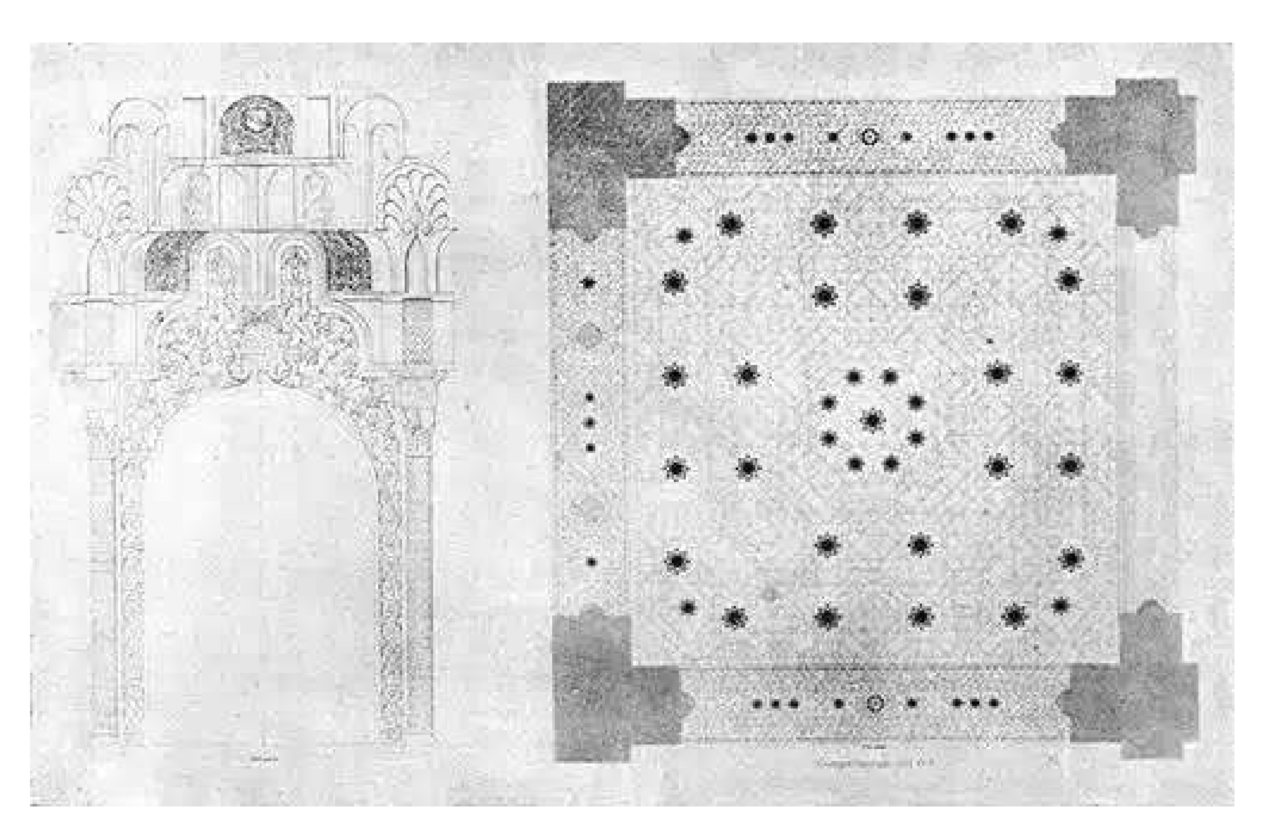
مقطع لقاعة الشّريعة، (إلى جهة بهو السّباع)



مقطع عمودي لقاعة الشّريعة



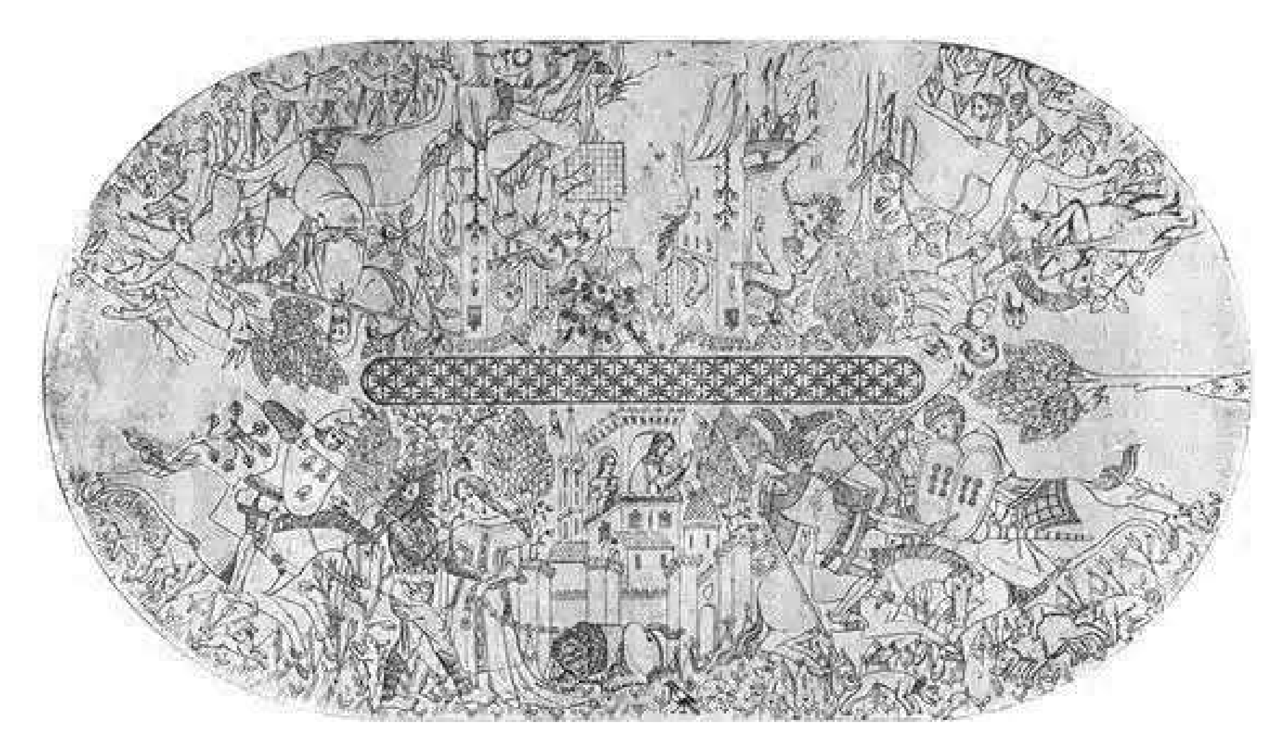
تفاصيل من قاعة الشّريعة



مخطط ونوافذ قاعة الشّريعة



رسوم على سقف قاعة الشّريعة. رقم 1



رسوم على سقف قاعة الشّريعة. رقم 3



جزء من لوحة في قاعة الشّريعة: المسلم عائداً من الصّيد



قاعة الشّريعة: مقتل الأسد على يد فارس مسيحي



جزء من لوحة في قاعة الشّريعة تمثّل فارساً مسيحياً ينقذ فتاة من ساحر شرّير،

أو رجل البرّ المتوحّش



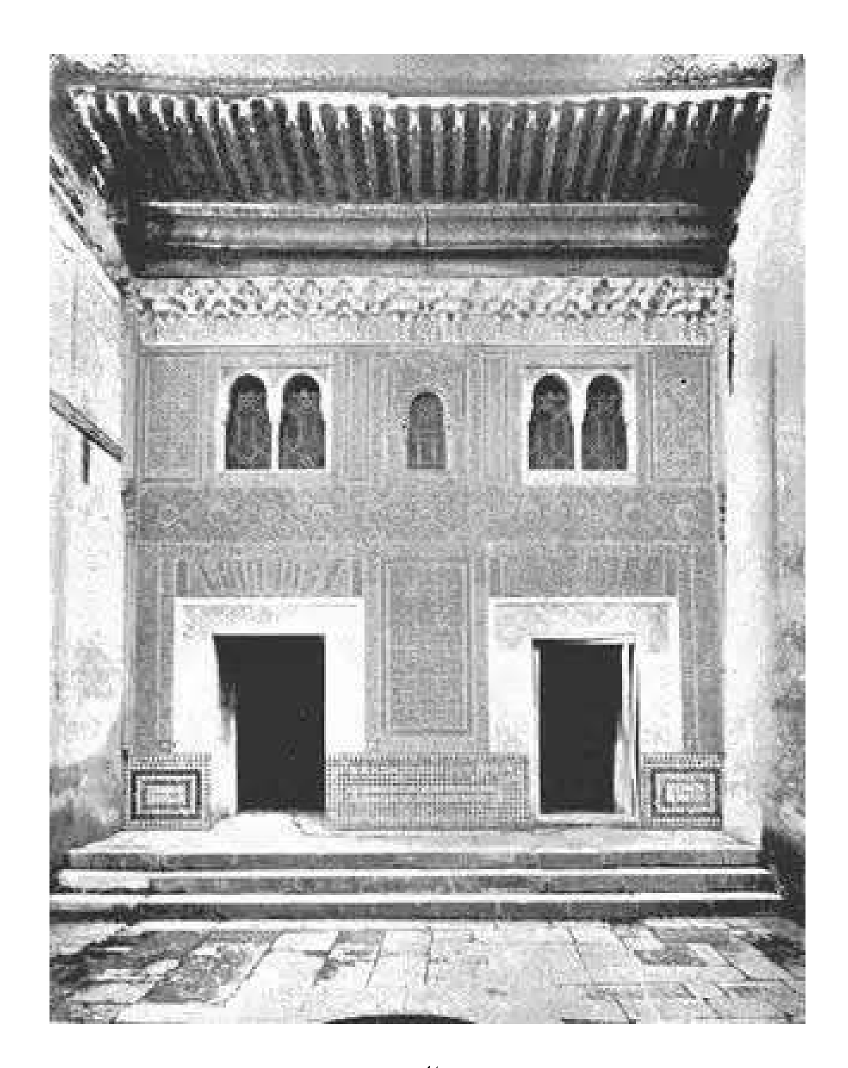
جزء من لوحة في قاعة الشّريعة: صيّاد مسلم يقتل الخنزير البرّي



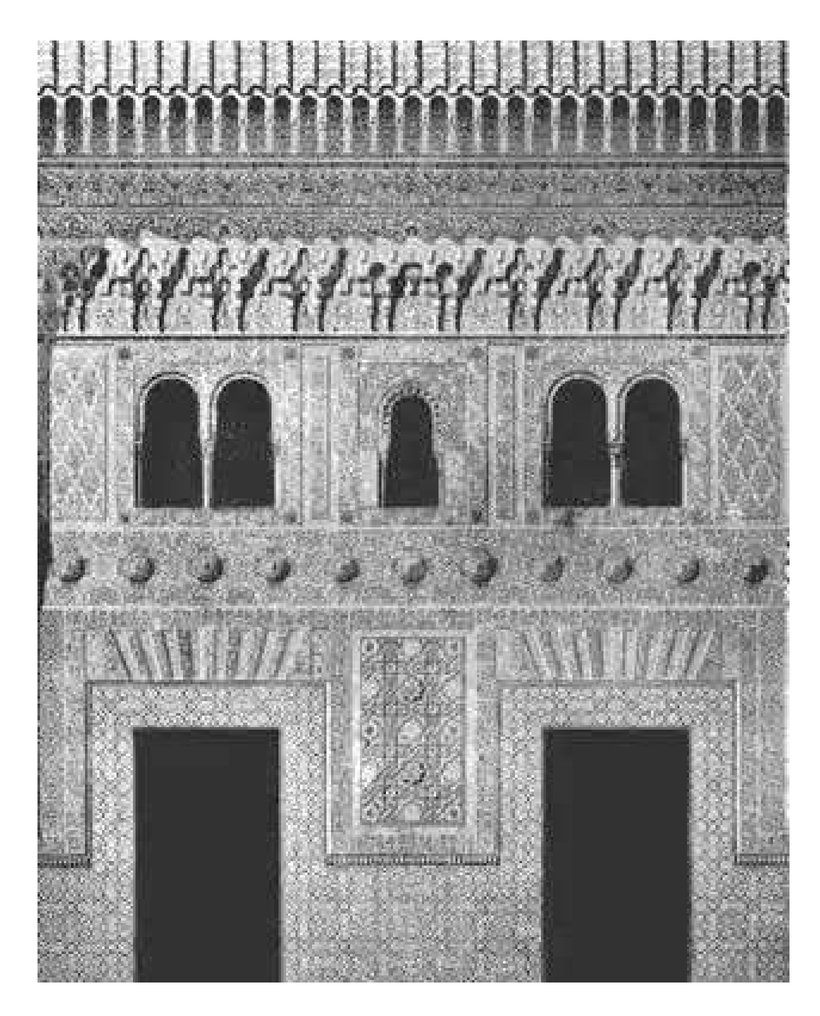
قاعة الشّريعة: ثلاثة أشخاص من لوحة المحكمة الإسلاميّة



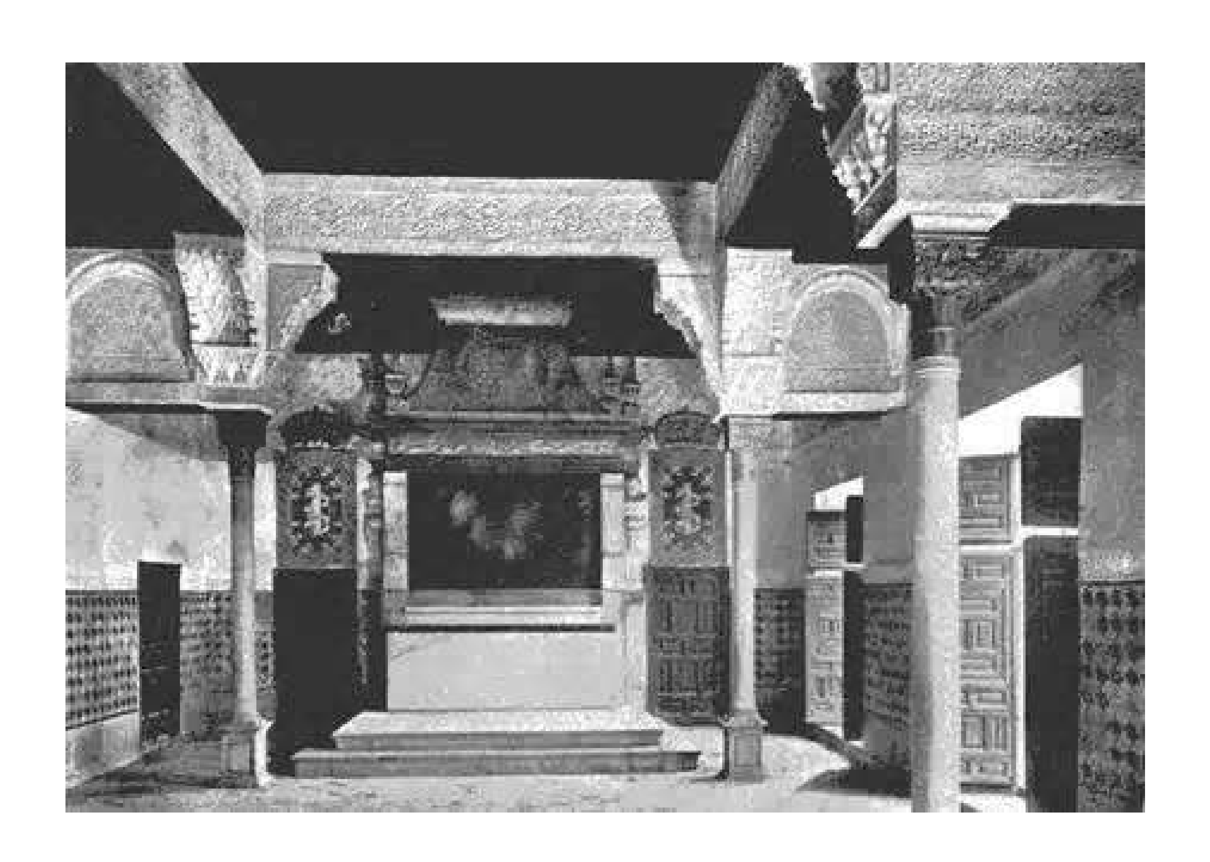
المسجد وجنّة العريف



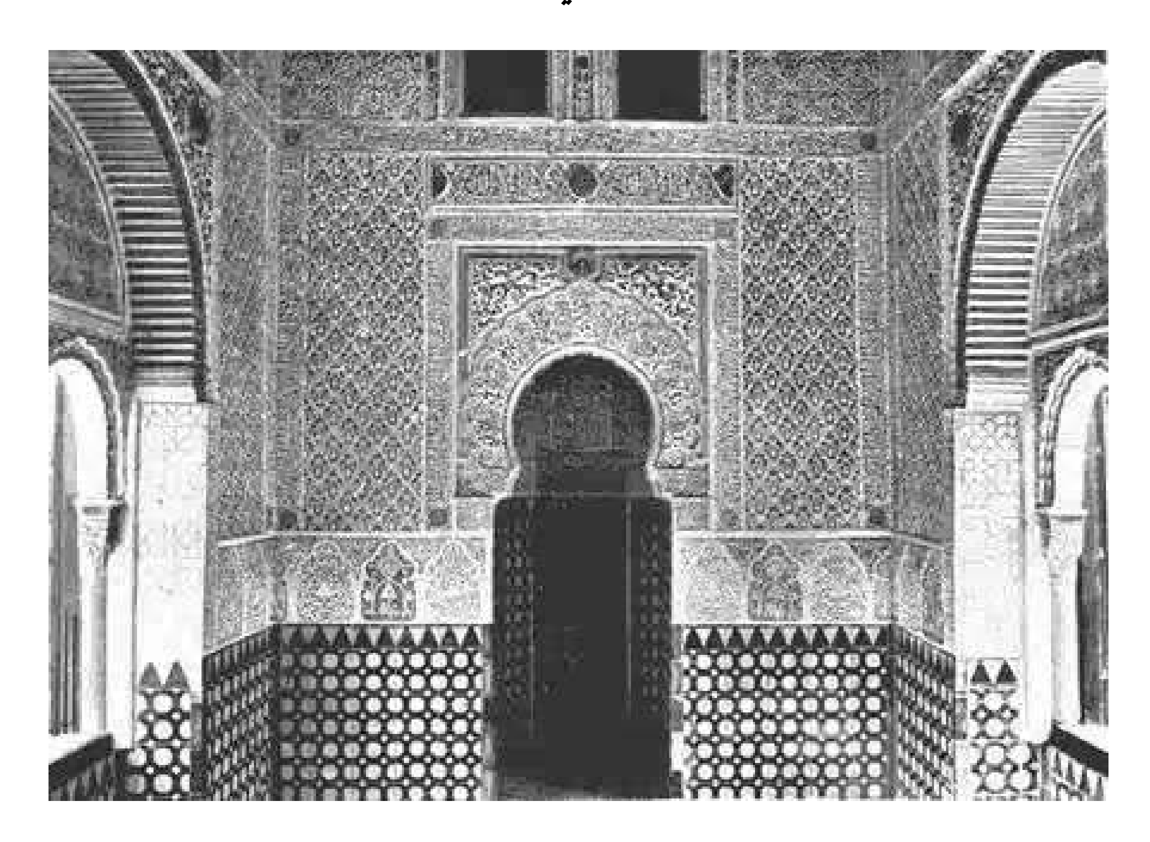
صحن المسجد



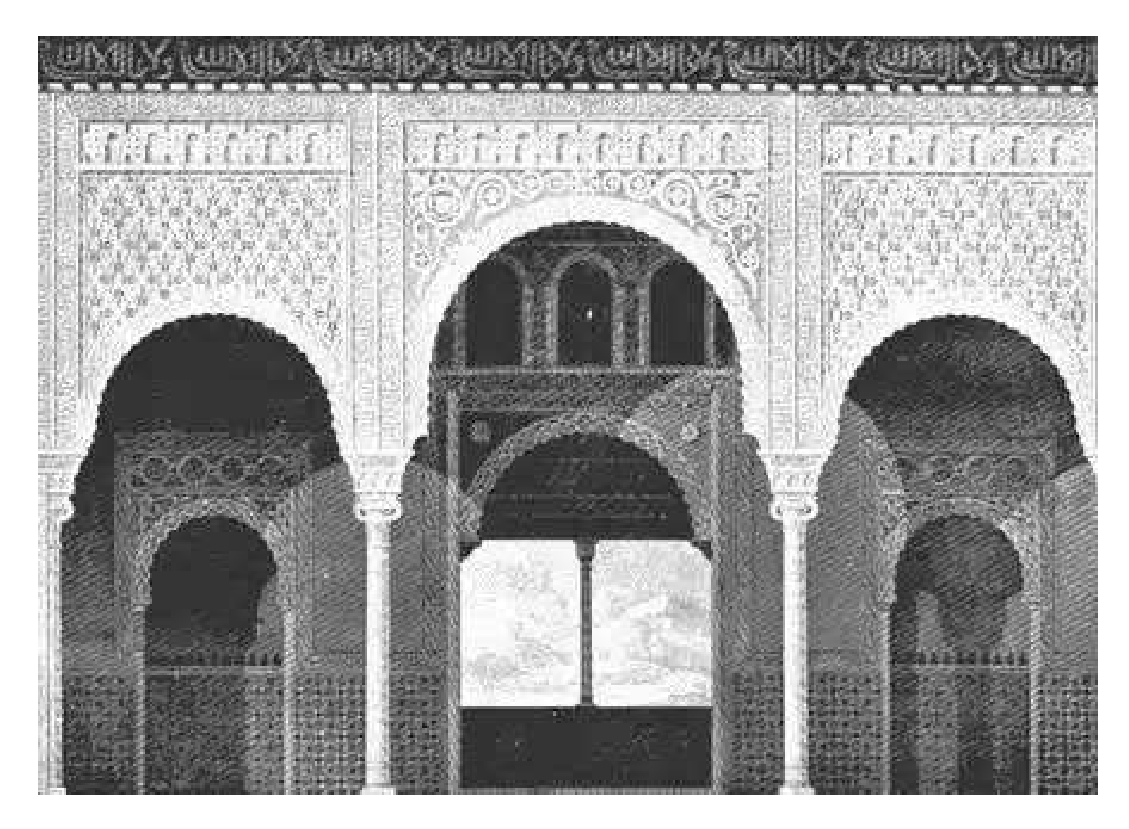
واجهة المسجد



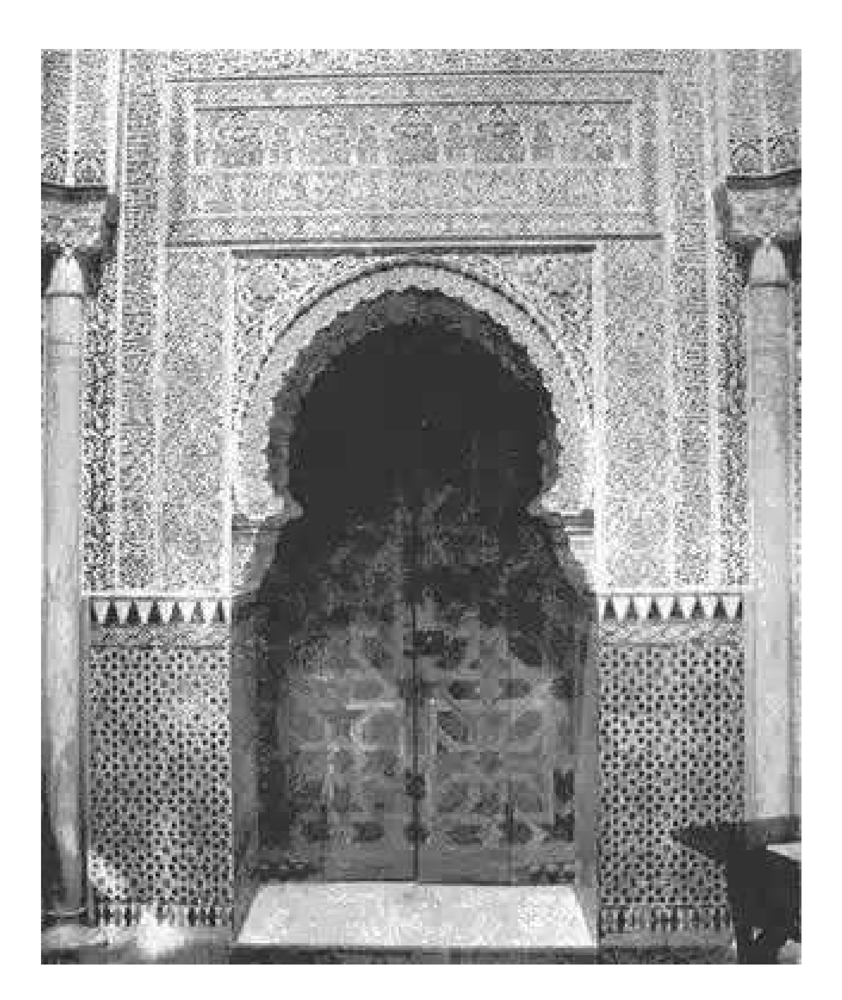
داخل المسجد في قصر الحمراء



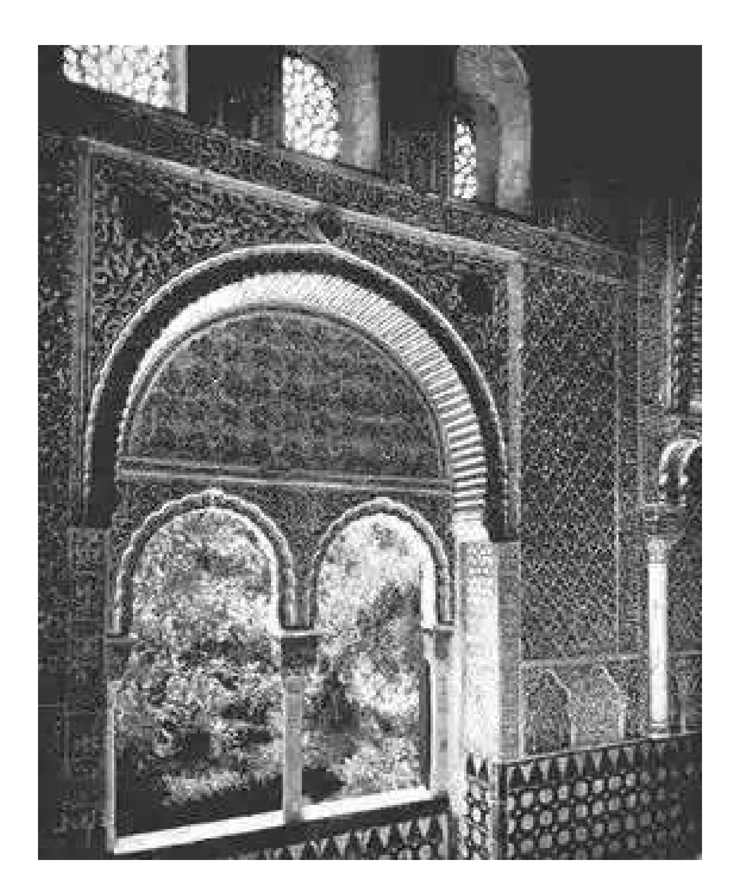
داخل المسجد



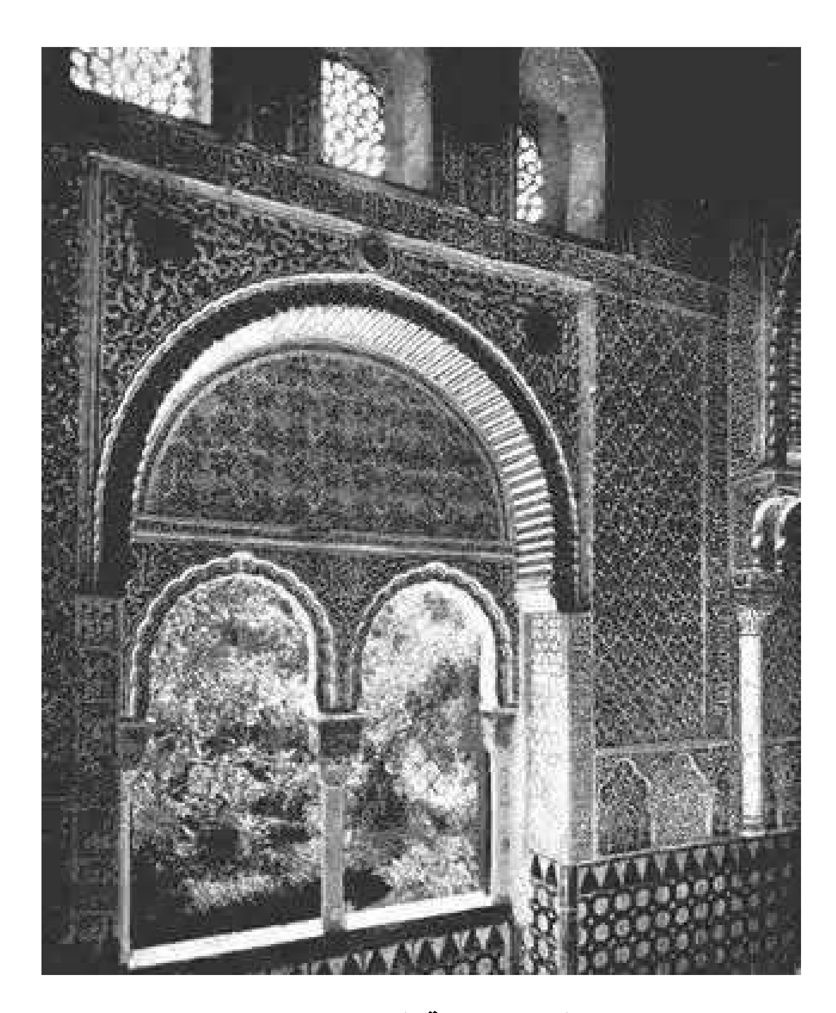
ارتفاع الرّواق المحاذي للمسجد



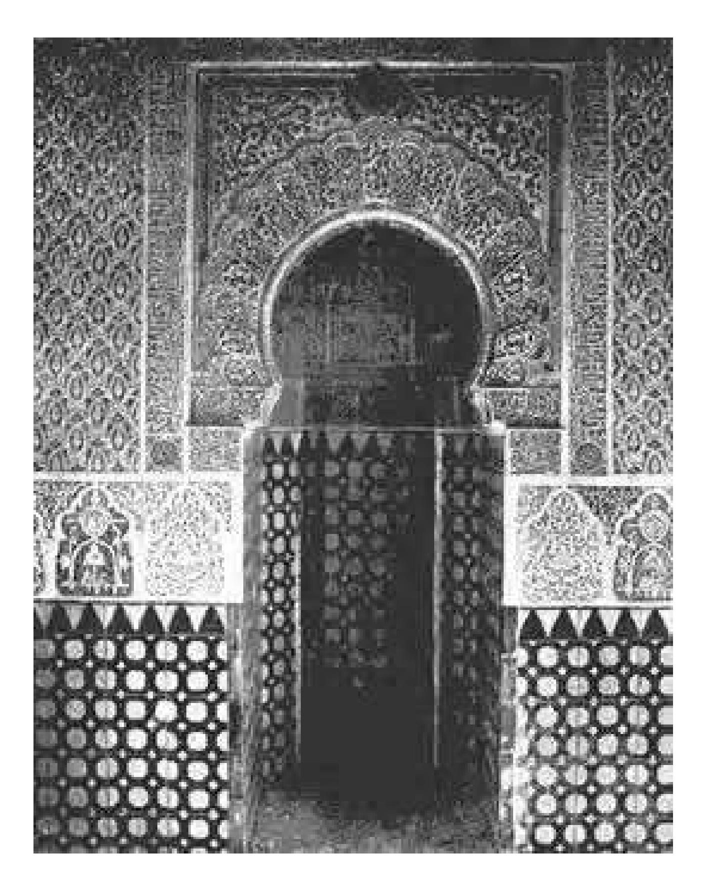
تفصيل لباب الدّخول إلى المسجد



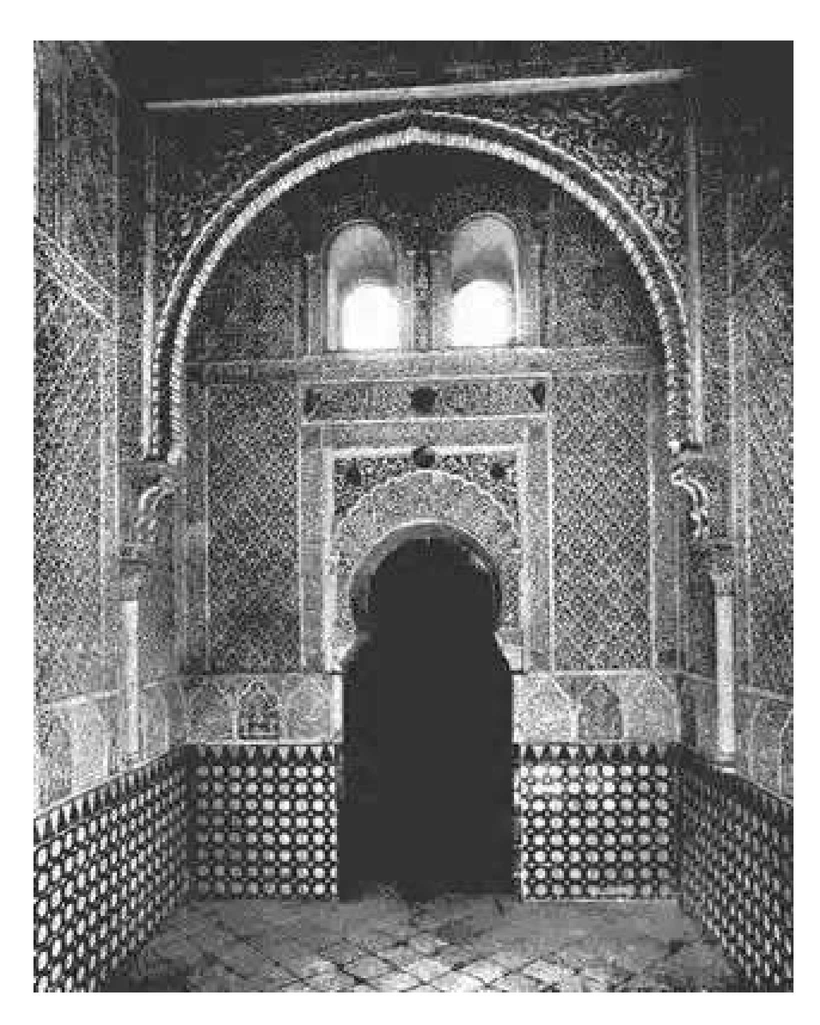
نافذة مقوسنة في المسجد



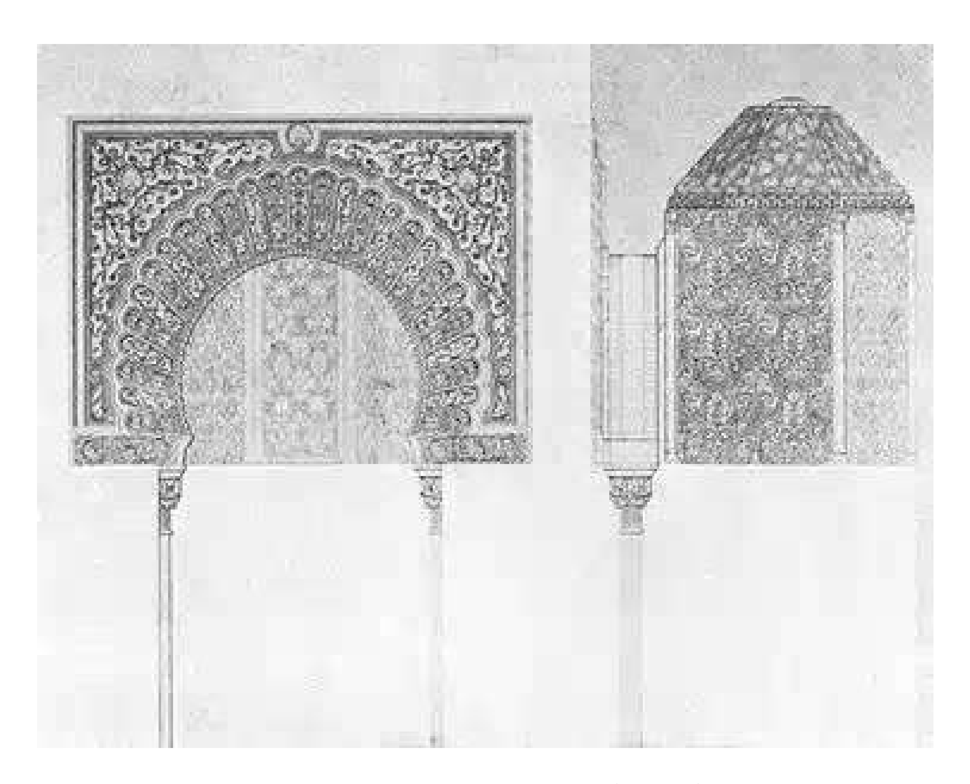
نافذة مقوسنة في المسجد



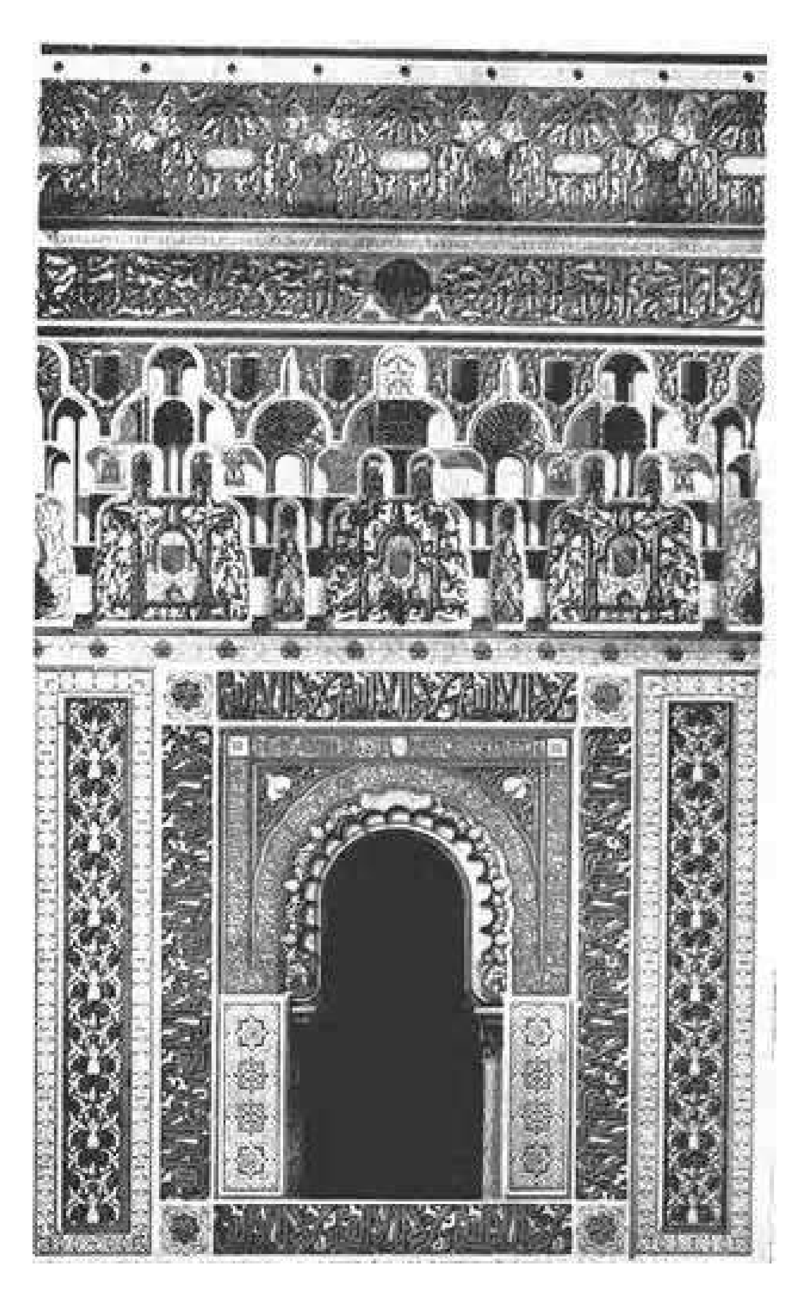
حنية المحراب في المسجد، مكان اغتيال يوسف



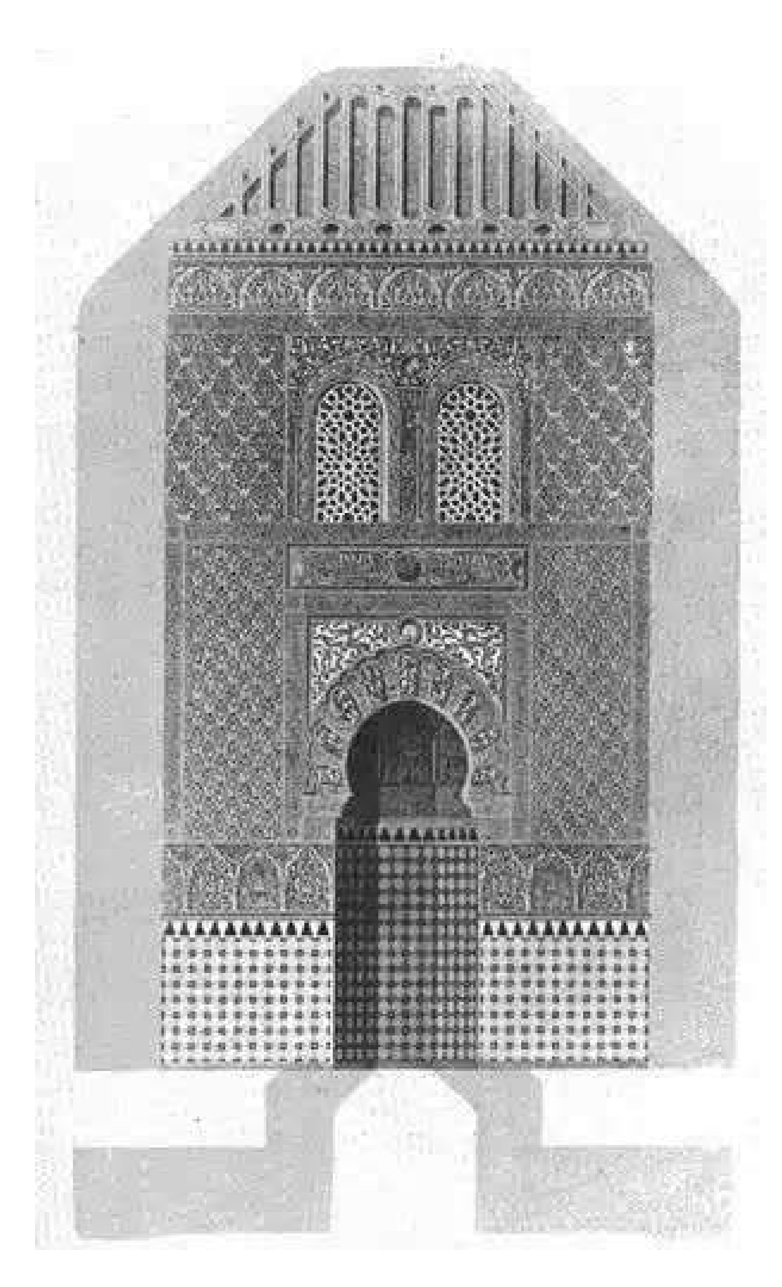
المسجد من حنية المحراب



تفاصيل زخرفيّة لحنية المحراب قرب باب الدّخول إلى المسجد



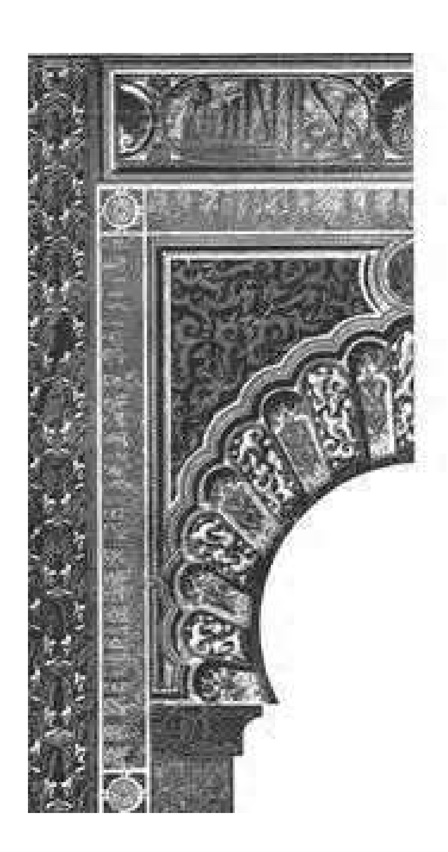
طنف زخرفي ونافذة في واجهة المسجد

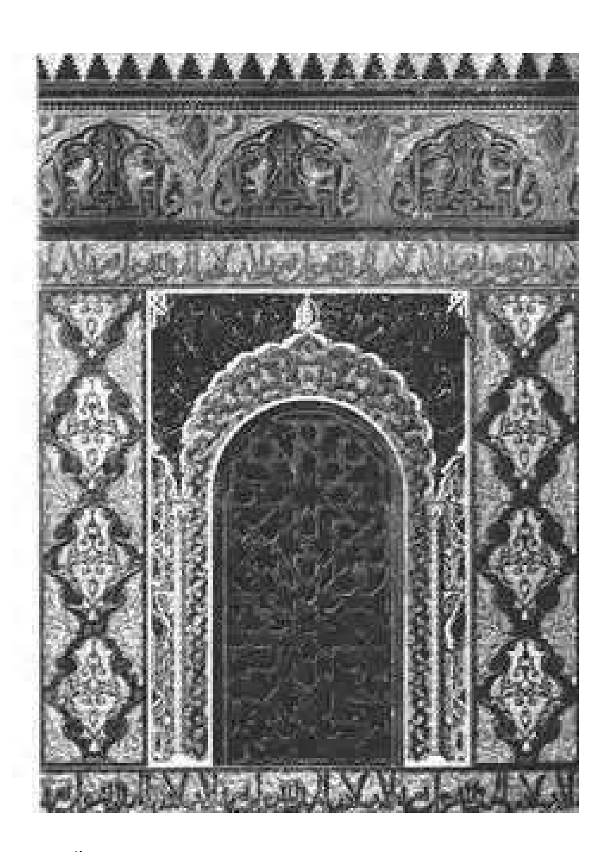


مقطع عمودي للمسجد

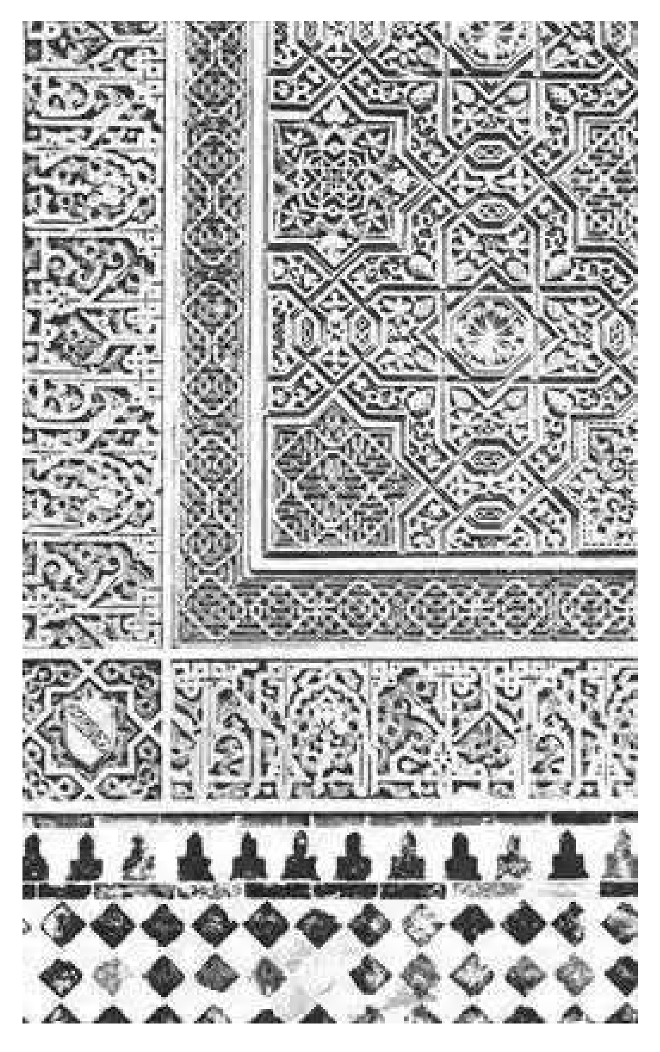


ثرّيا عربيّة في المسجد

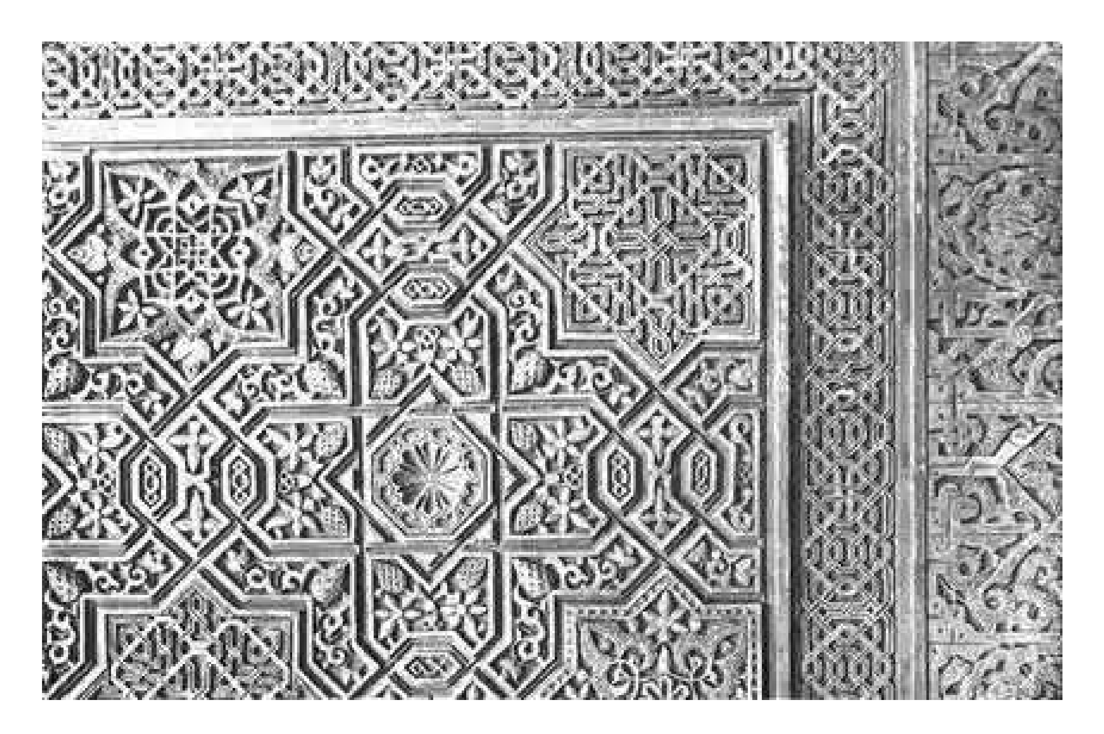




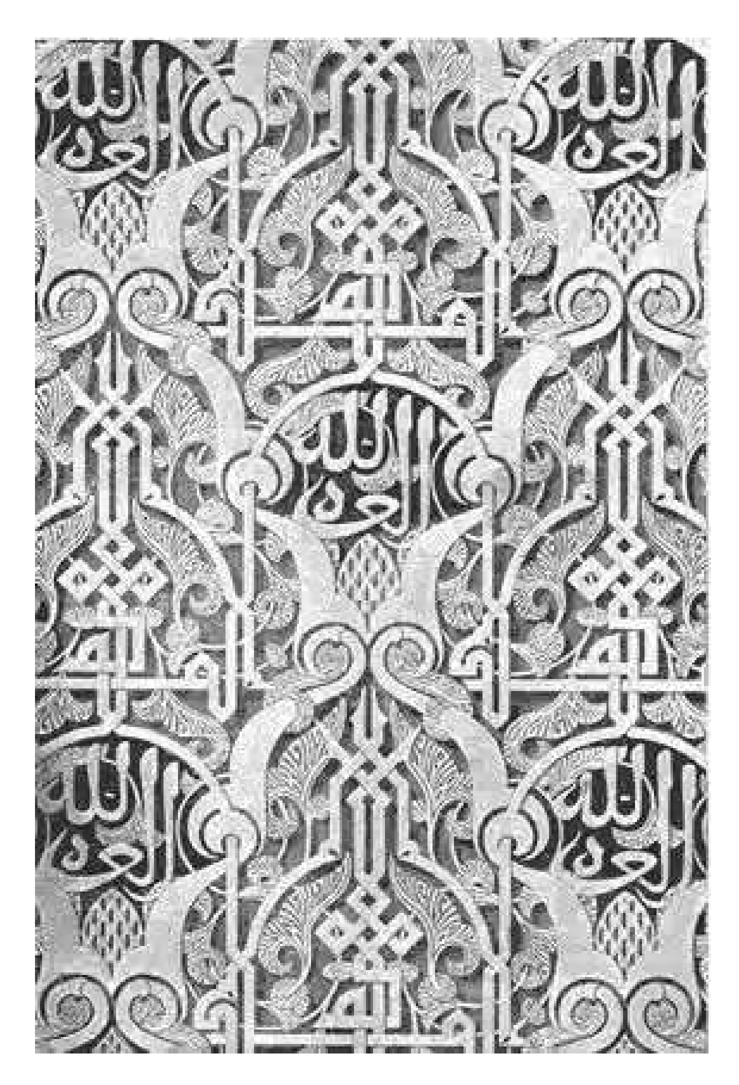
تفاصيل لجبهة مسجد الحرم



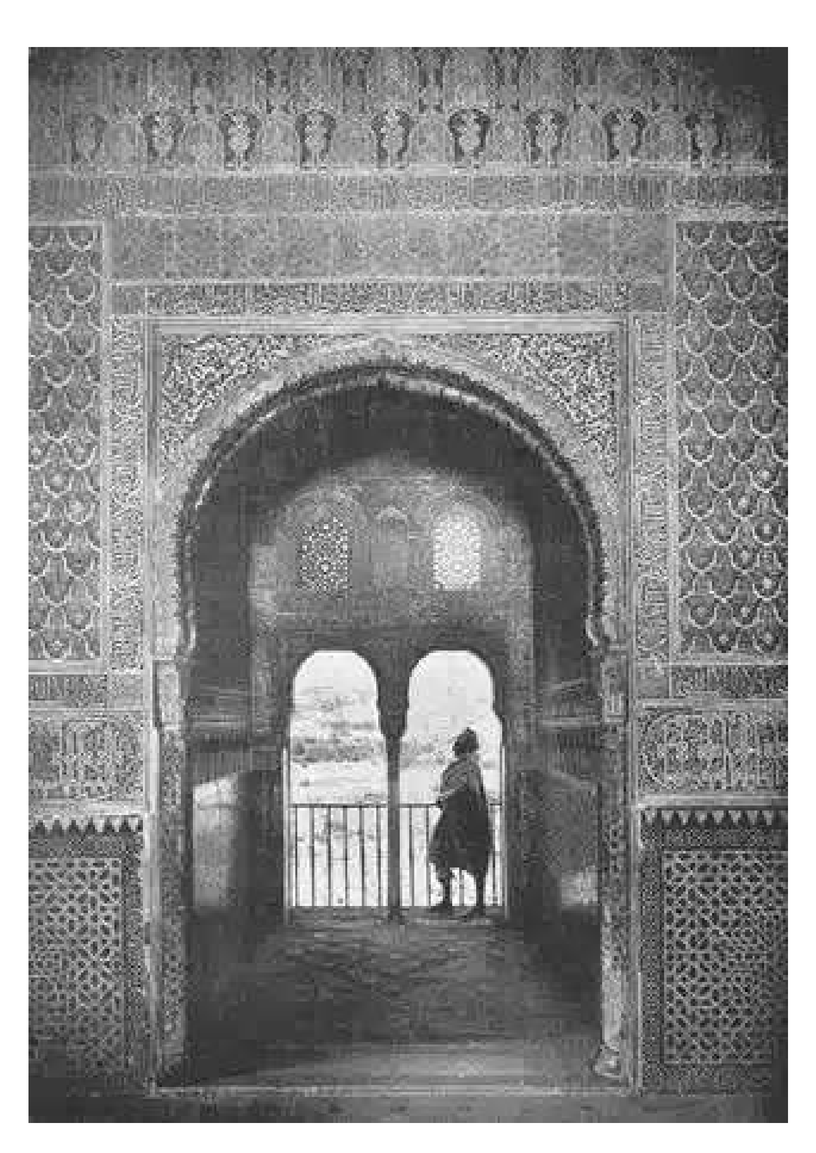
تفاصيل لزخرفة في صحن المسجد



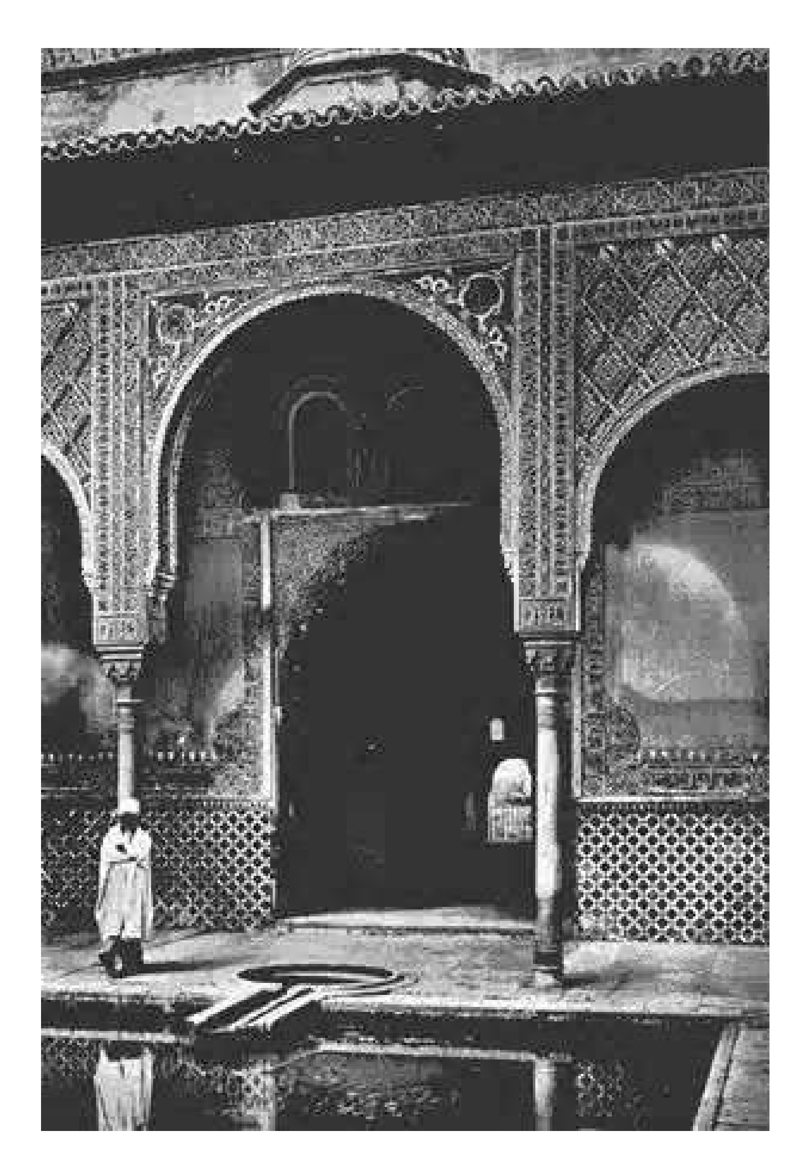
تفاصيل في صحن المسجد، الواجهة الشّرقية



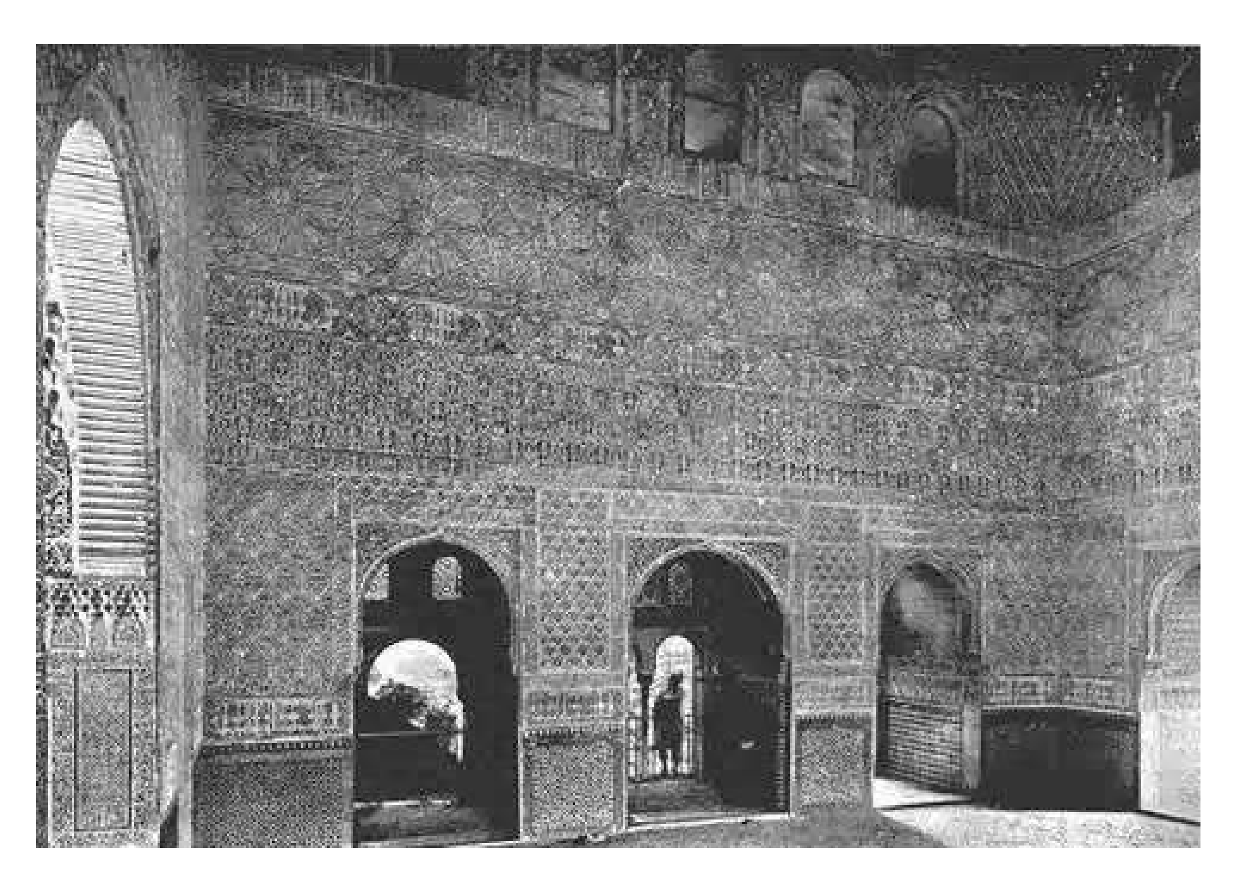
زخرفة في لوح، صحن المسجد



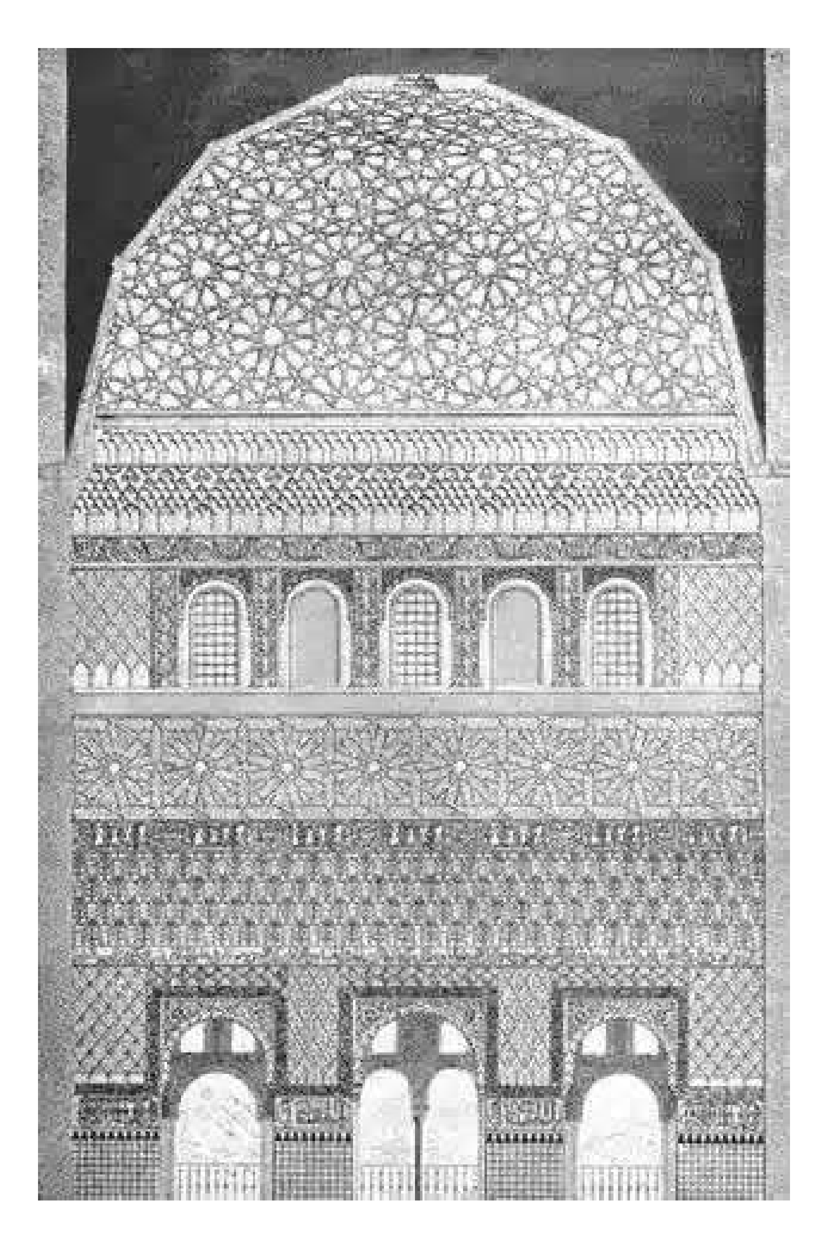
نافذة في قاعة السُّفراء



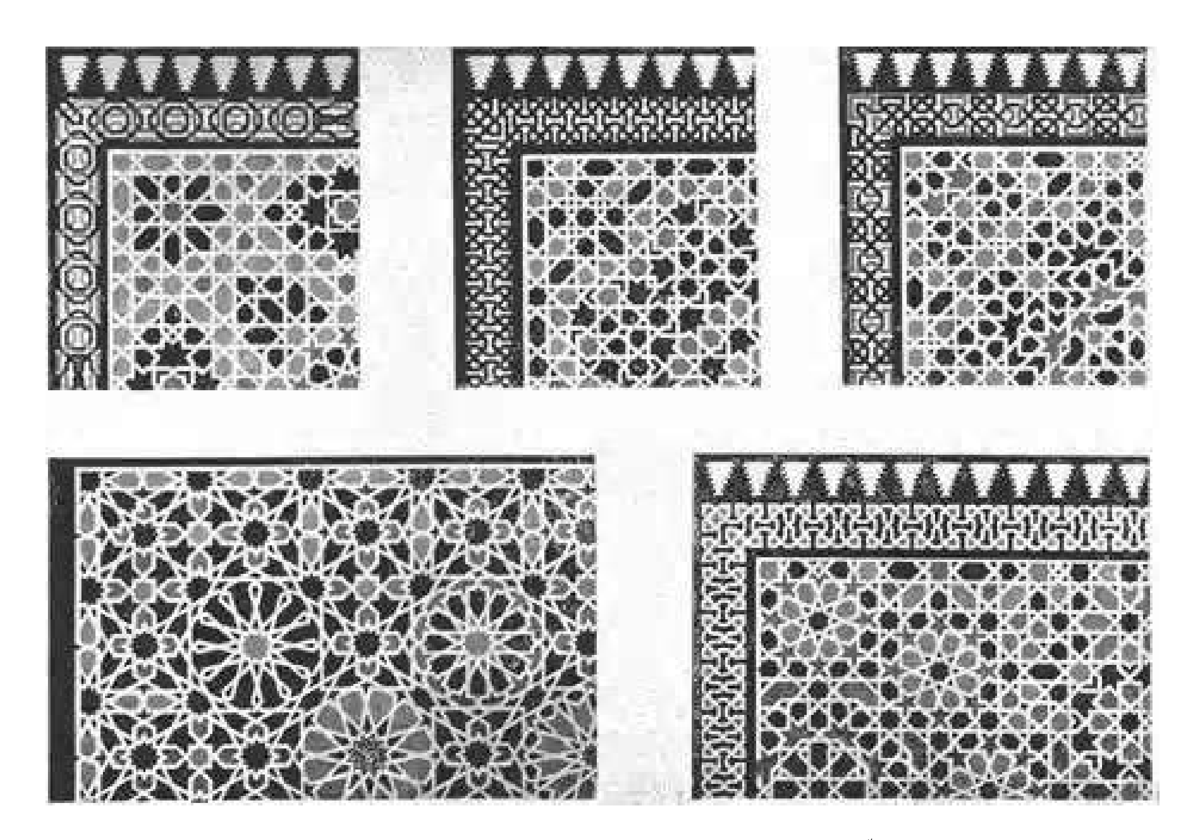
المدخل إلى قاعة السُّفراء



قاعة السُّفراء



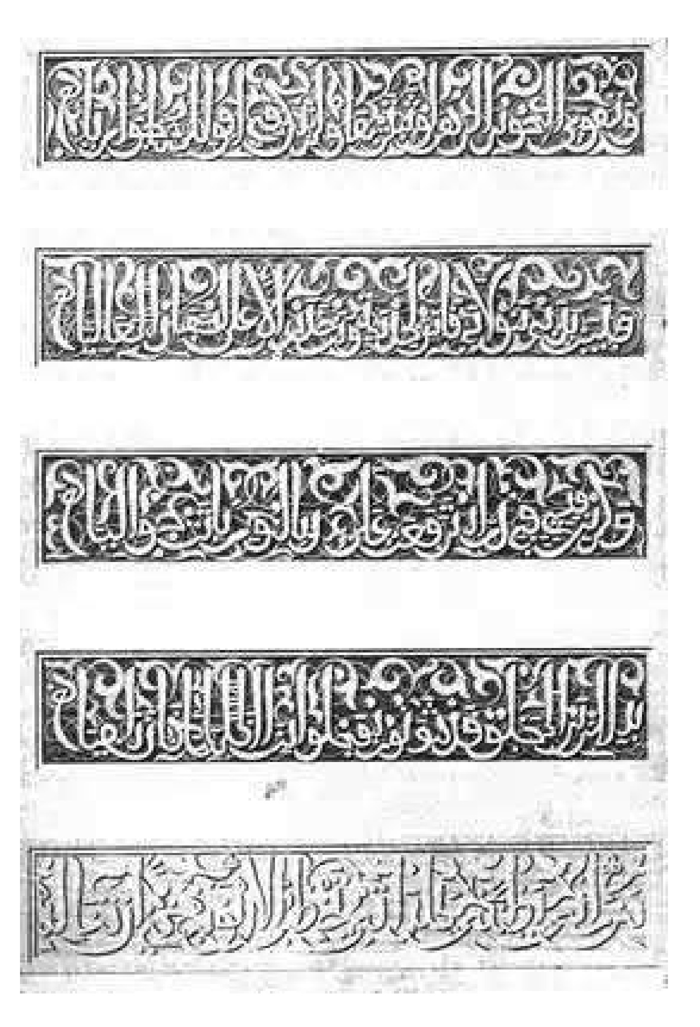
مقطع وارتفاع داخل قاعة السَّفراء



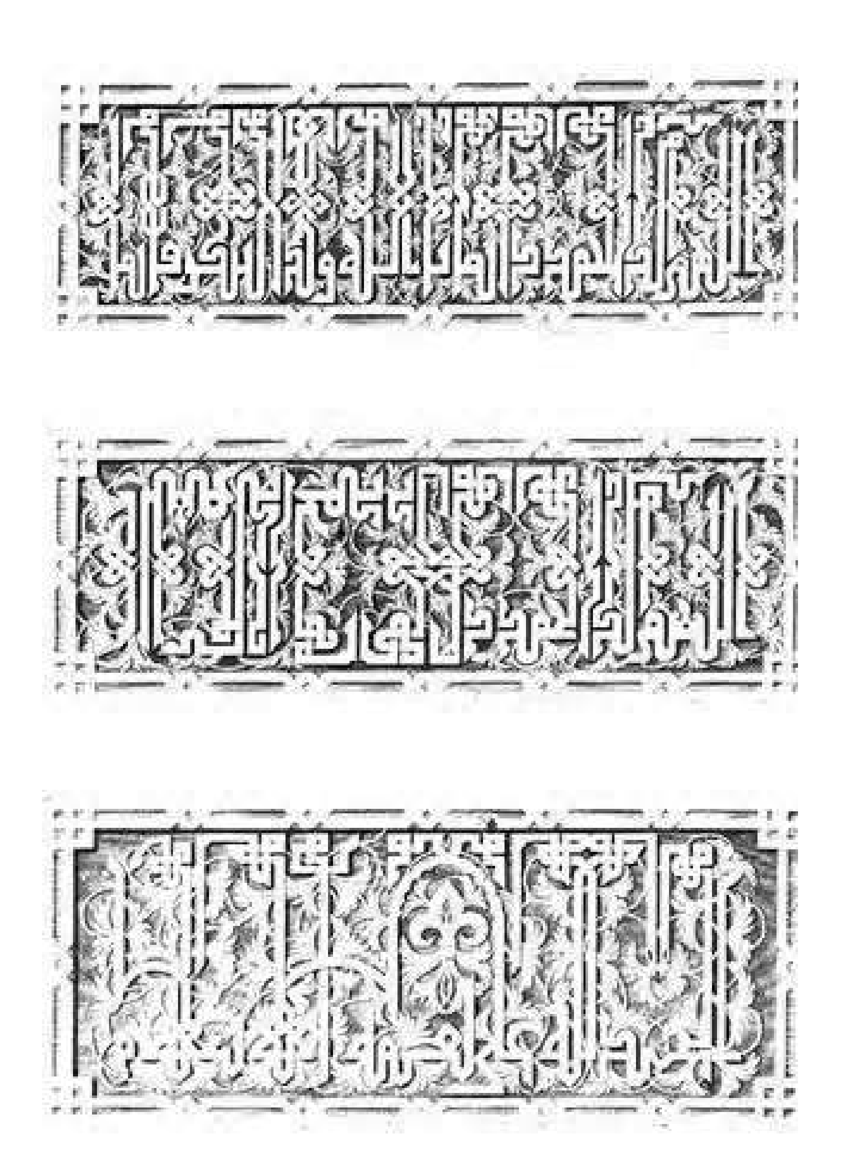
أعمال اللّوحات المرسومة بألوان شمعيّة في قاعة السُّفراء



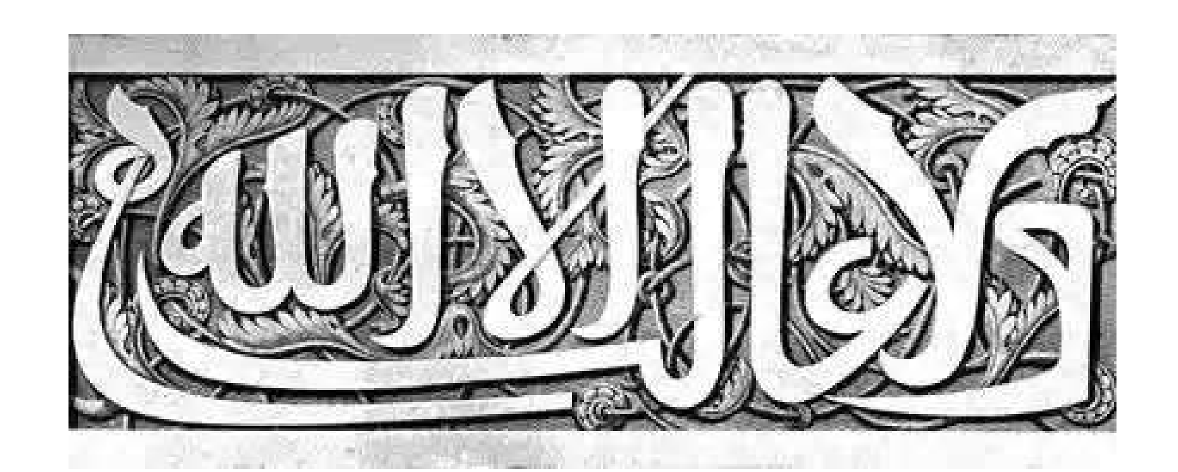
زخرفة في لوح، قاعة السُّفراء



نقوش كتابيّة في قاعة السُّفراء

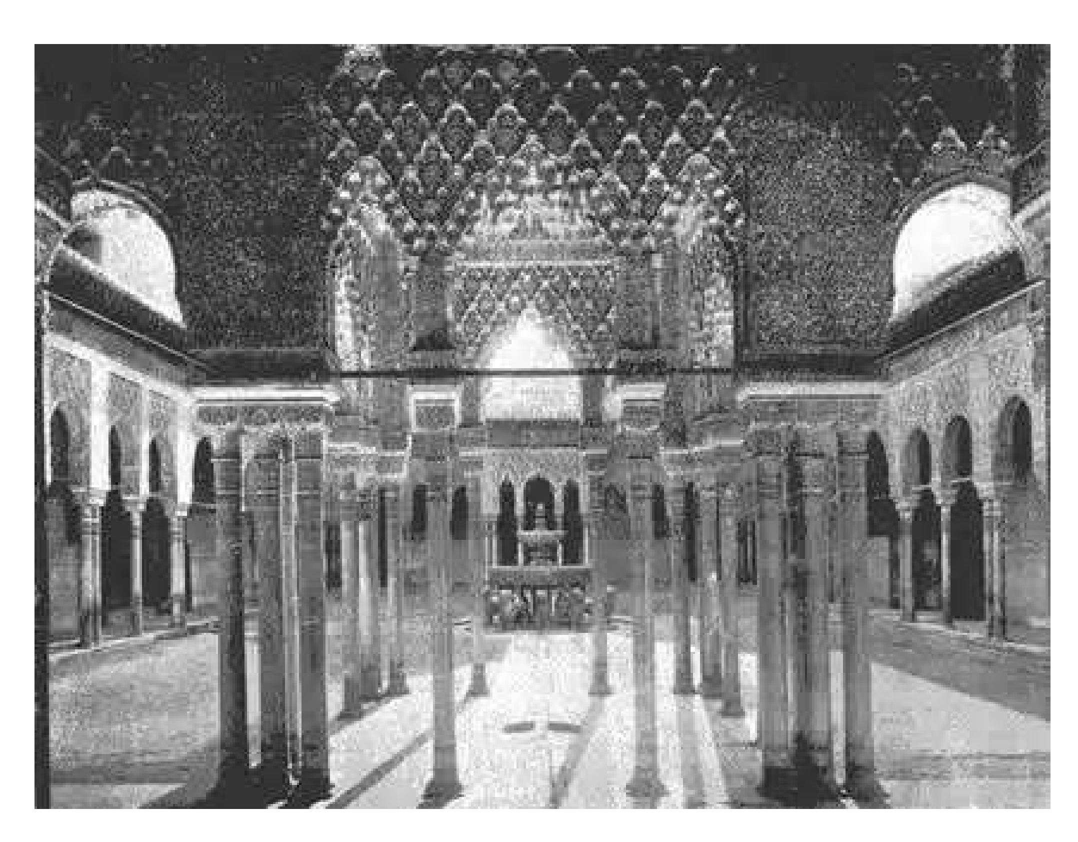


نقوش كتابيّة كوفيّة، قاعة السُّفراء



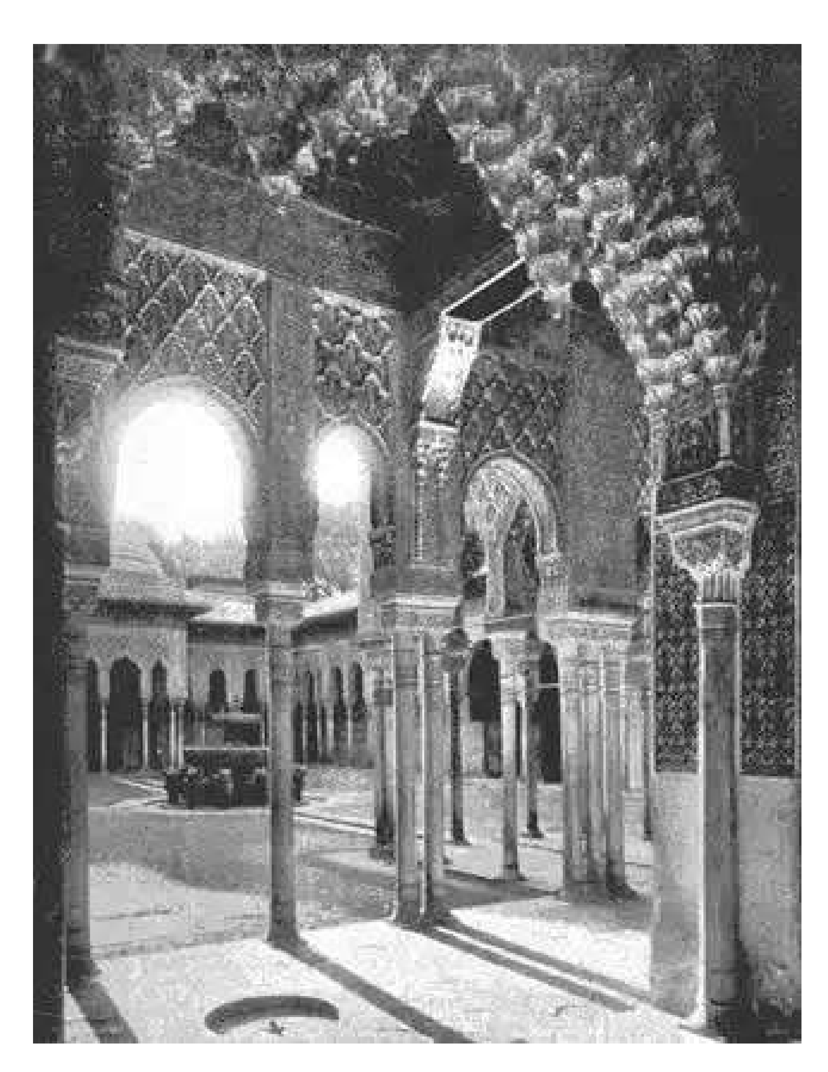
«ولا غالب إلّا الله»، الشّعار الشّهير لمحمّد الأول

ومَن خَلَفه في الحكم. مثال من قاعة السّفراء

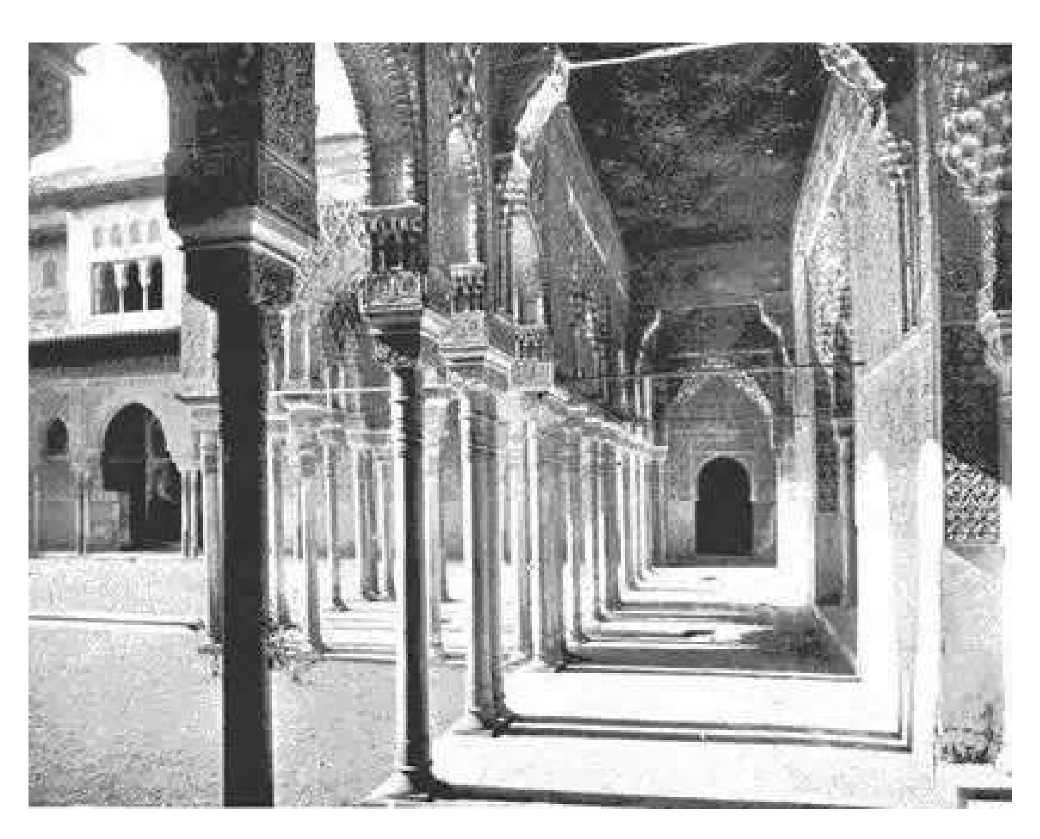


بهو السّباع من زاوية الكاردينال

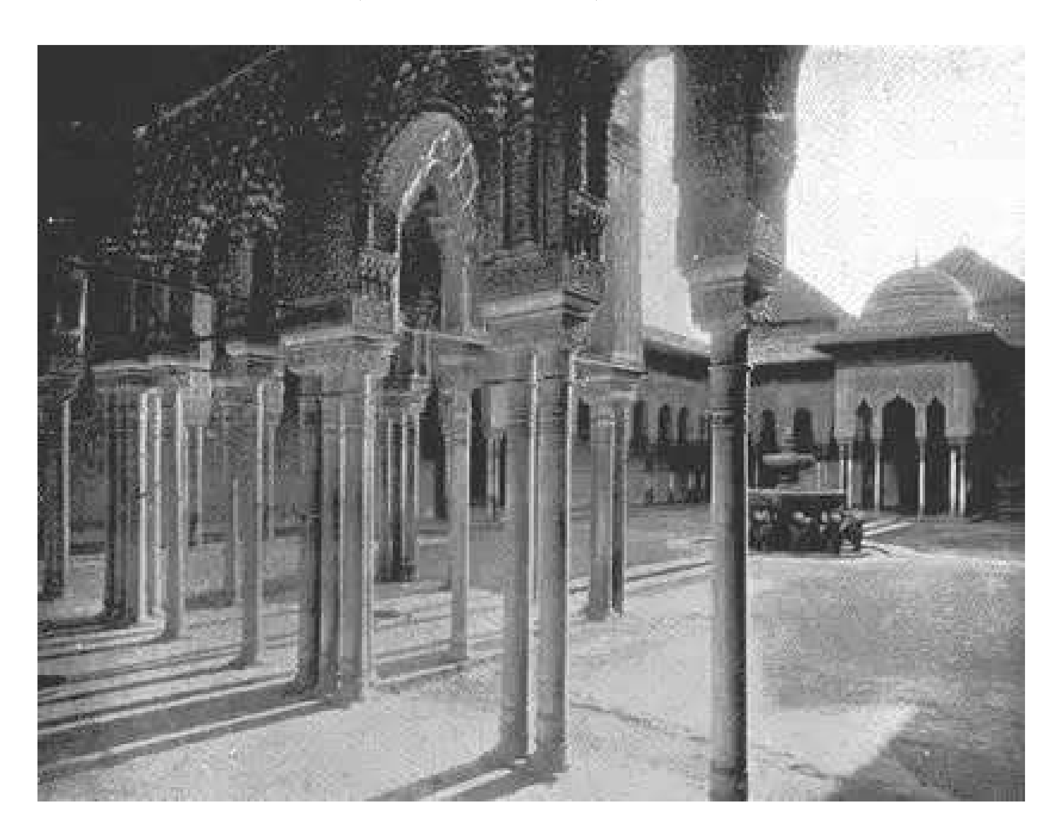
Templete Pomiente



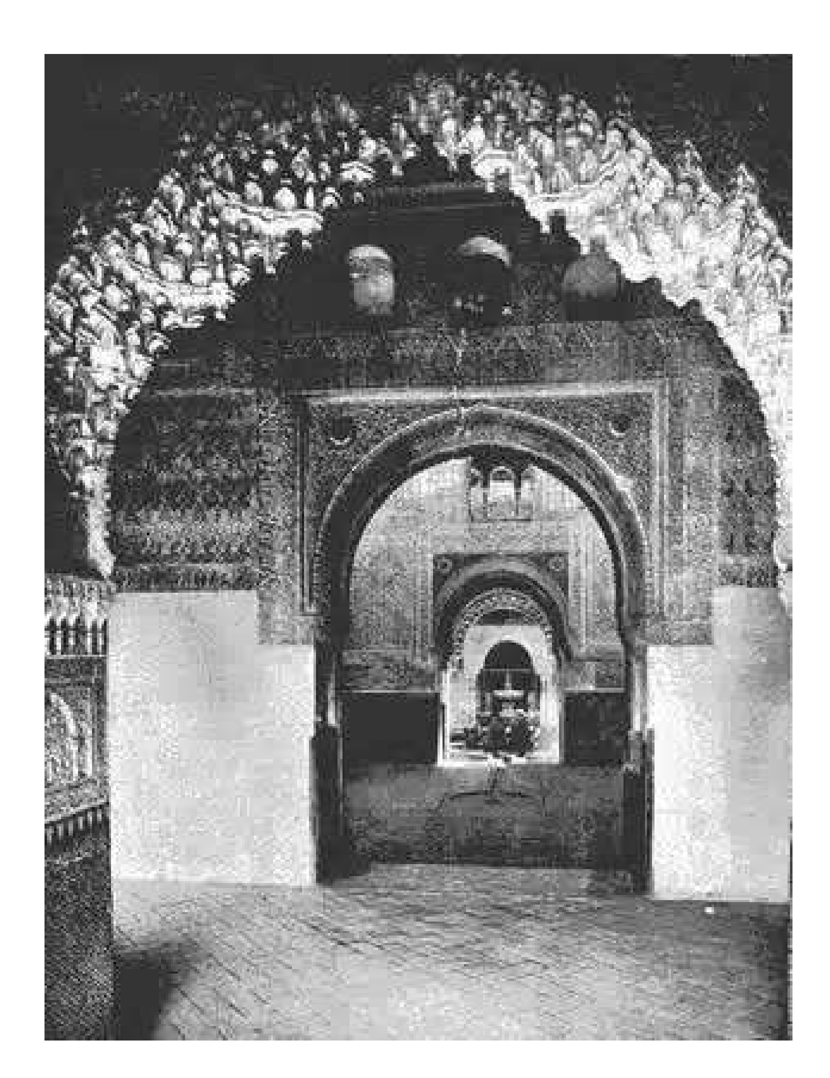
المدخل إلى بهو السّباع من خلال زاوية البومبينتهِ



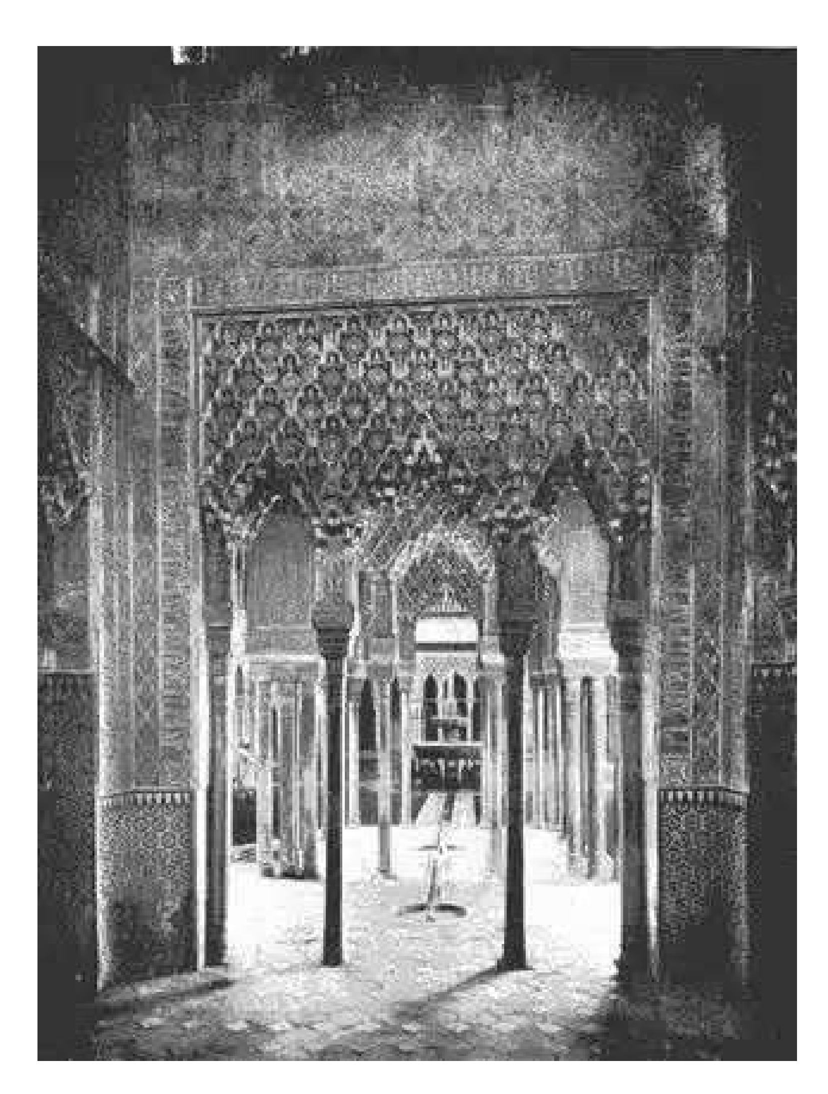
الرّواق الشّمالي وواجهة قاعة بنـي سَرّاج



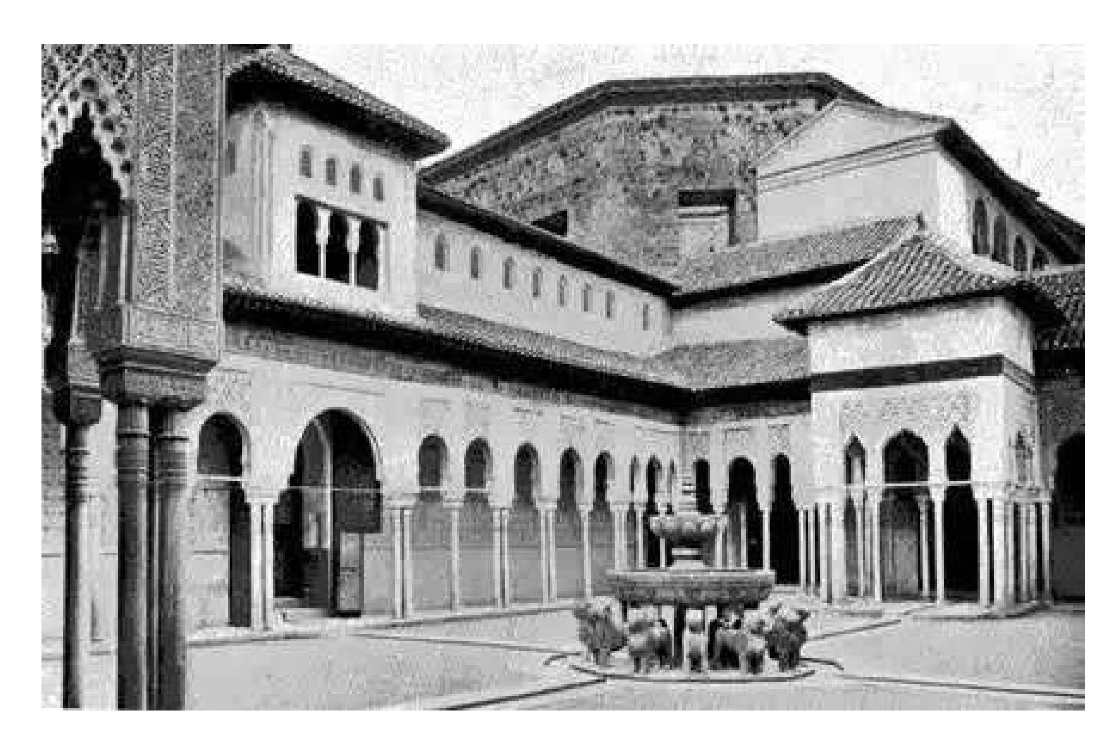
بهو السّباع من زاوية اليومييتنهِ



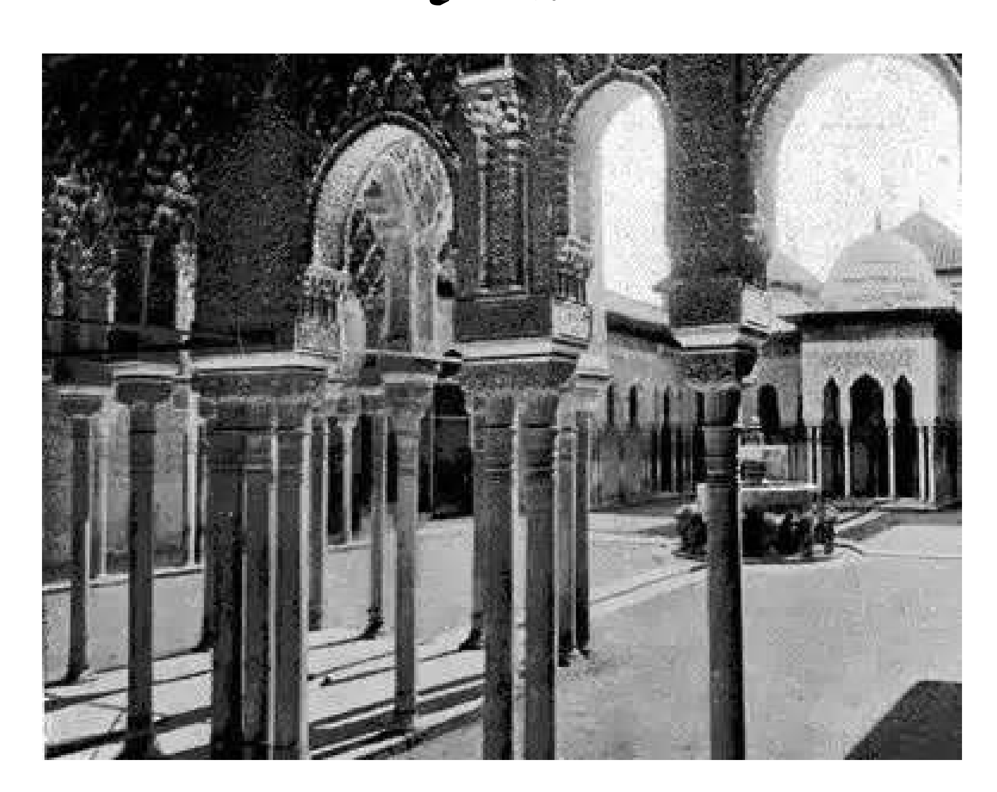
منظر في بهو السّباع



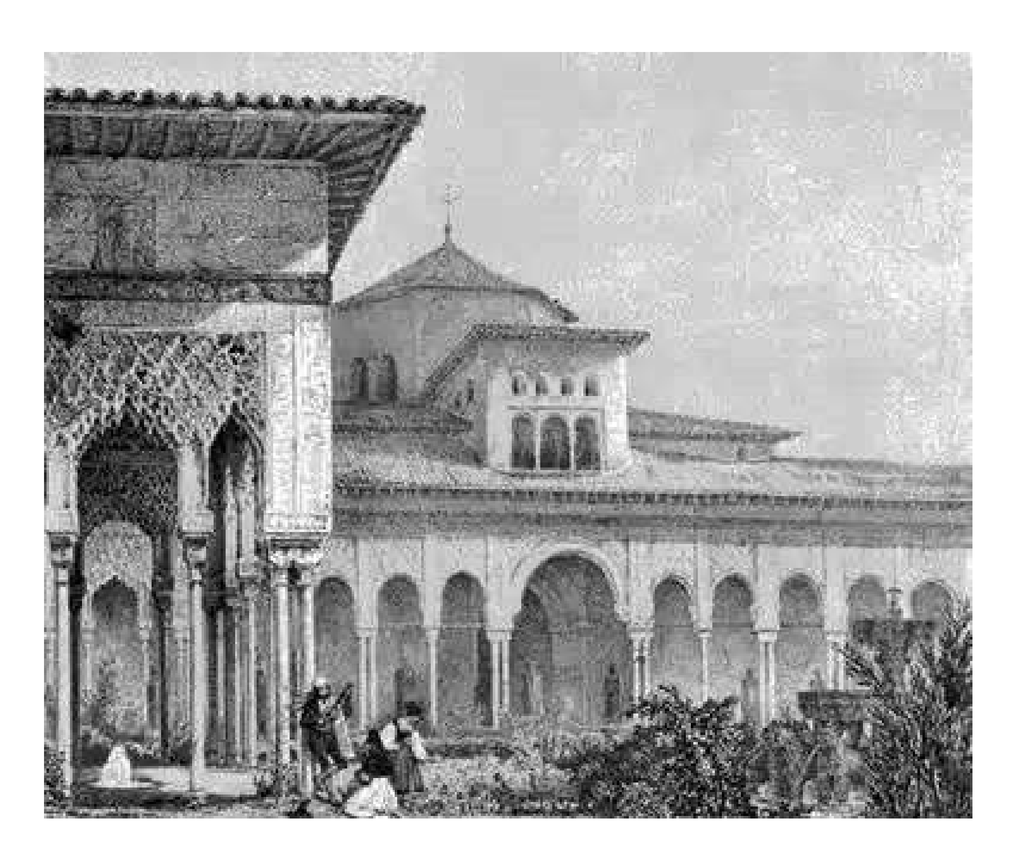
منظر في بهو السّباع من قاعة الشّريعة



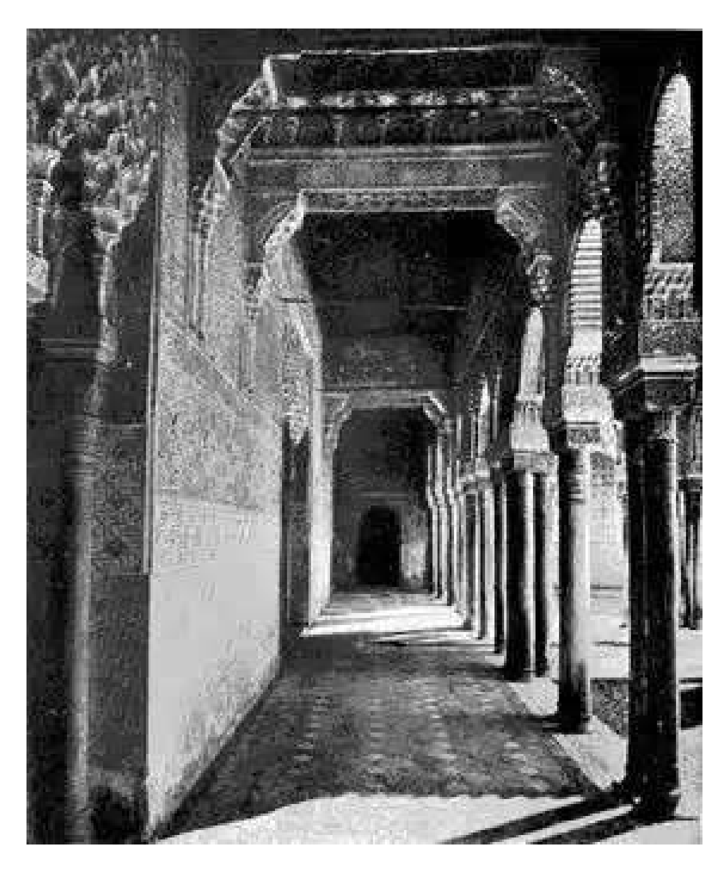
بهو السّباع



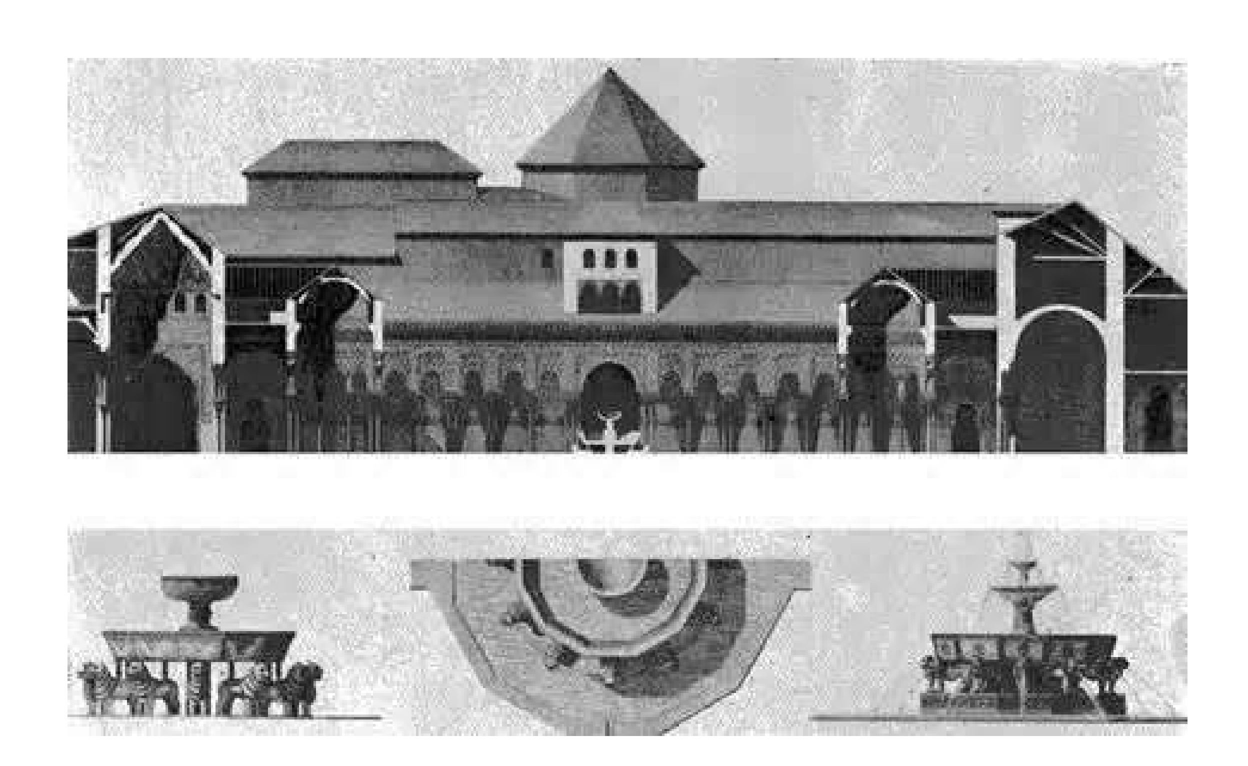
منظر عام لبهو السّباع



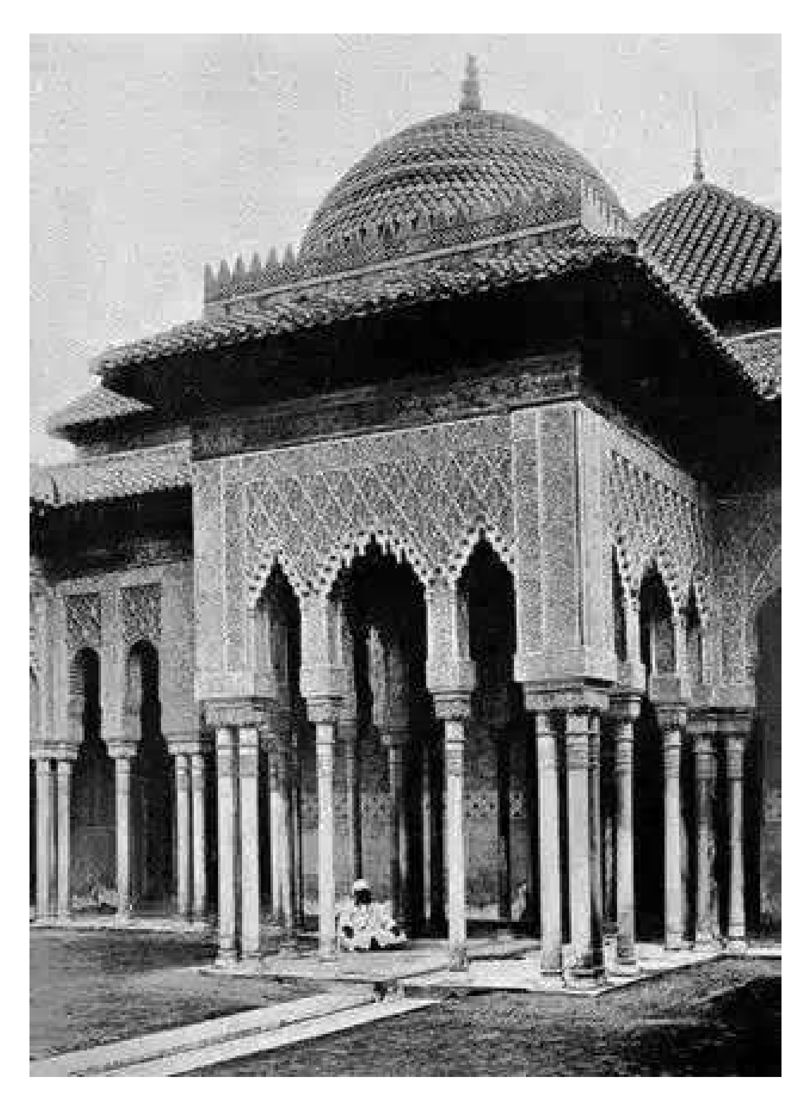
بهو السّباع



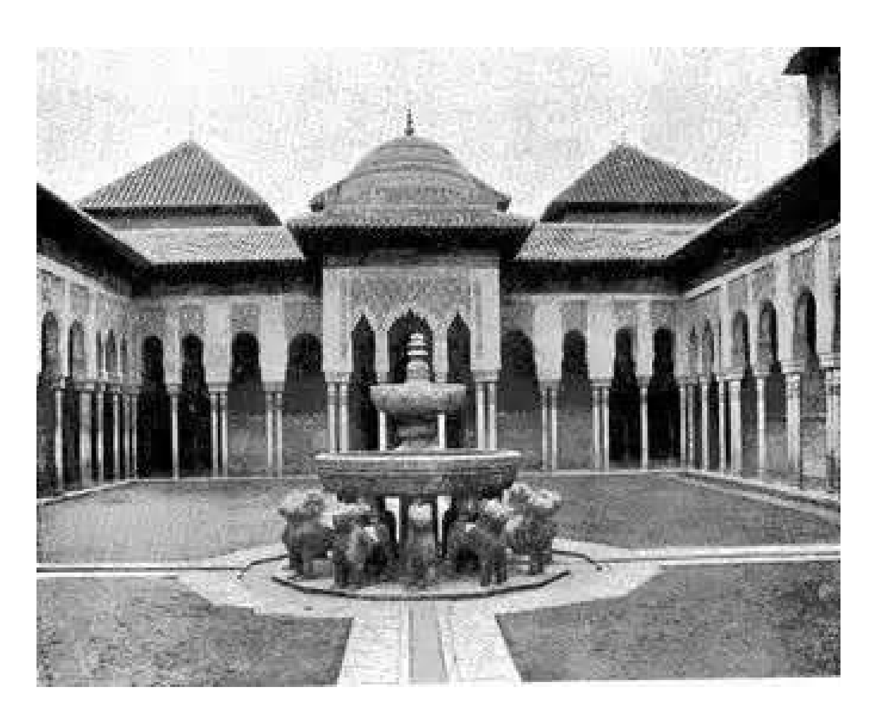
الرّواق الشّمالي لبهو السّباع



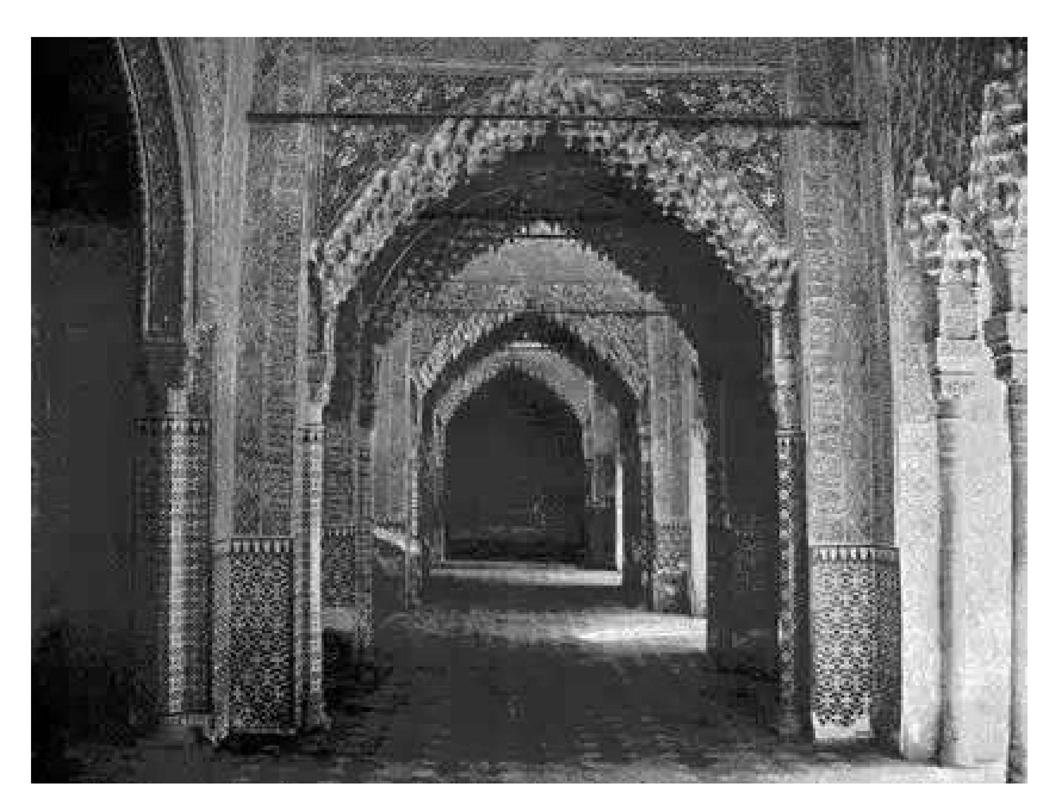
مقطع، بهو السّباع



فُسطاط في بهو السّباع



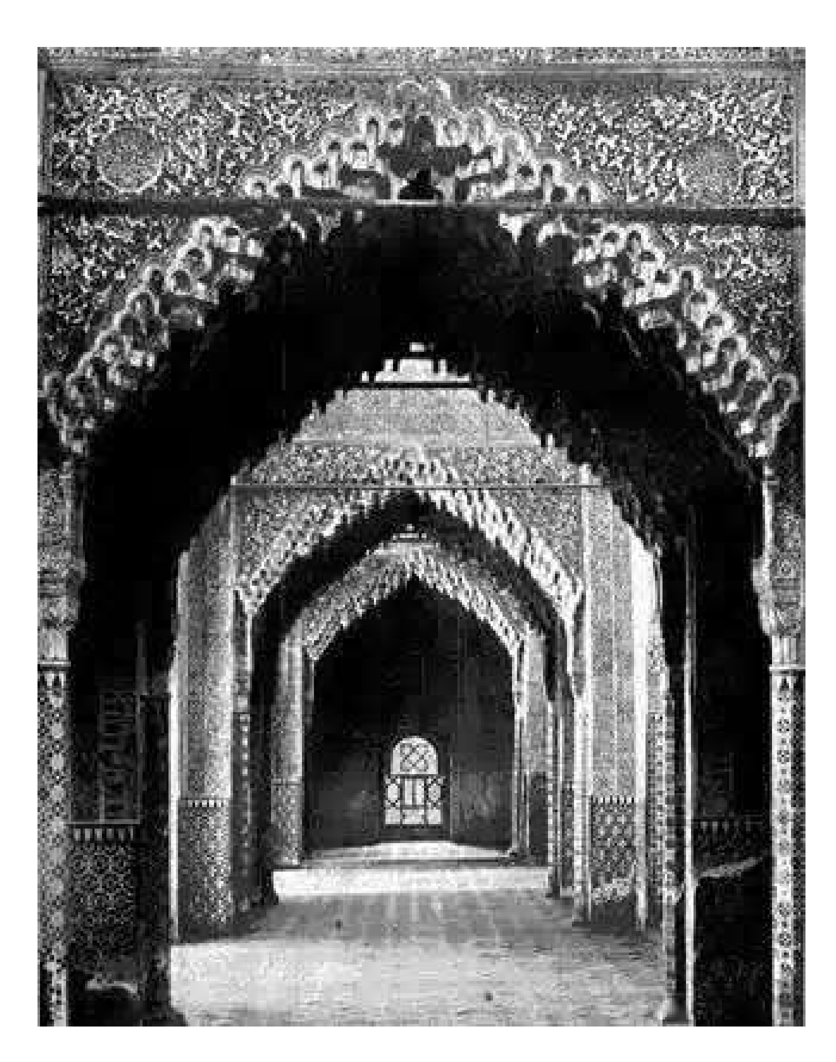
النّافورة والهيكل الشّرقي في بهو السّباع



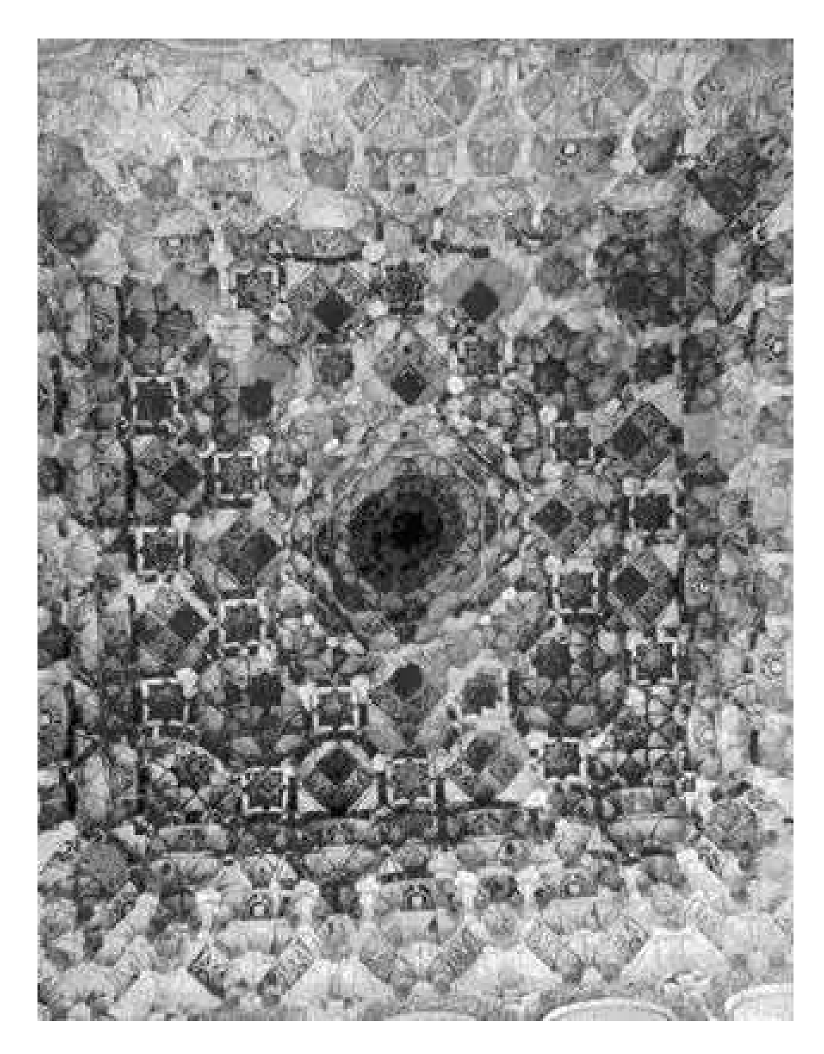
قاعة الشّريعة وبهو السّباع



زاوية في قاعة الشّريعة



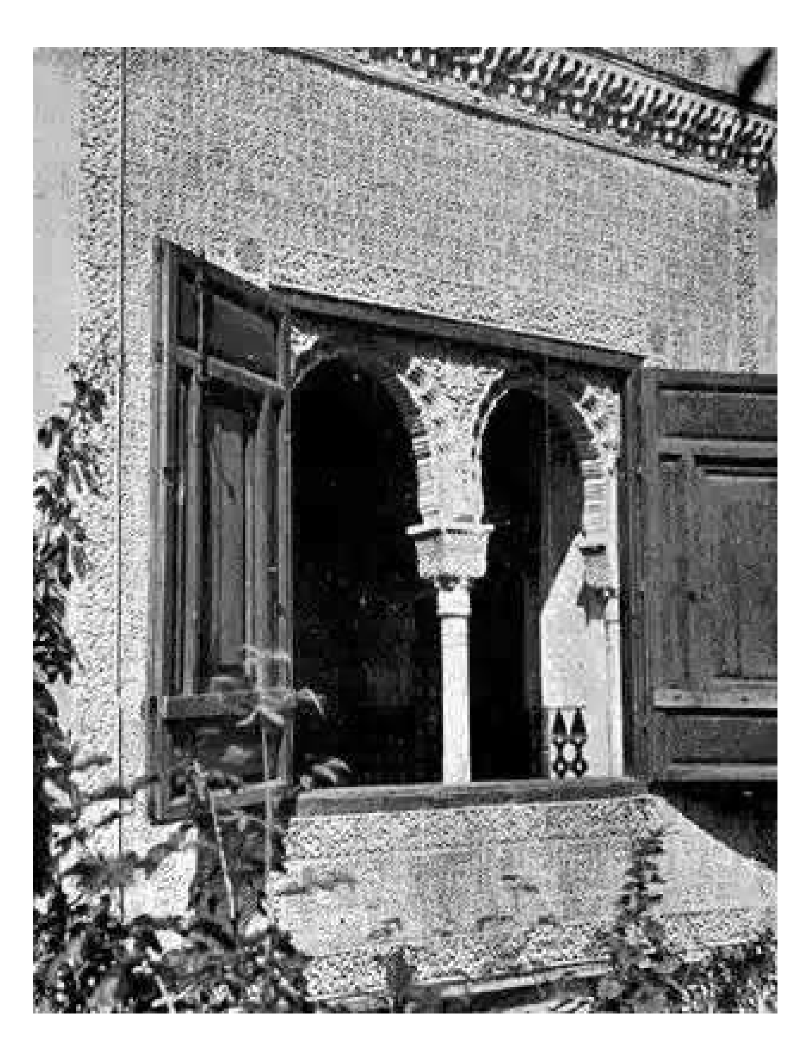
قاعة الشّريعة



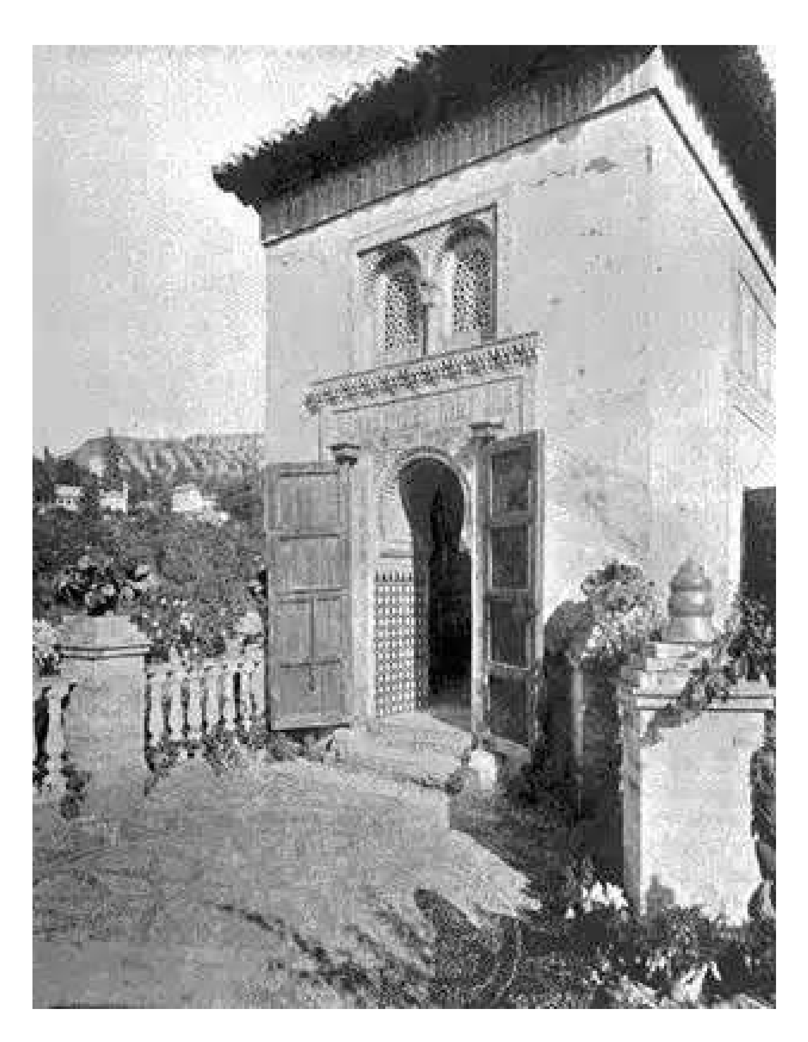
سقف قاعة الشّريعة



المسجد، ومنظر لجنّة العريف



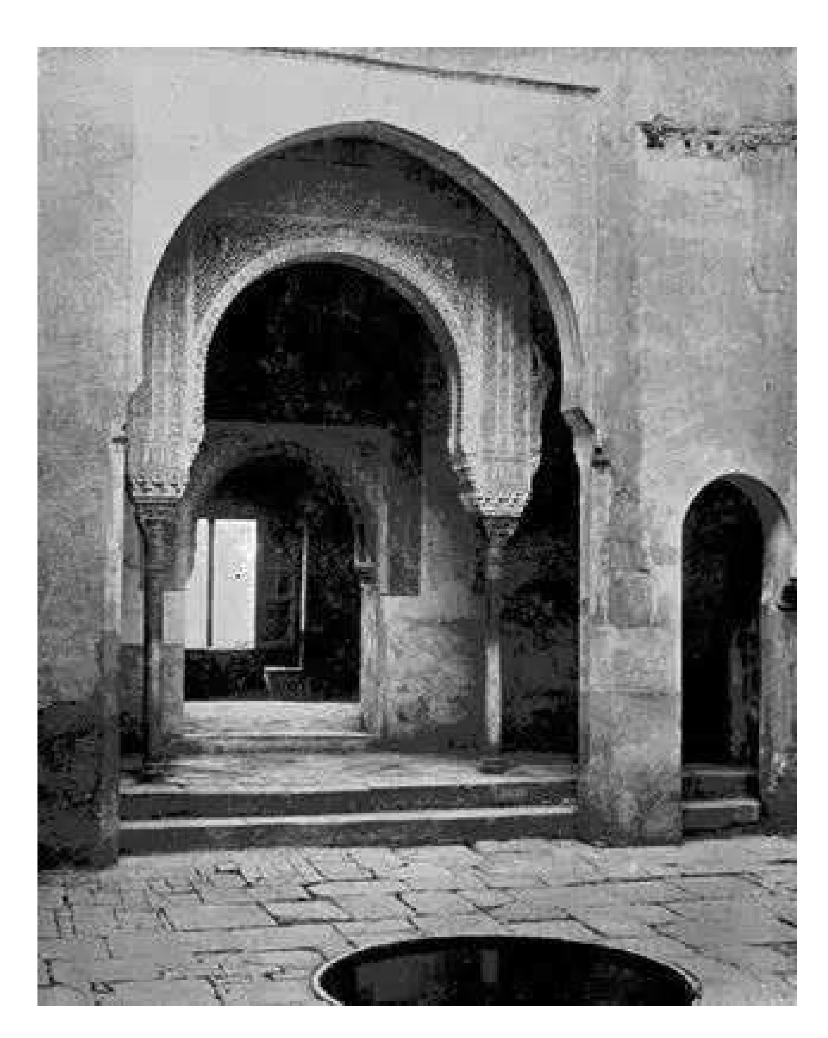
خارج نافذة من نوافذ المسجد



المسجد، ومنظر لجنّة العريف



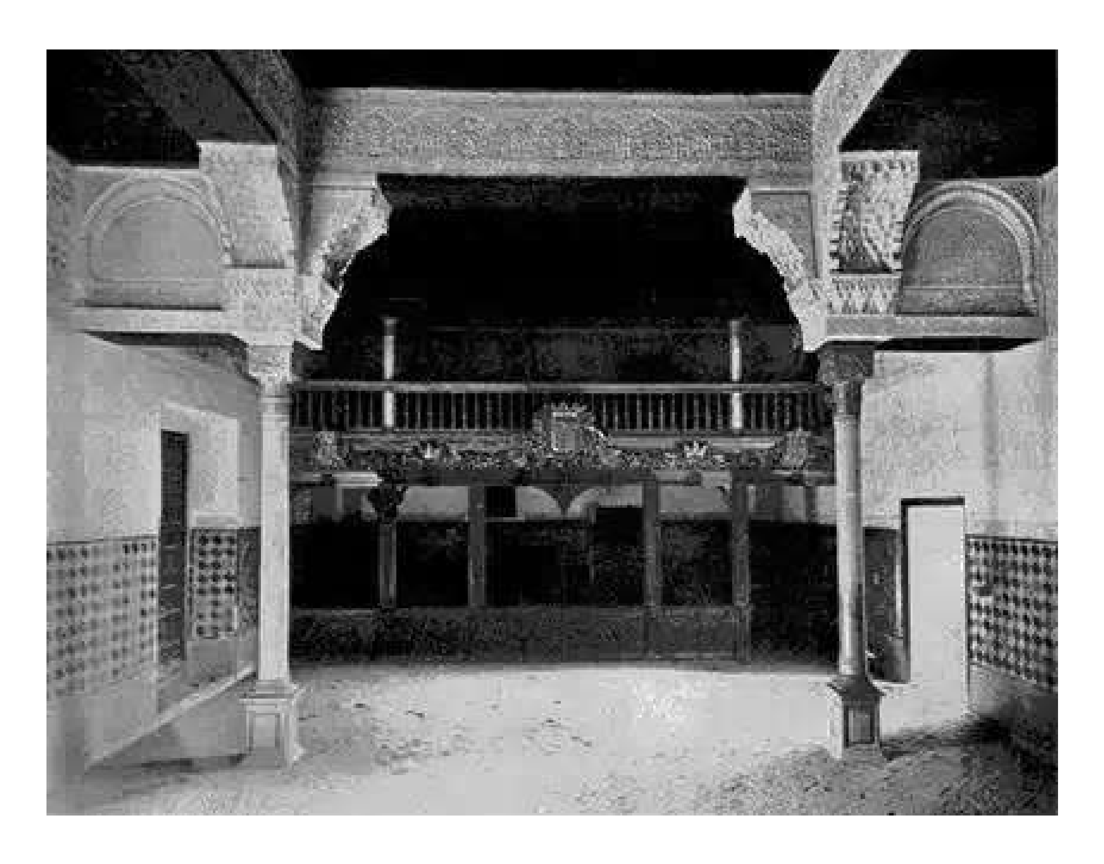
داخل المسجد



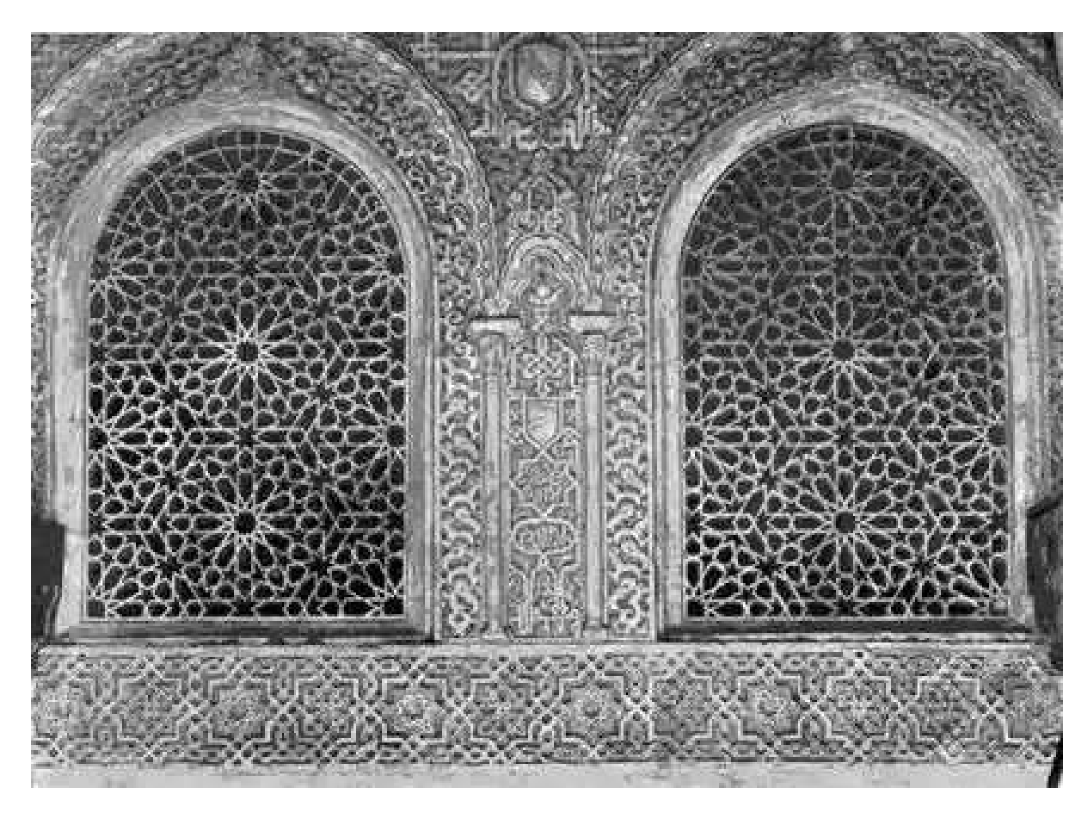
صحن المسجد، الواجهة الغربيّة



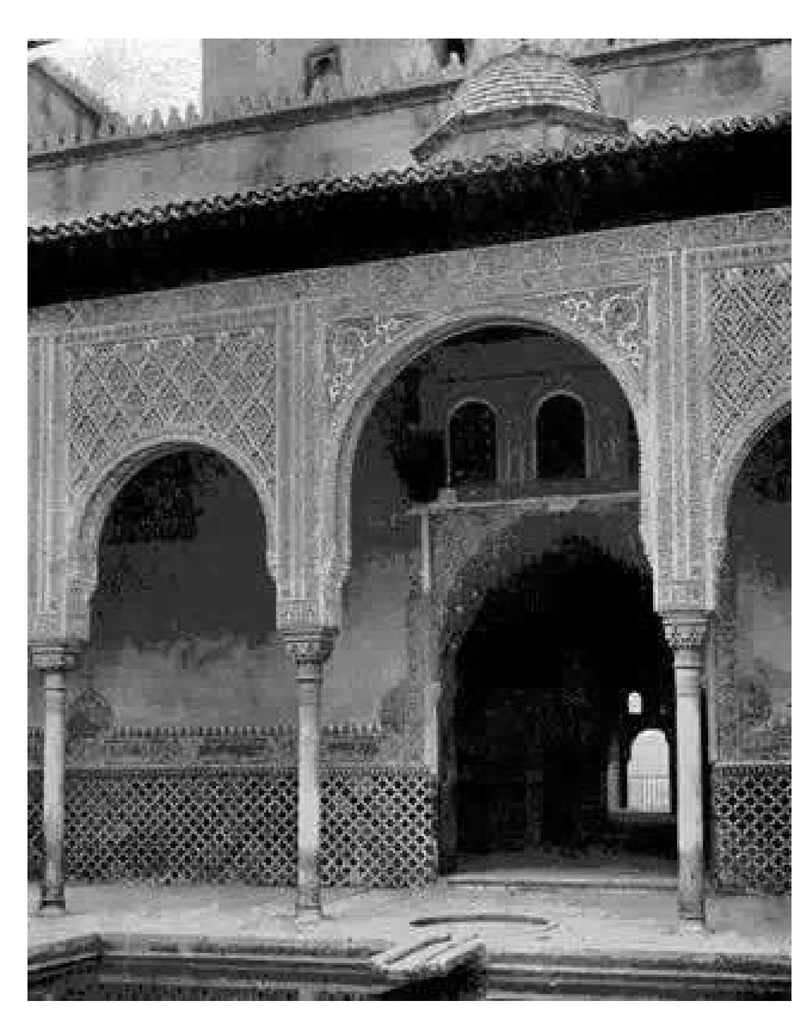
داخل المسجد، المحوّل إلى كنيسة رومانيّة كاثوليكيّة



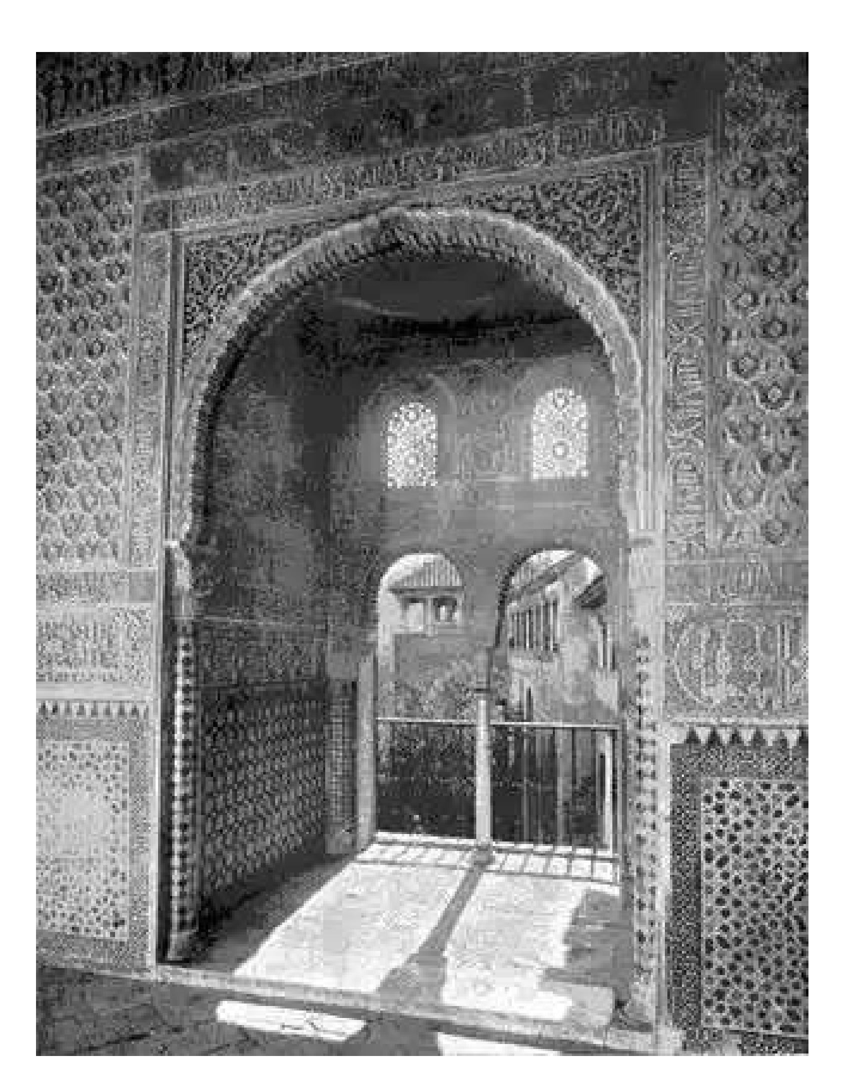
داخل المسجد، المحوّل إلى كنيسة رومانيّة كاثوليكيّة



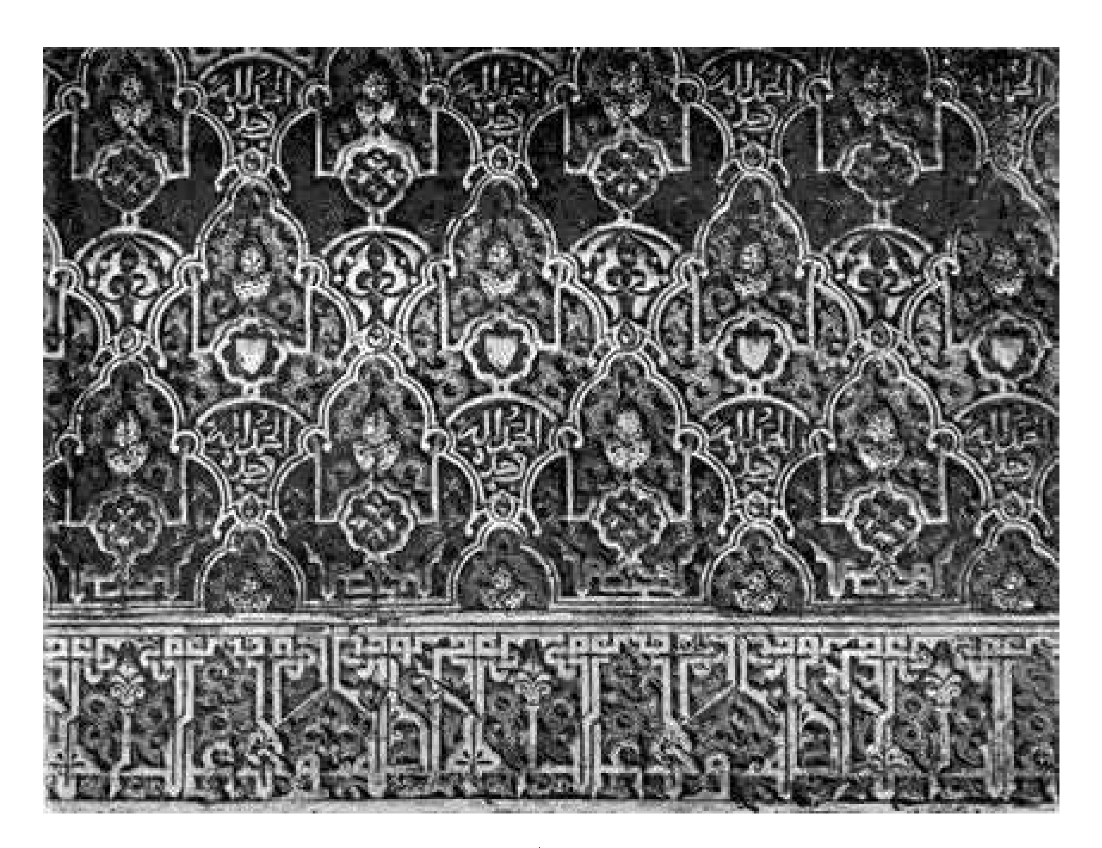
حصيرة النّافذة في صحن المسجد



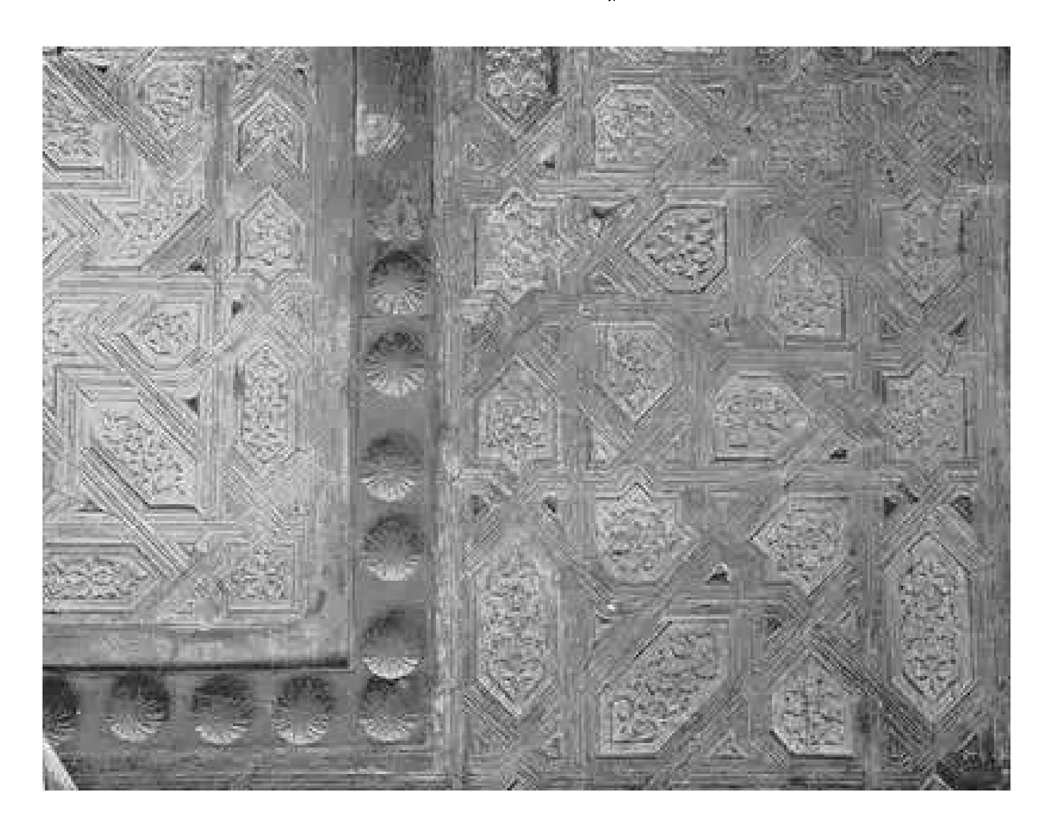
المدخل إلى قاعة السُّفراء



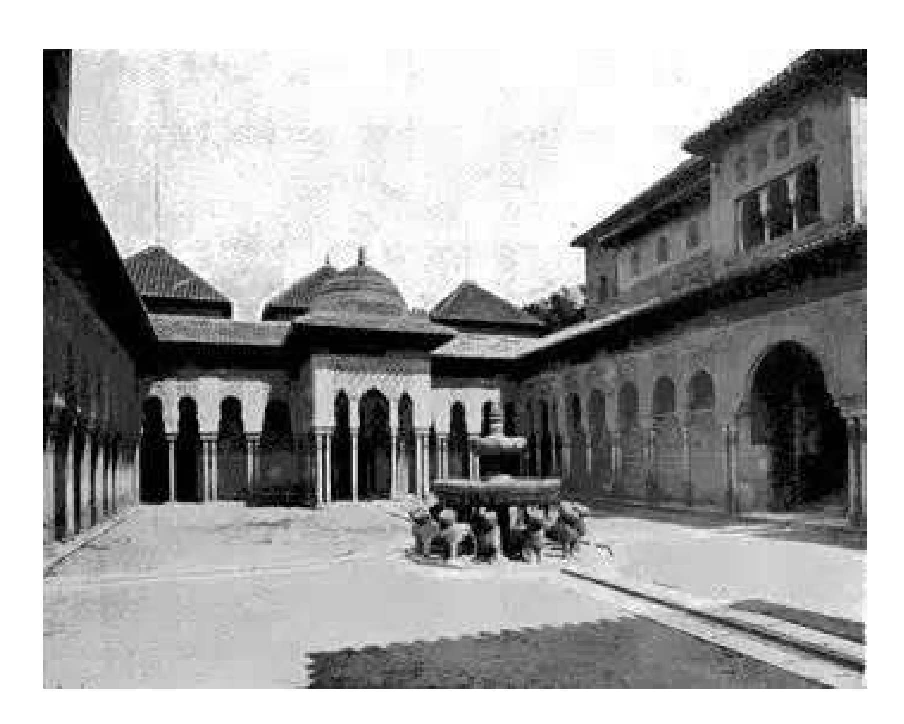
شرفة في قاعة السَّفراء



تفصيل في قاعة النّوافذ المقوسنة



تفصيل في قاعة بني سَرّاج



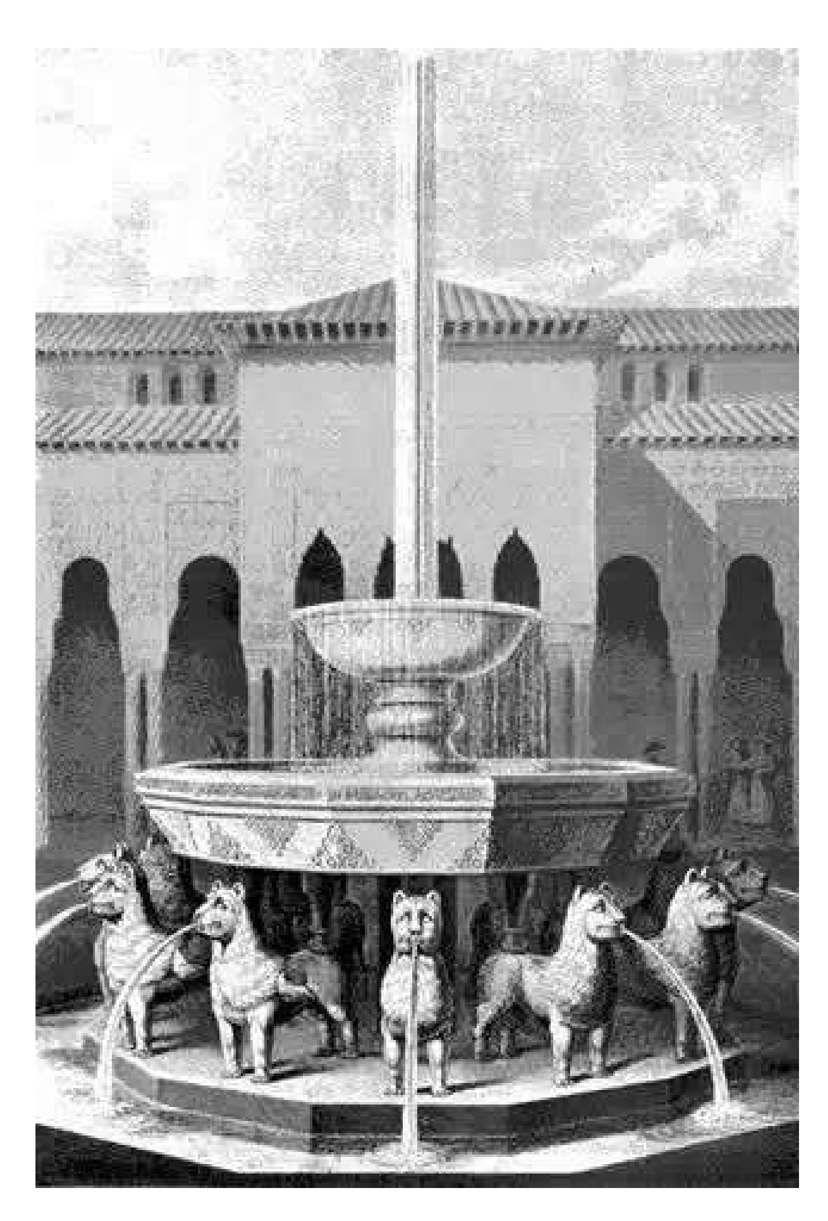
بهو السّباع



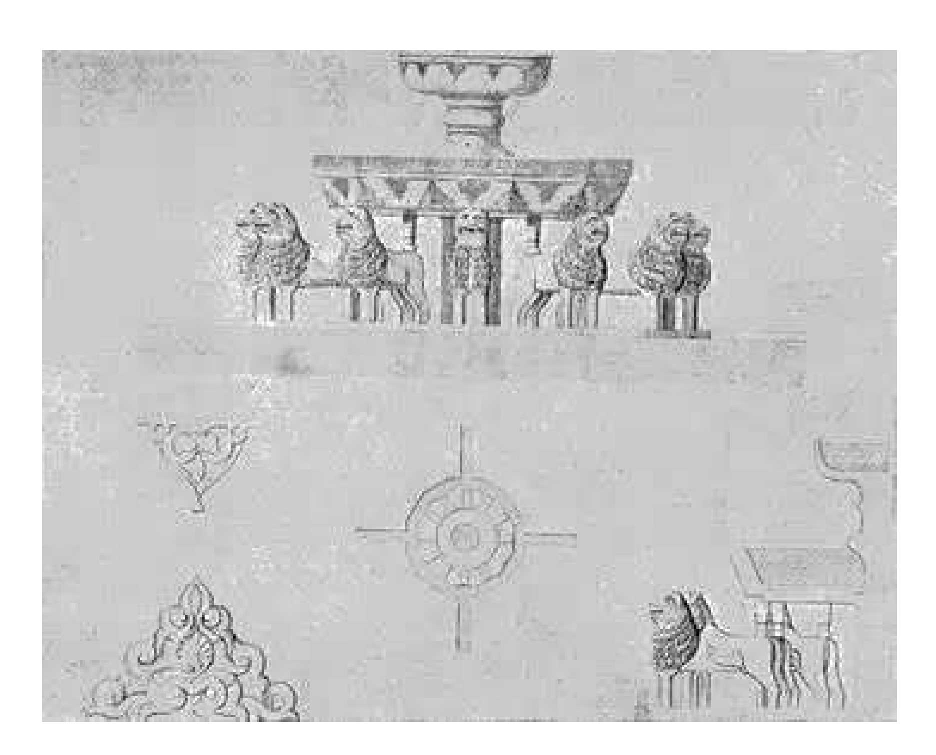
منظر عام لبهو السّباع



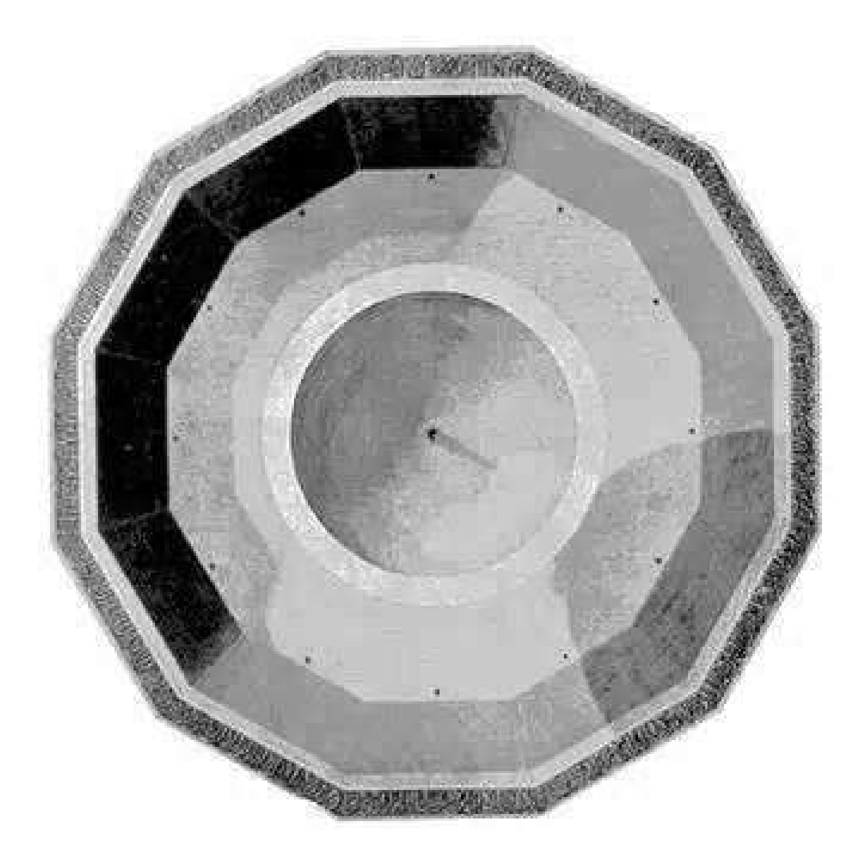
النّافورة والهيكل الشّرقي في بهو السّباع



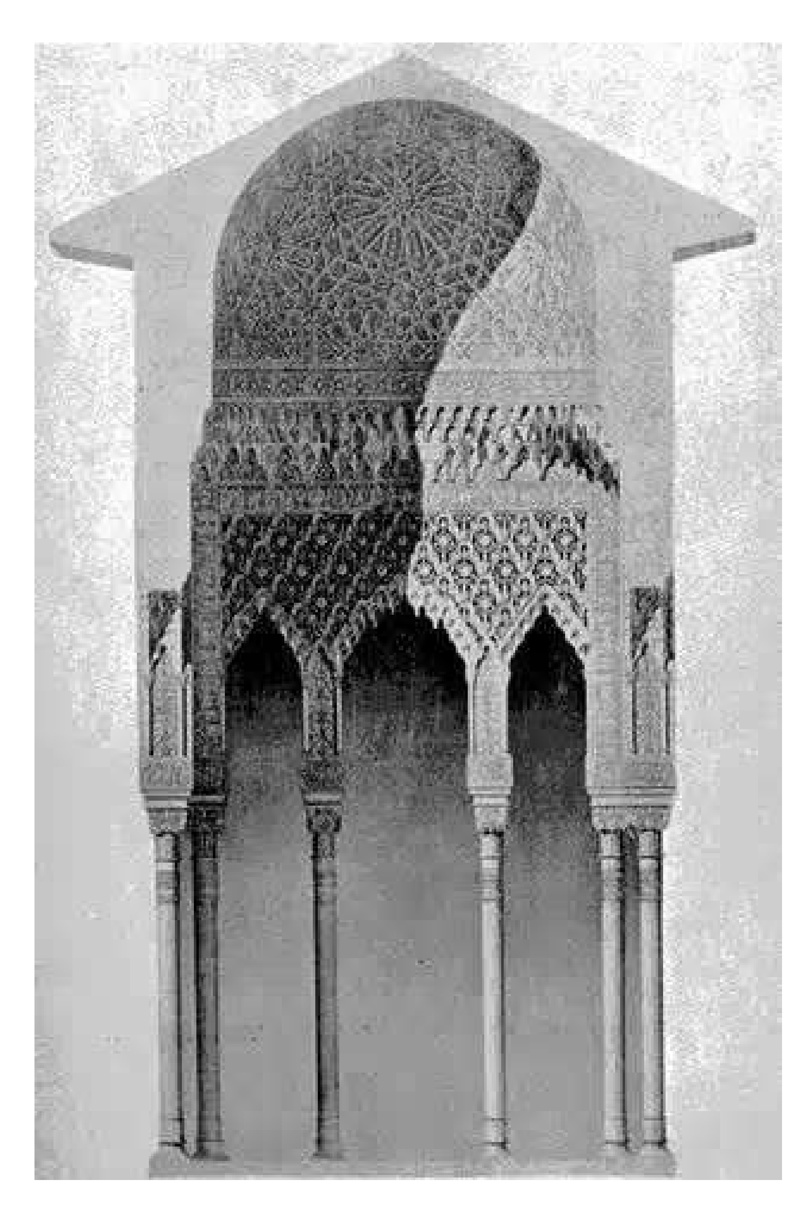
ارتفاع نافورة بهو السّباع



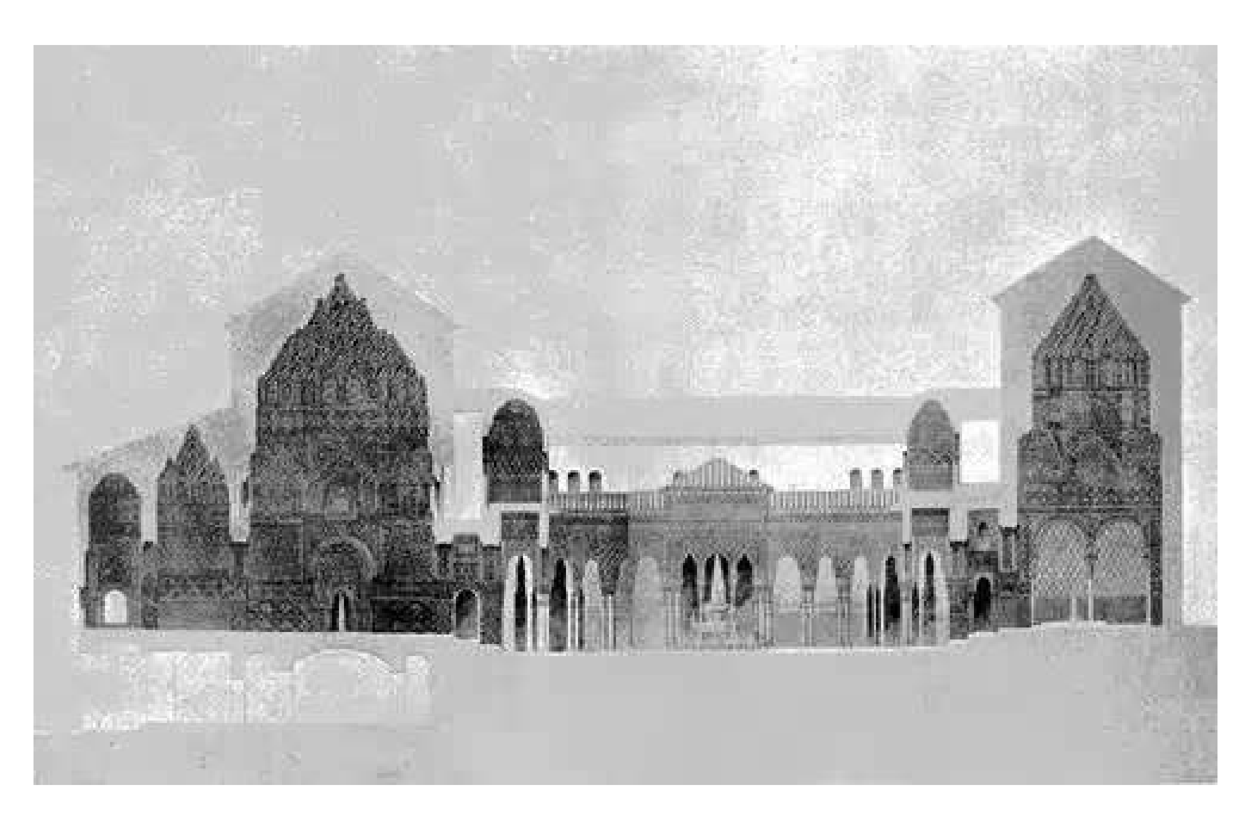
نافورة بهو السّباع، مع تفاصيل الزّخرفة



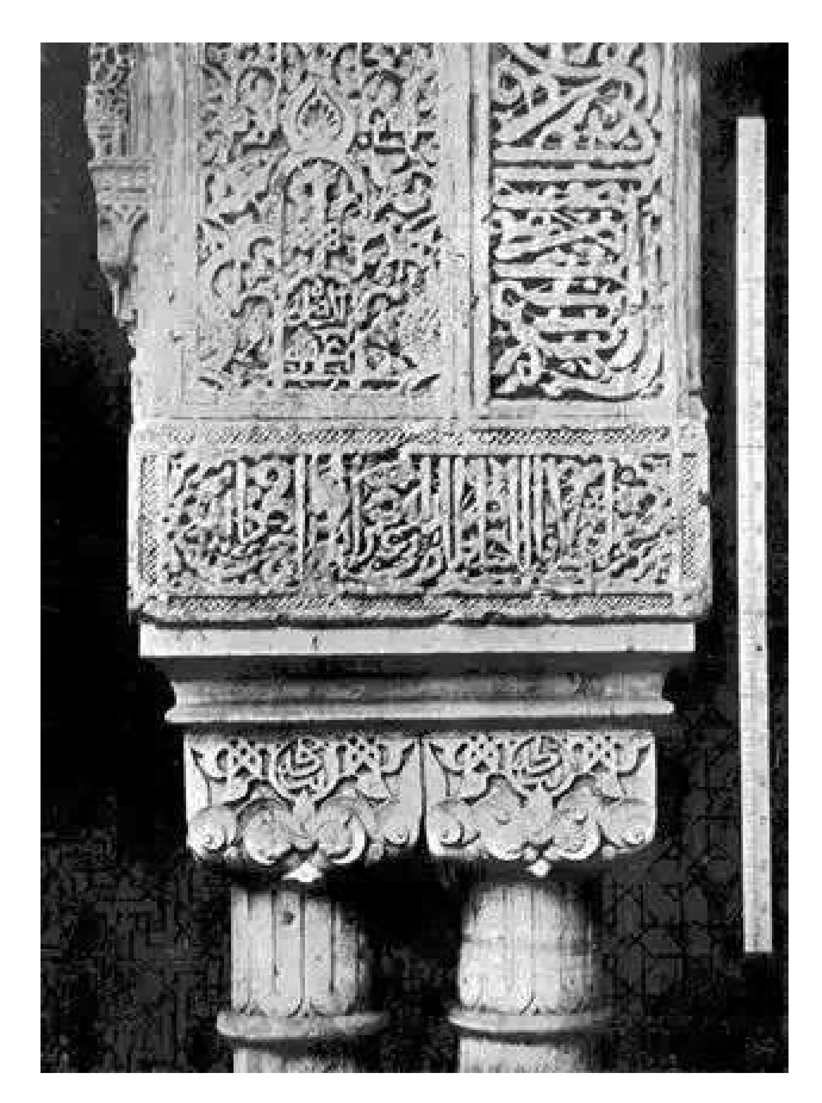
مسقط أفقي لحوض النّافورة في بهو السّباع



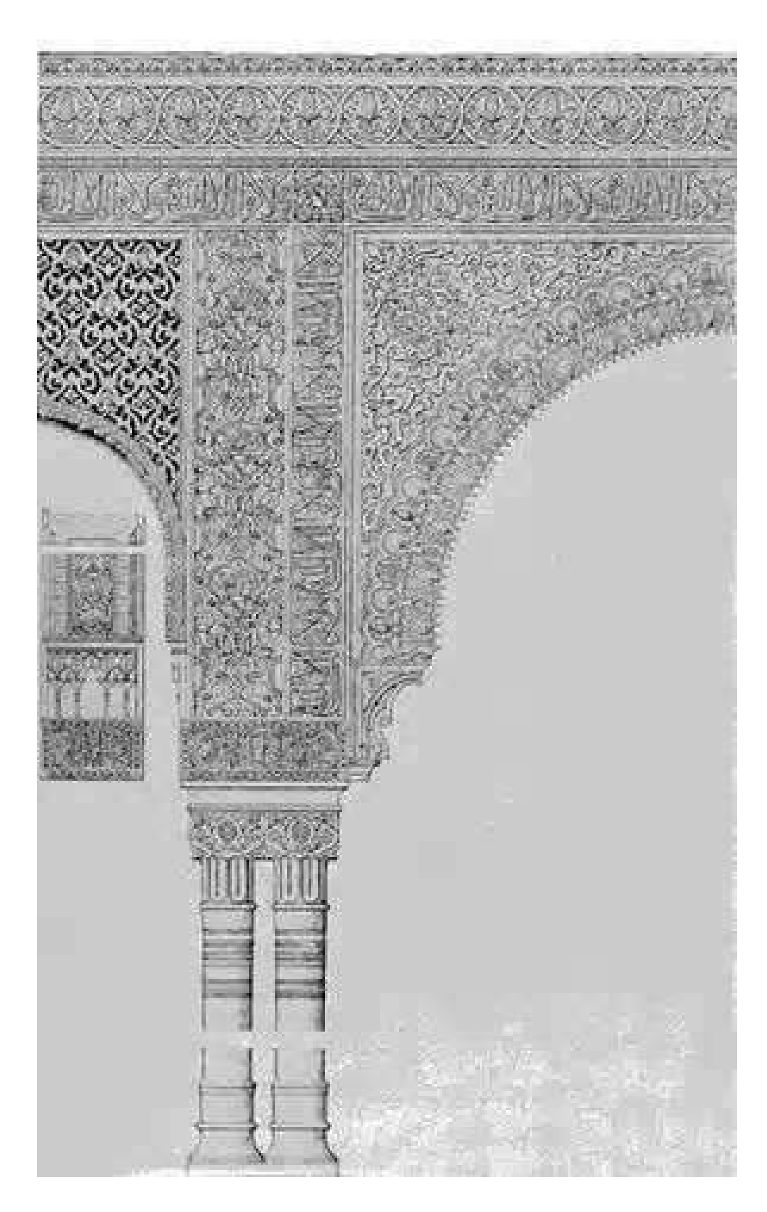
مقطع للفُسطاط في بهو السّباع



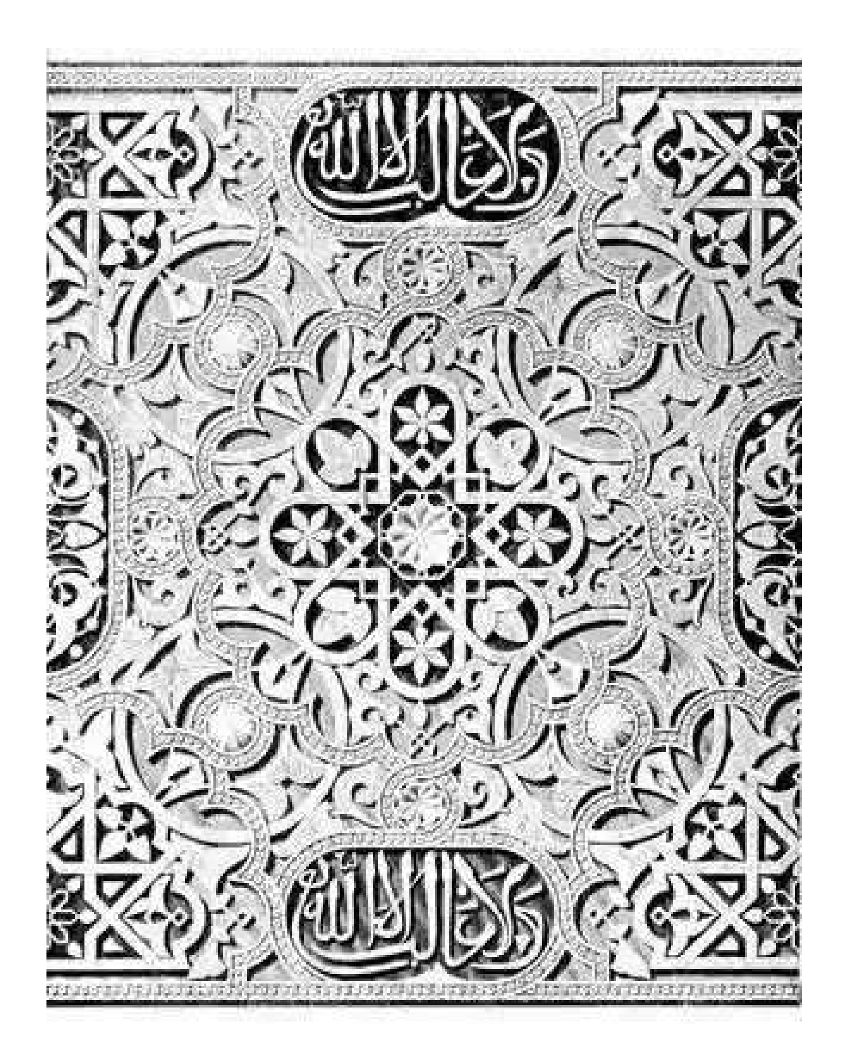
مقطع لقاعة الأختين، ومقطع لقسم من بهو السّباع



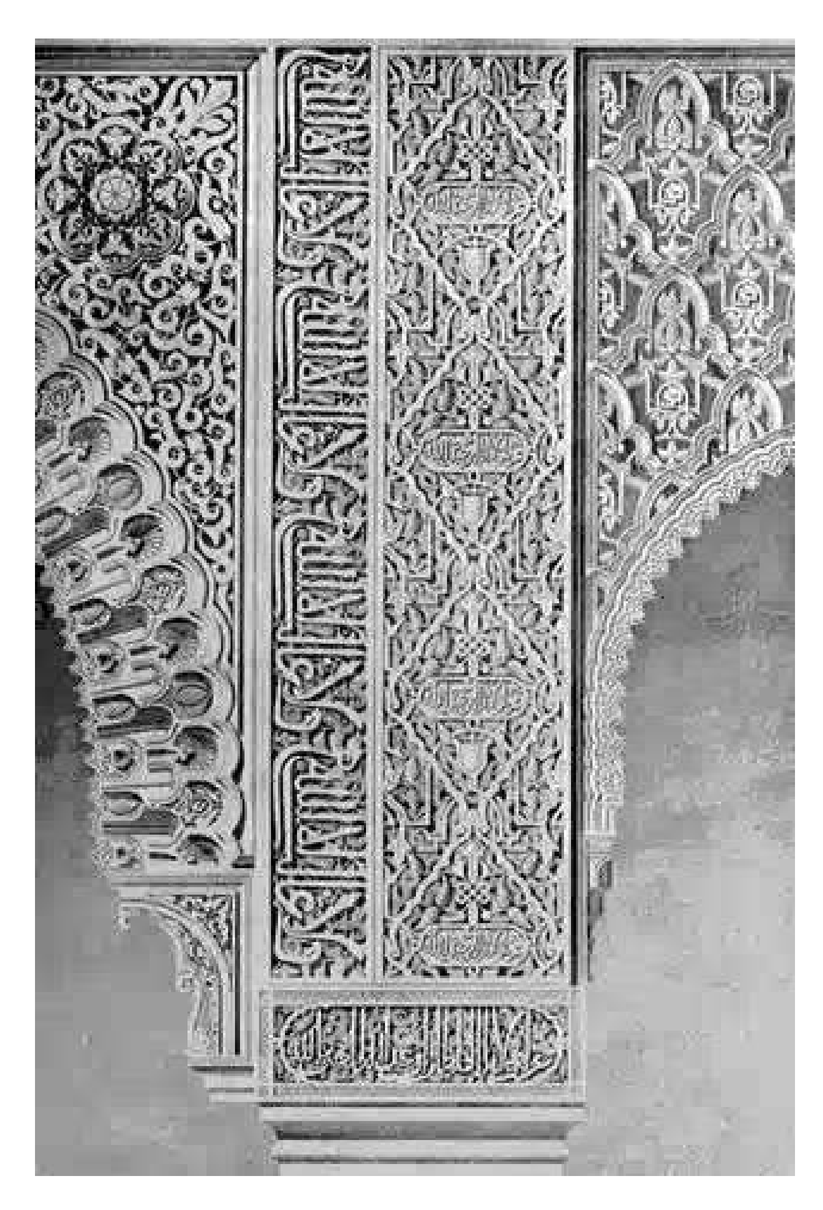
تاج عمود في بهو السّباع، مع مقياس يبلغ متراً واحداً



تفاصيل للرّواق المركزي لبهو السّباع



طنف بأعلى الأعمدة، بهو السّباع



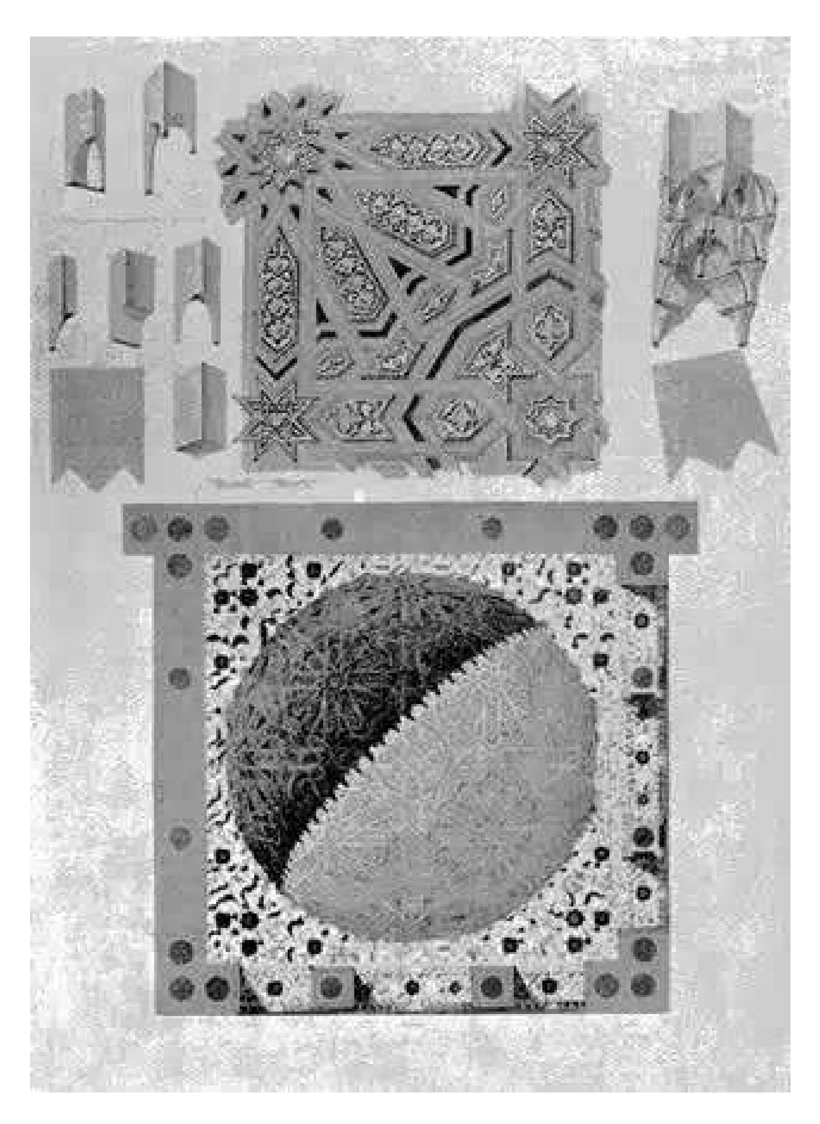
تفصيل للقوس المركزي في بهو السّباع



المقاطع السّتة الأولى من النّقش الكتابي حول حوض نافورة بهو السّباع



المدماك العلوي في بهو السّباع



قبة الفُسطاط في بهو السّباع



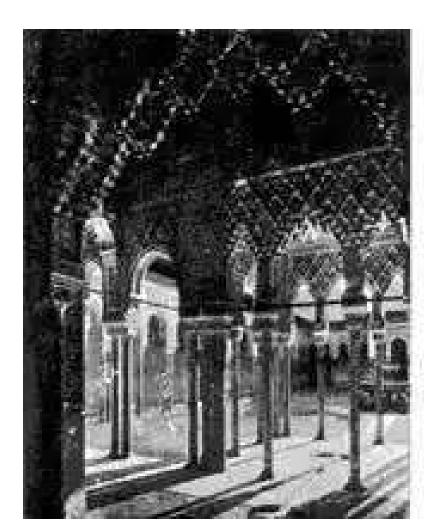

المدخل إلى بهو السباع. الهيكل الصغير، بهو السباع




بهو السباع

2-48

المدخل إلى بهو السّباع. الهيكل الصّغير، بهو السّباع

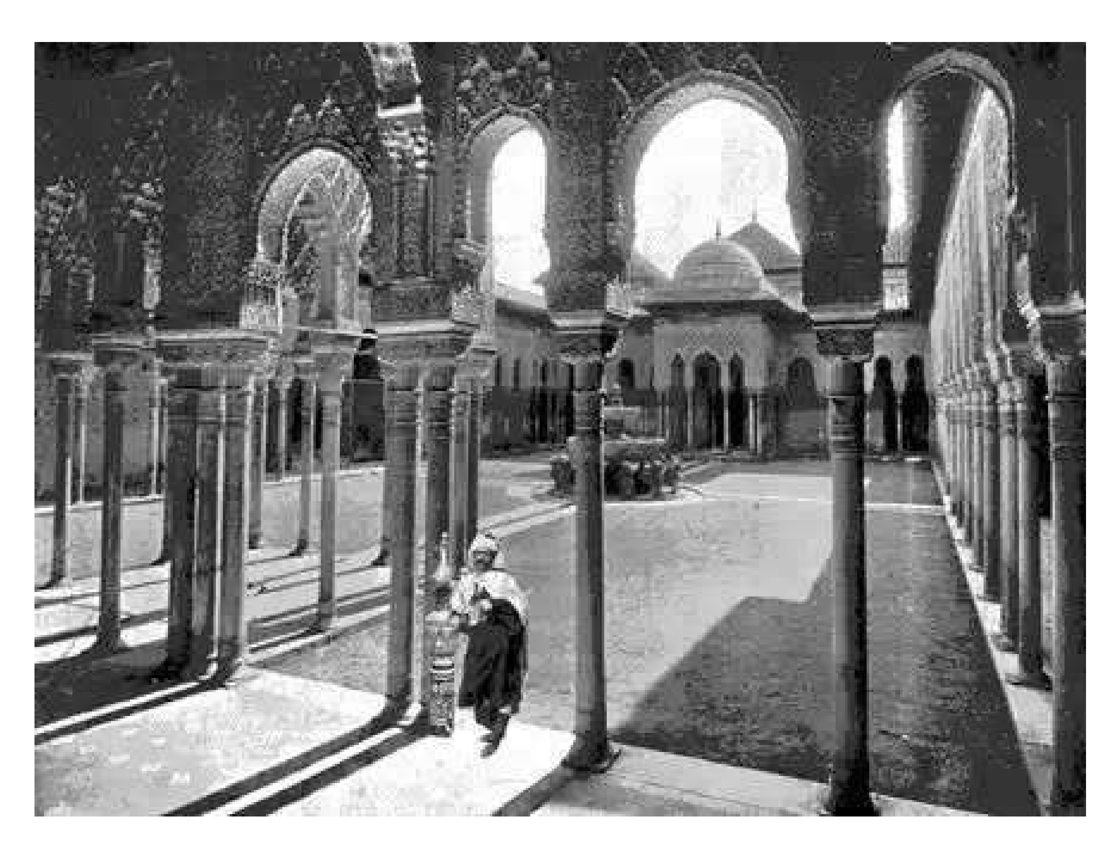



بهو السّباع

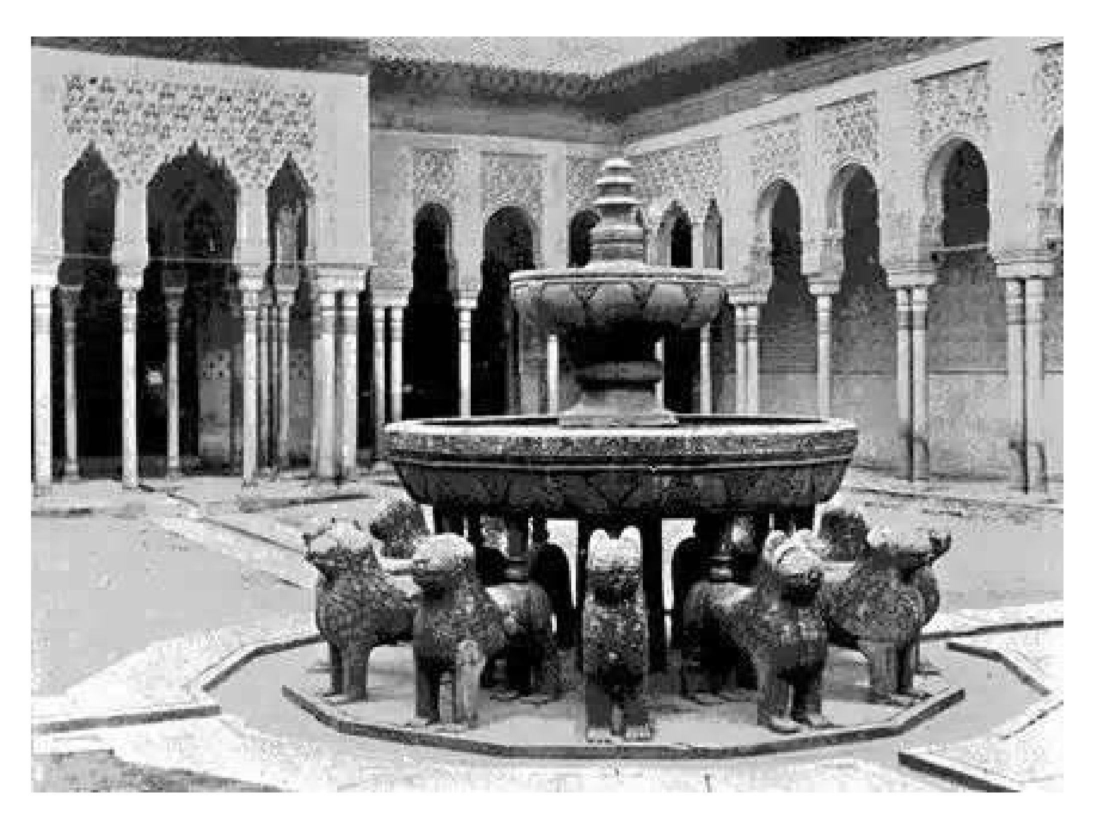




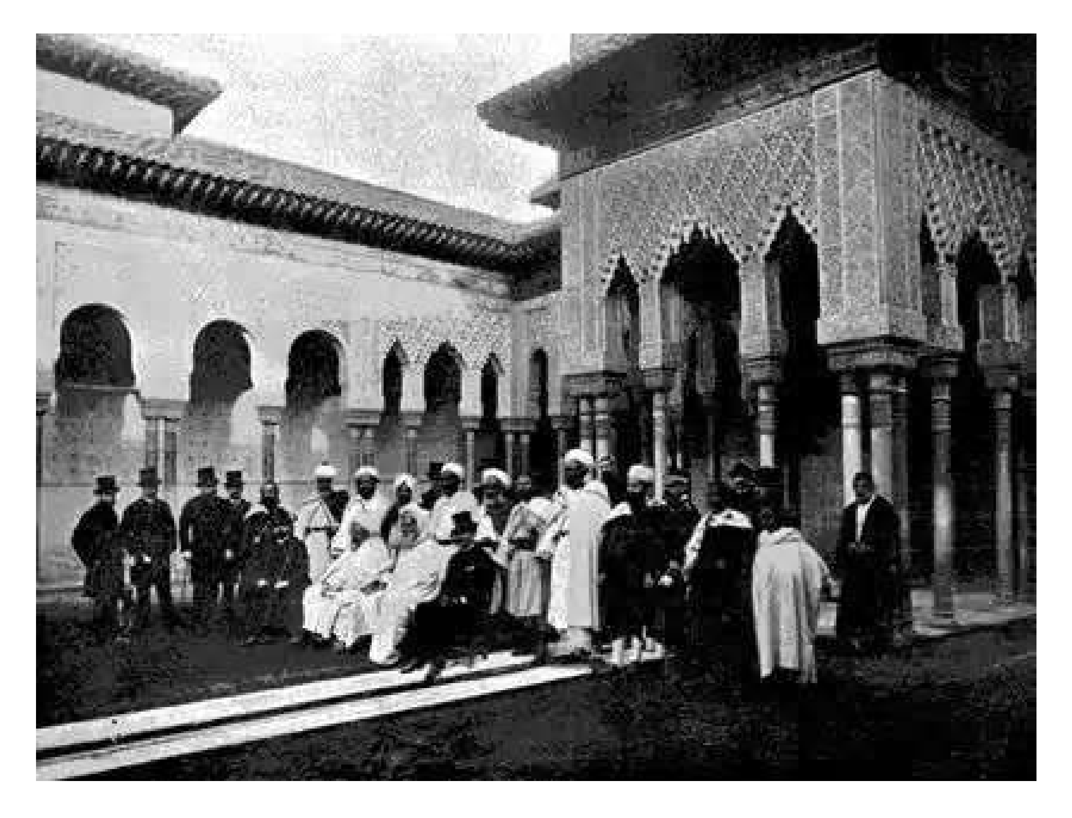
الهيكل الصّغير، والنّافورة، بهو السّباع



بهو السّباع



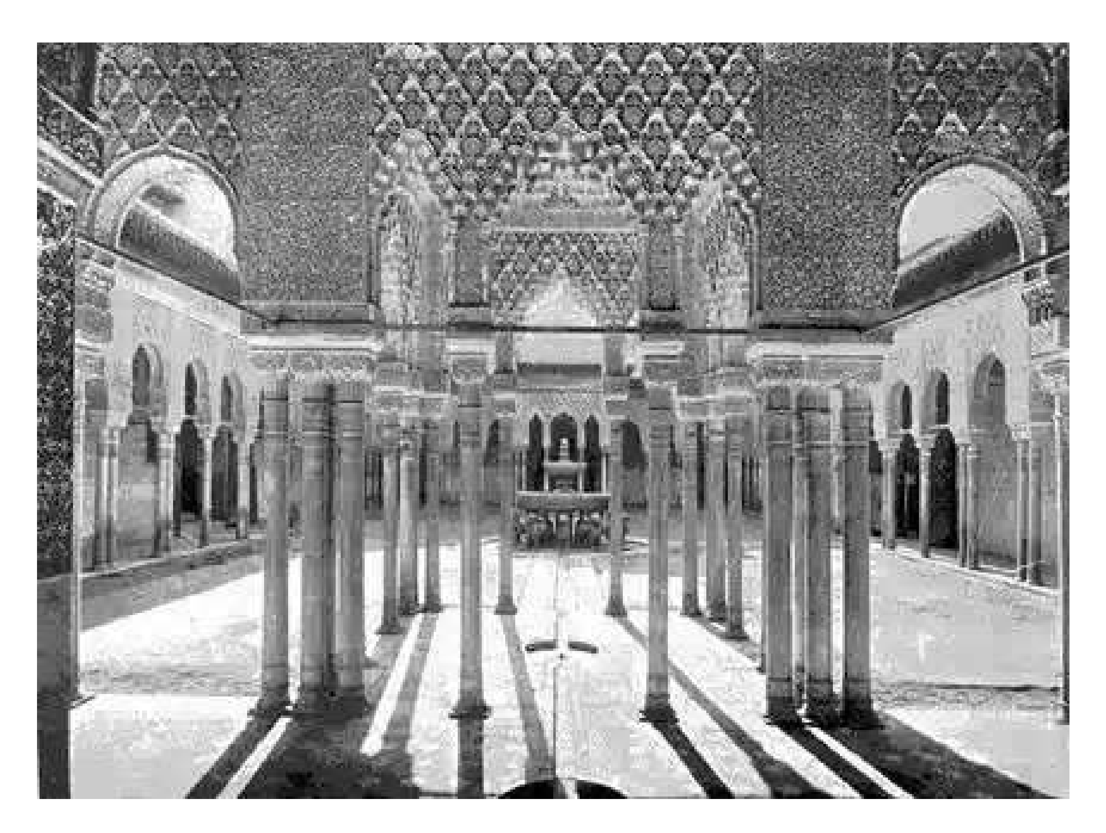
بهو السّباع، الزّاوية الغربيّة



سفارة المغرب، ديسمبر 1885



بهو السّباع من الهيكل الغربي



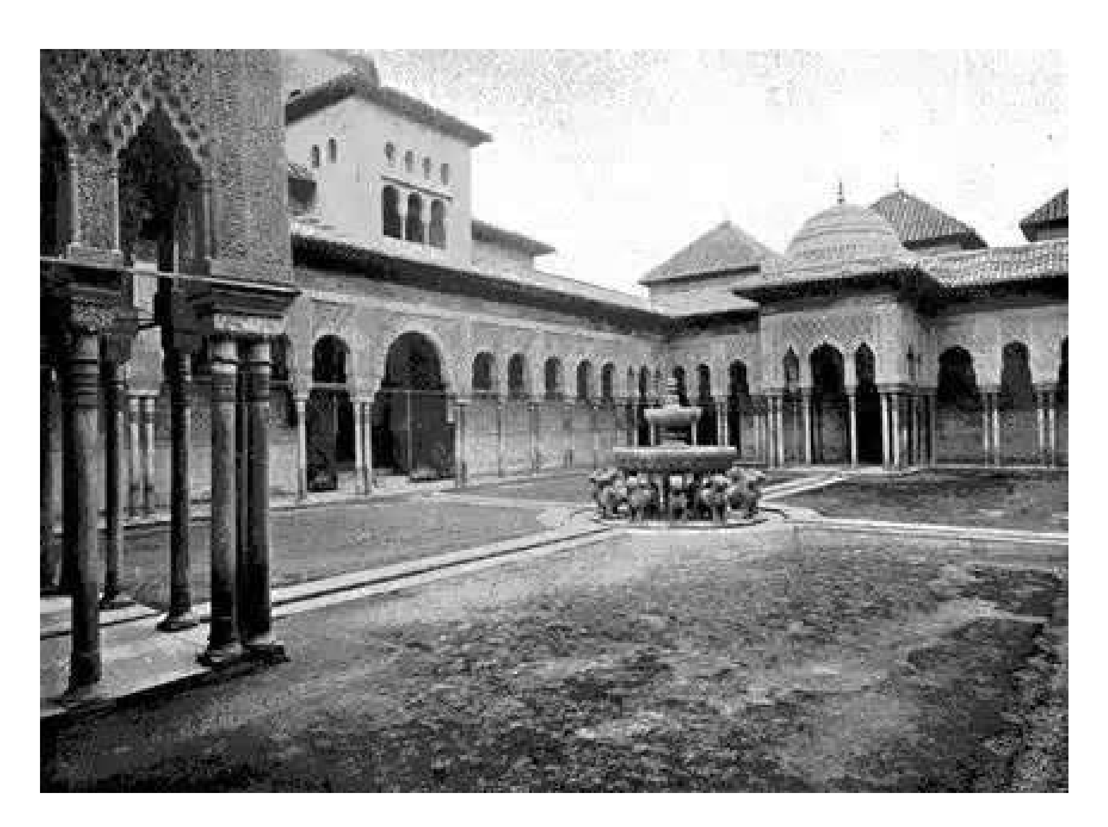
بهو السّباع من الهيكل الغربي



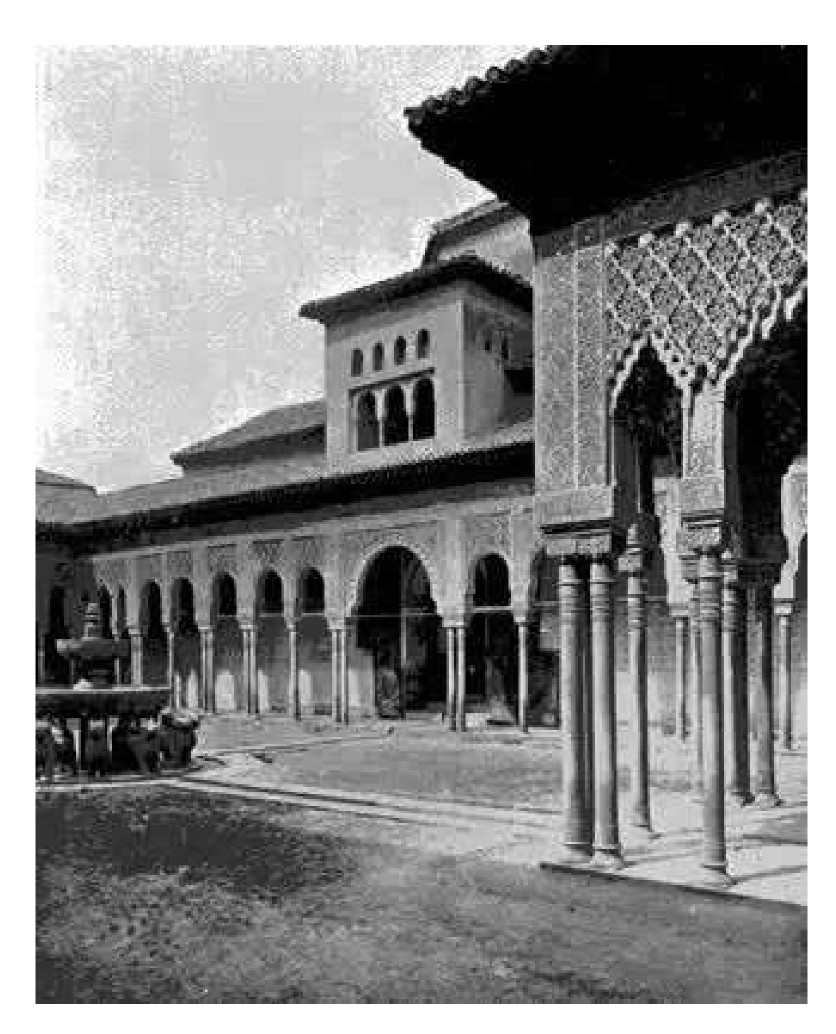
الرّواق الغربي في بهو السّباع



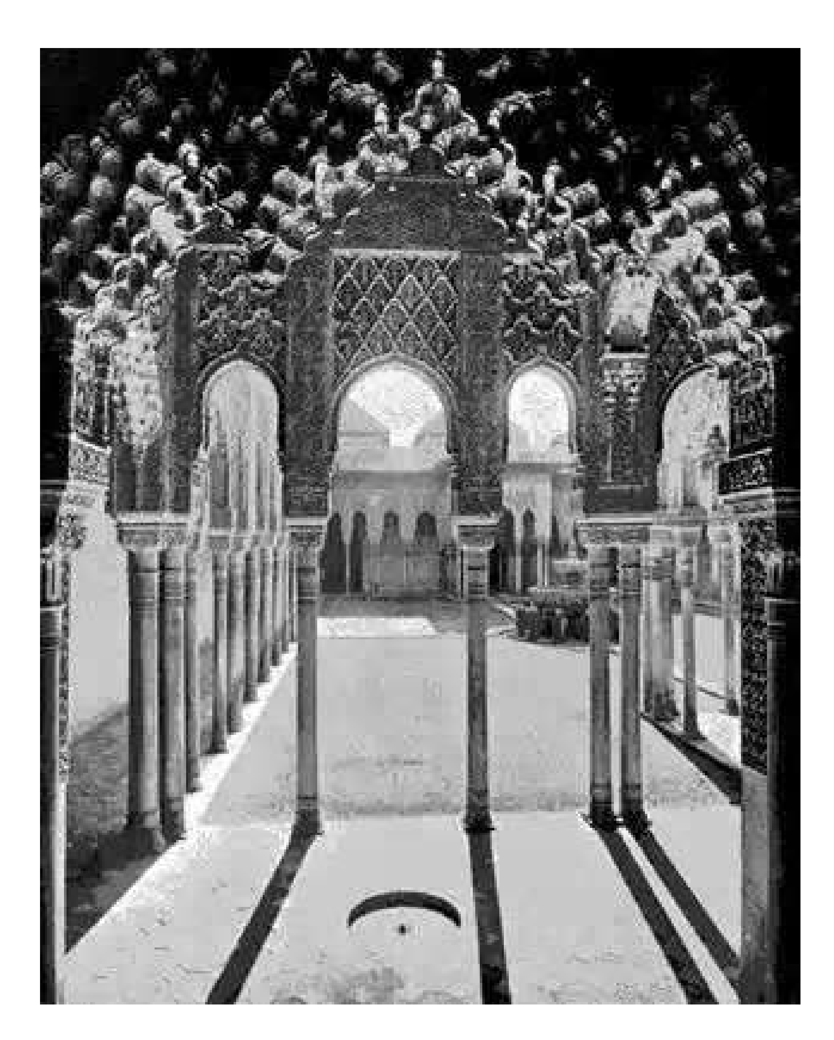
بهو السّباع، واجهة قاعة الأختين



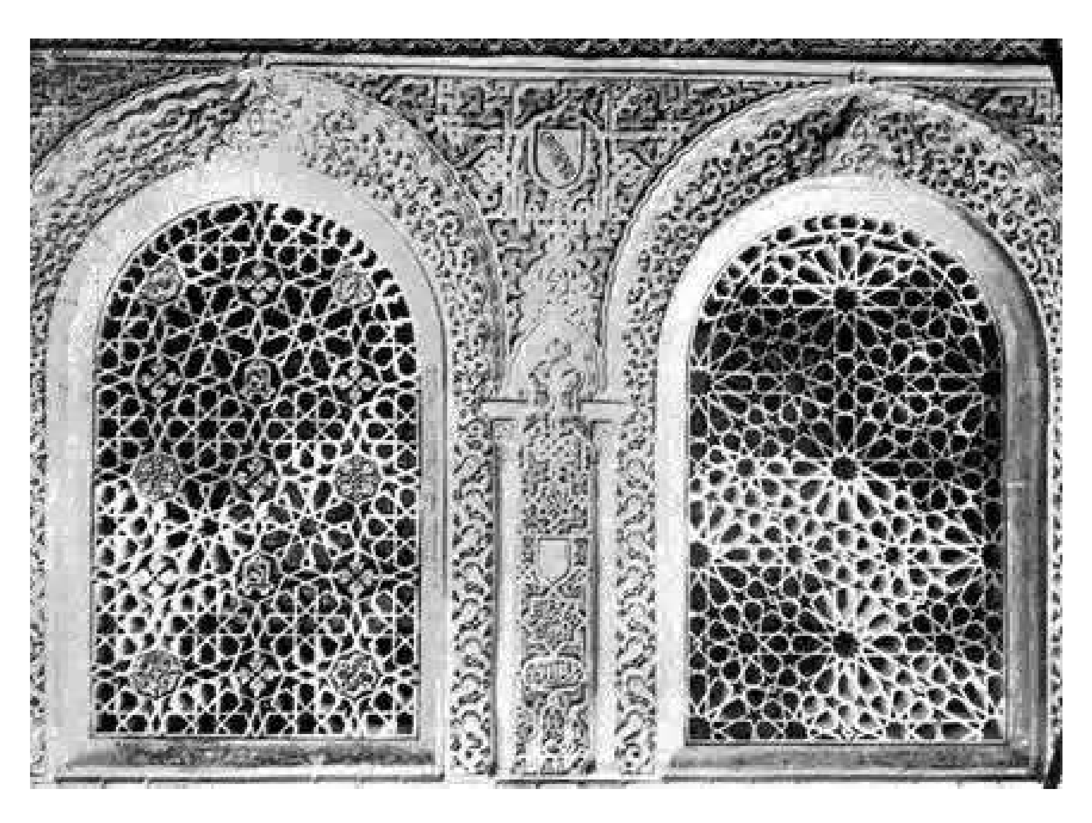
بهو السّباع، الزّاوية اليسرى



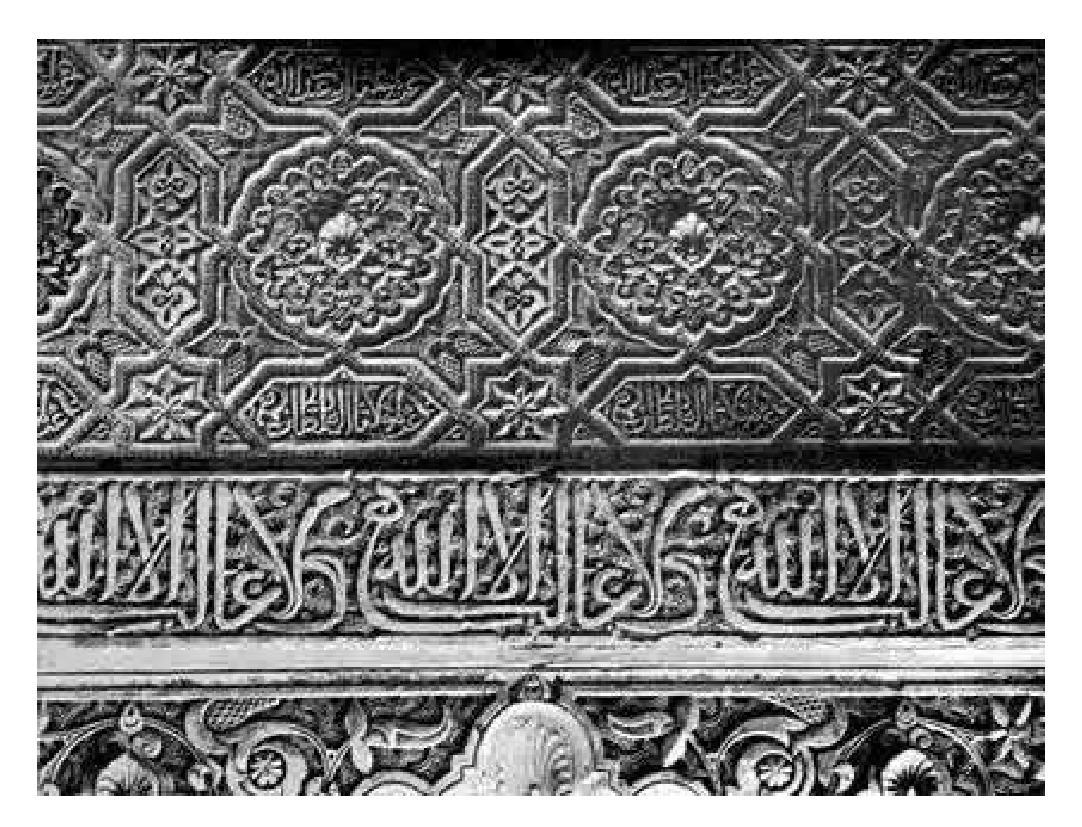
بهو السّباع، واجهة قاعة الأختين



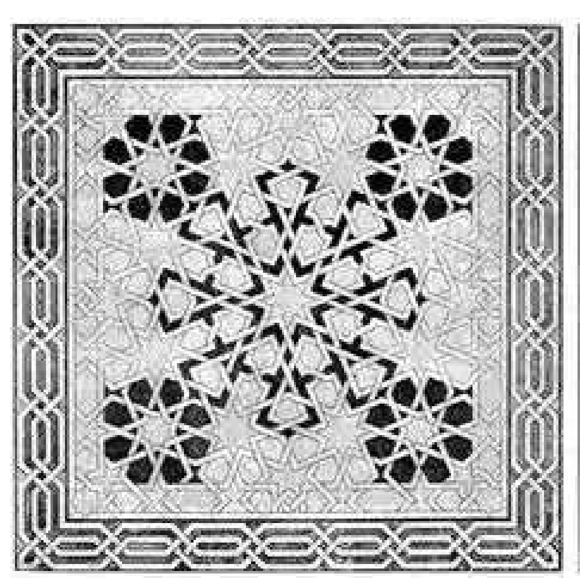
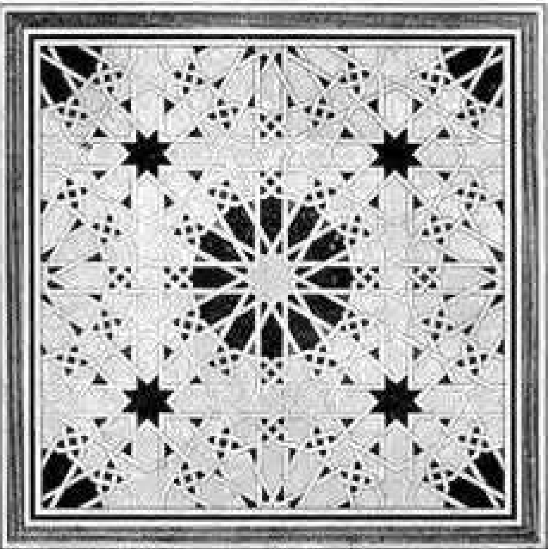
بهو السّباع من المدخل



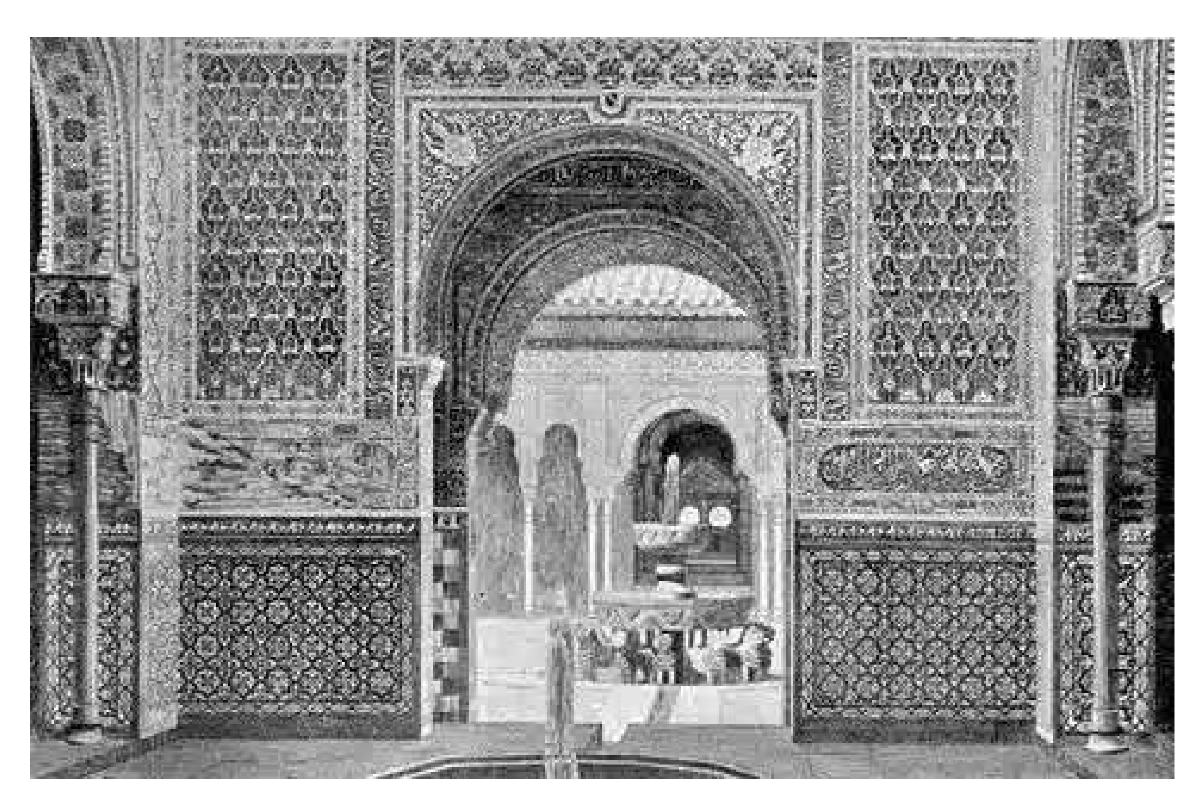
تفصيل لمدخل بهو السّباع



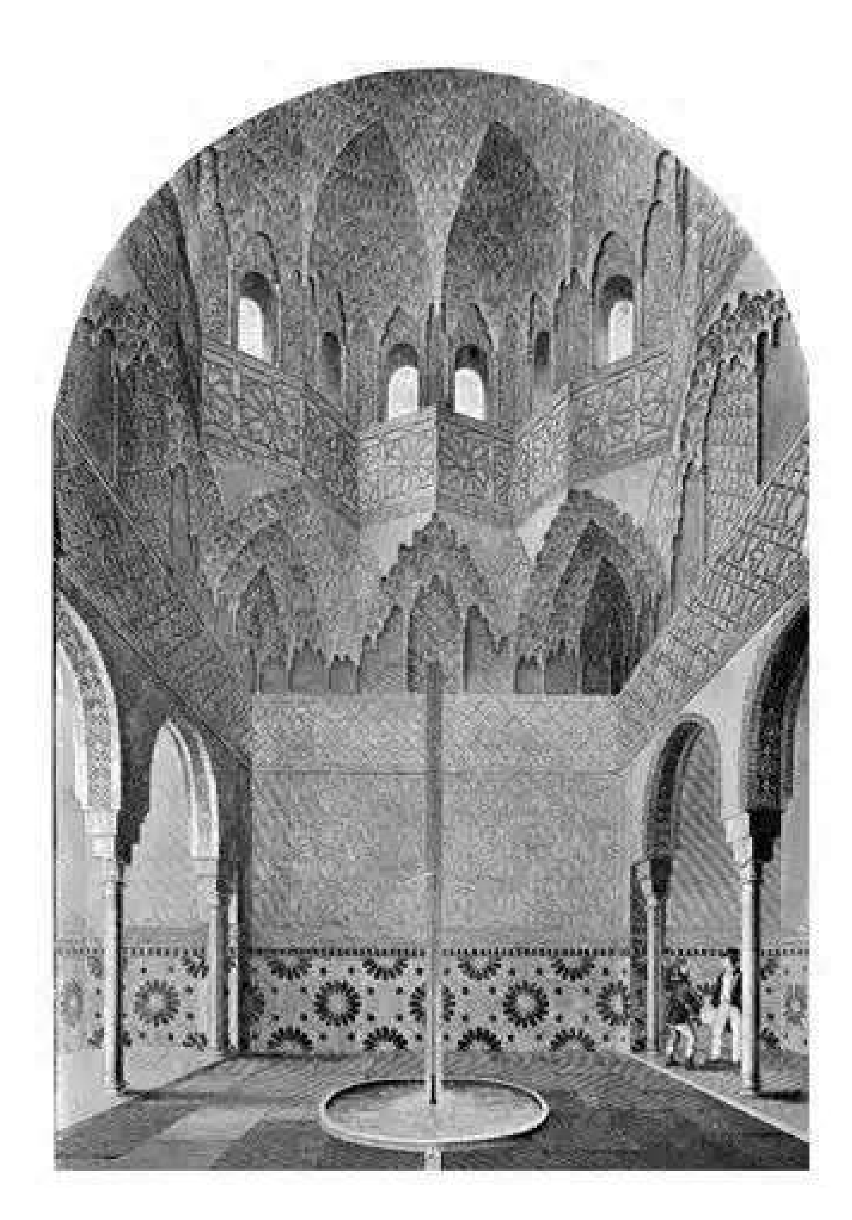
تفصيل في بهو السّباع

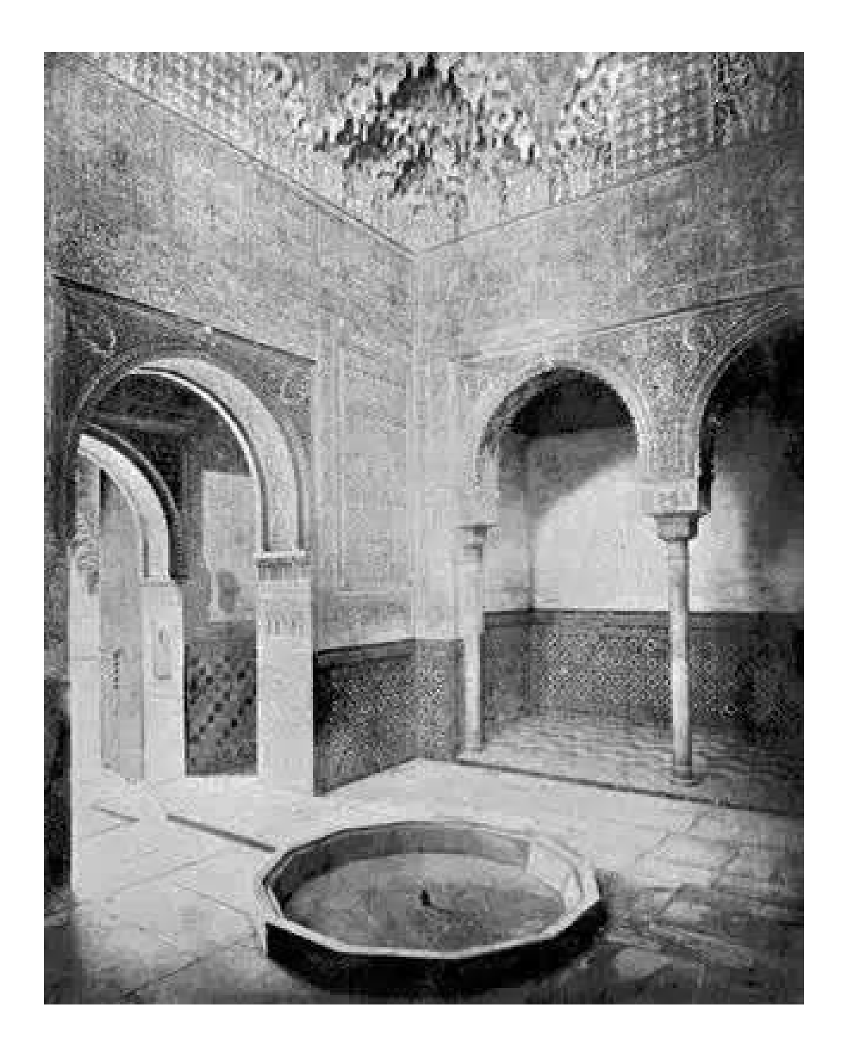
فسيفساء في الجهتين الشّماليّة والجنوبيّة، بهو السّباع



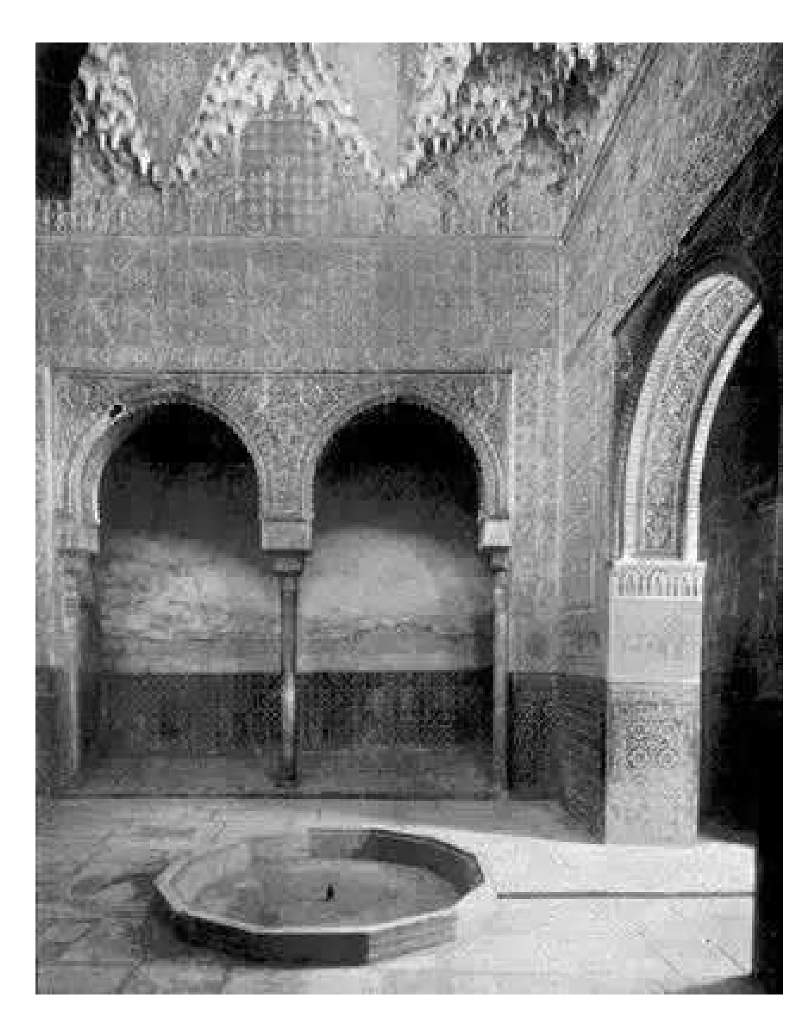
قاعة بني سَرّاج



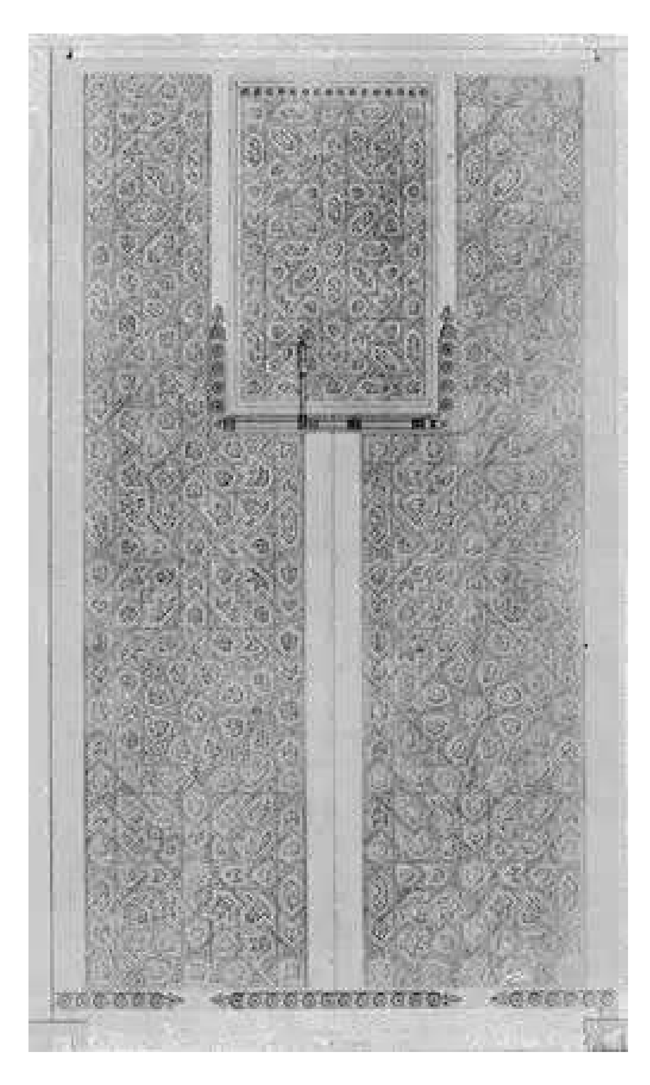
قاعة بني سَرّاج



قاعة بني سَرّاج



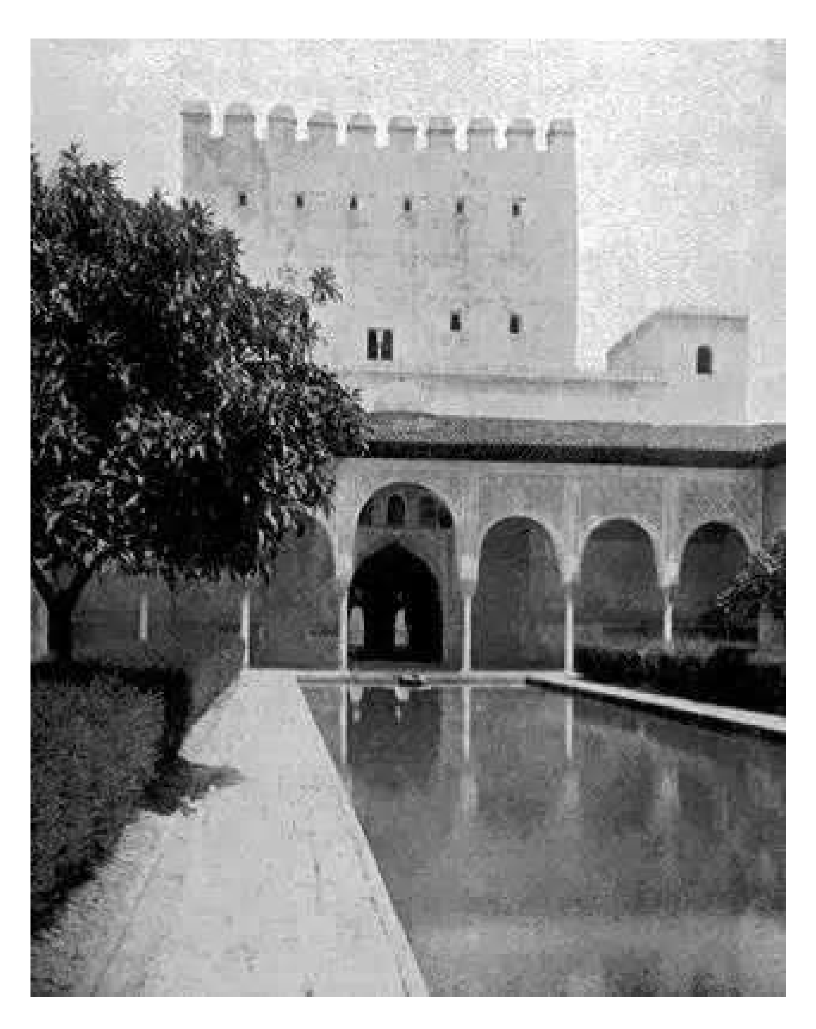
قاعة بني سَرّاج



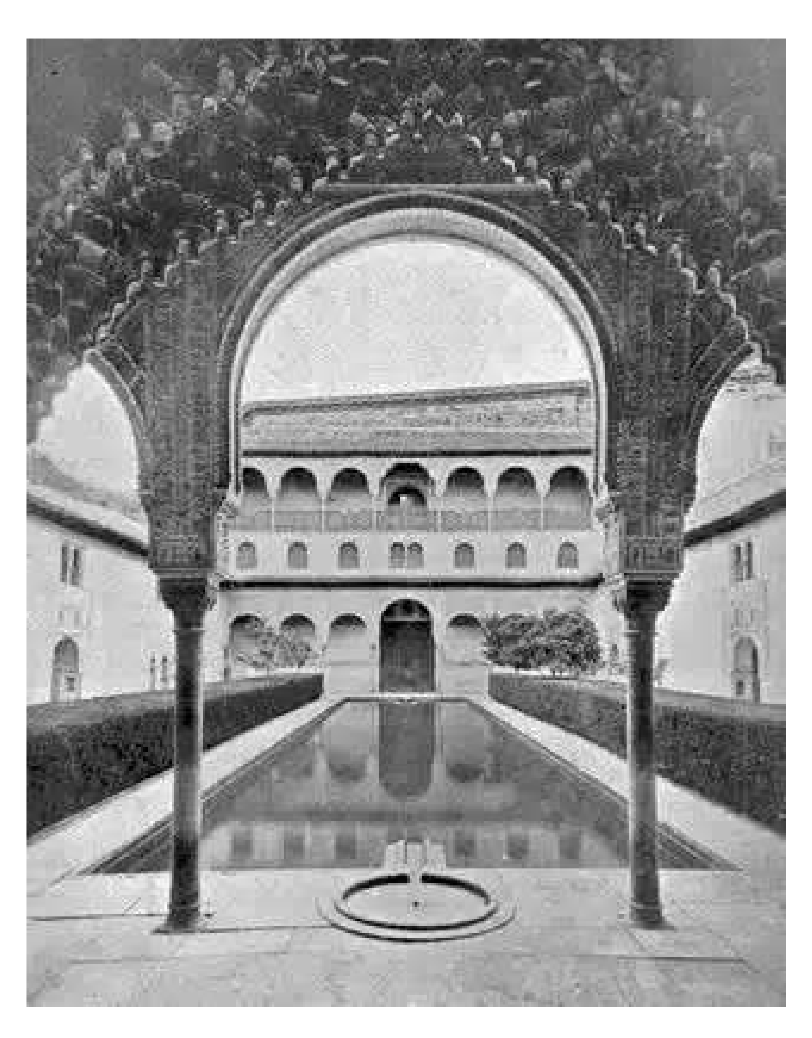
أبواب خشبيّة، قاعة بني سَرّاج



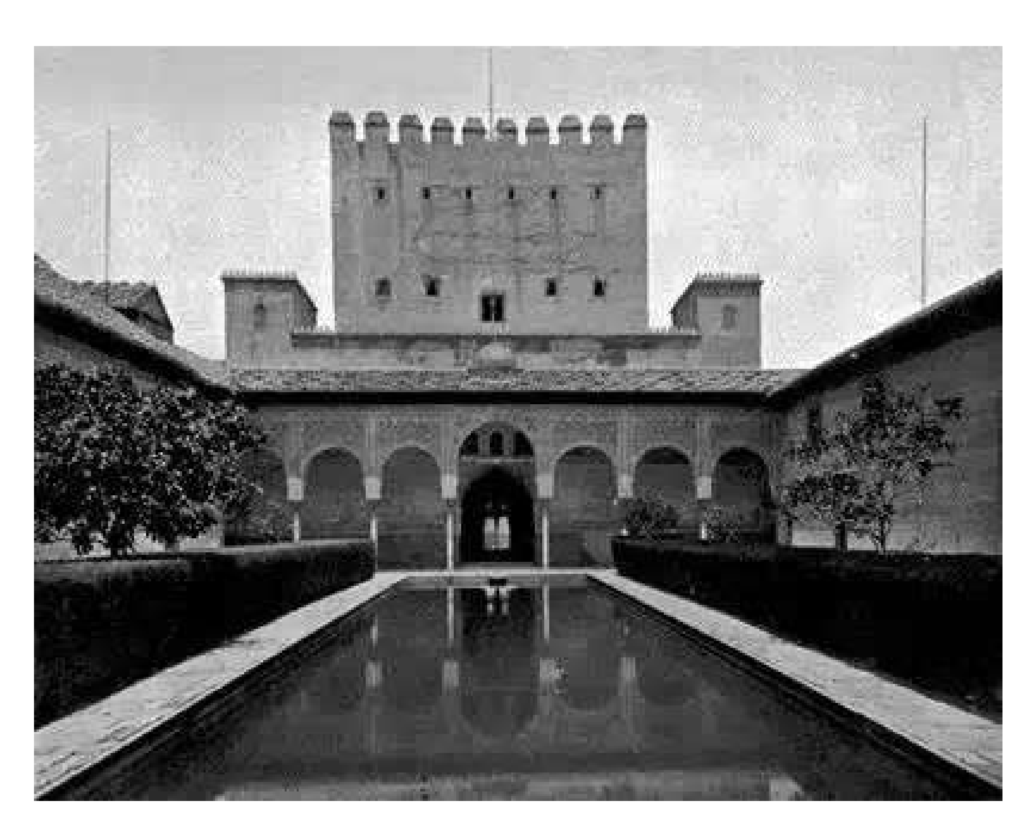
رواق في فناء بركة السّمك، أو فناء الآس



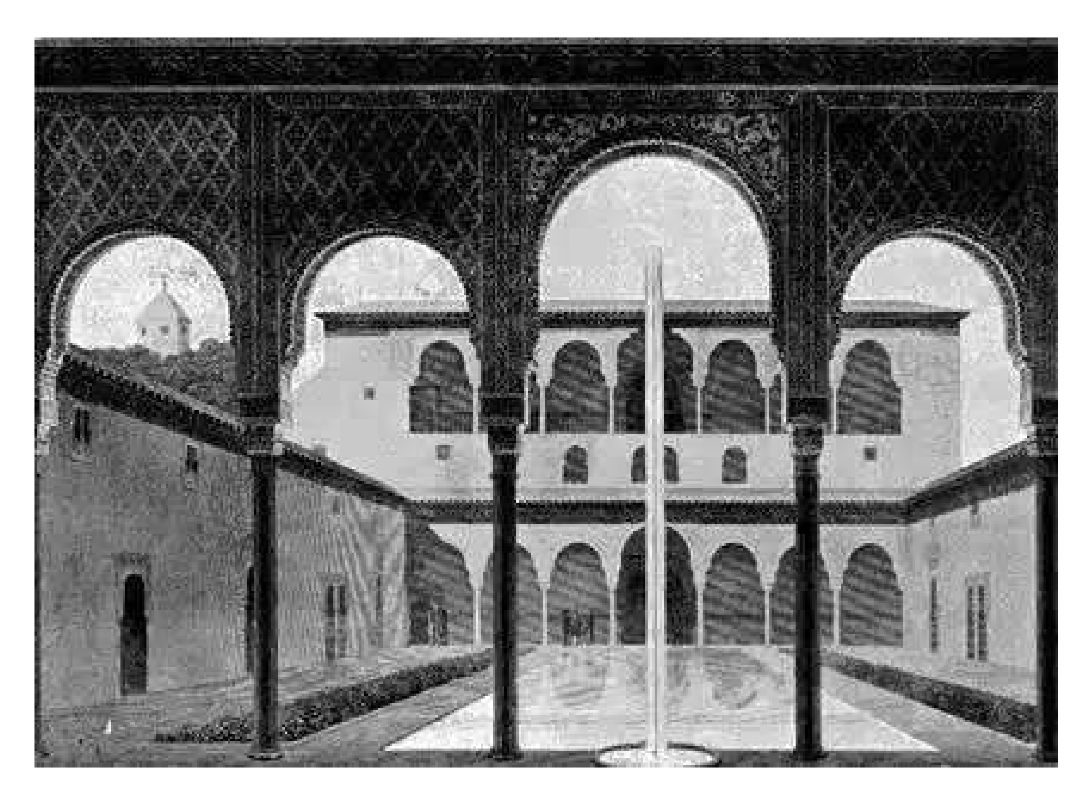
فناء الآس، أو فناء بركة السّمك. واجهة قاعة السُّفراء



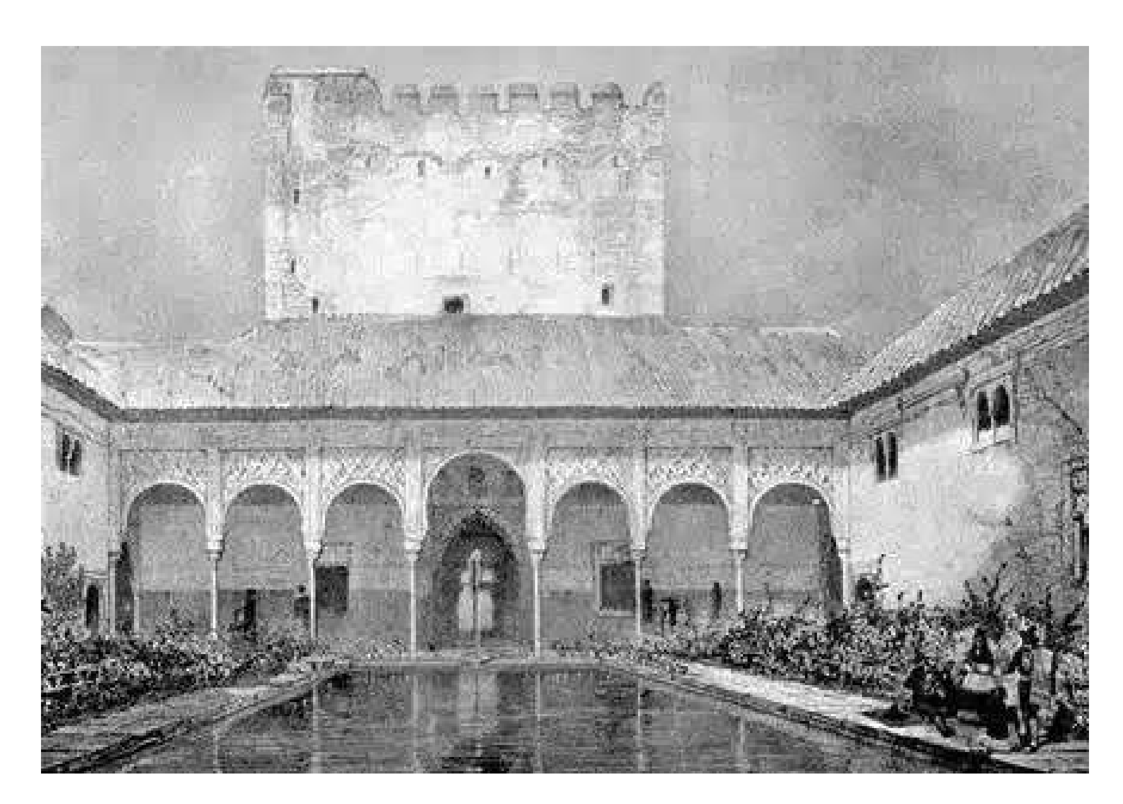
فناء الآس، أو بركة السّمك



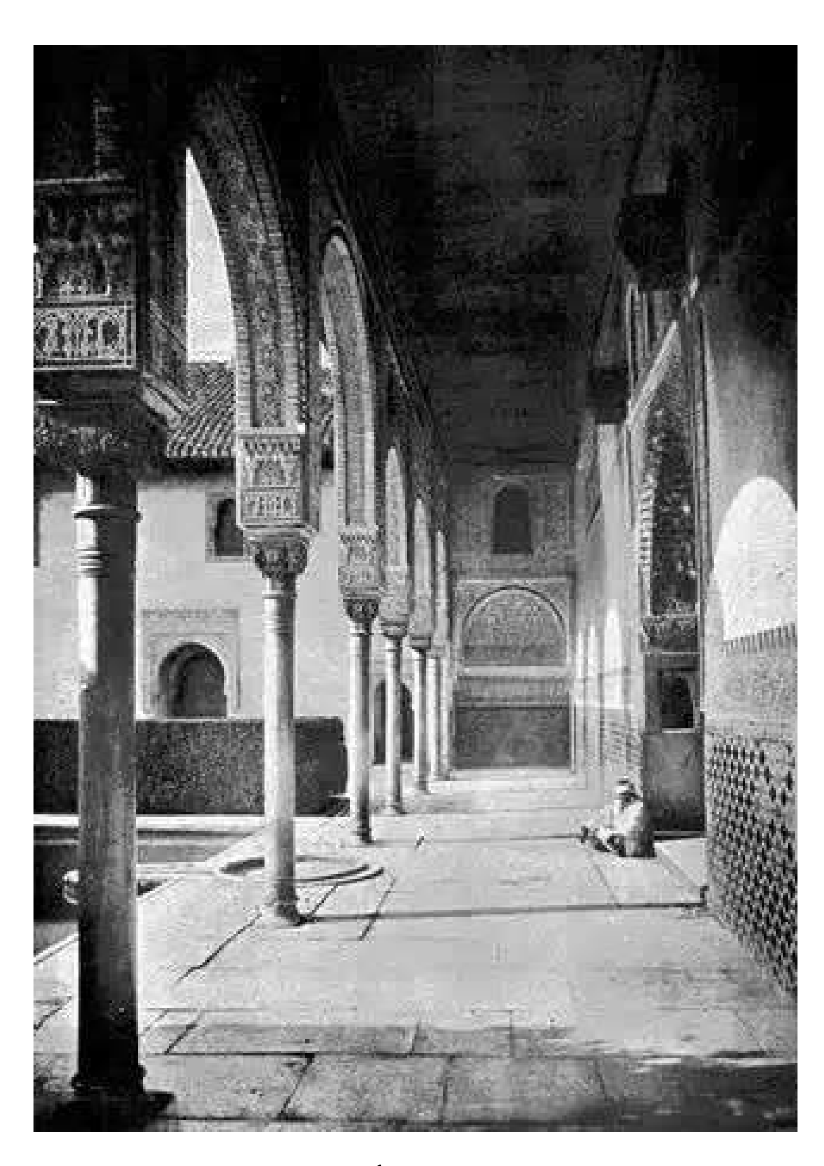
صورة 217: منظر عام لفناء الآس، أو بركة السّمك



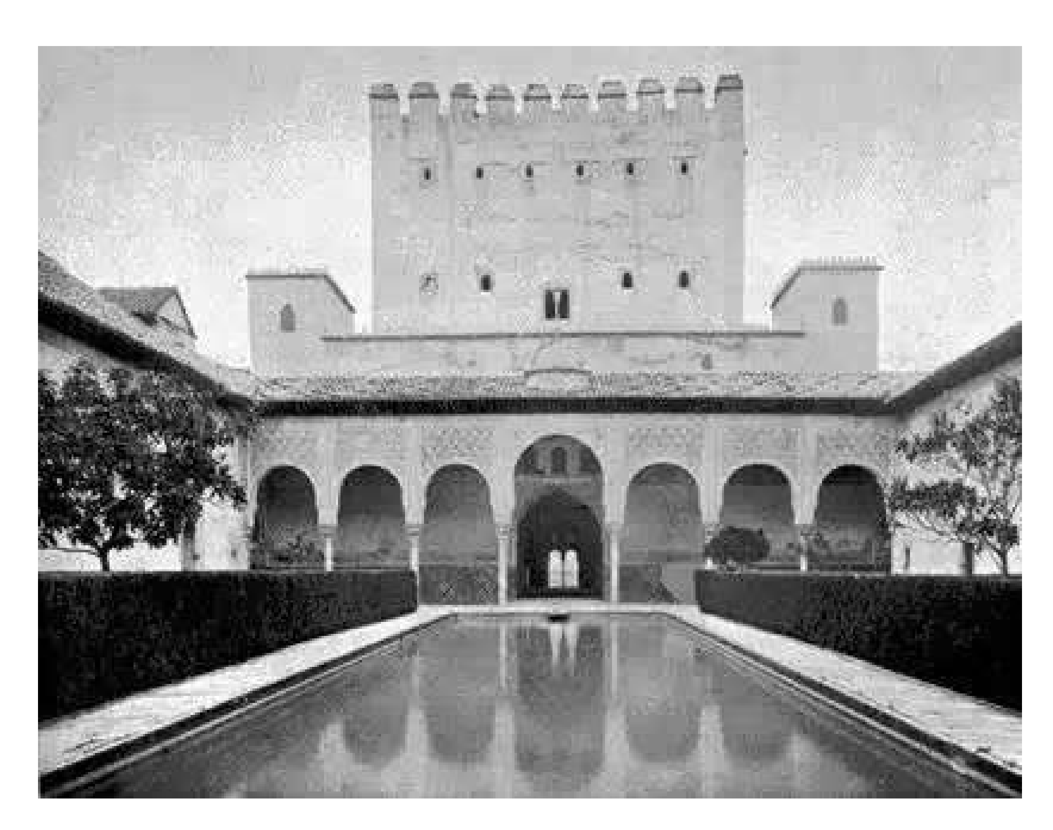
صورة 218: الجهة الشّماليّة لفناء بركة السّمك، أو الآس



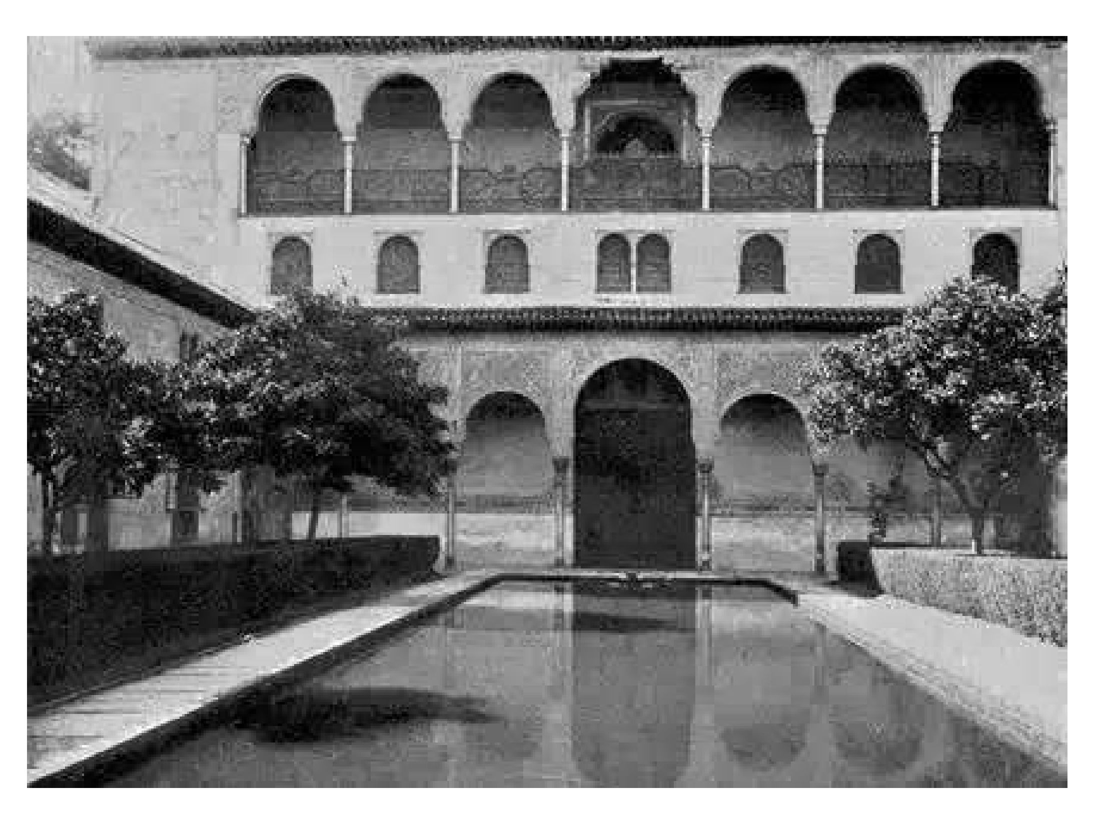
المدخل إلى فناء بركة السّمك، أو الآس



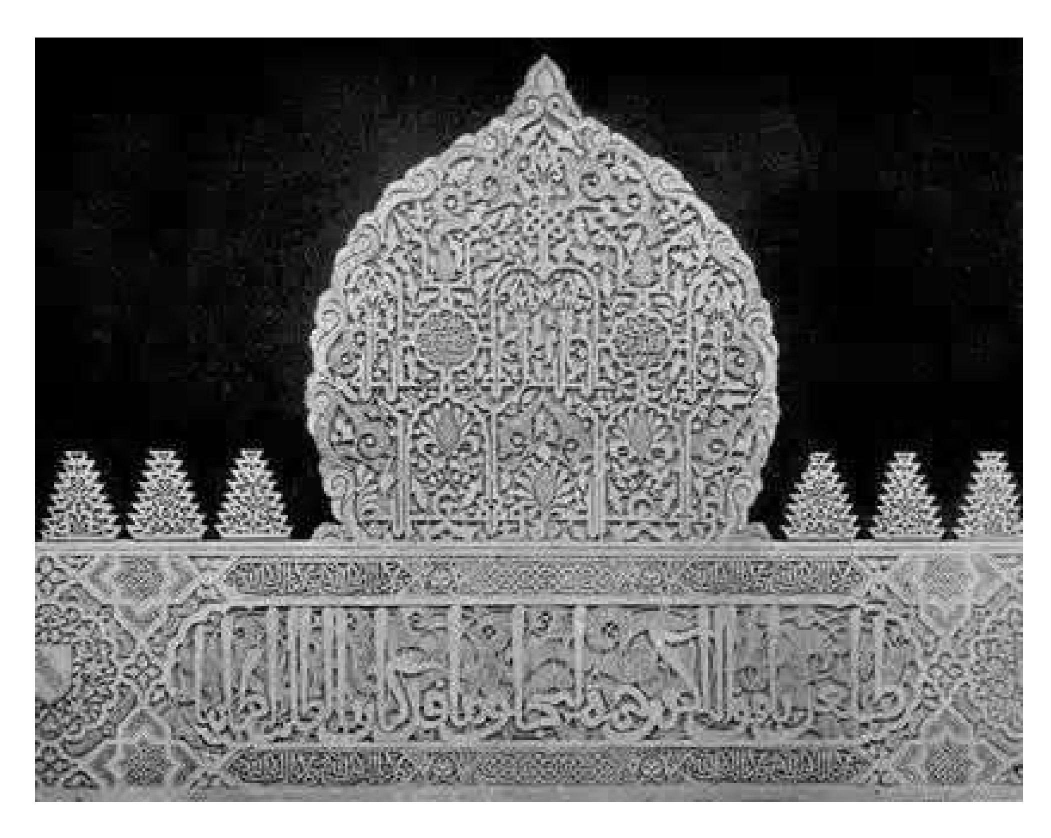
رواق في فناء الآس، أو بركة السّمك



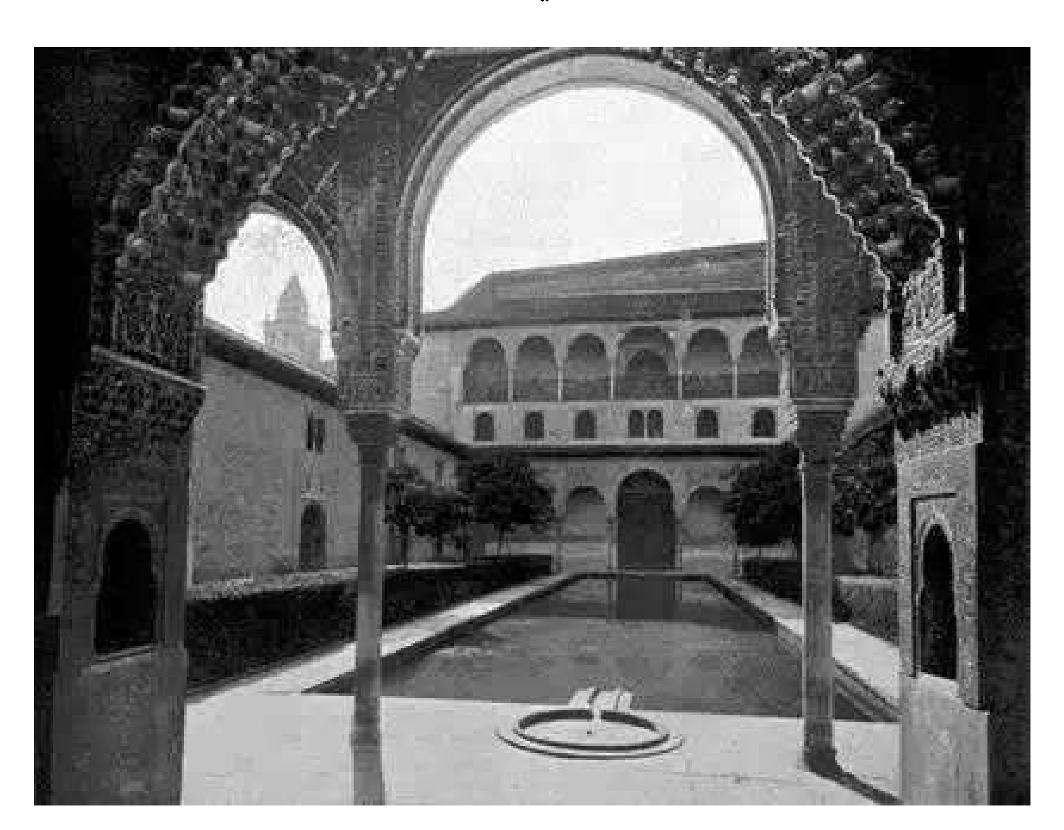
منظر عام لفناء الآس، أو بركة السّمك



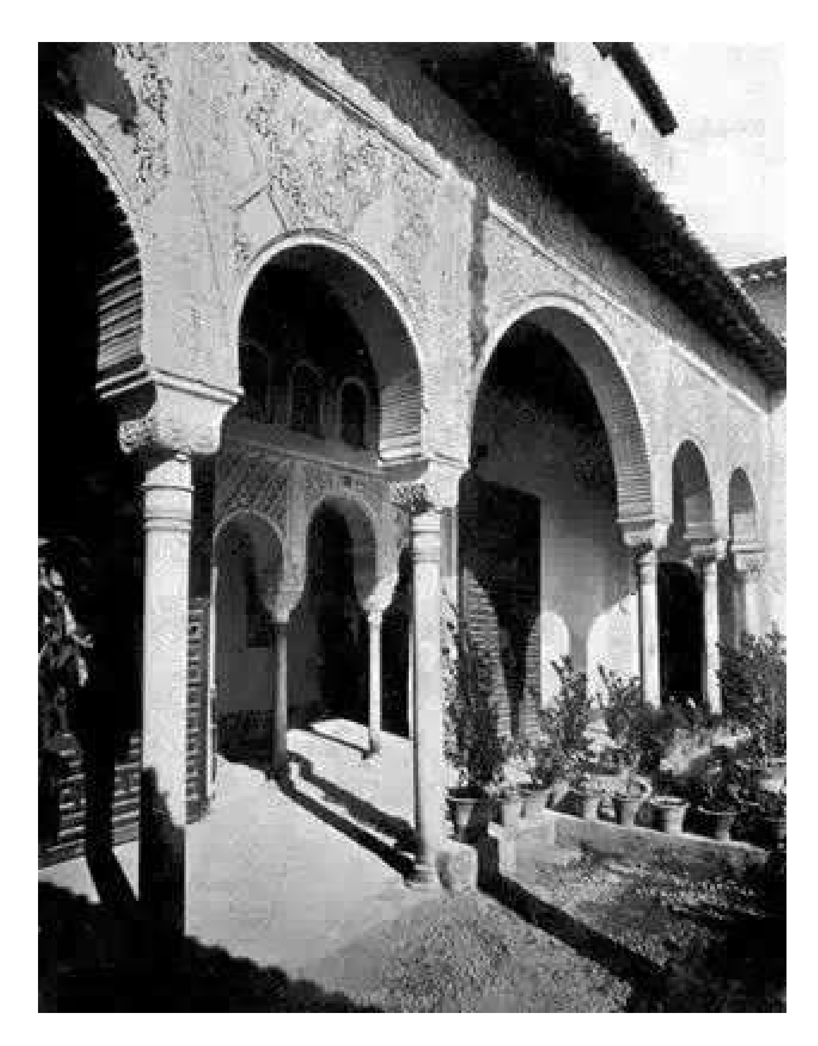
فناء الآس، الواجهة الشّرقيّة



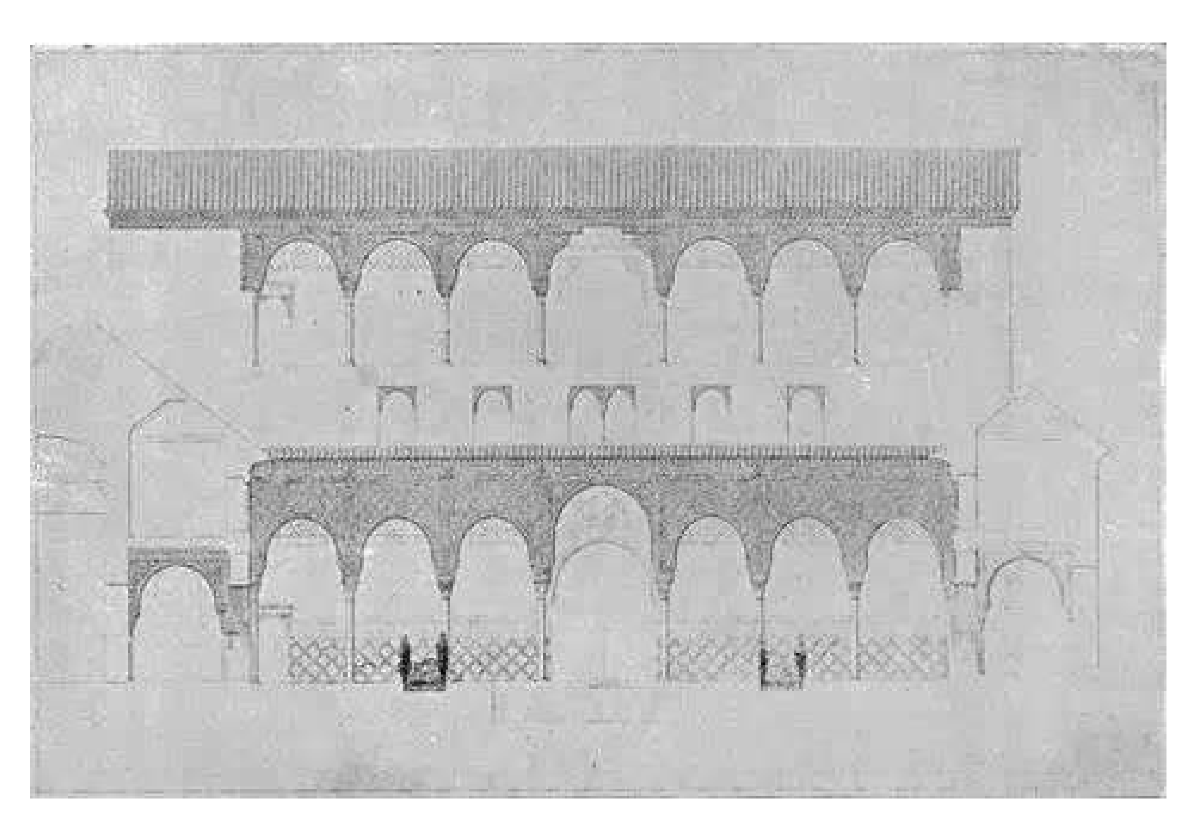
تفصيل في فناء الآس



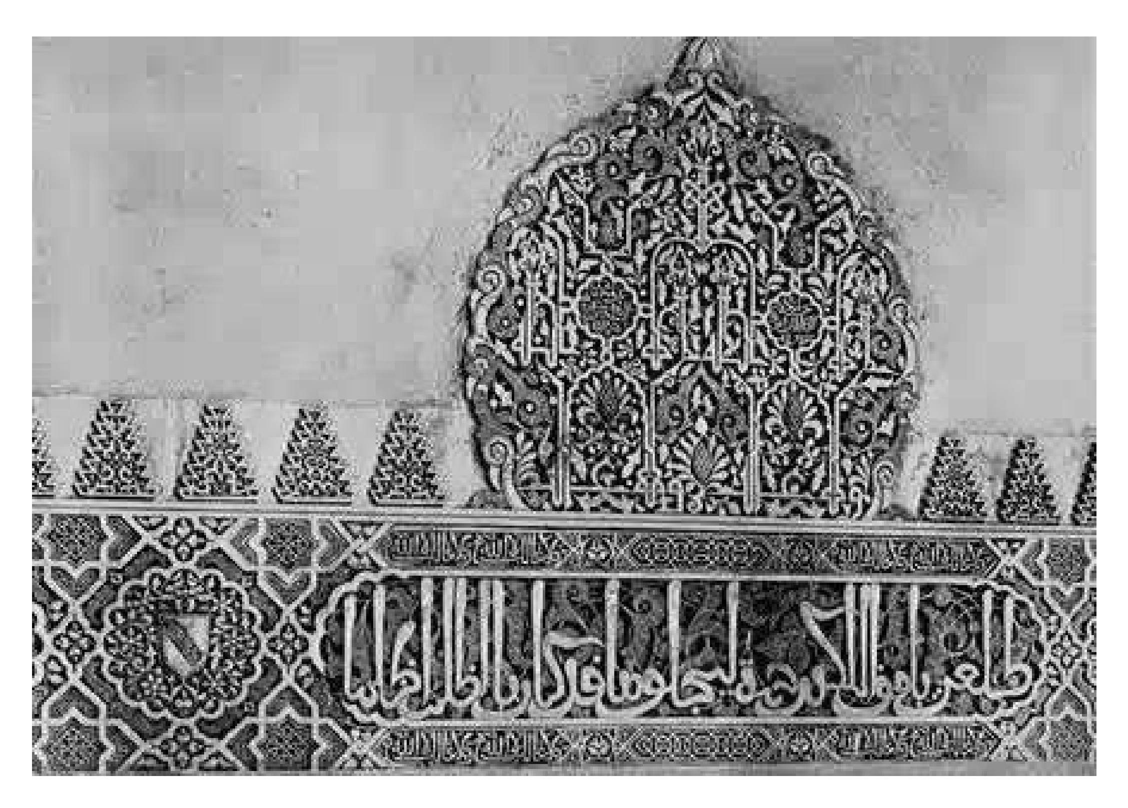
فناء الآس، الواجهة الشّرقيّة



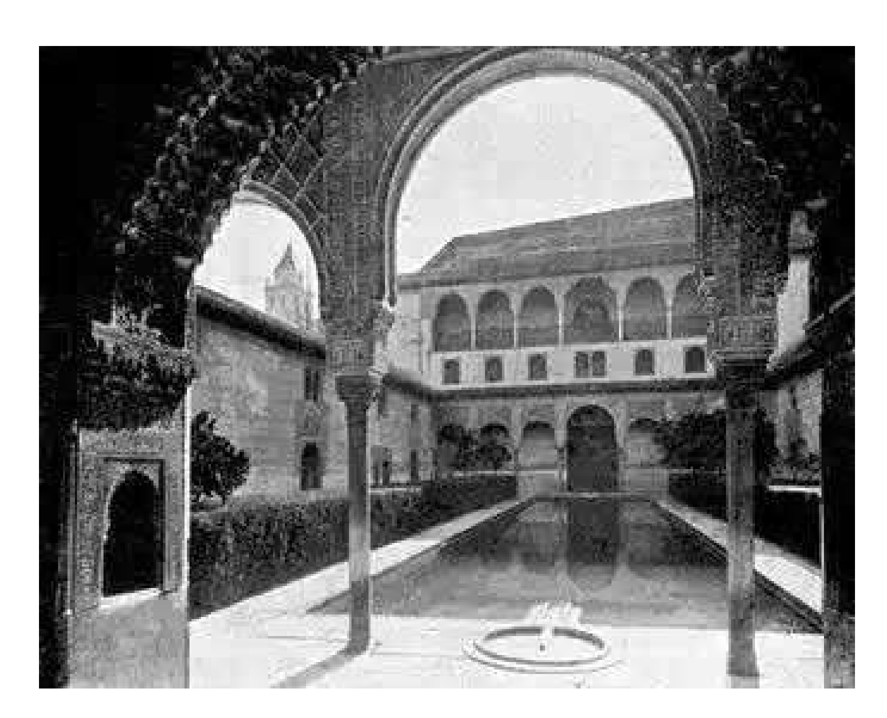
خارج الرّواق في فناء بركة السّمك، أو الآس



فناء بركة السّمك، أو الآس



زخرفة في فناء بركة السّمك، أو الآس

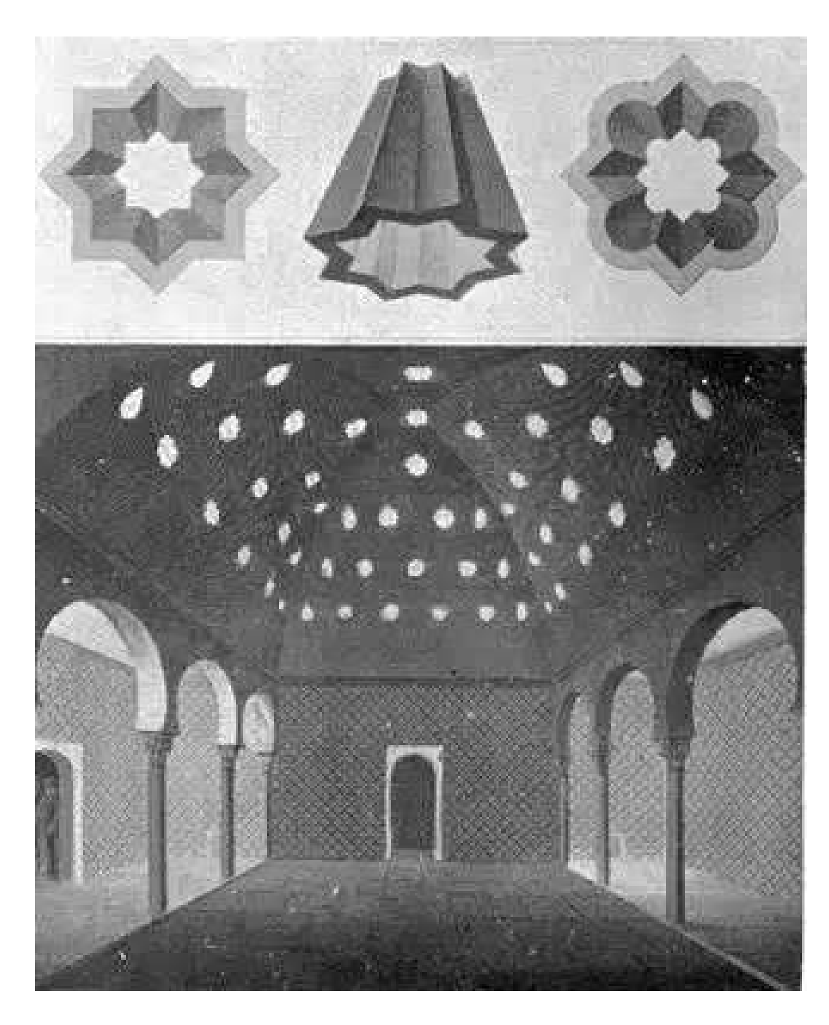


فناء الآس، أو بركة السّمك، الذي شيّده يوسف الأول

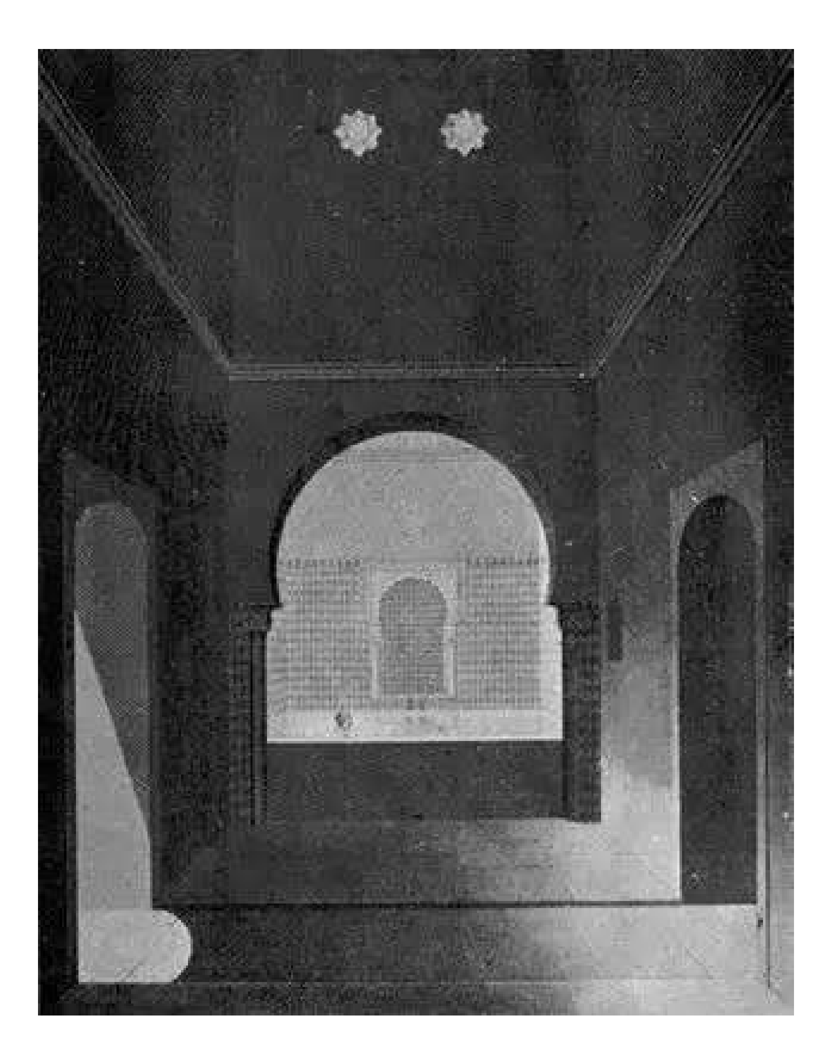




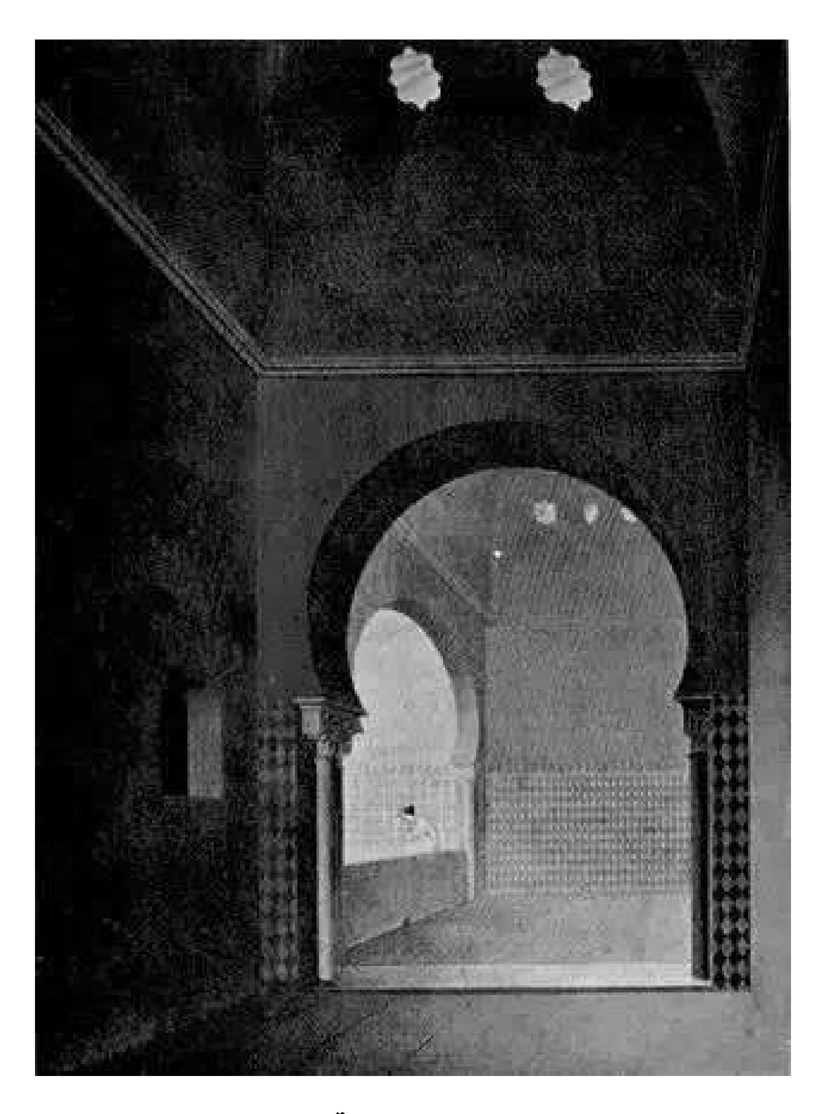
فناء بركة السّمك، أو الآس. رواق في فناء بركة السّمك، أو الآس



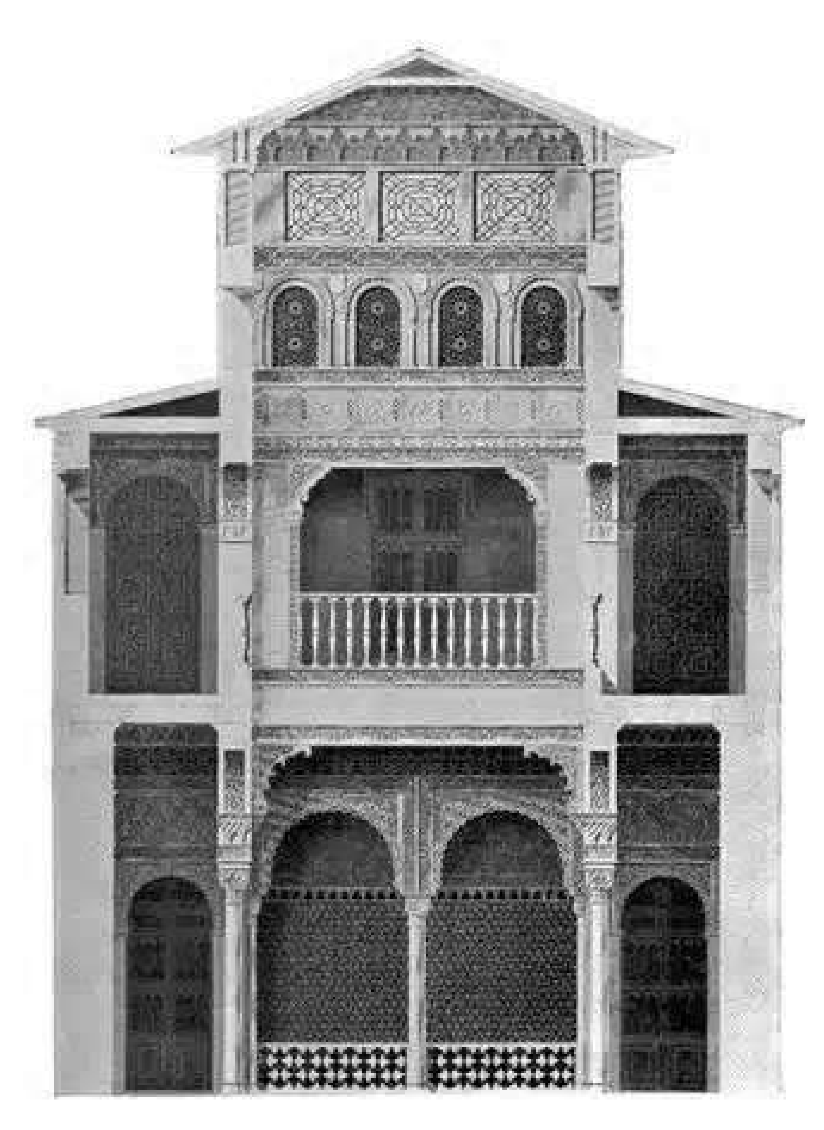
قاعة الحمّامات



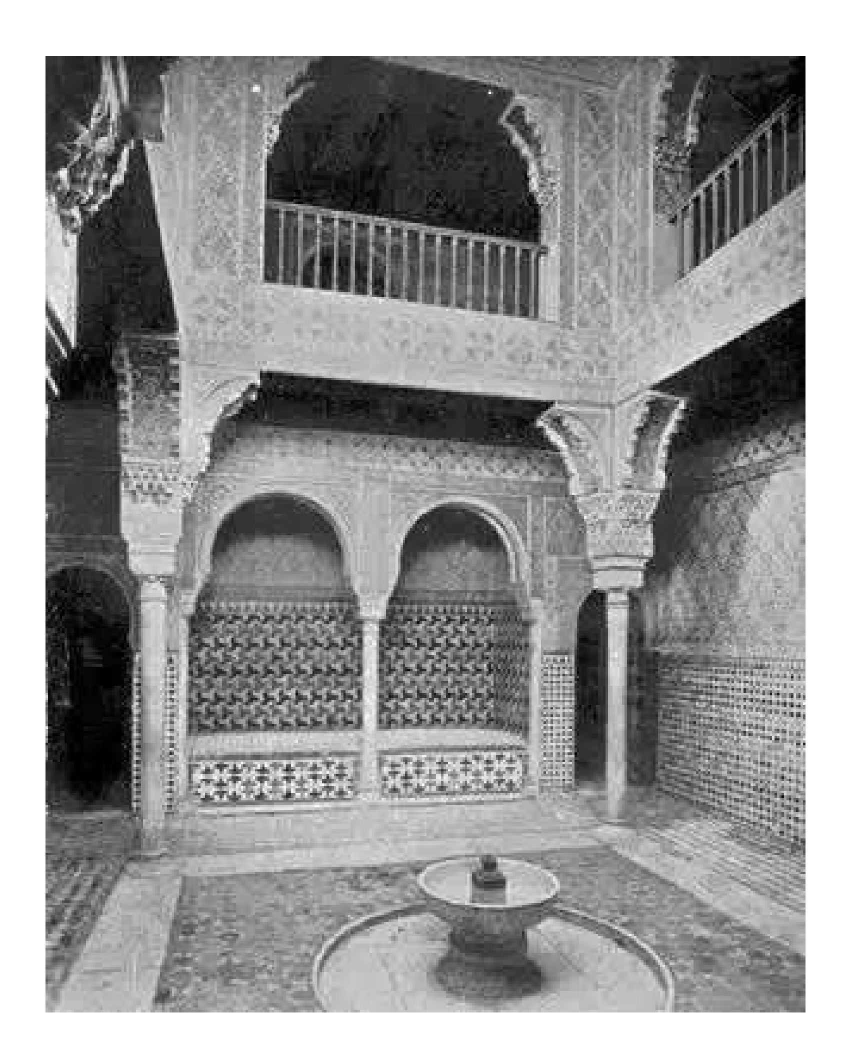
حمّام السّلطان



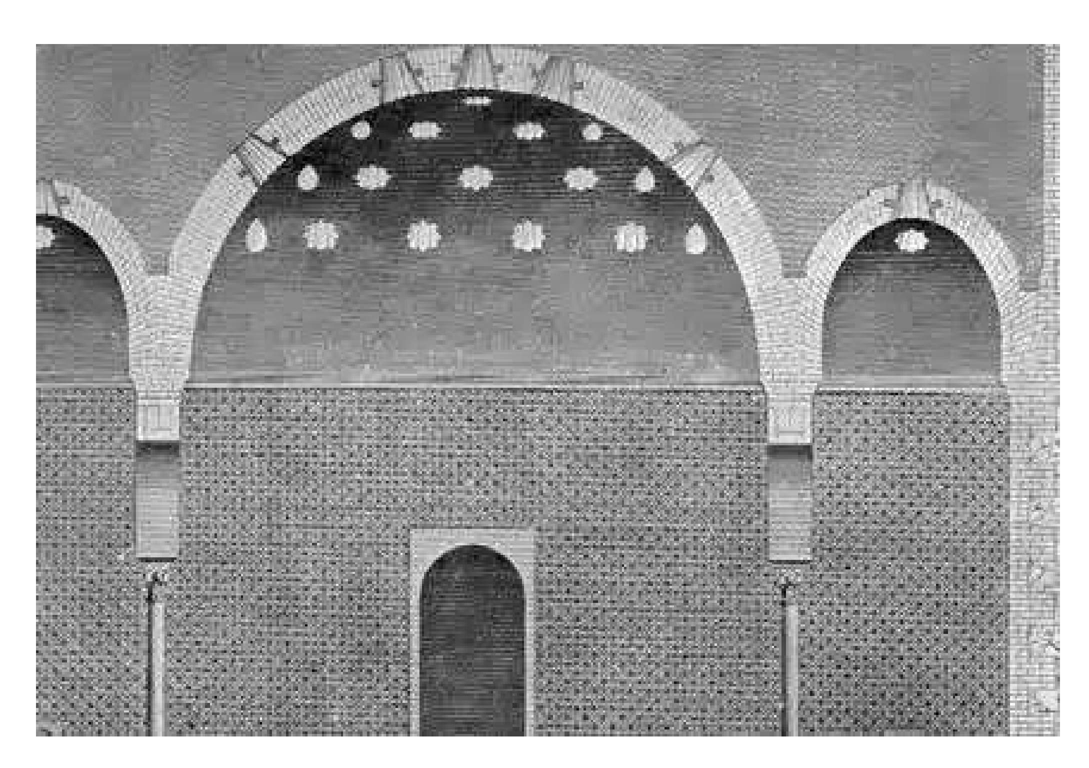
حمّام السّلطانة



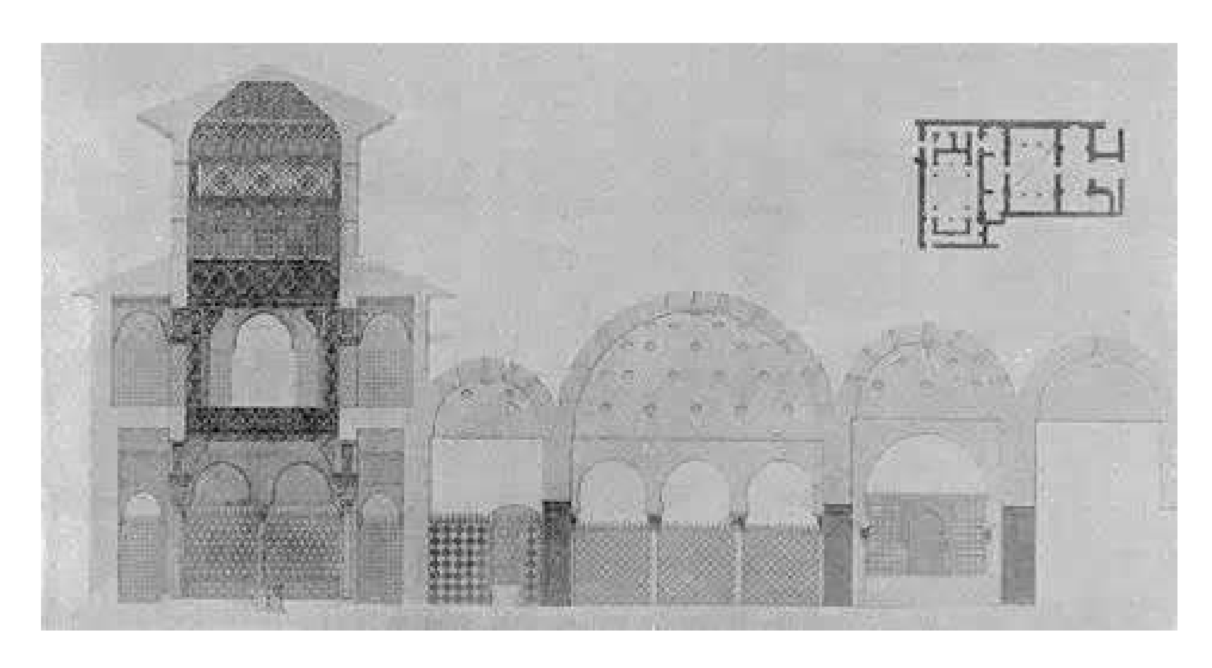
الحمّامات، قاعة الاستراحة



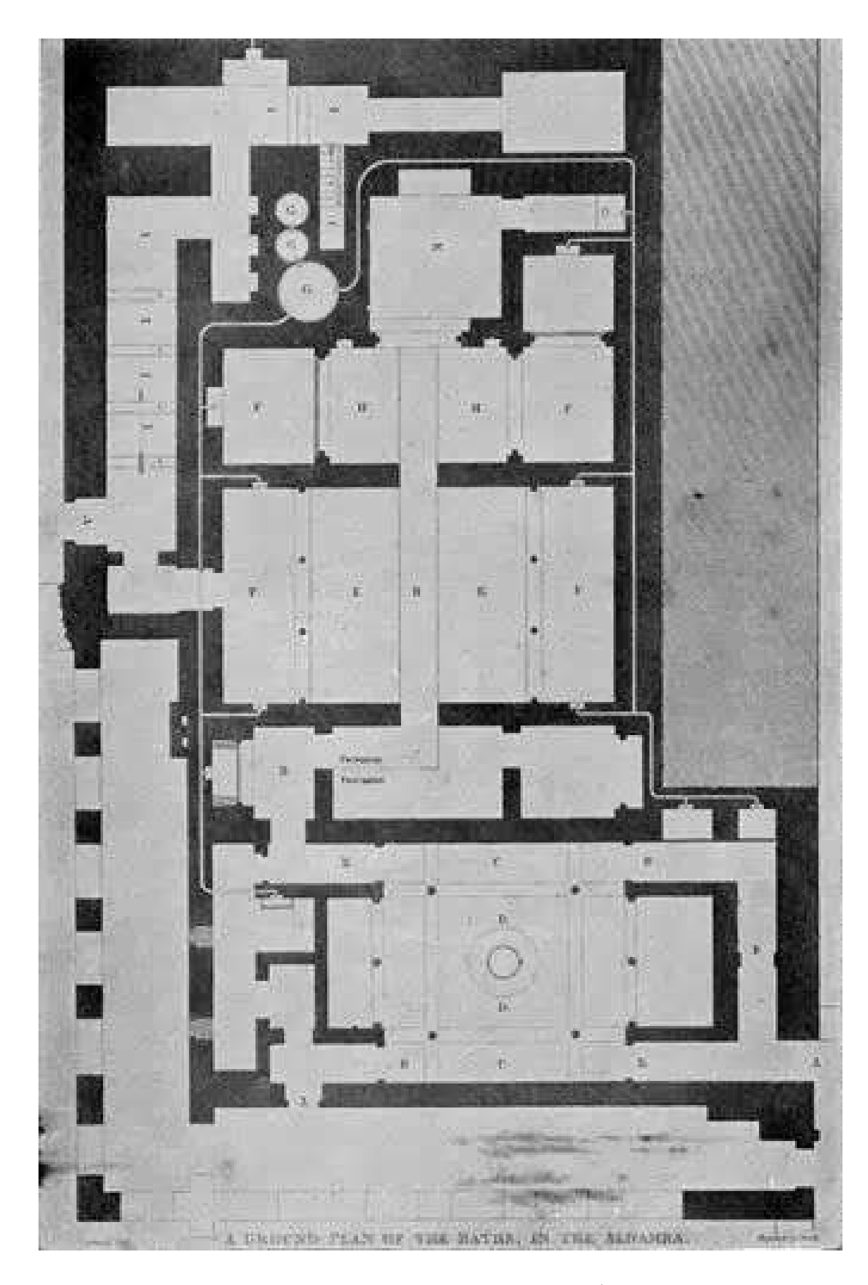
مقصورة الاستراحة



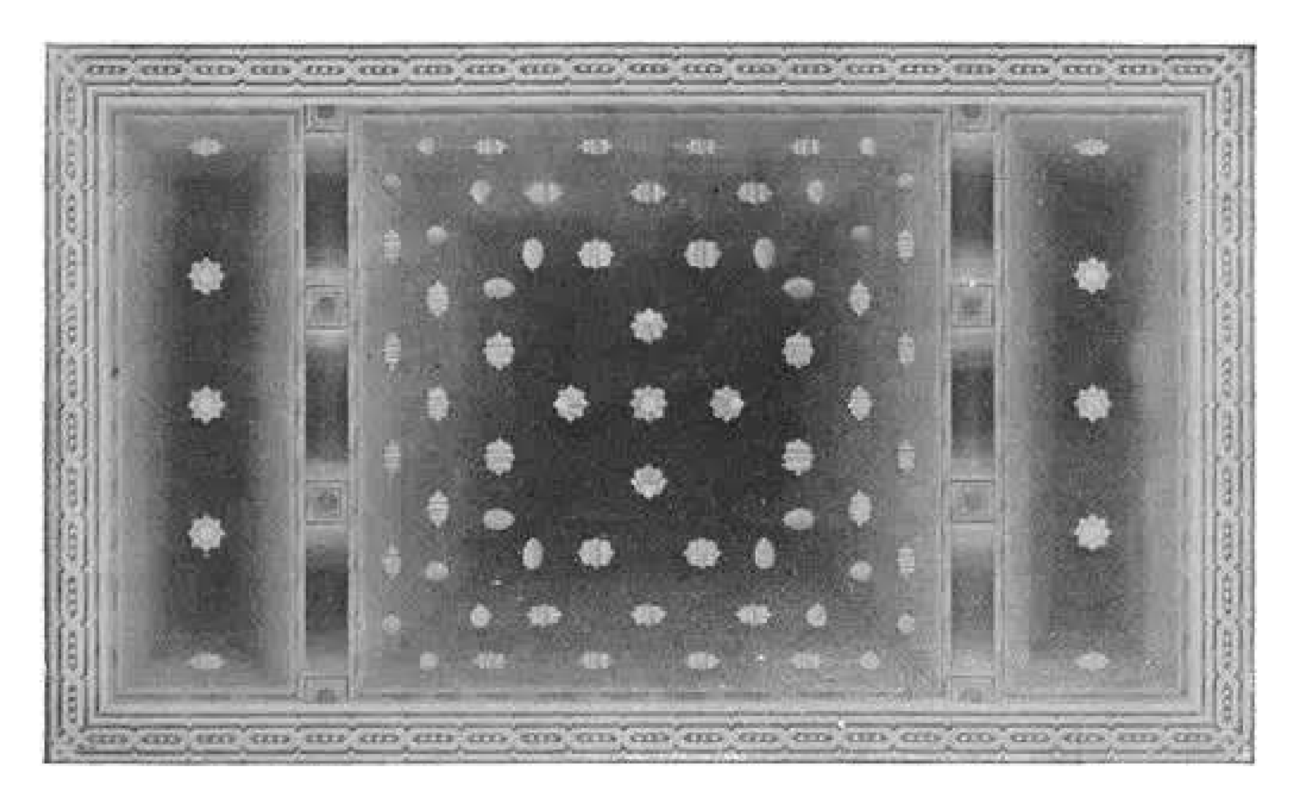
مقطع لقاعة الحمّامات



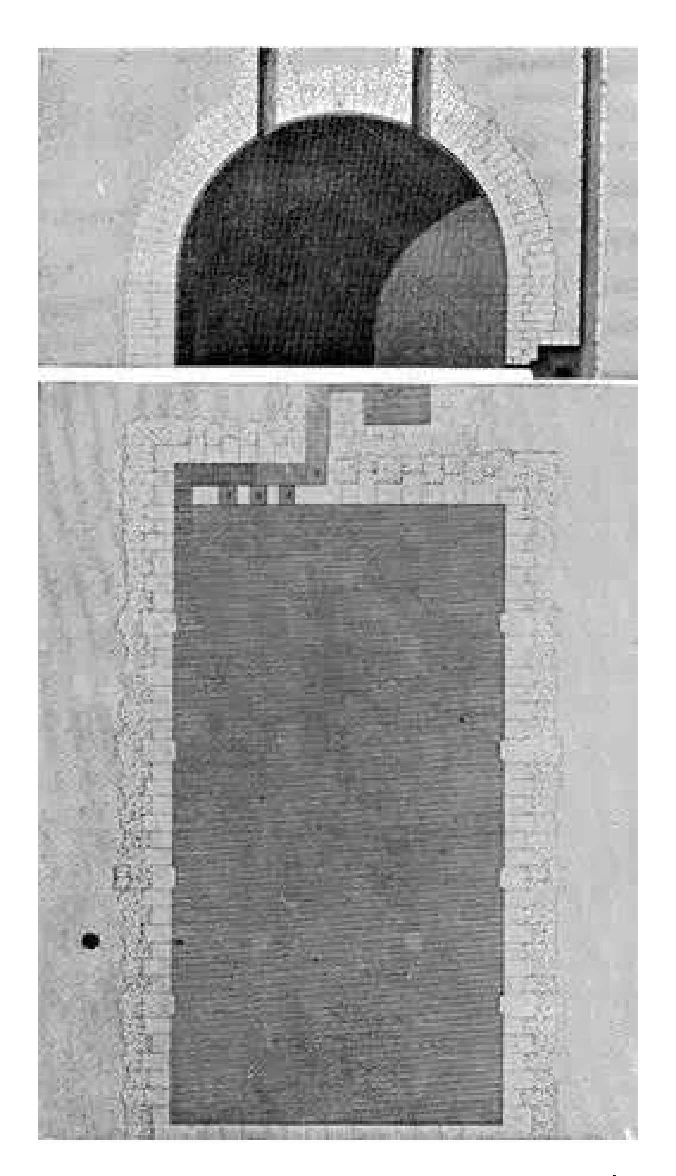
مقطع طولاني عبر الحمّامات



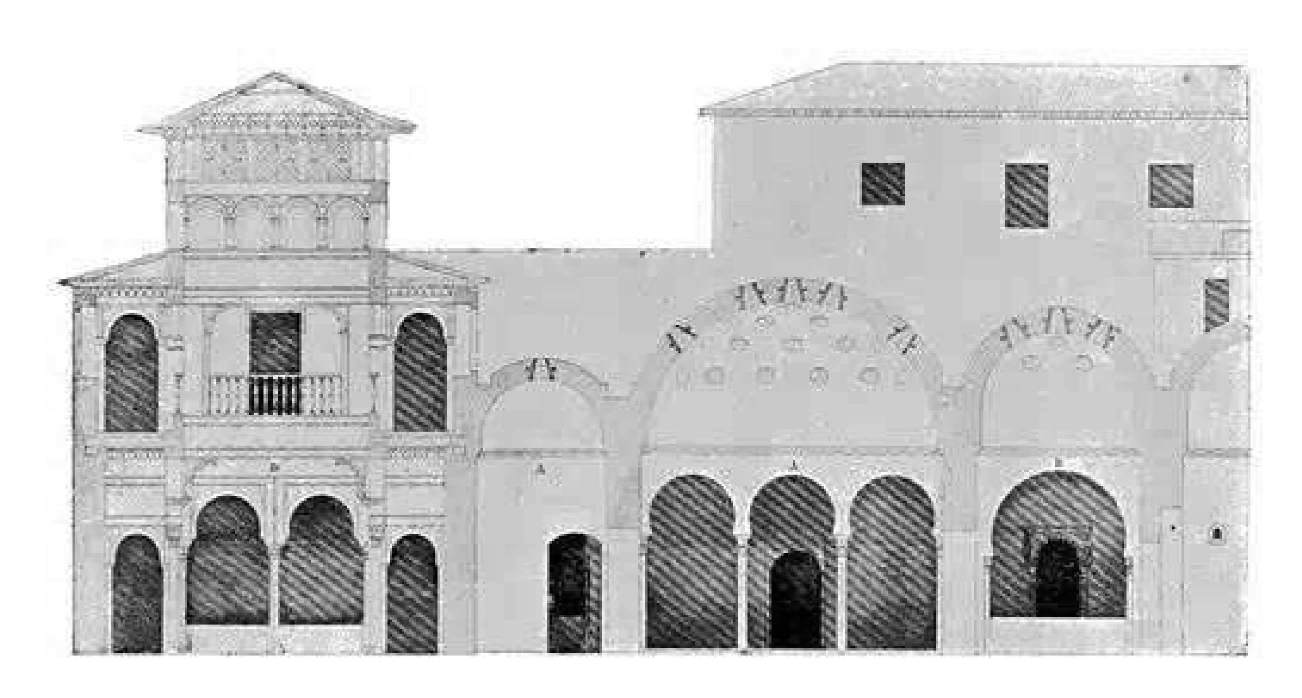
المسقط الأرضي للحمّامات في قصر الحمراء



سقف قاعة الحمّامات



مسقط أفقي ومقطع لخزّان الماء الكبير في قصر الحمراء

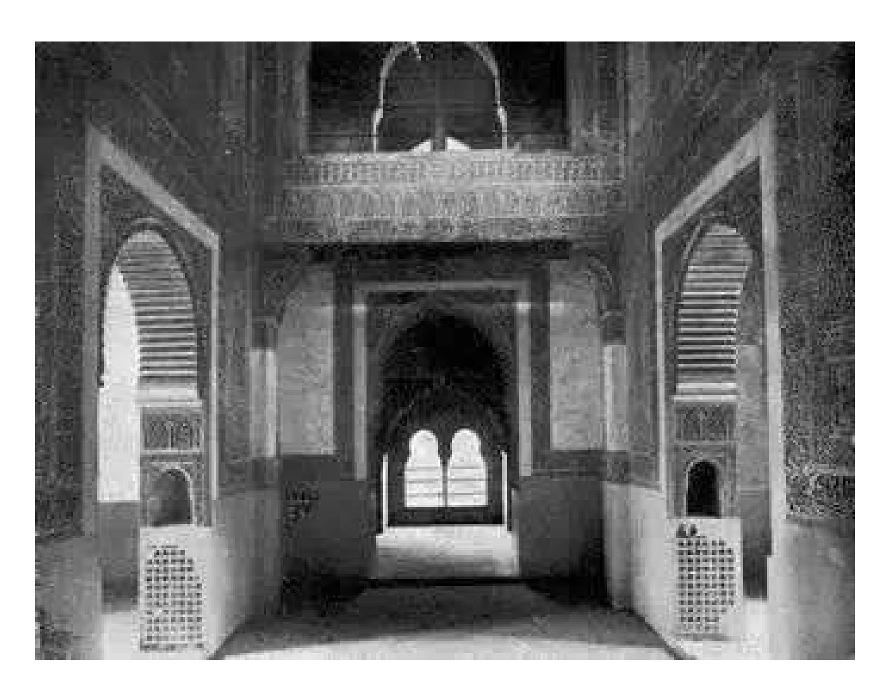


مقطع للحمّامات في قصر الحمراء

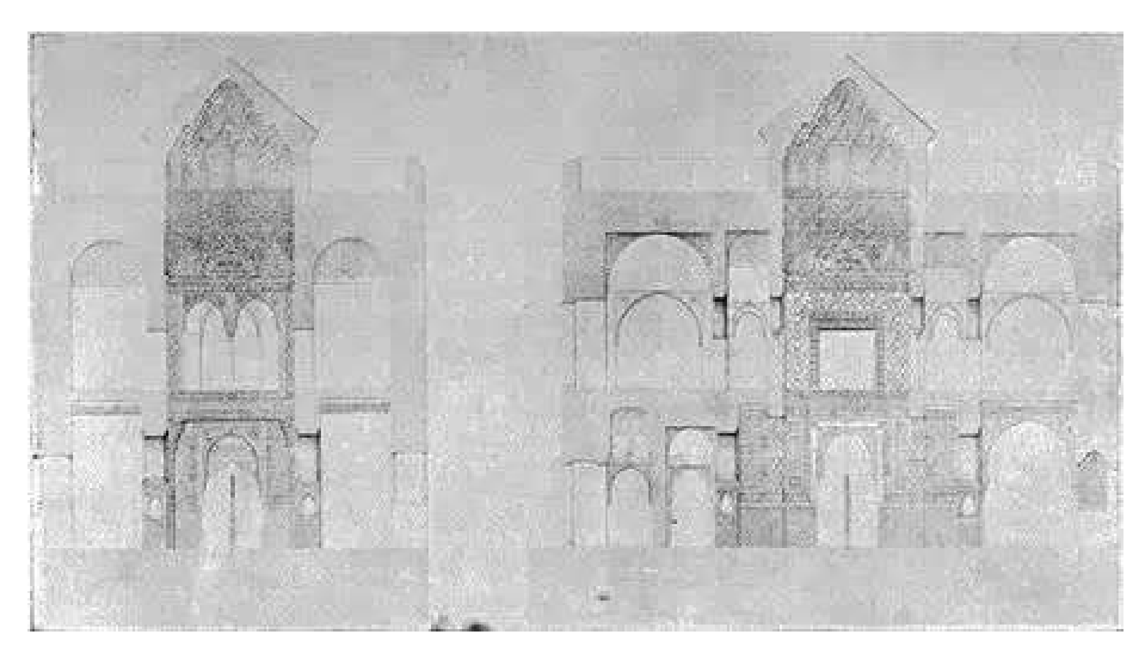




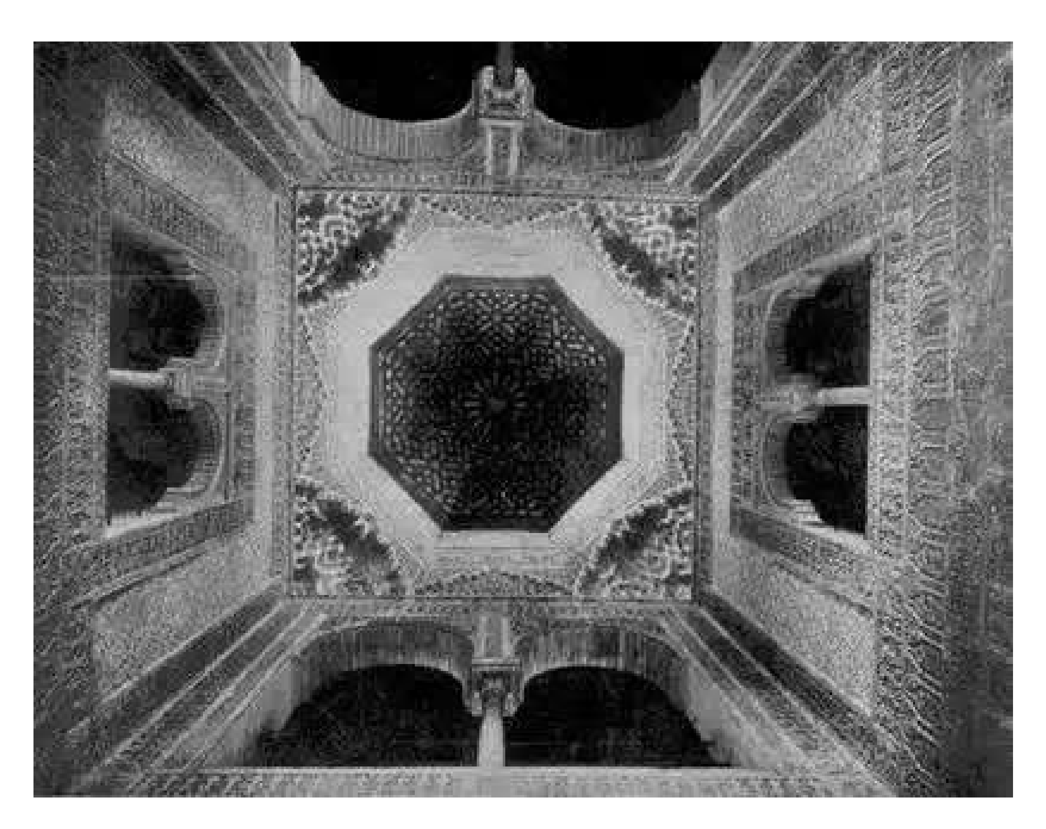
مقصورة الاستراحة. حمّام السّلطان الذي بناه يوسف الأول



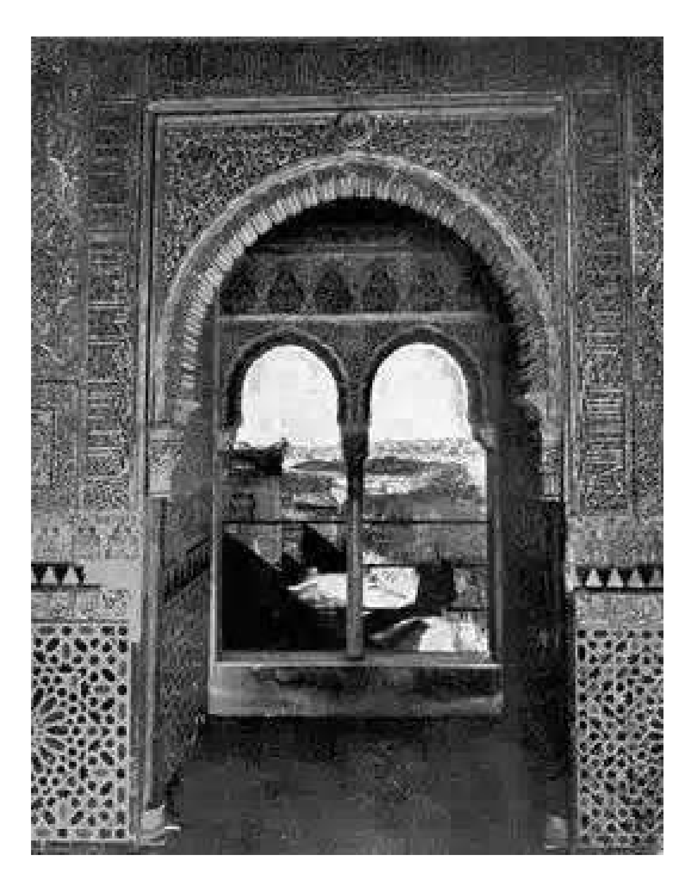
داخل برج الأميرات



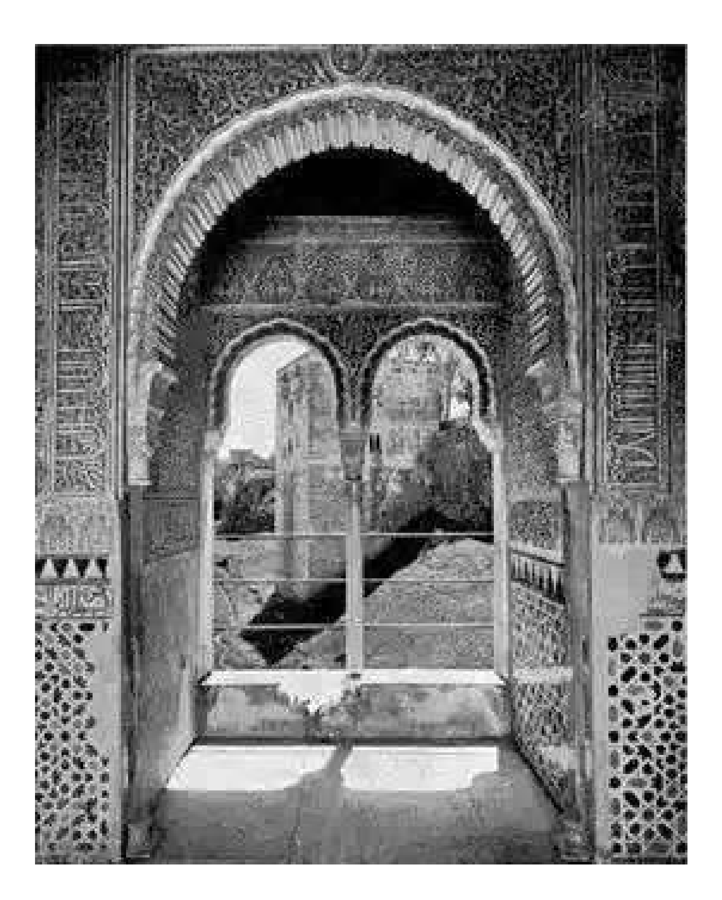
مقاطع لبرج الأميرات



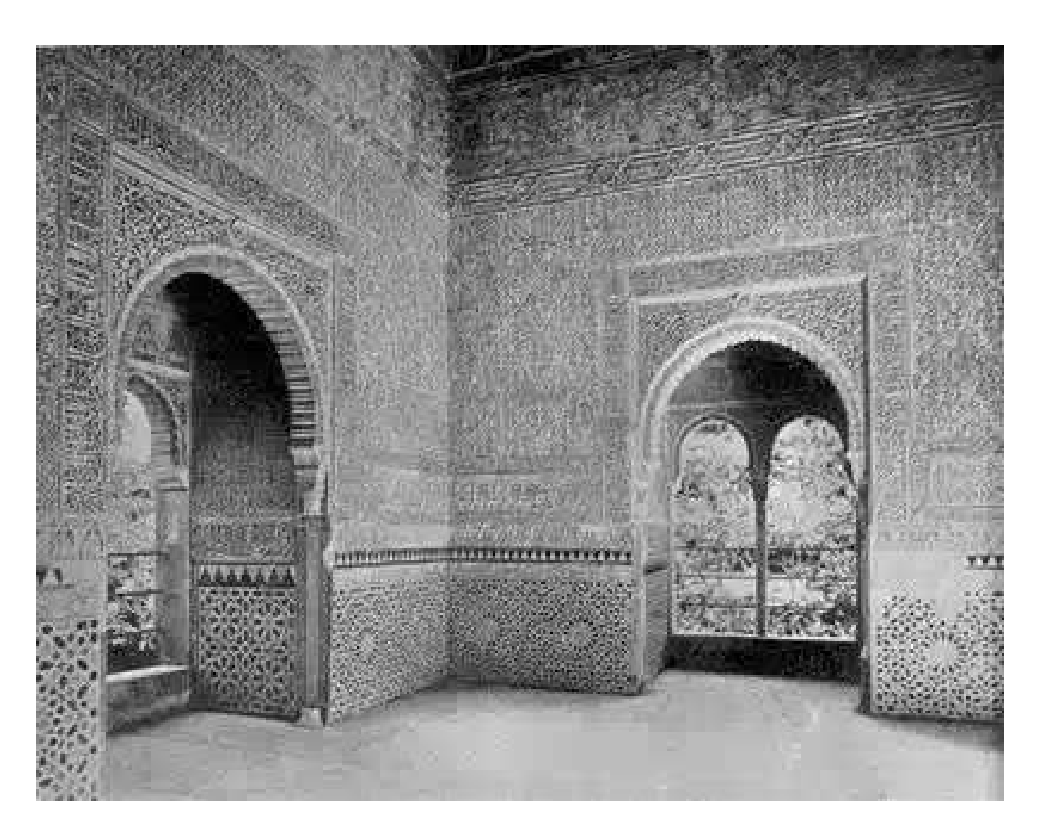
داخل برج الأميرات، القسم العلوي



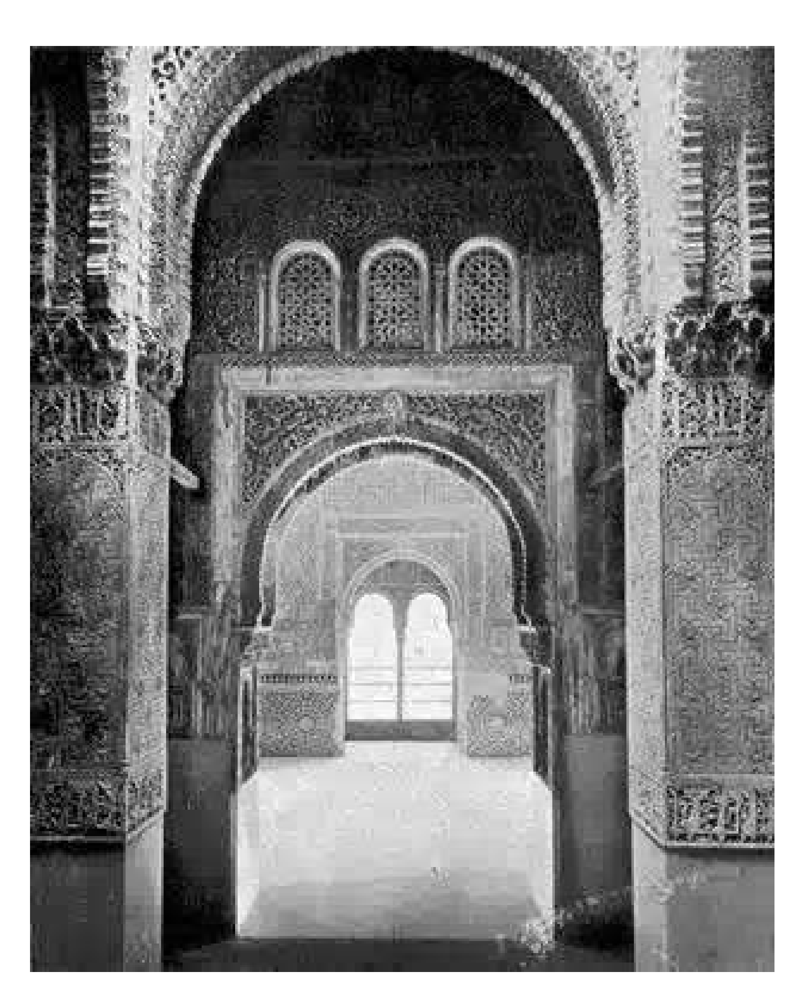
شرفة «الأسيرة» (إيسابيل دي سوليس)، المطلّة على الڤيغا، سهل غرناطة



مختلى «الأسيرة» (إيسابيل دي سوليس)



داخل برج «الأسيرة» (إيسابيل دي سوليس)



برج «الأسيرة» من المدخل

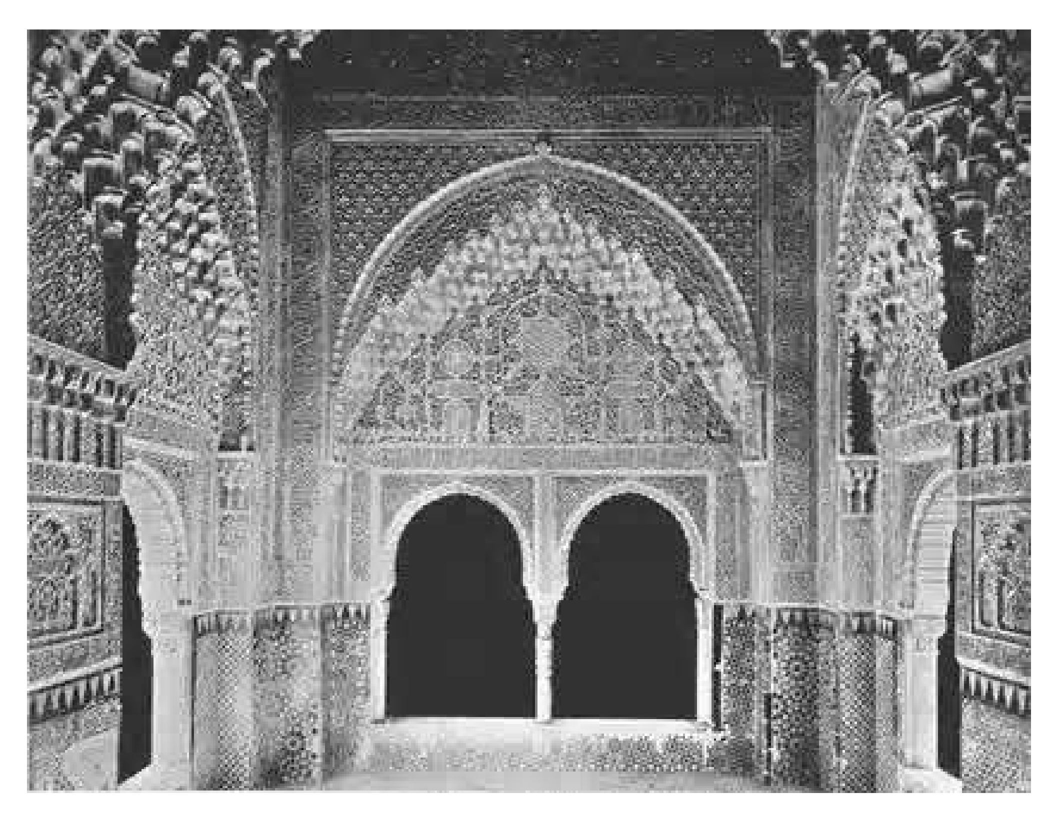




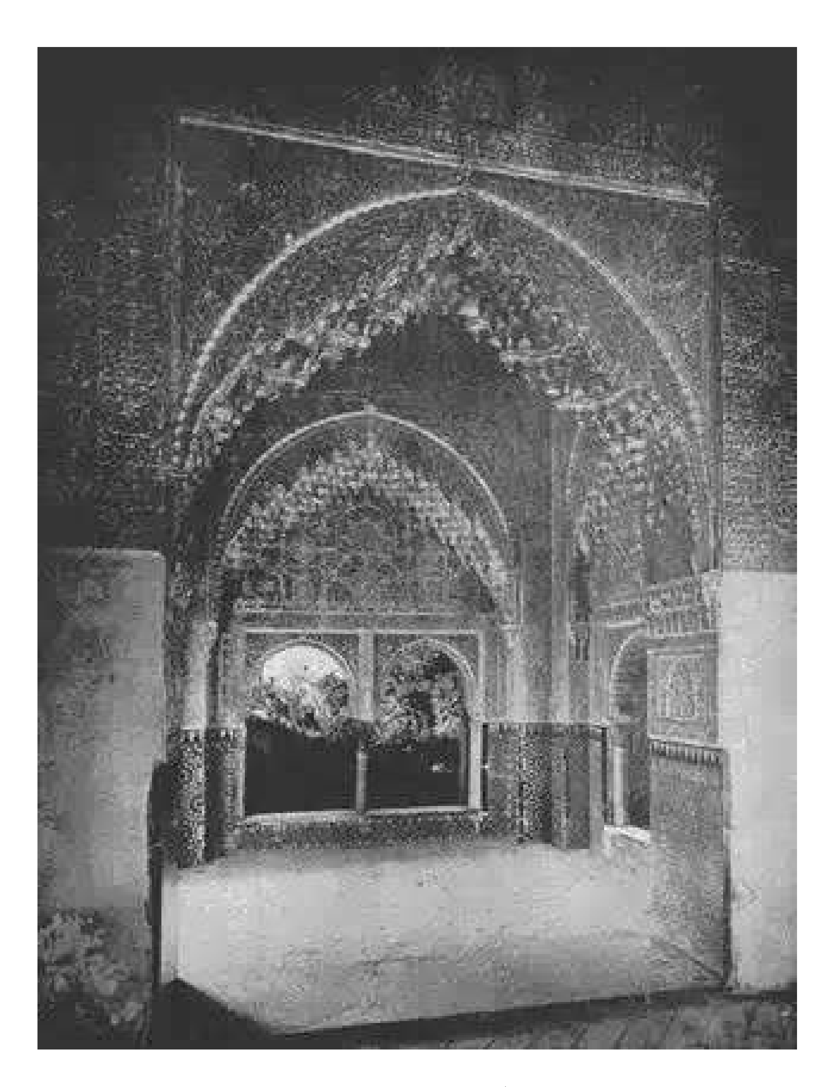
داخل المسجد. غرفة في برج «الأسيرة»




قاعة الشّريعة. الحمّامات، مقصورة الاستراحة



صورة 251: شرفة المحظّية، «لينداراخا» Lindaraja

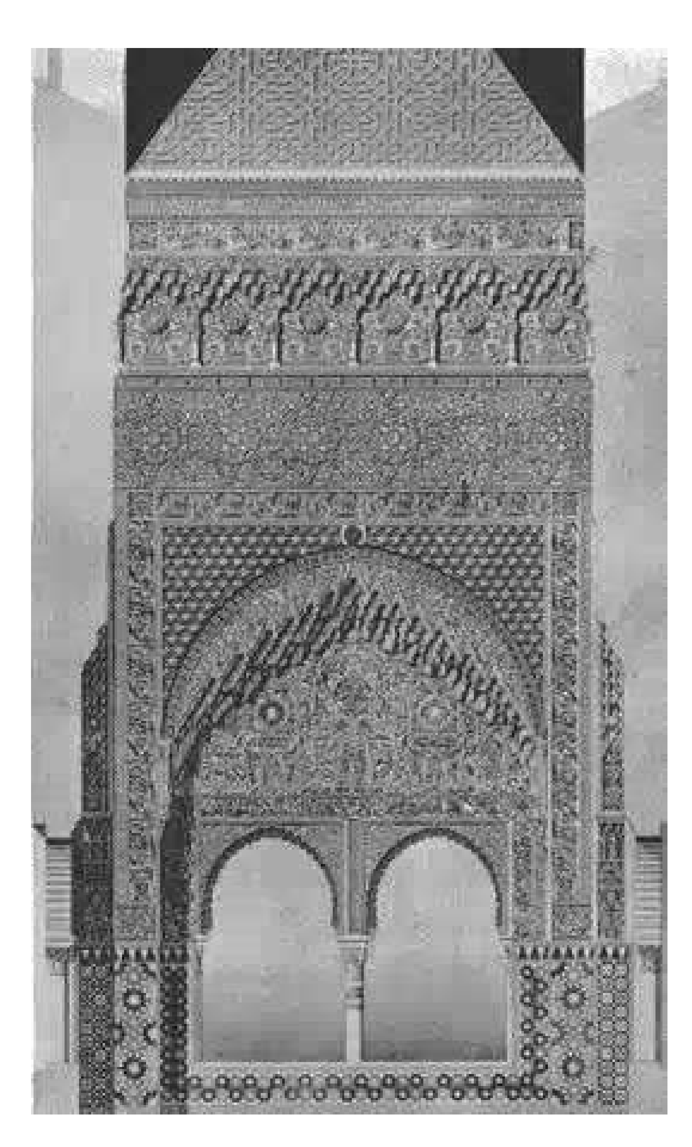


مختلى في شقق «لينداراخا»

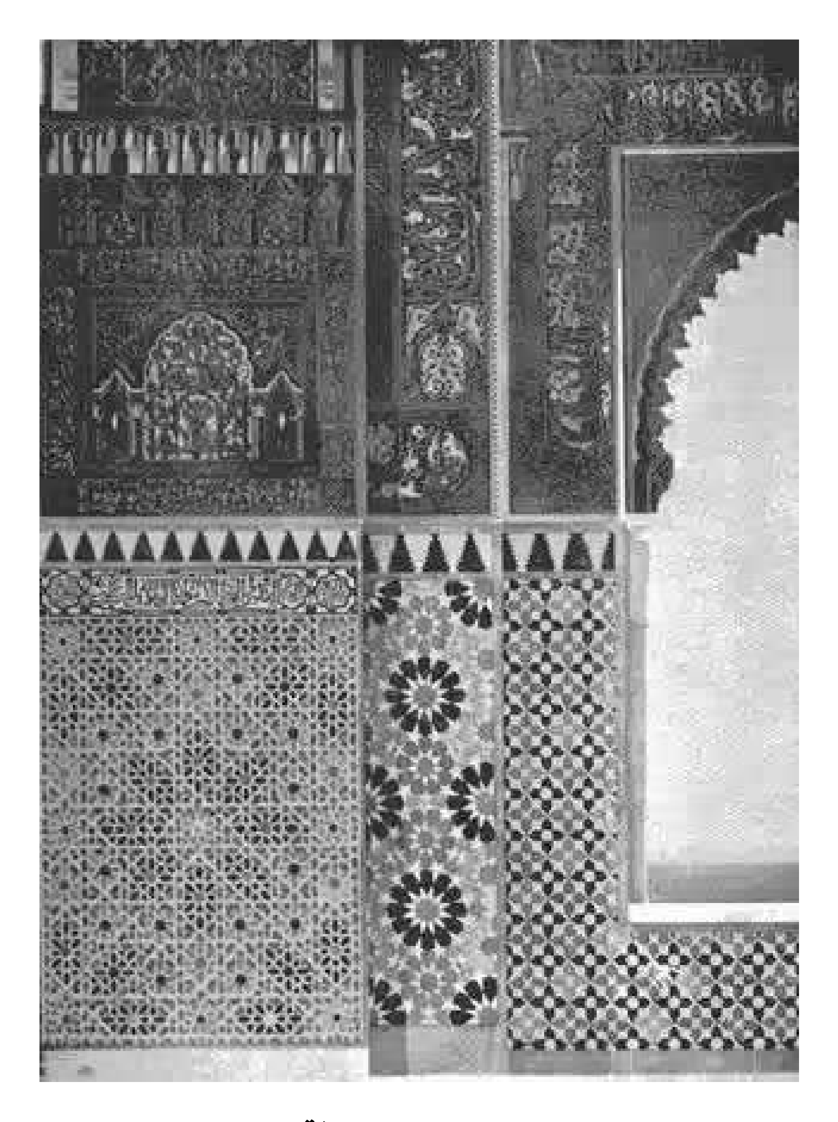


حديقة «لينداراخا»، والشّقق التي يقال بأنها كانت تشغله «اللينداراخا» Lindaraja،

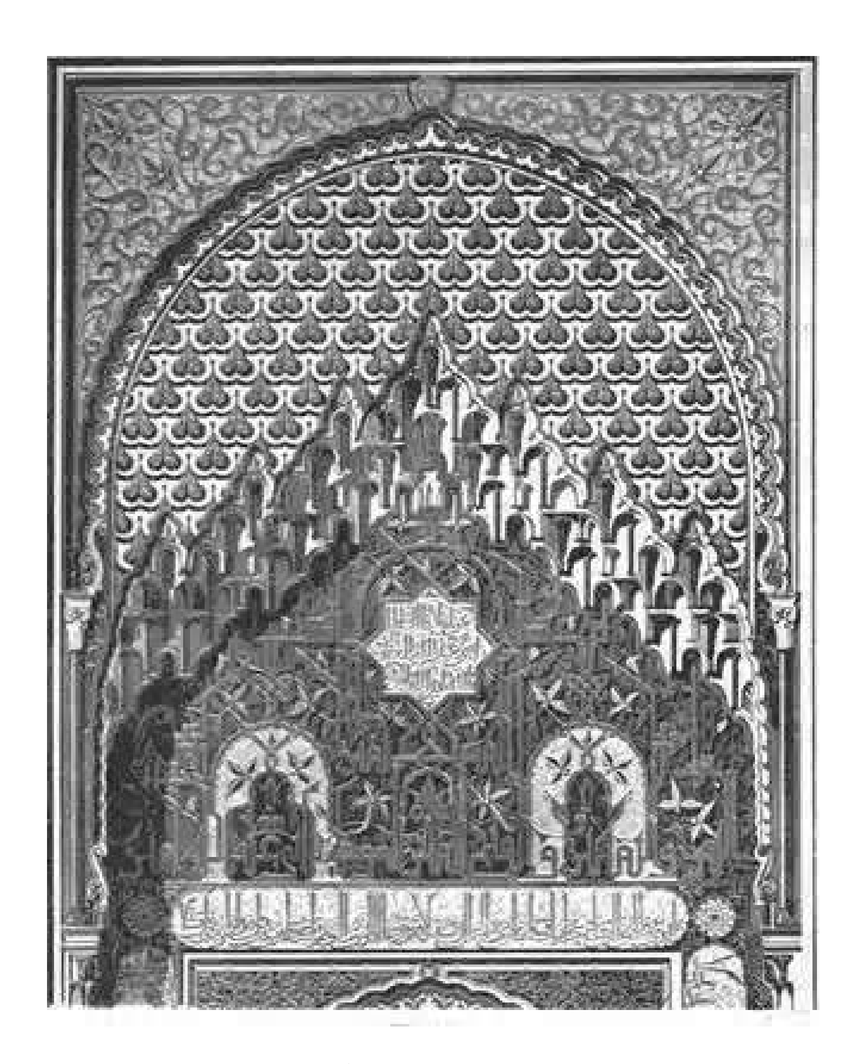
وهي سلطانة محظيّة



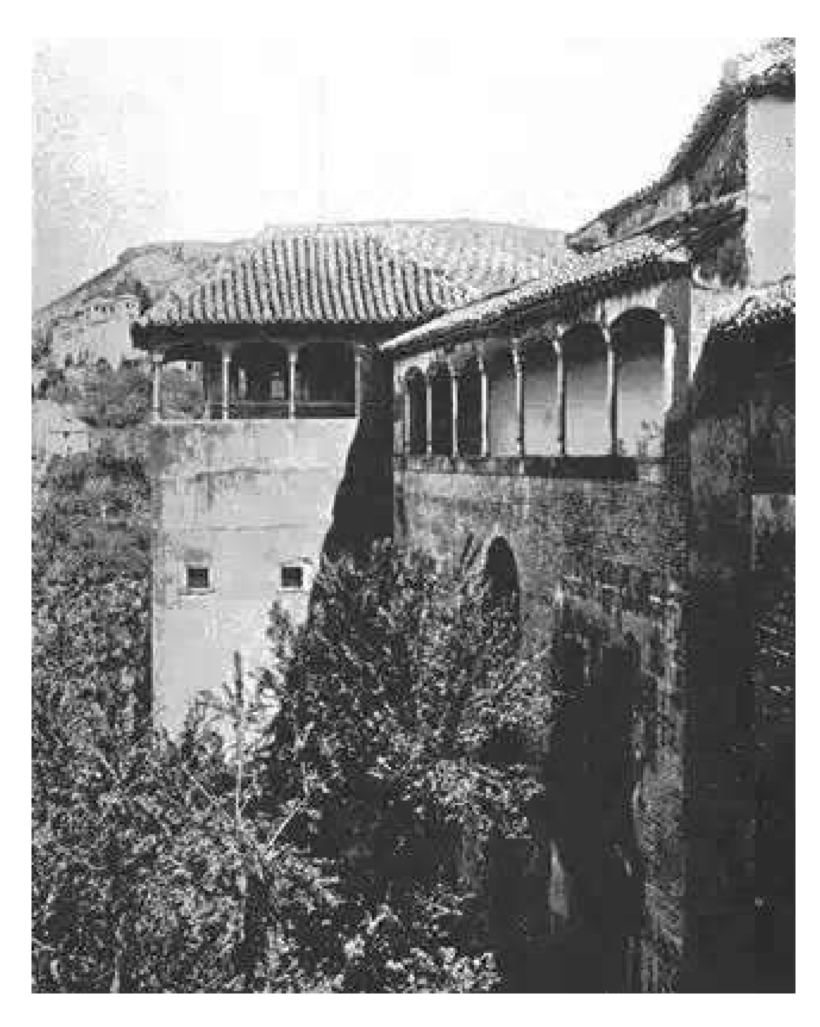
تفصيل، داخل شرفة «لينداراخا»



تفصيل، القسم السّفلي من شرفة «لينداراخا»



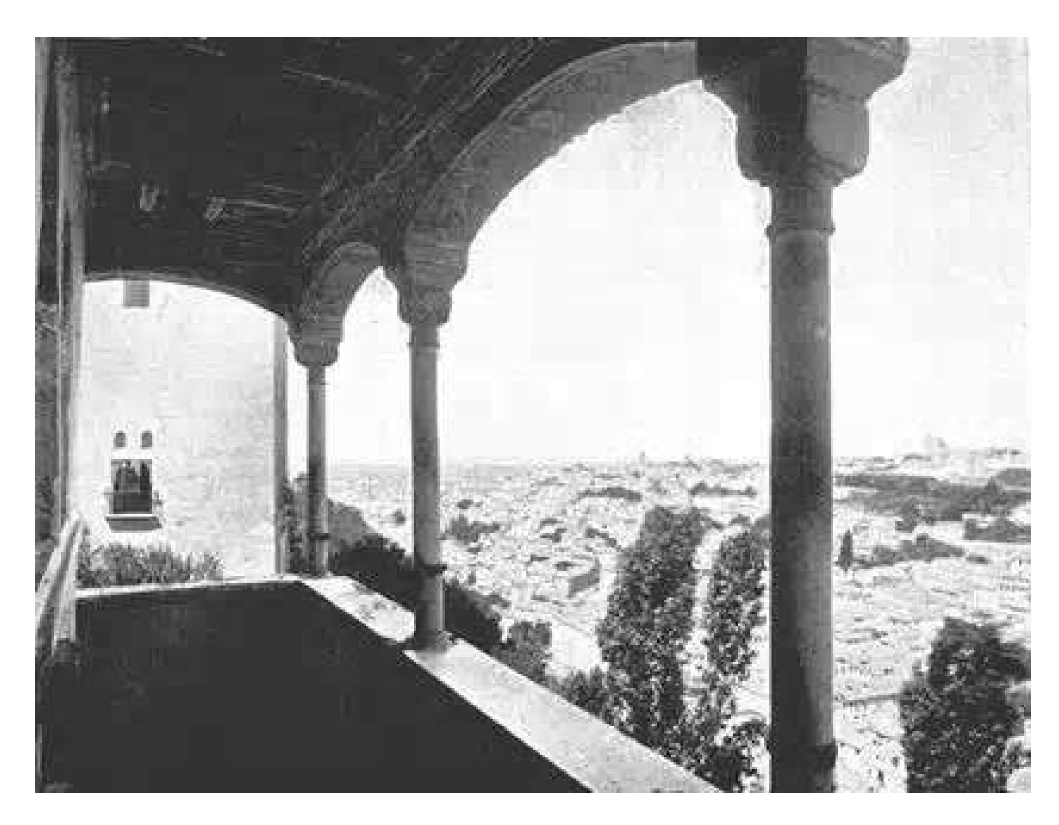
تفصيل للقسم المركزي لشرفة «لينداراخا»



مخدع الملكة ومنظر بعيد لجنّة العريف



مخدع الملكة ومنظر جنّة العريف



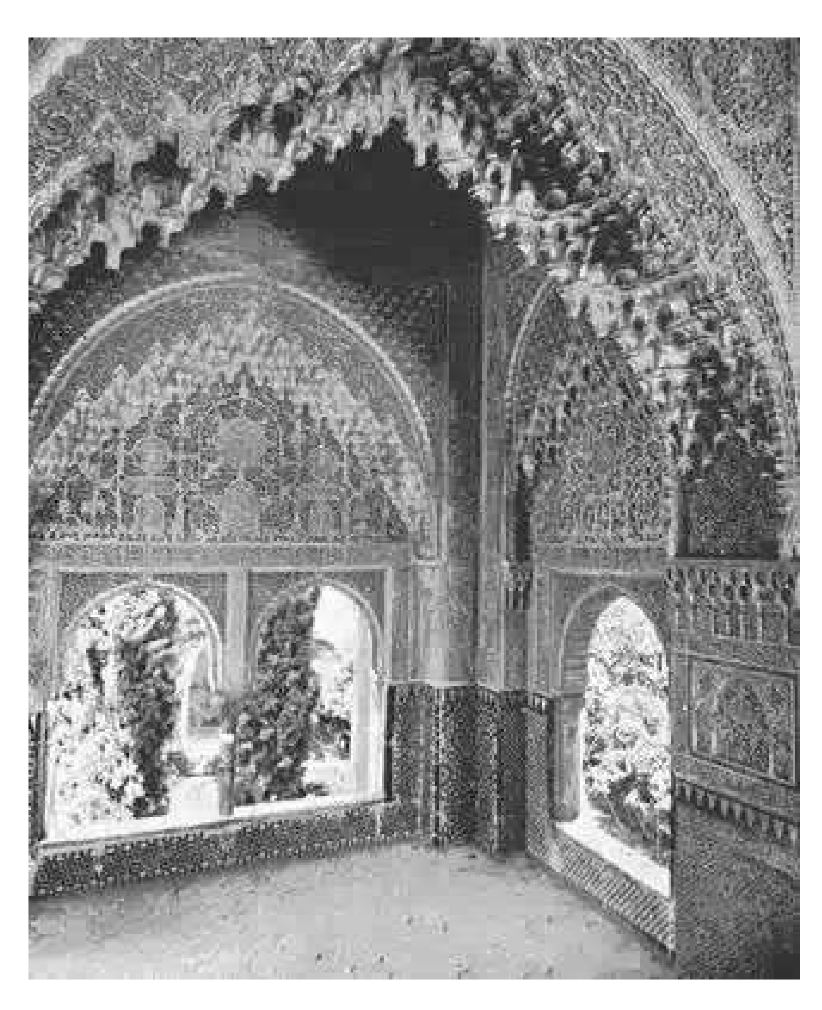
مخدع الملكة ومحلّة البيازين القديمة



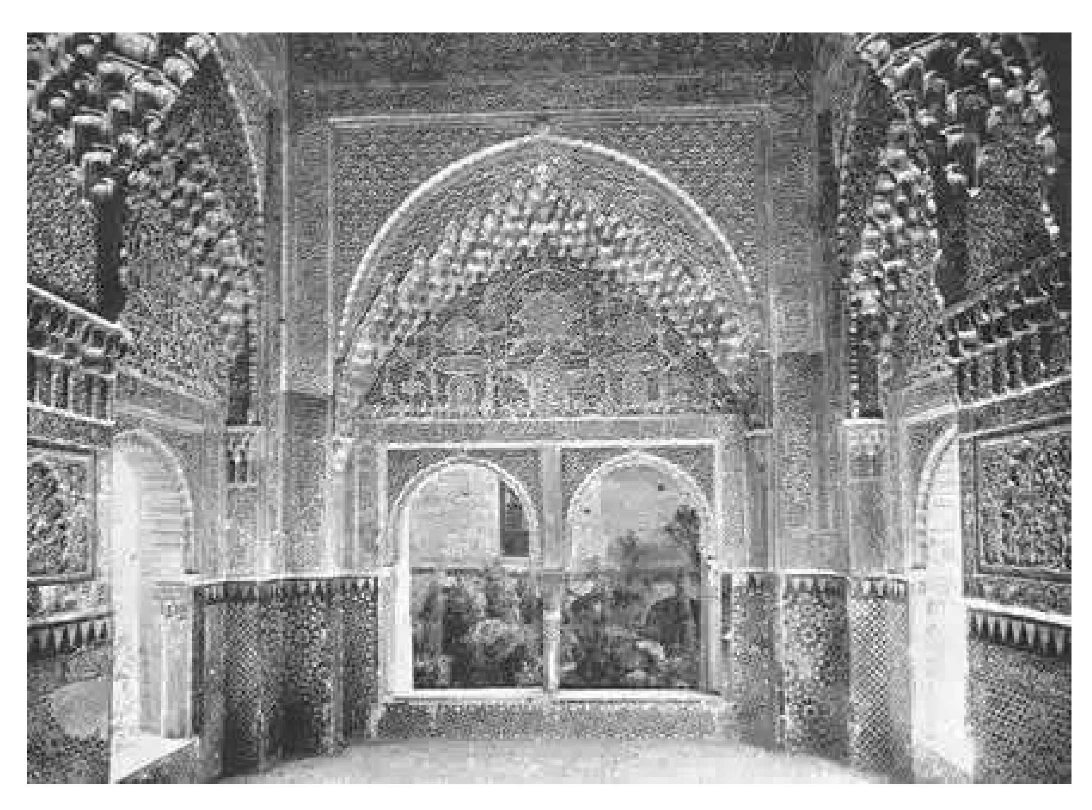
مخدع الملكة ومجرى نهر حَدره Darro



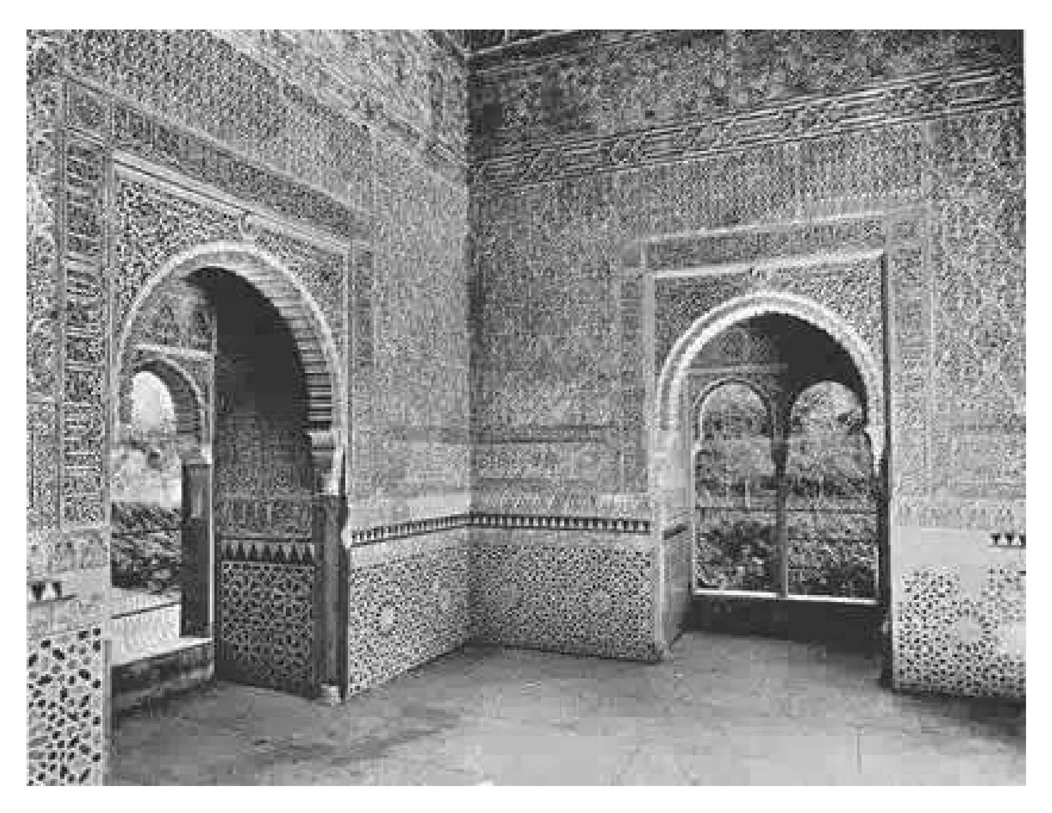
حديقة «لينداراخا» والشّقق التي أقام بها واشنطن إرڤينغ



زاوية شرفة «لينداراخا»



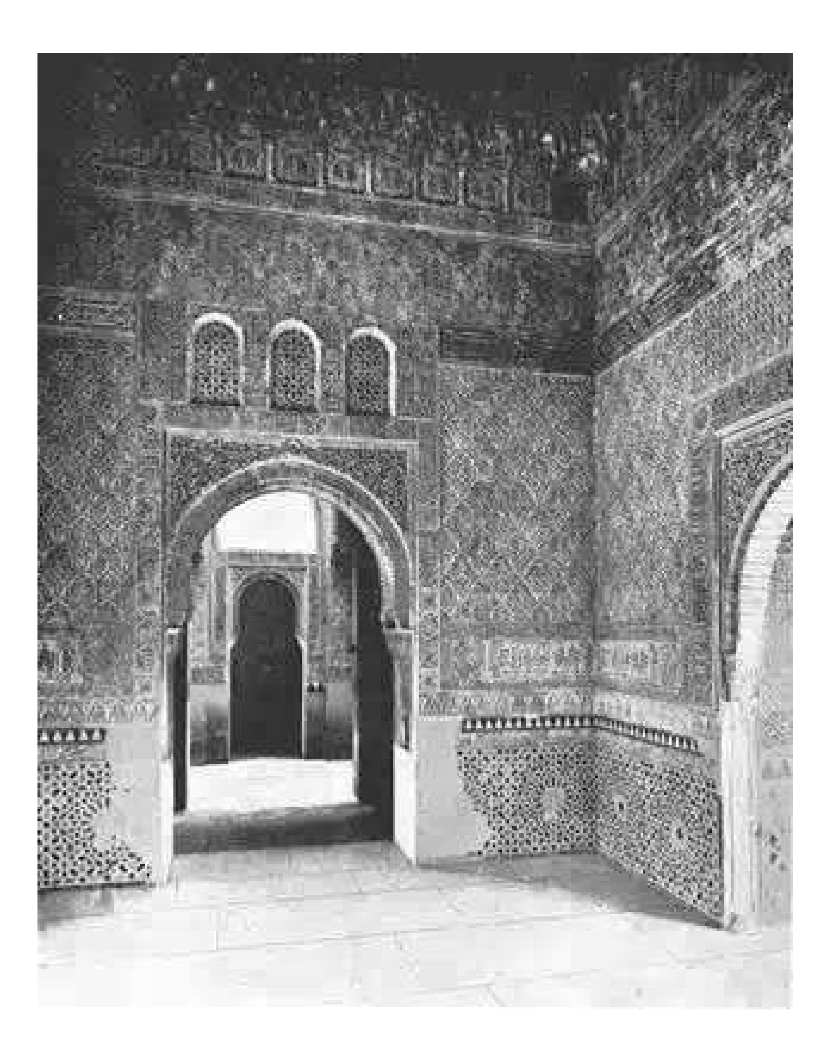
صورة 263: شرفة المحظّية «ليندارخا» Lindaraja



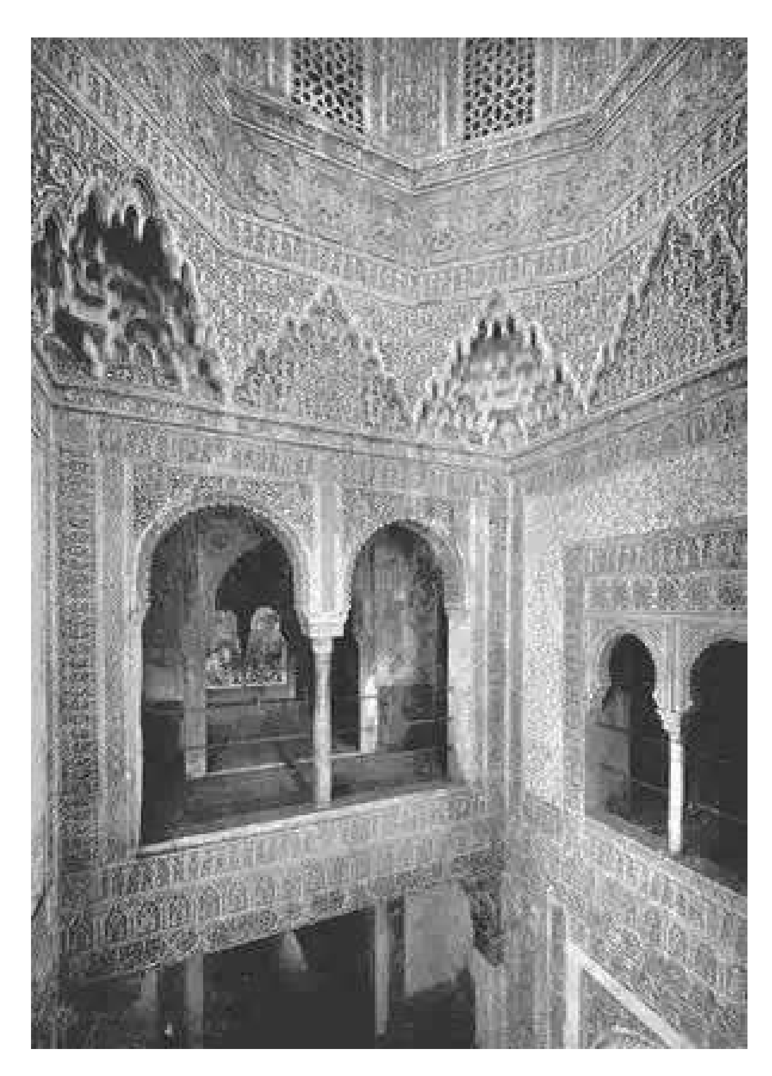
داخل برج الأسيرة، إيسابيل دي سوليس



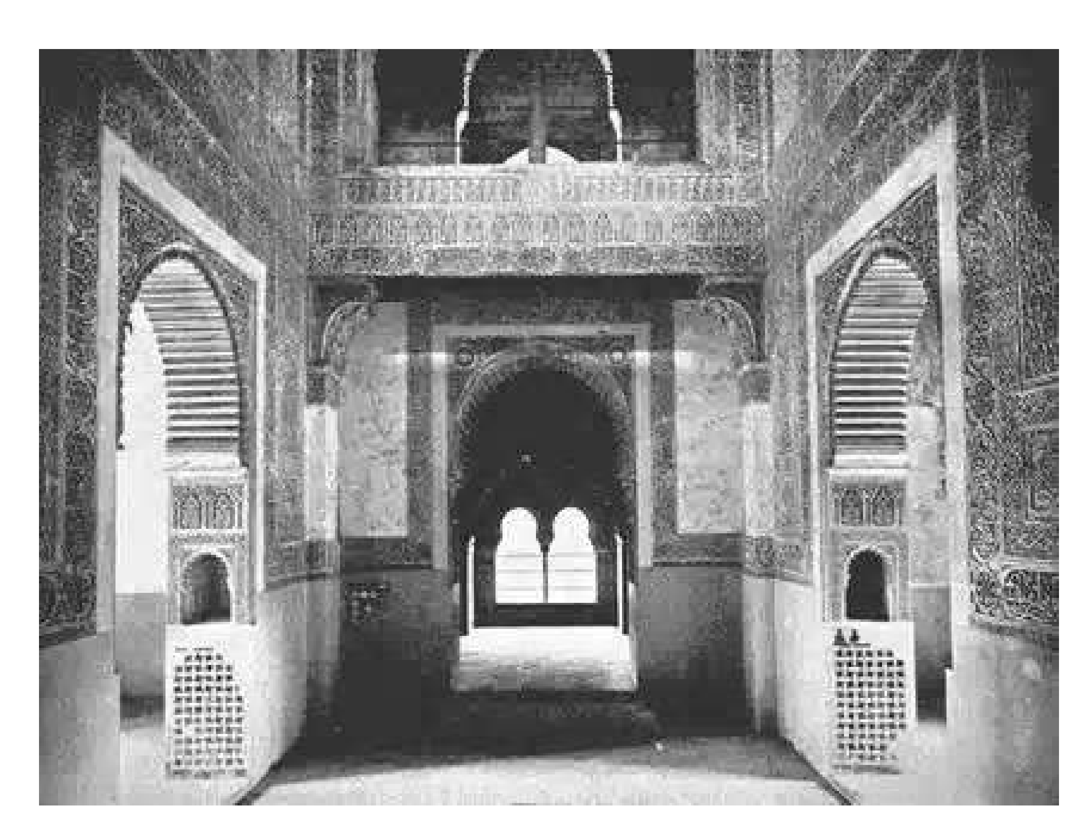
خارج برج الأسيرة



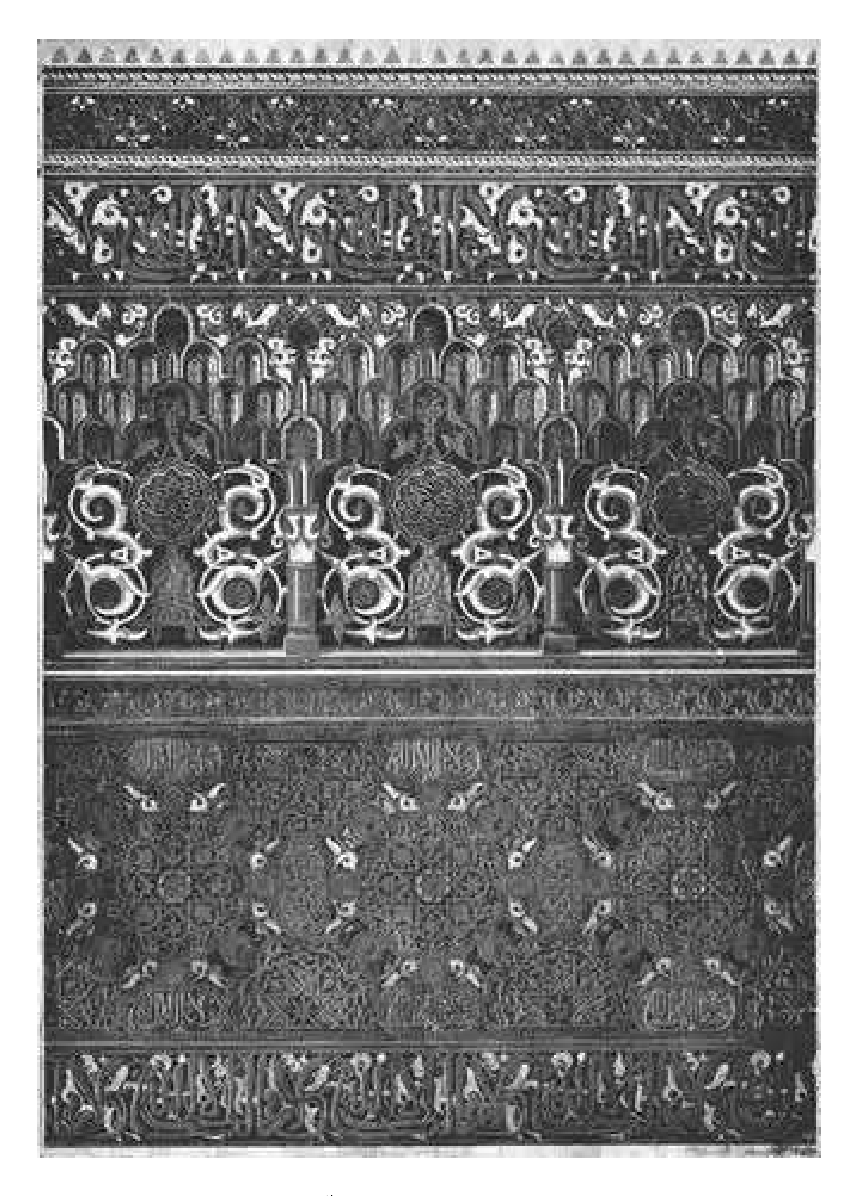
برج الأسيرة، إيسابيل دي سوليس



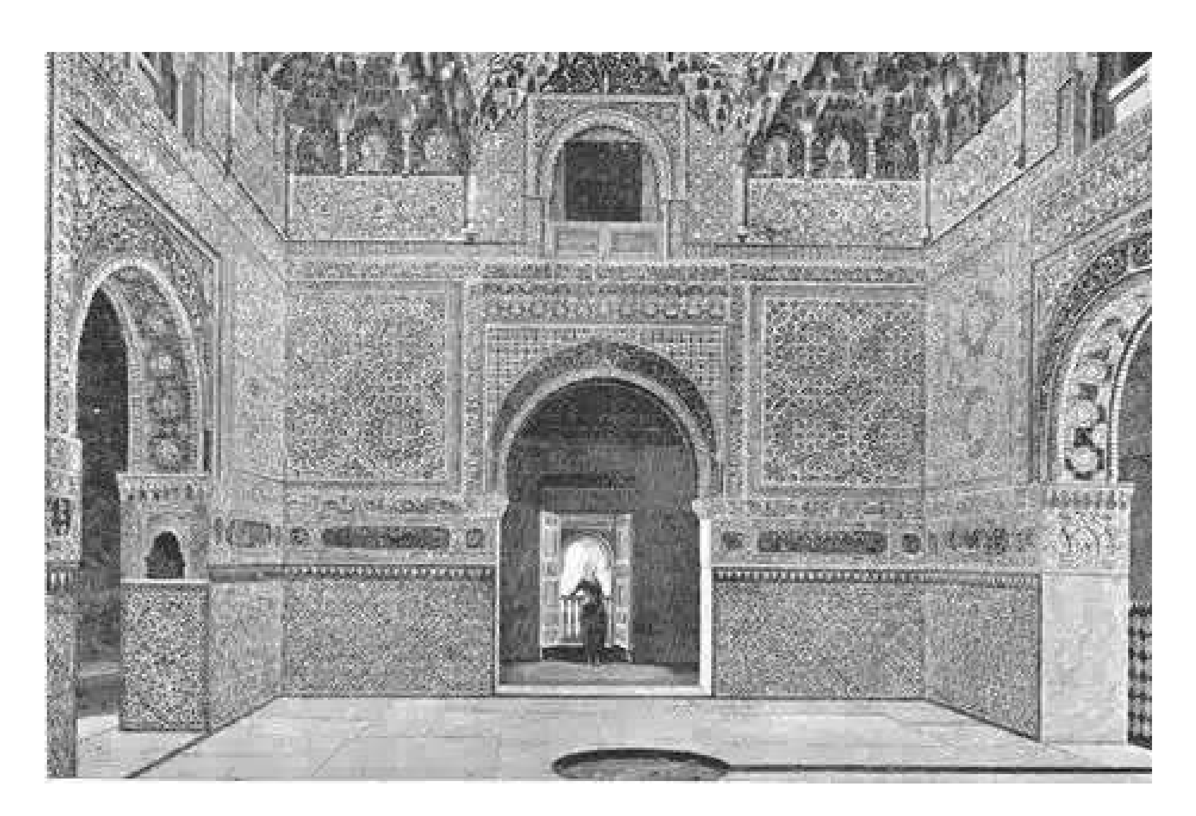
داخل برج الأميرات، القسم العلوي



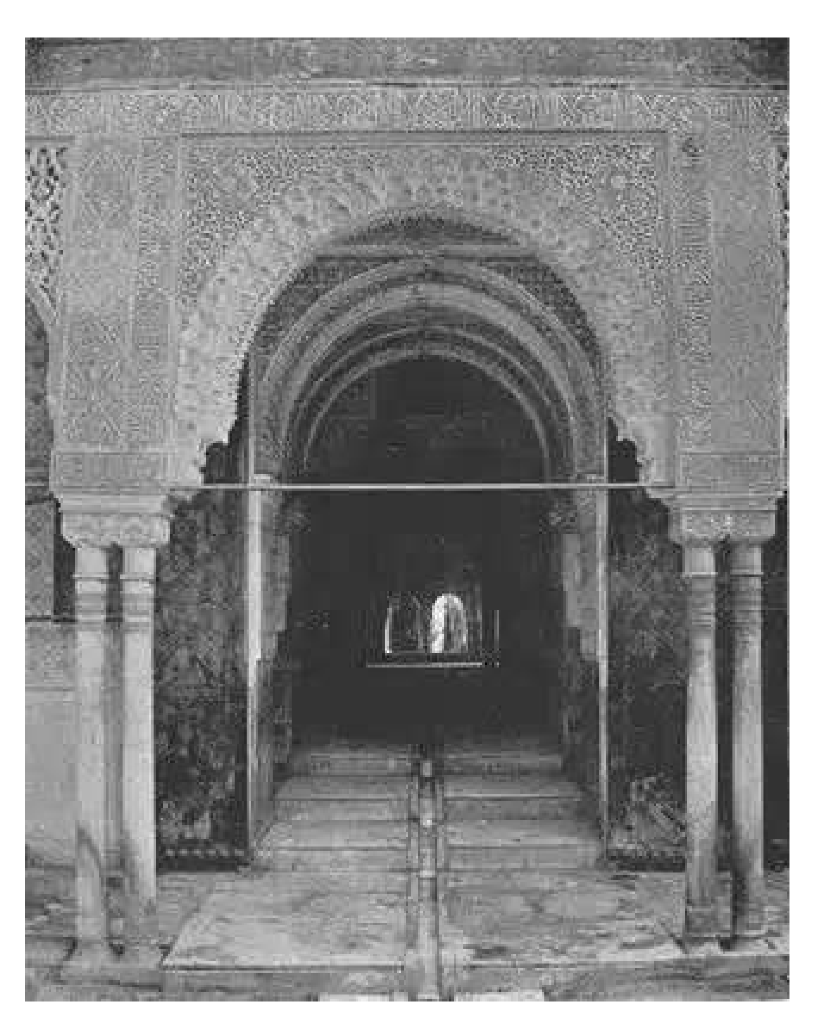
داخل برج الأميرات



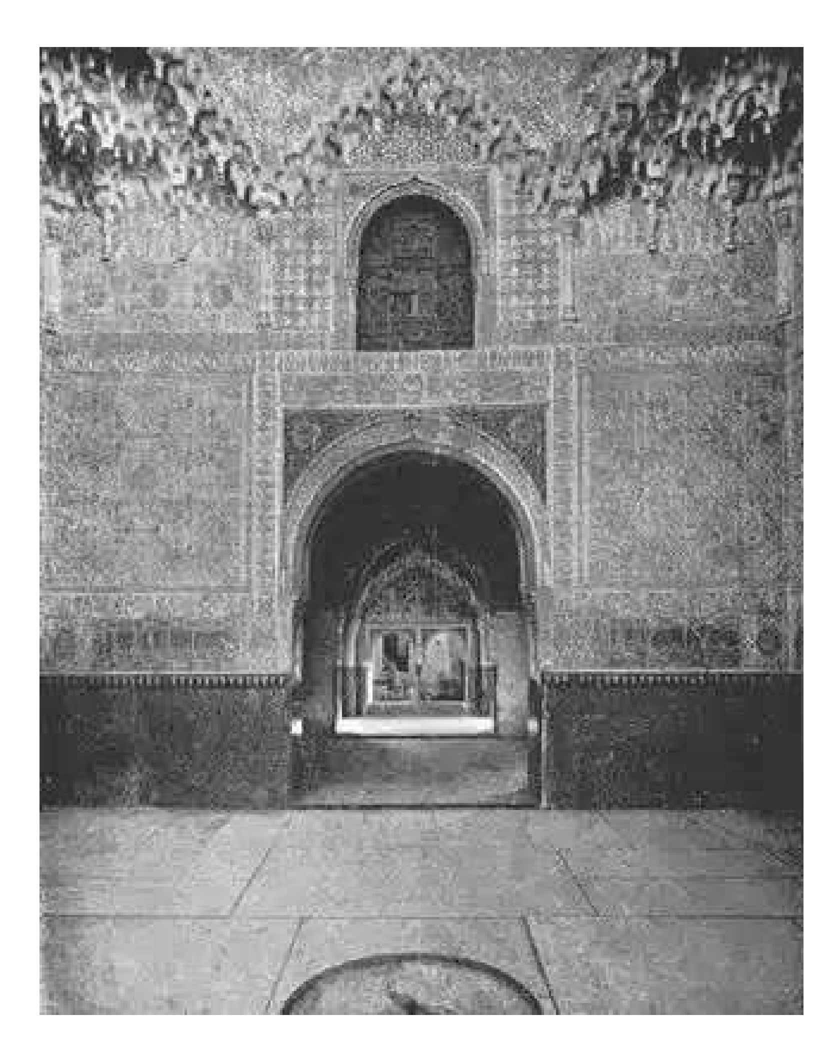
تفصيل للقسم العلوي من شرفة «لينداراخا»



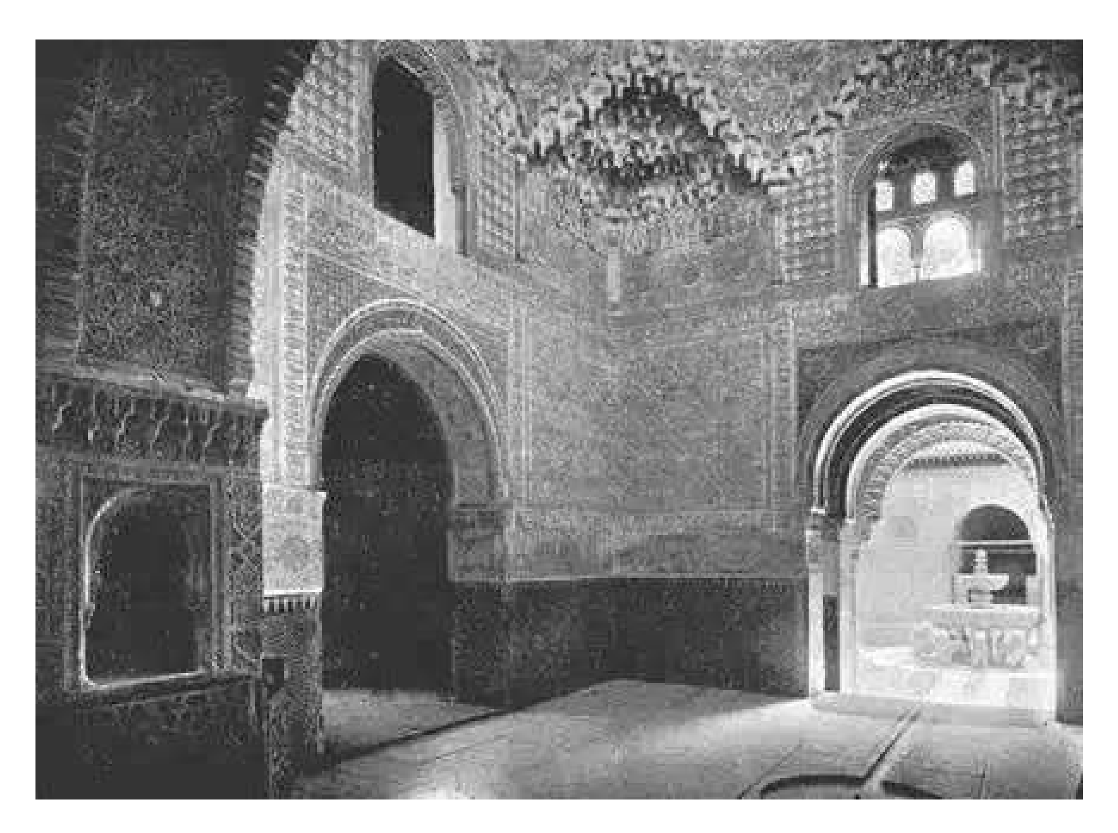
قاعة الأختين



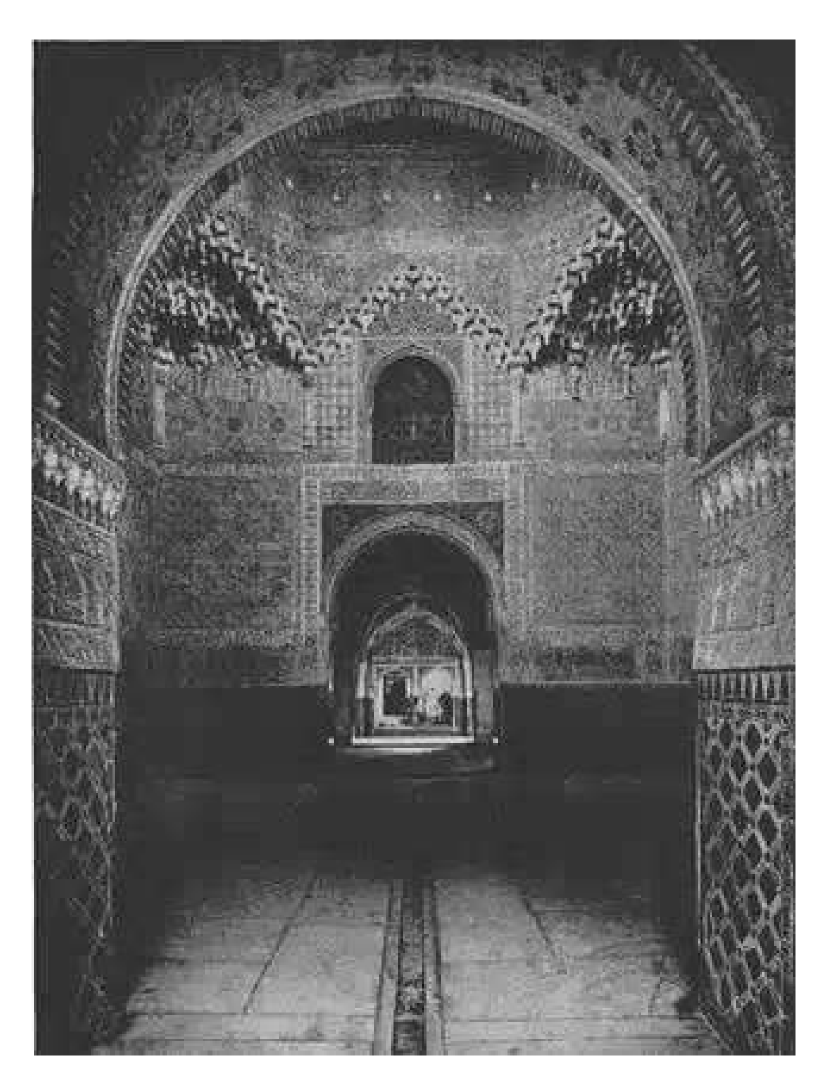
مدخل قاعة الأختين



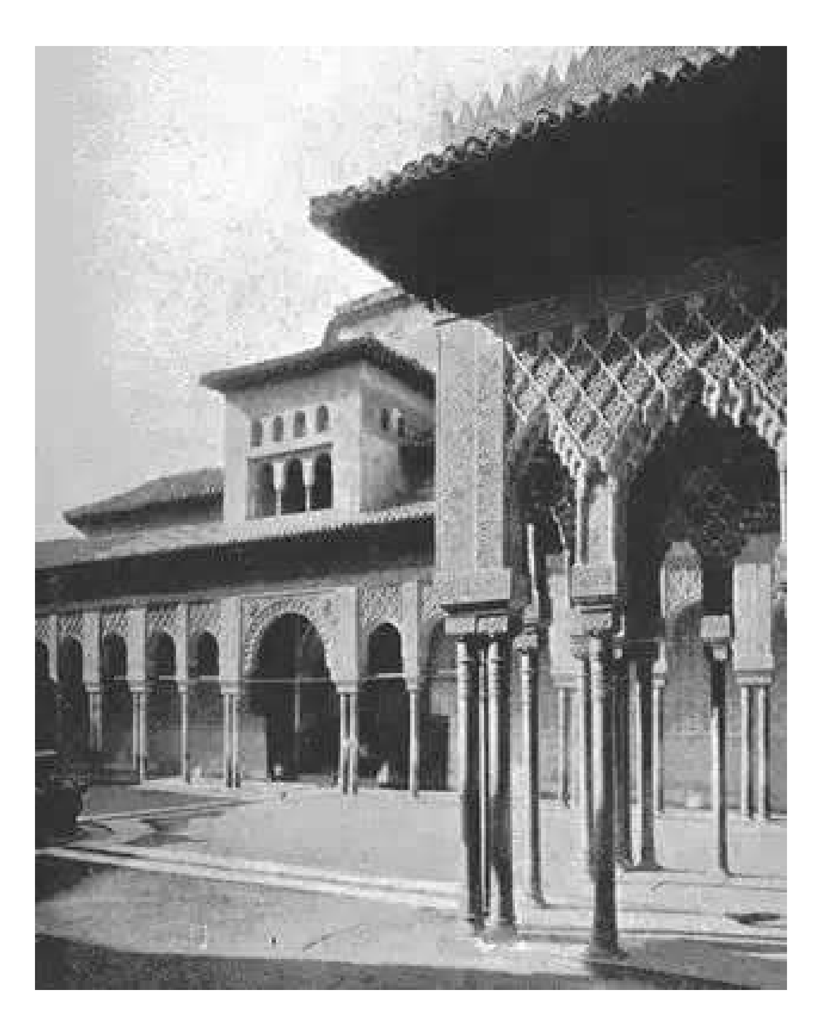
داخل قاعة الأختين



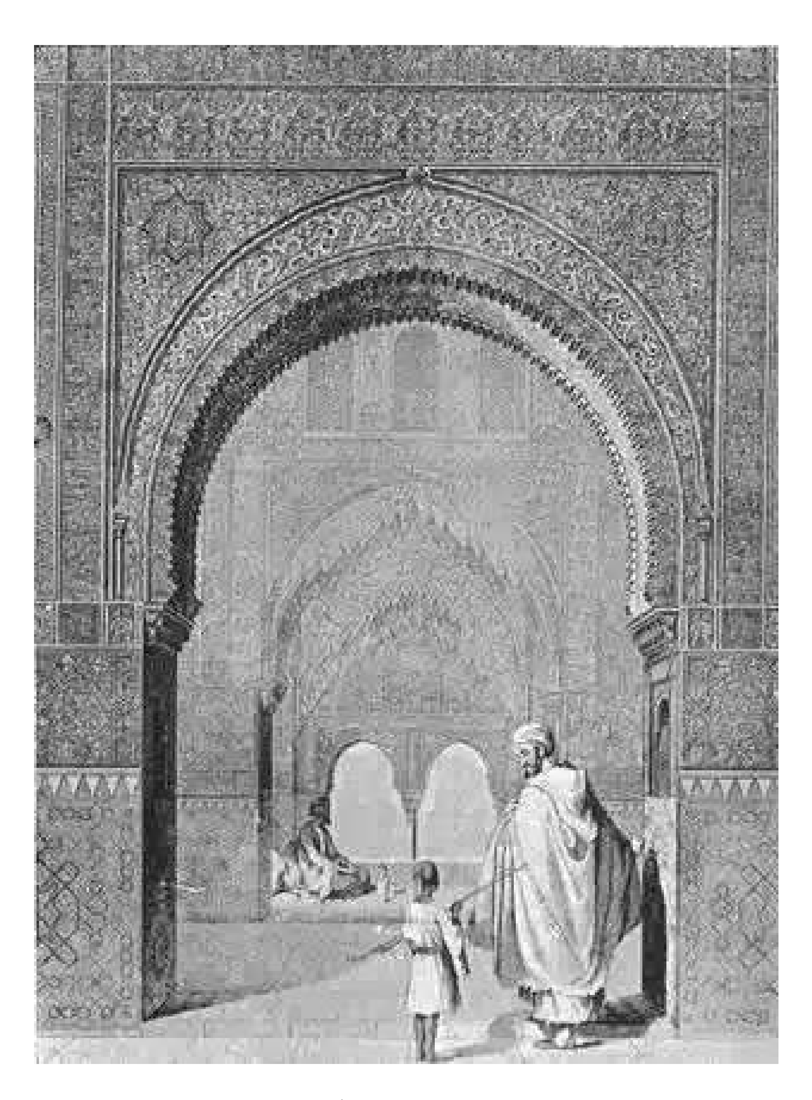
قاعة الأختين



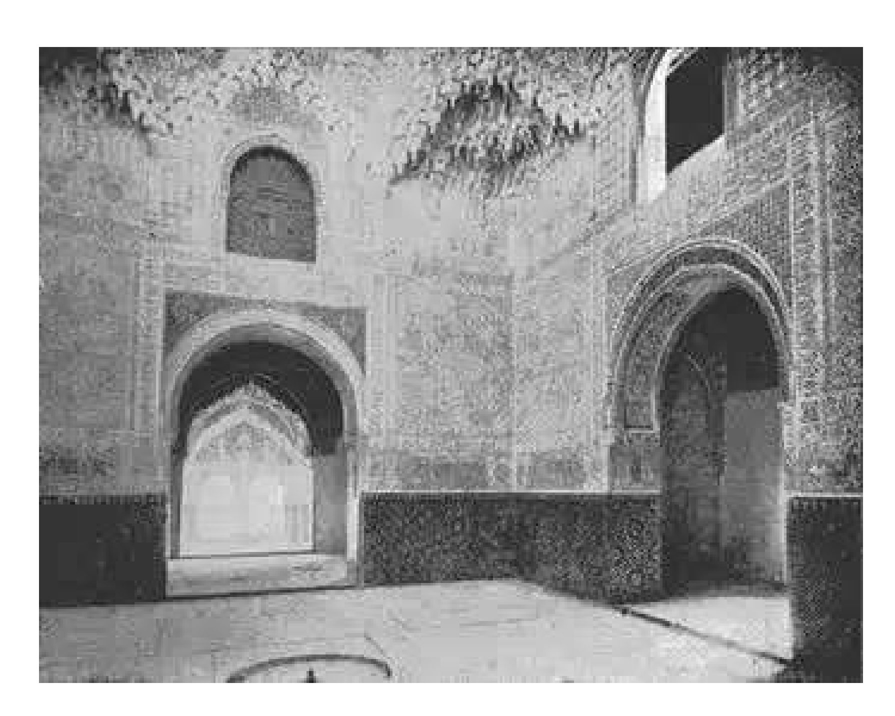
قاعة الأختين



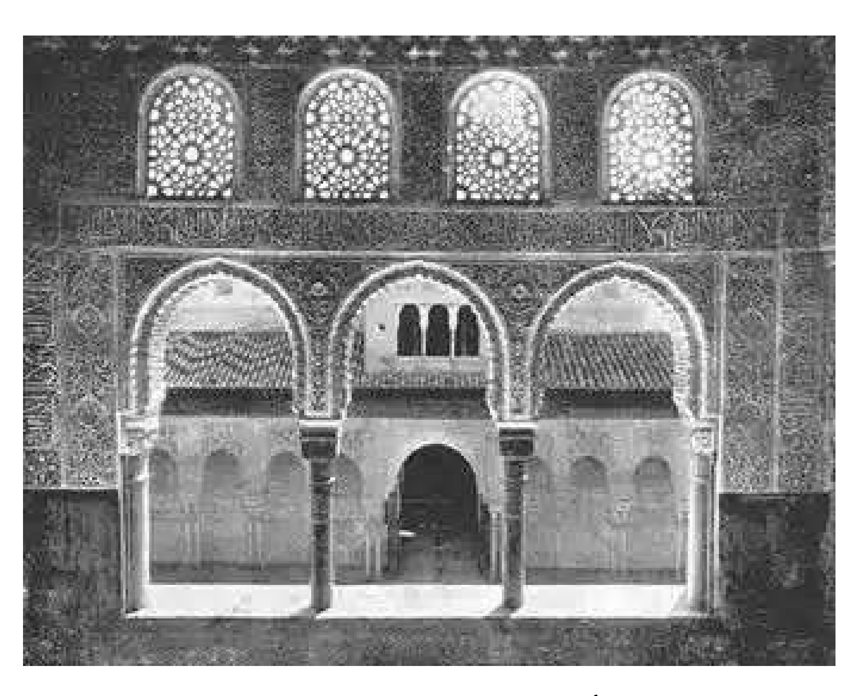
هيكل وواجهة قاعة الأختين



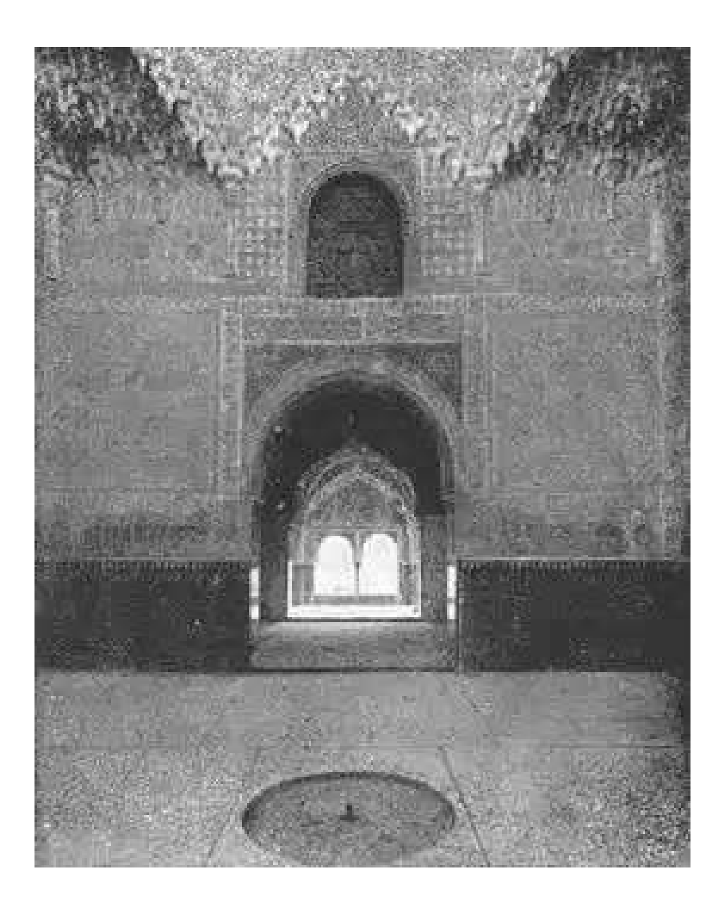
منظر في قاعة الأختين



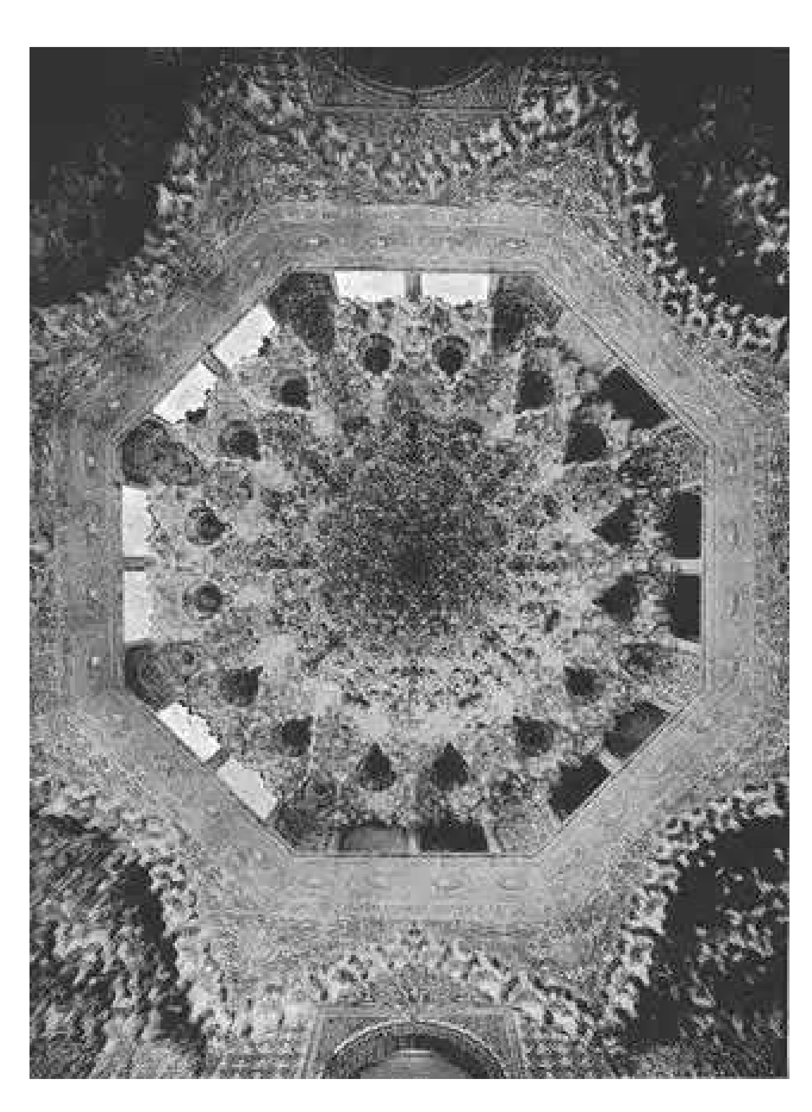
قاعة الأختين من باب المدخل، شيّدها يوسف الأول



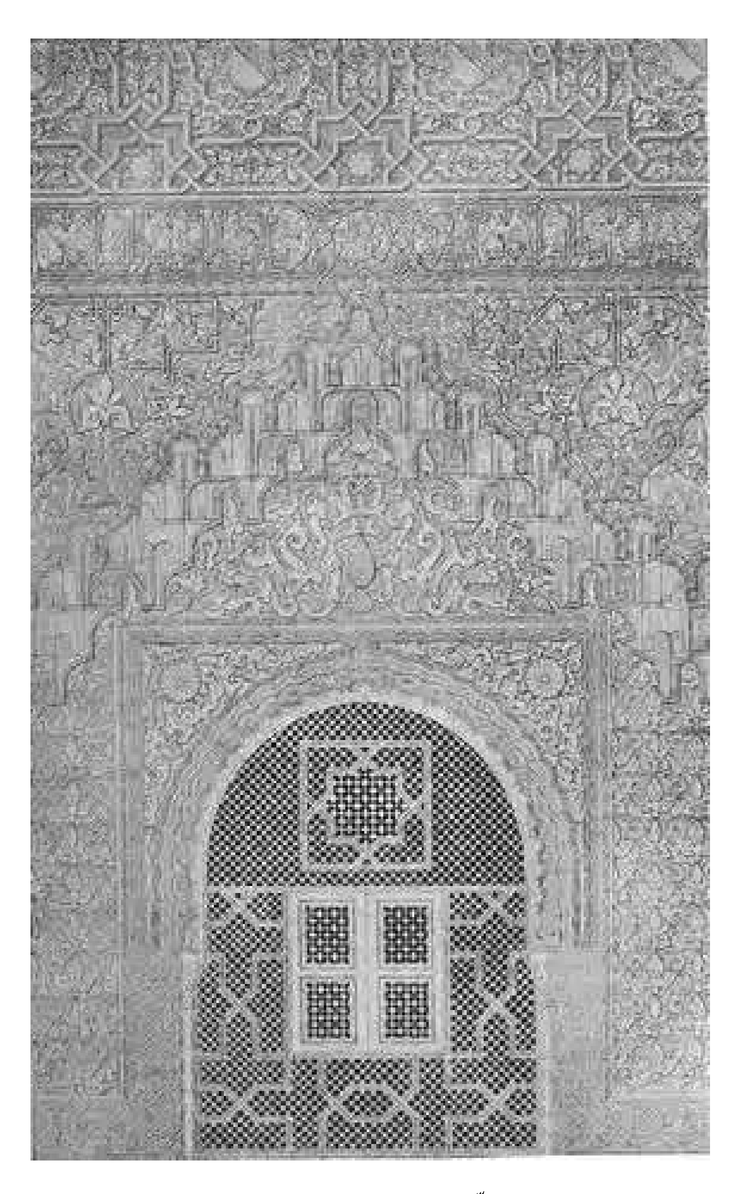
الشُّرفة العلوية لقاعة الأختين



قاعة الأختين من باب المدخل



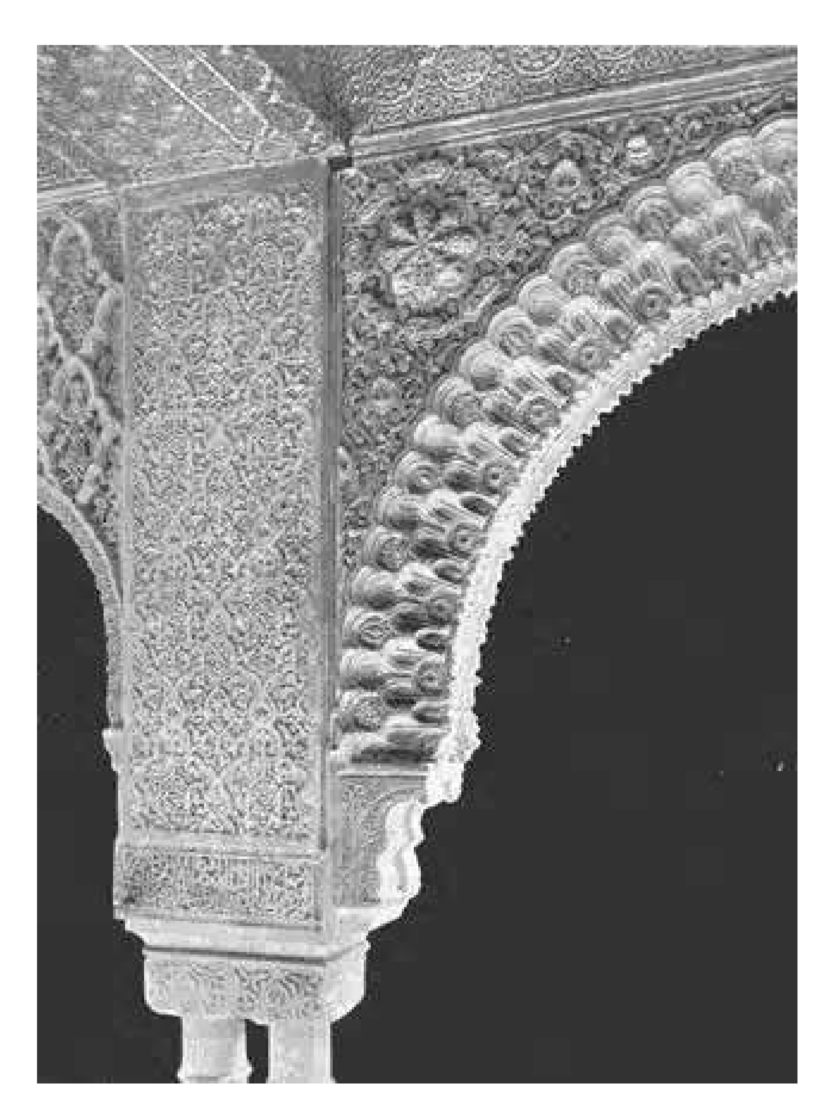
سقف قاعة الأختين



تفصيل الطّابق العوي، قاعة الأختين



تفصيل النّوافذ الجانبيّة لقاعة الأختين



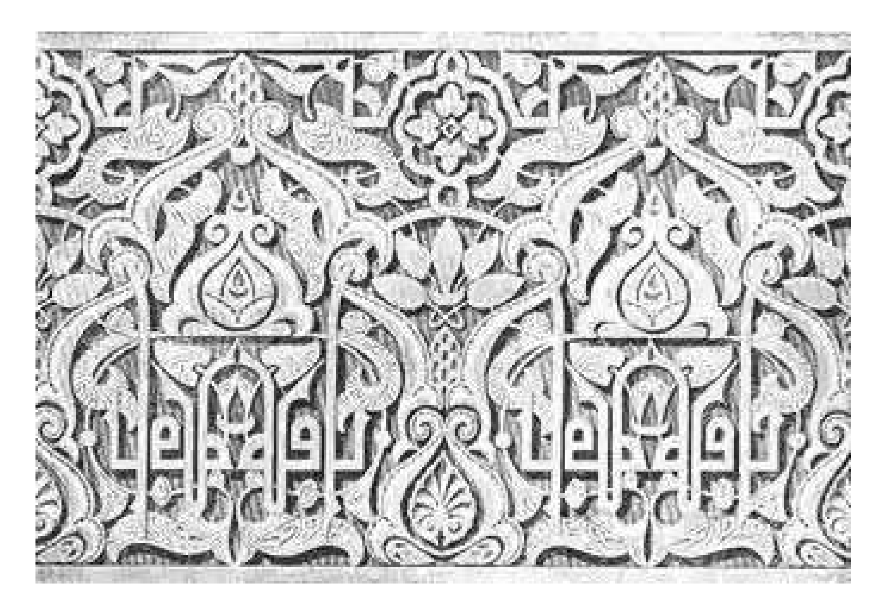
تفصيل في قاعة الأختين



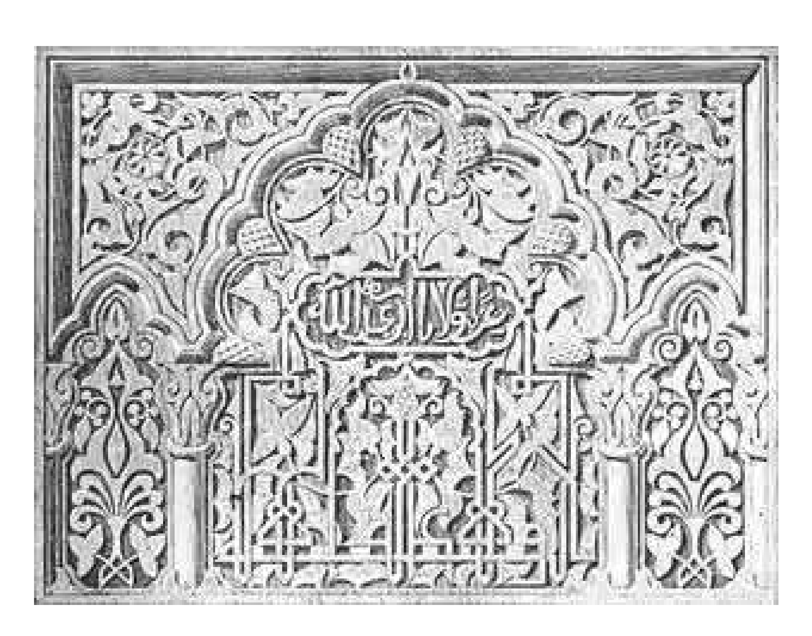
لوح، وزخرفة، وكتابات في قاعة الأختين



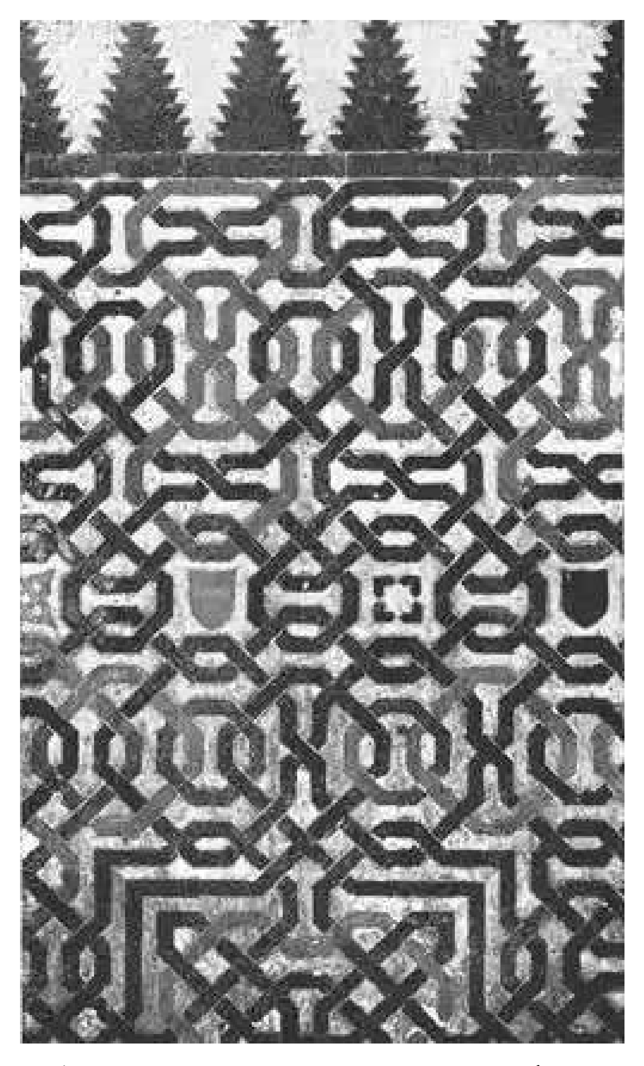
نقش كتابي في قاعة الأختين



طنف في قاعة الأختين



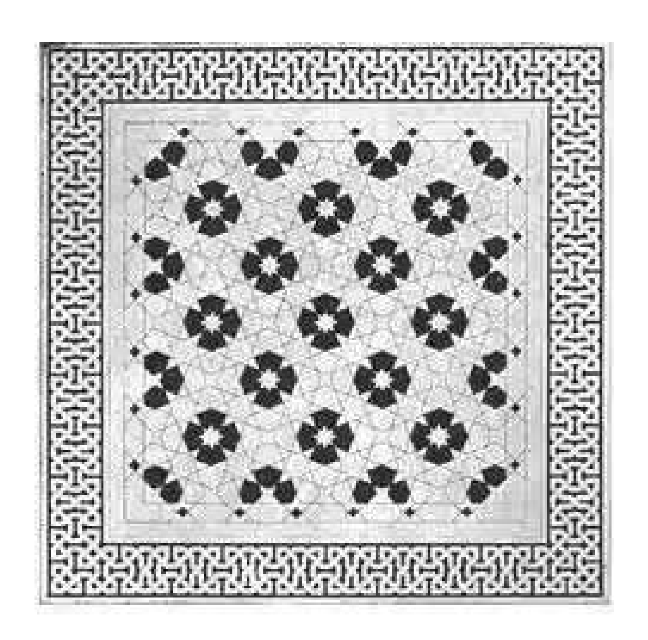
لوح على عضائد المدخل، قاعة الأختين

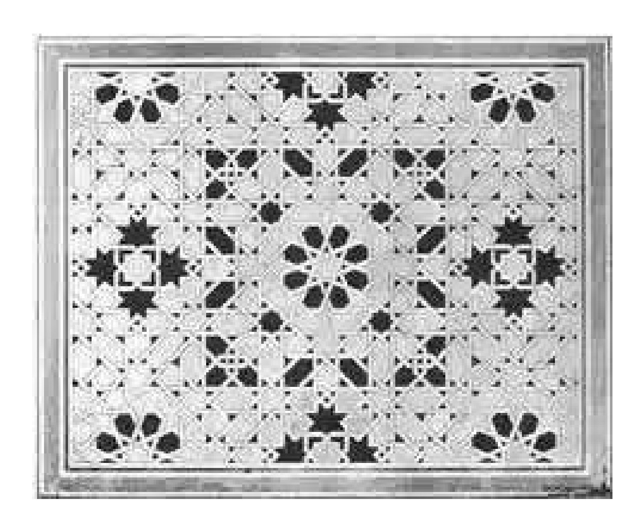


تفاصيل للألواح المزجّجة في دادو Dado قاعة الأختين

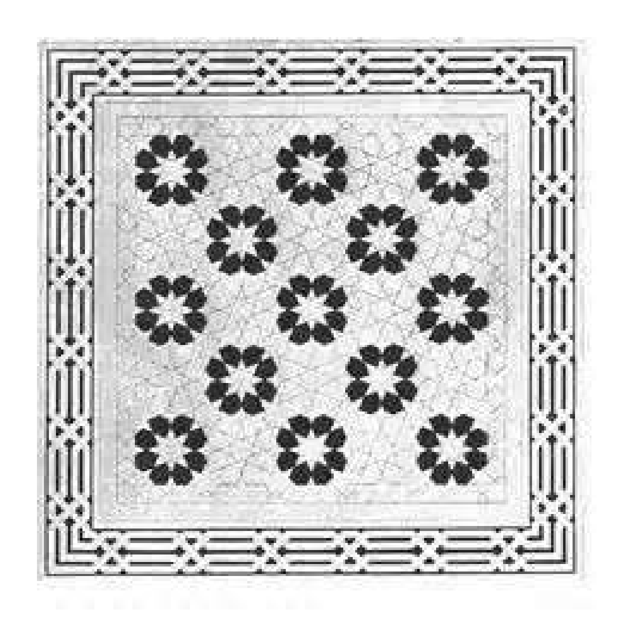


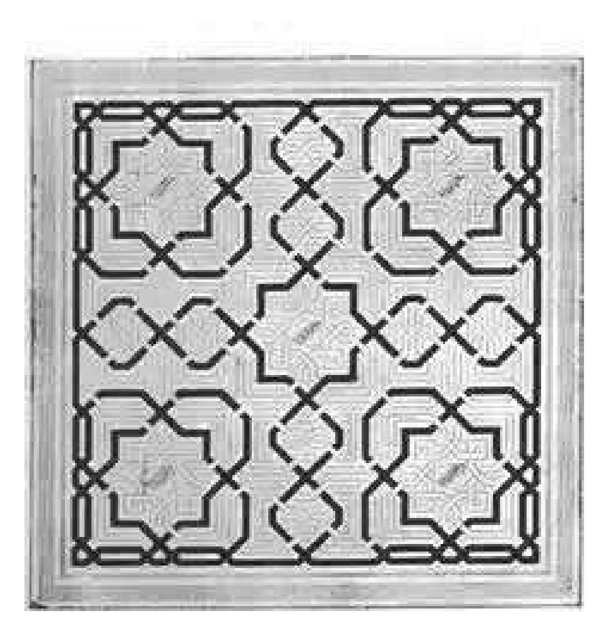
ألواح زخرفة شريطيّة، قاعة الأختين



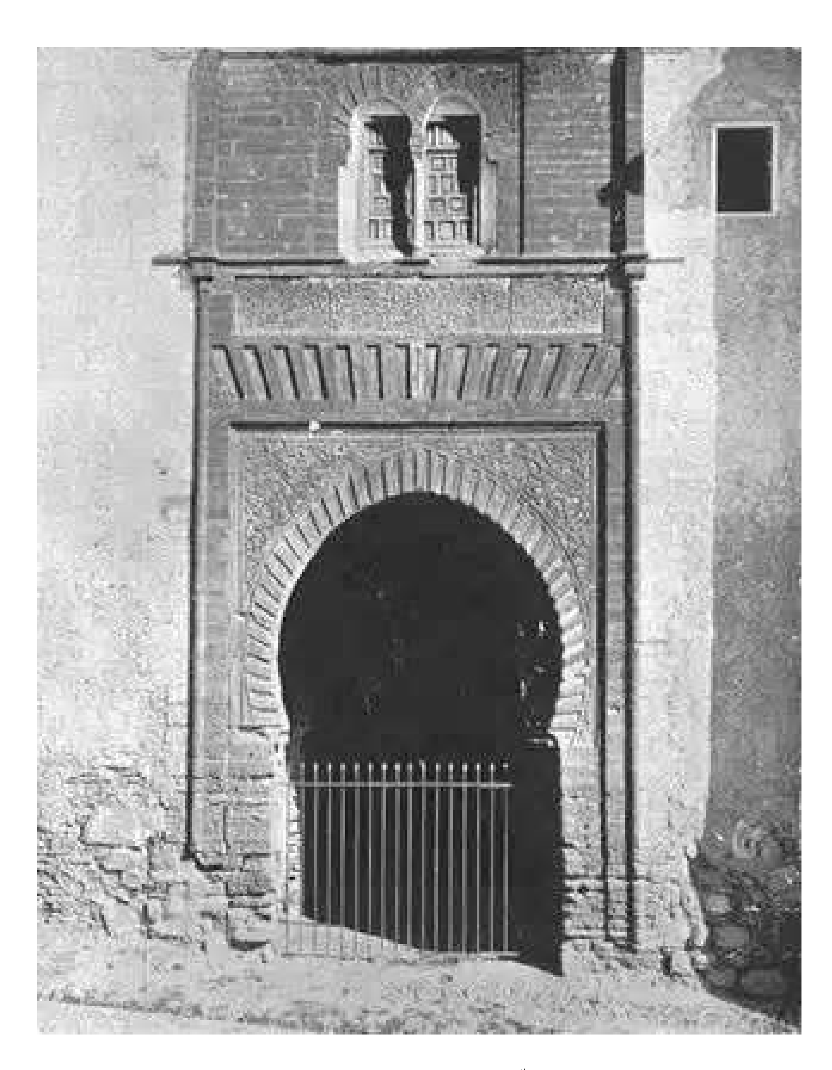


فسيفساء في دادو Dado الفجوة. فسيفساء في دادو مدخل قاعة الأختين

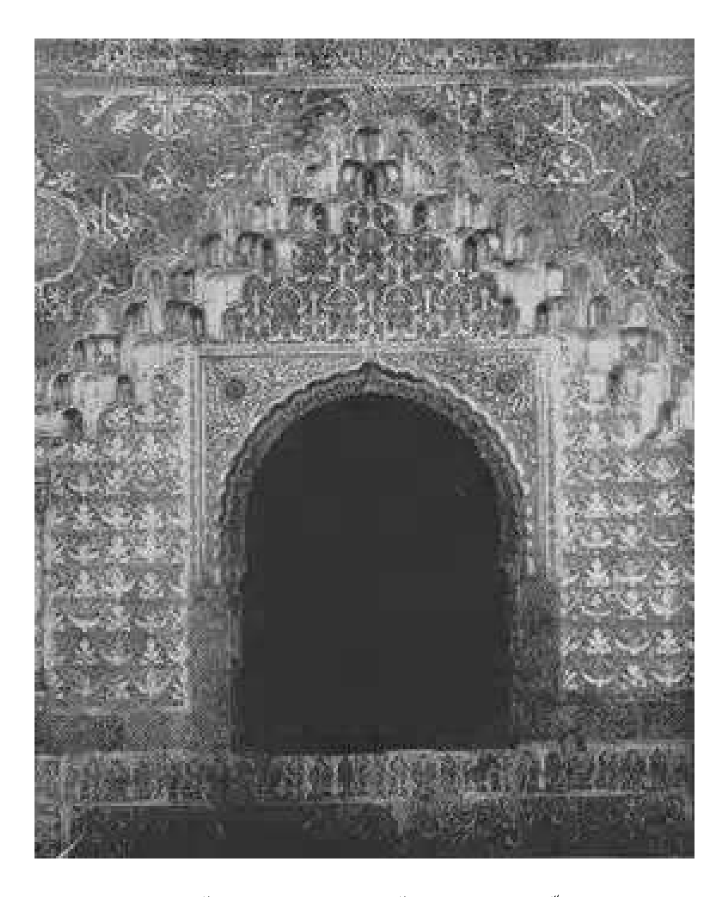




فسيفساء في دادو Dado قاعة السُّفراء. فسيفساء في دادو قاعة الأختين



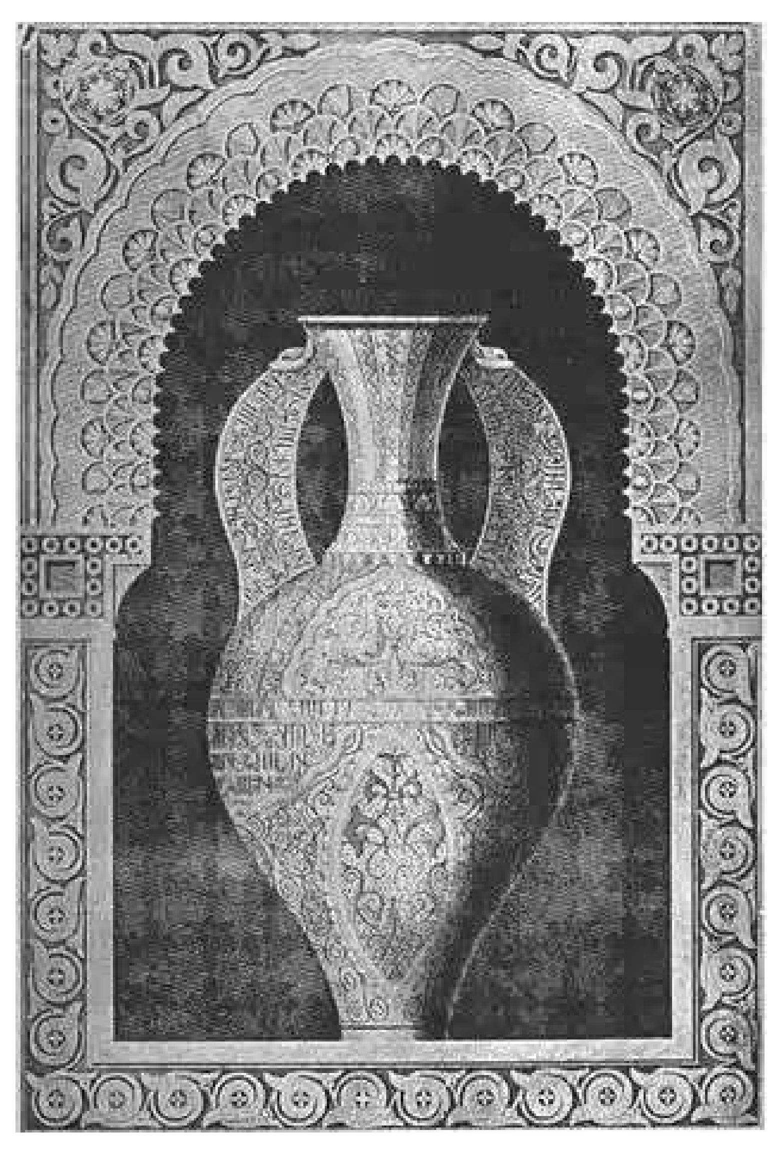
باب النّبيذ. الواجهة الغربيّة



تفصيل لحصيرة النّافذة القديمة الوحيدة الباقية في قصر الحمراء



إل خارّو El Jarro جرّة عربيّة توجد الآن في متحف القصر



إل خارّو El Jarro الجرّة العربيّة والمشكاة التي كانت موضوعة فيها، قاعة الأختين



جرّة عربيّة من القرن الرّابع عشر في المشكاة التي ظلّت بها حتى عام 1837



سيف الملك المسلم الأخير لغرناطة، الذي يُطلق عليه: «سيف أبو عَبديل»

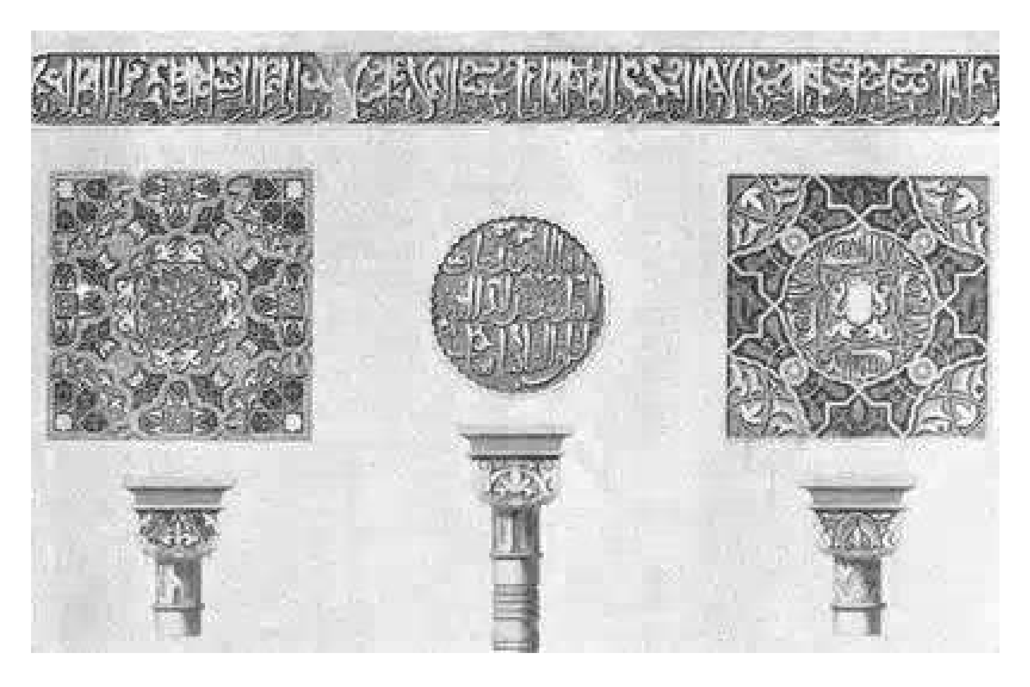


تسليم «أبو عَبديل» غرناطة لفرناندو وإيزابيّلا، 2 يناير 1492




نقد ذهبي (الوجه والظّهر) يعود إلى محمّد الأول،

منشئ قصر الحمراء، الذي حكم بين 1232–1272 للميلاد

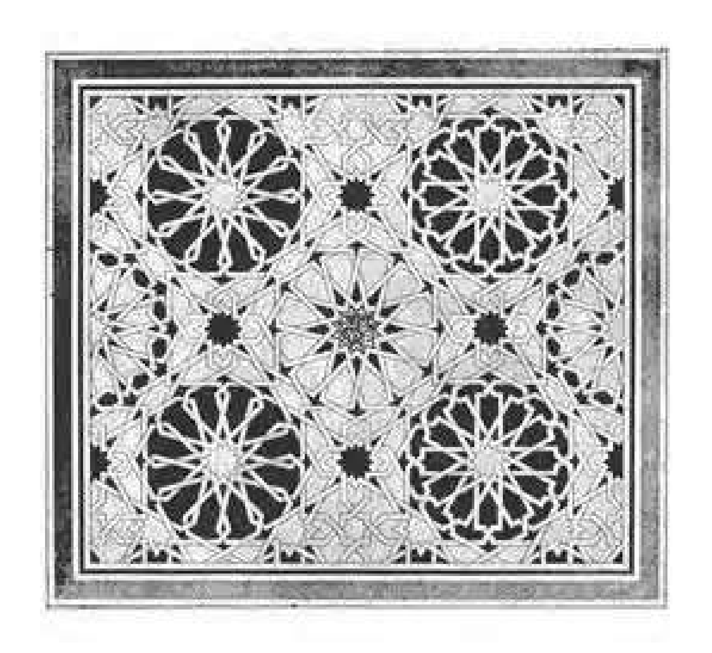


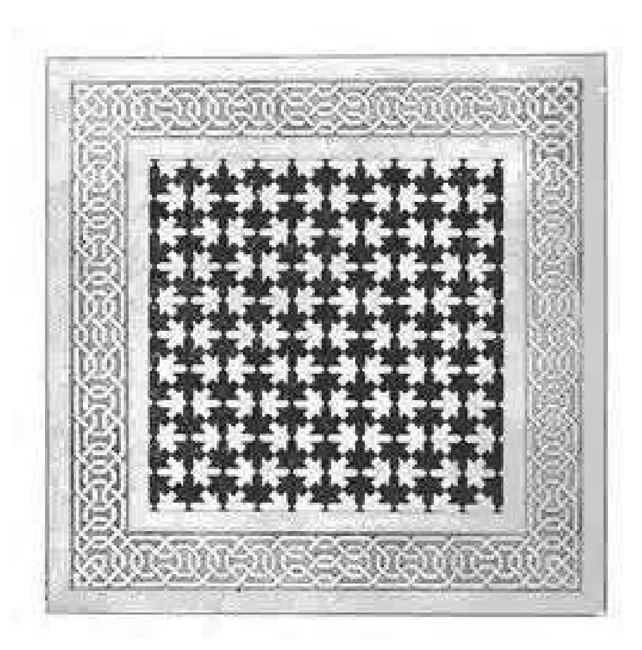
تفاصيل كتابات، وتيجان عربيّة

los muy altos catholicos y muy poderosos señores don fernando y doña y
sabel rey y reyna nuestros señores conquistaron por fuerça darmas este rei
no y cibdad de granada la qual despues de aver tenido sus altezas en per
sona sitiada mucho tiempo el rey moro muley hazen les entrego con su alham
bra y otras fuerças a dos dias de enero de mill y cccc xcii años este mismo dia
sus·al· pusieron en ella por su alcayde y capitan a don yñigo lopez de mendoça
conde de tendilla su vasallo al qual partiendo sus·al· de aqui dexaron en la di
cha alhambra con quinientos caballeros e mill peones e a los moros manda
ron sus·al· quedar en sus casas en la cibdad e sus alcarias como prime
ro estavan este dicho conde por mandamiento de sus·al· hizo hazer este algibe

الكتابة القوطّية التي وضعها في قصر الحمراء الكونت تِندّيا Tendilla،

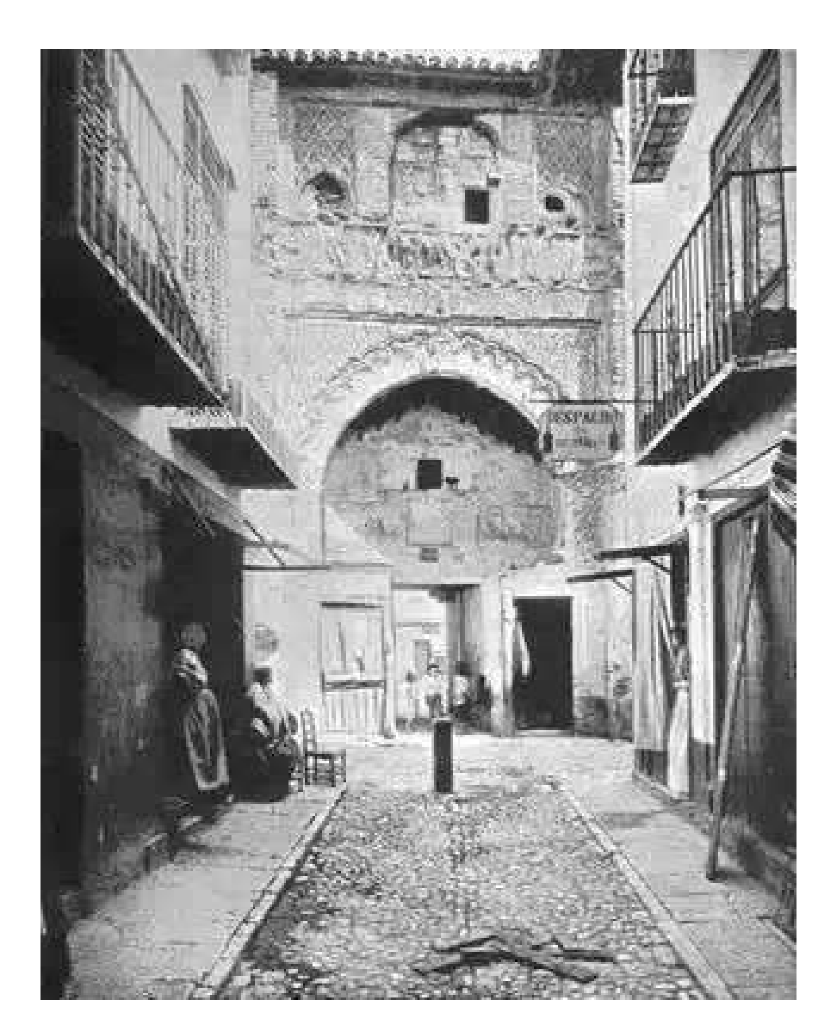
لتخليد استسلام القلعة في عام 1492





تبليط بالفسيفساء في غرفة لباس الملكة (Tocador de la Reyna).

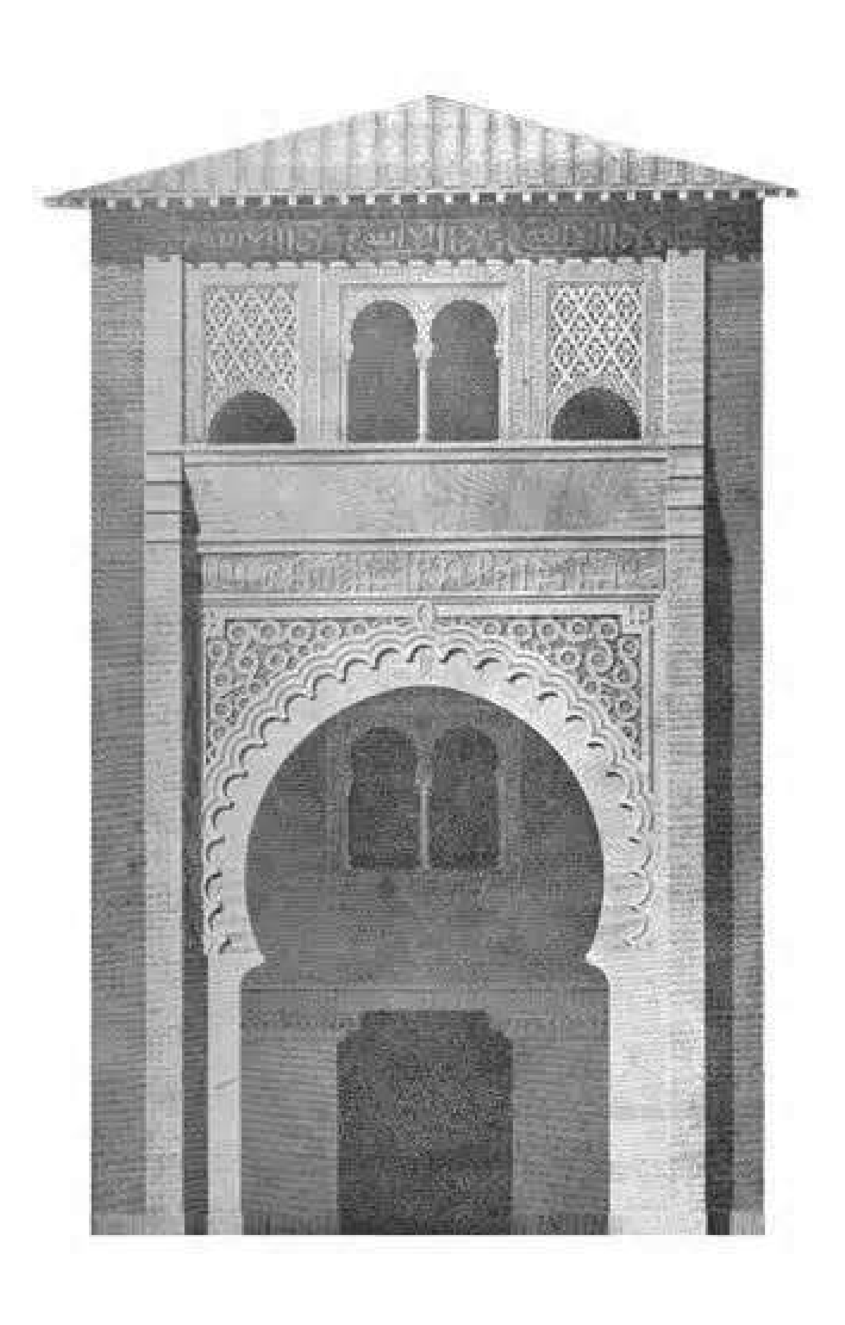
فسيفساء من قطعة في قصر الحمراء



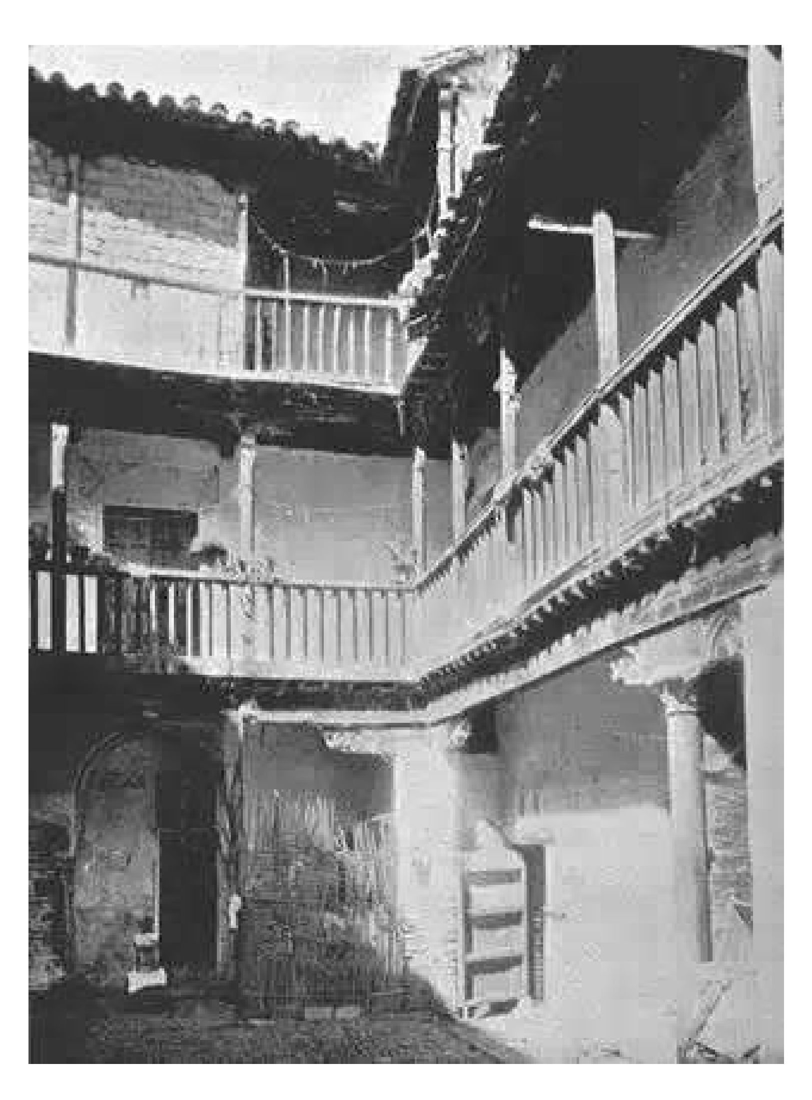
بيت الفحم



سوق الحبوب القديم وبيت الفحم



ارتفاع كاسا دِل كاربون، أو بيت الفحم، الذي كان يعرف ببيت ديك الطّقس



فناء دار عربيّة في البيازين



داخل دار عربيّة في البيازين

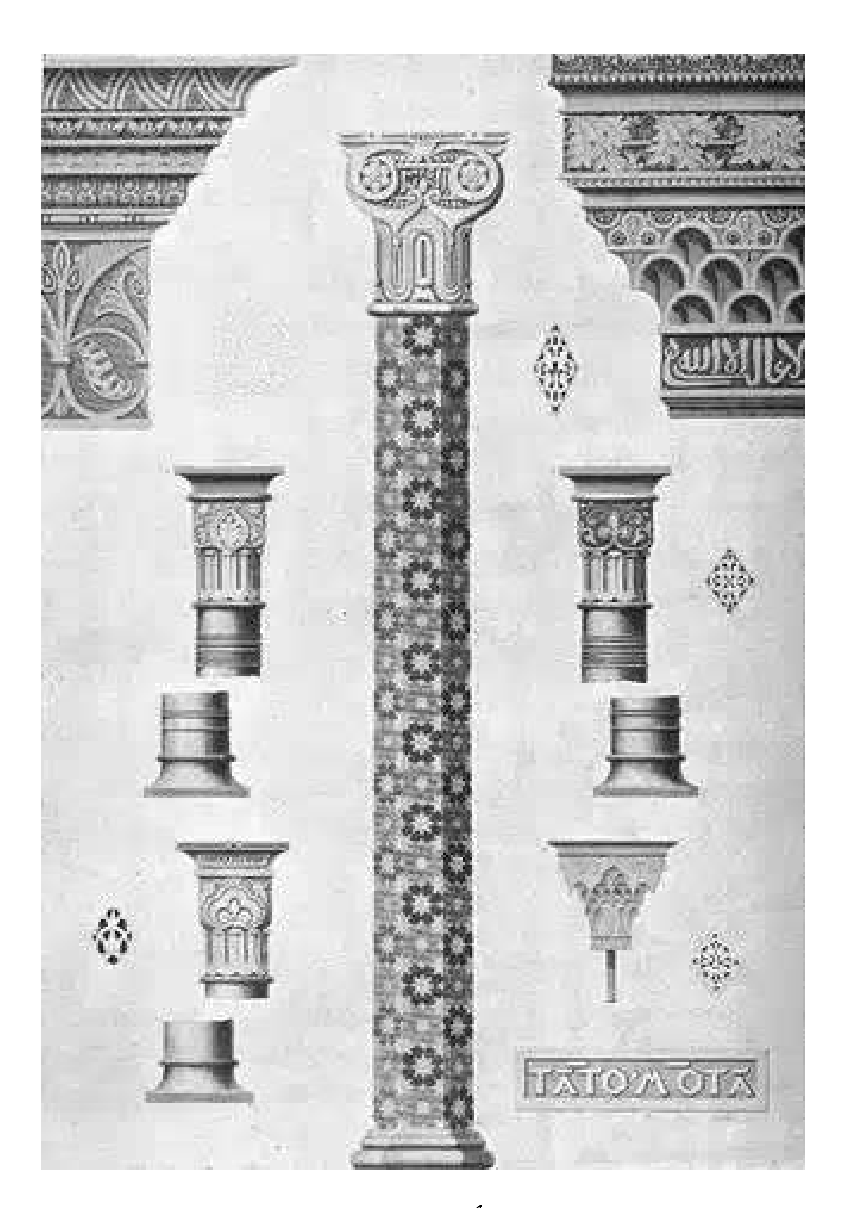


مناداة «أبو عَبديل». رسم پلاثيدو فرانثيس Plácido Frances

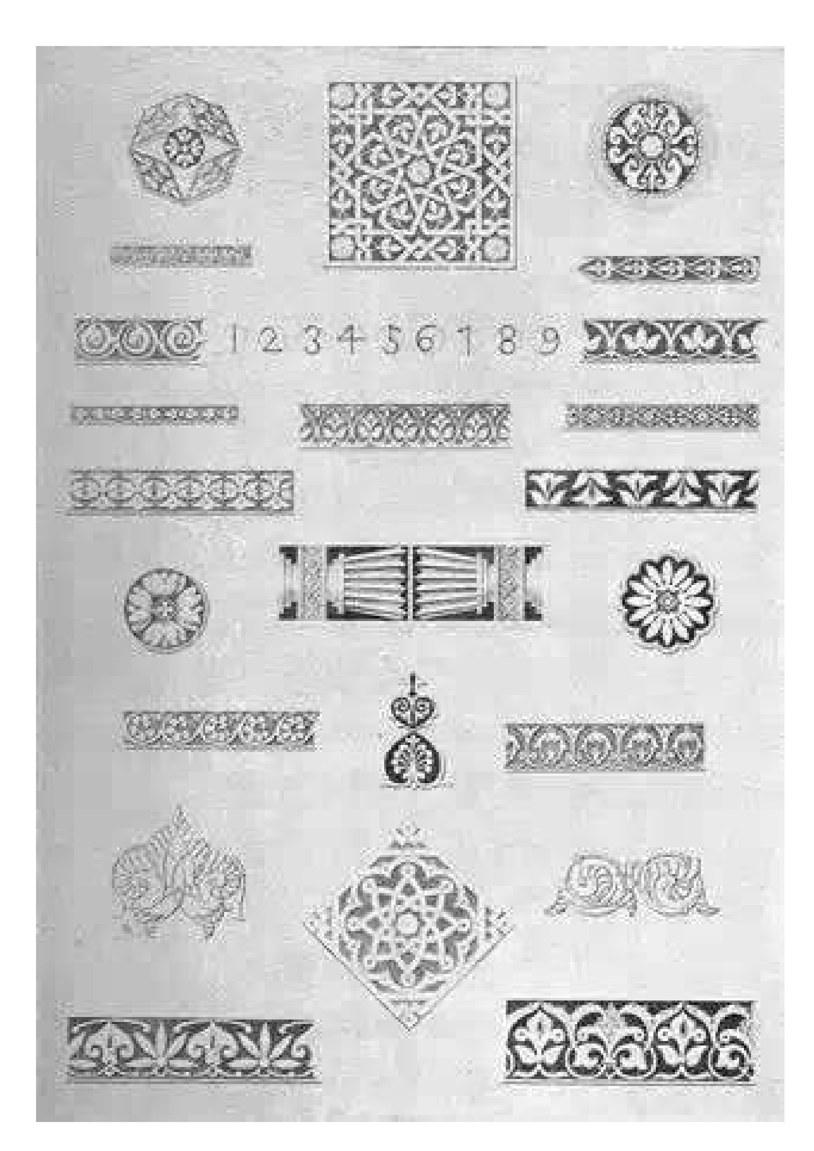
(المعرض الوطني للفنون الجميلة، 1884)



المؤلف في قصر الحمراء



طنوف وتيجان وأعمدة في قصر الحمراء



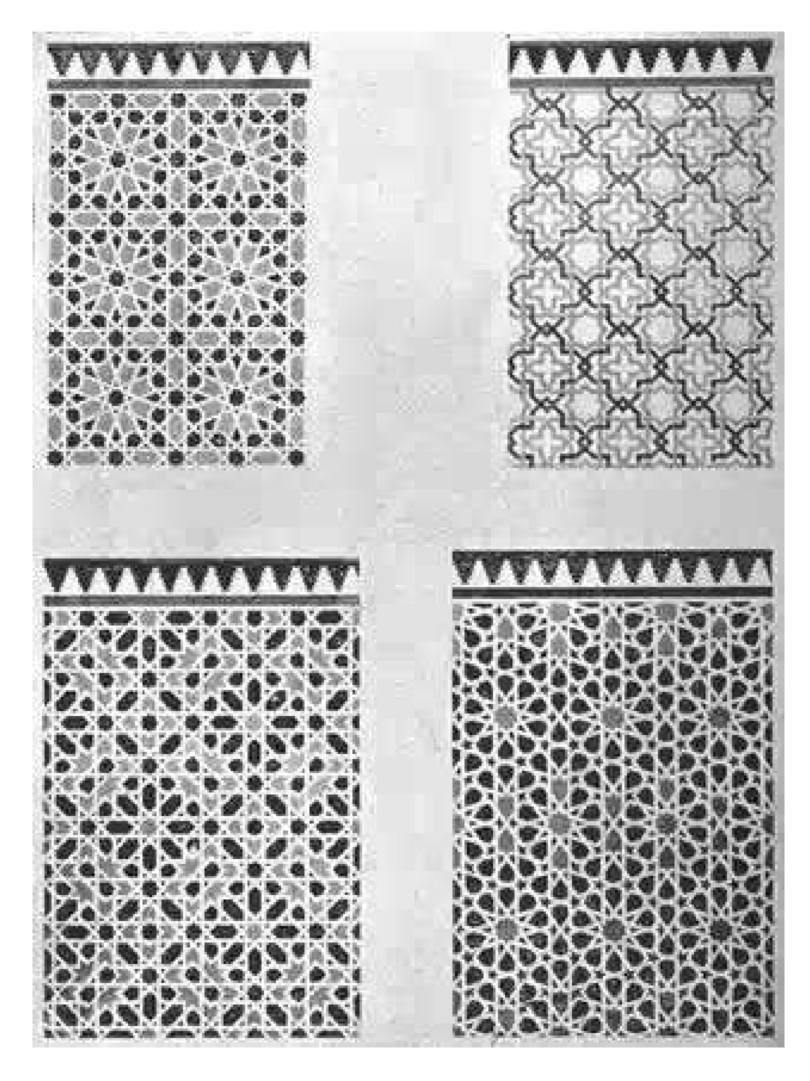
زخارف متنوّعة في قصر الحمراء



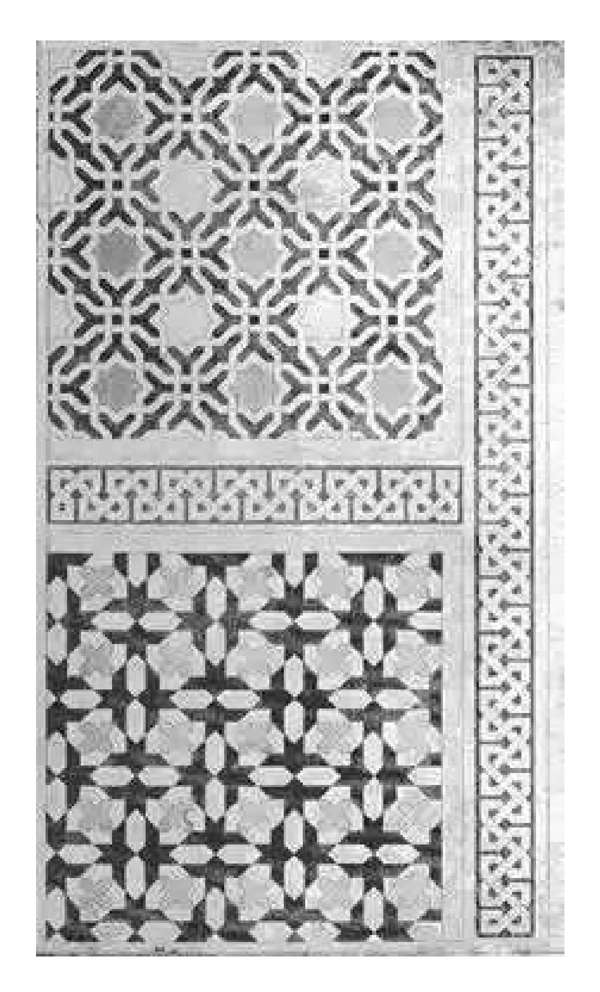
قصة جوبيتر Jupiter وليدا Leda في قصر الحمراء



نقش ضئيل البروز، يوجد حالياً في متحف الحمراء

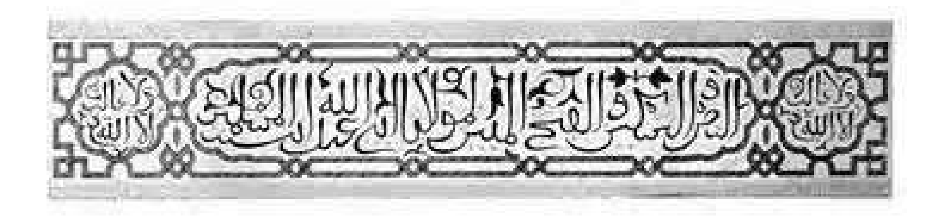


لوحات منفّذة بالرّسوم الشّمعيّة في غرفة سان دومينغو الملكيّة

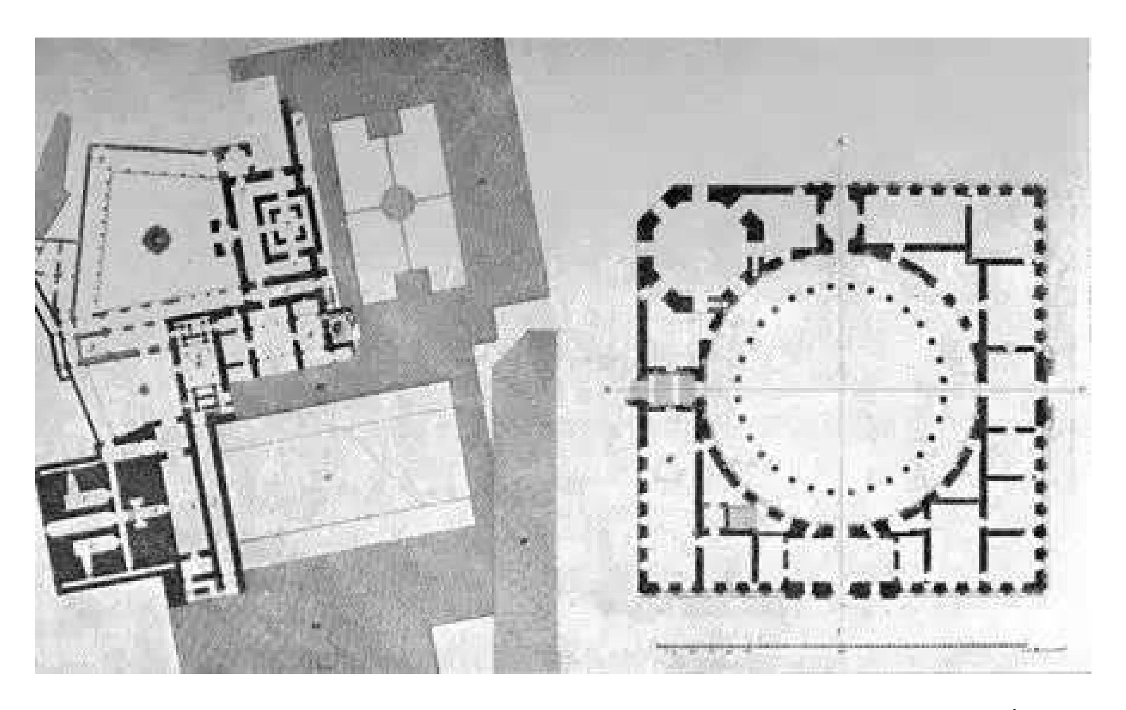


نماذج فسيفساء متنوّعة من قصر الحمراء

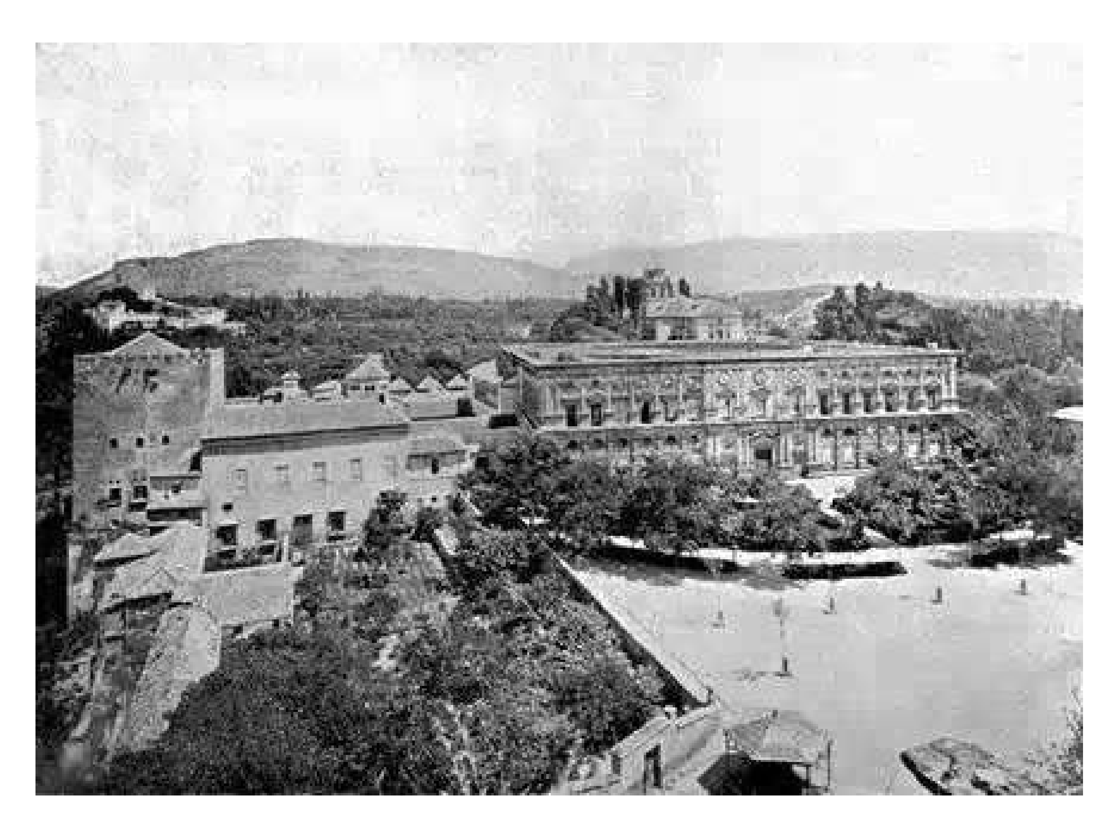




كتابات في قصر الحمراء



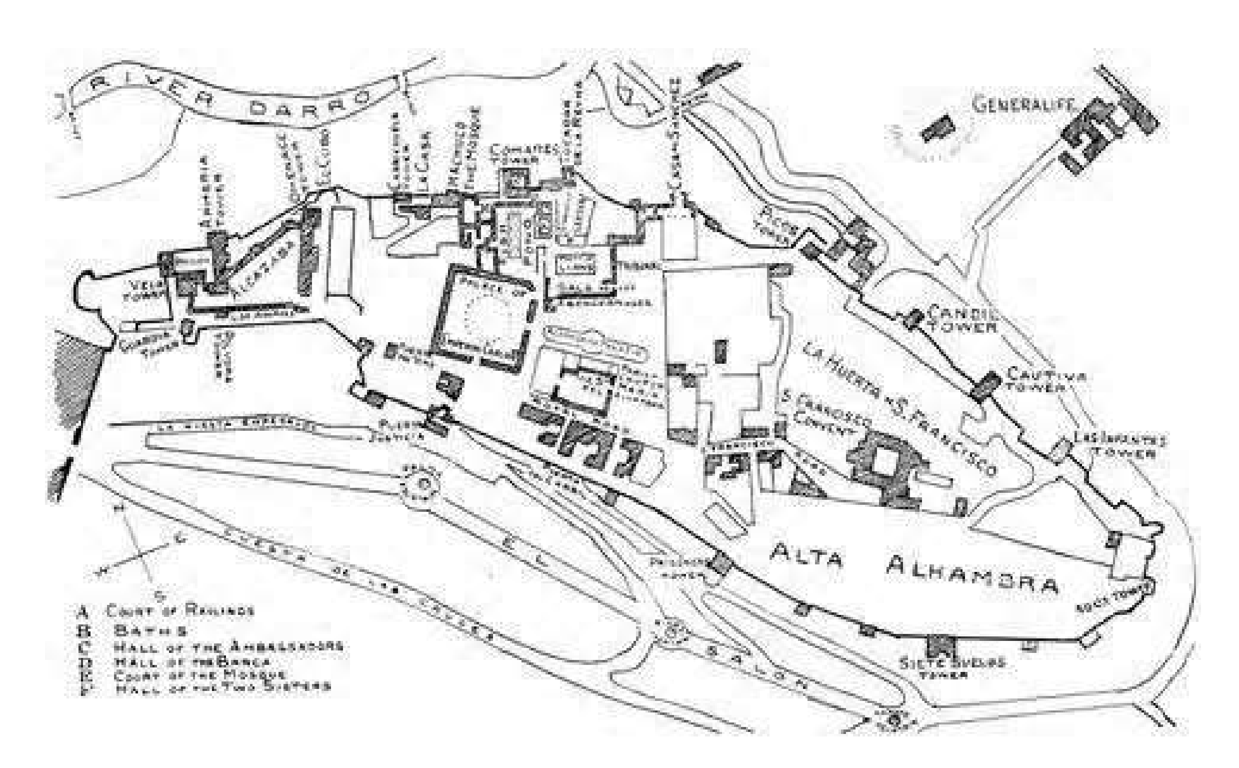
مسقط أفقي لقصر كارلوس الخامس (شارلكان) والعقود تحت الأرضيّة لقصر الحمراء



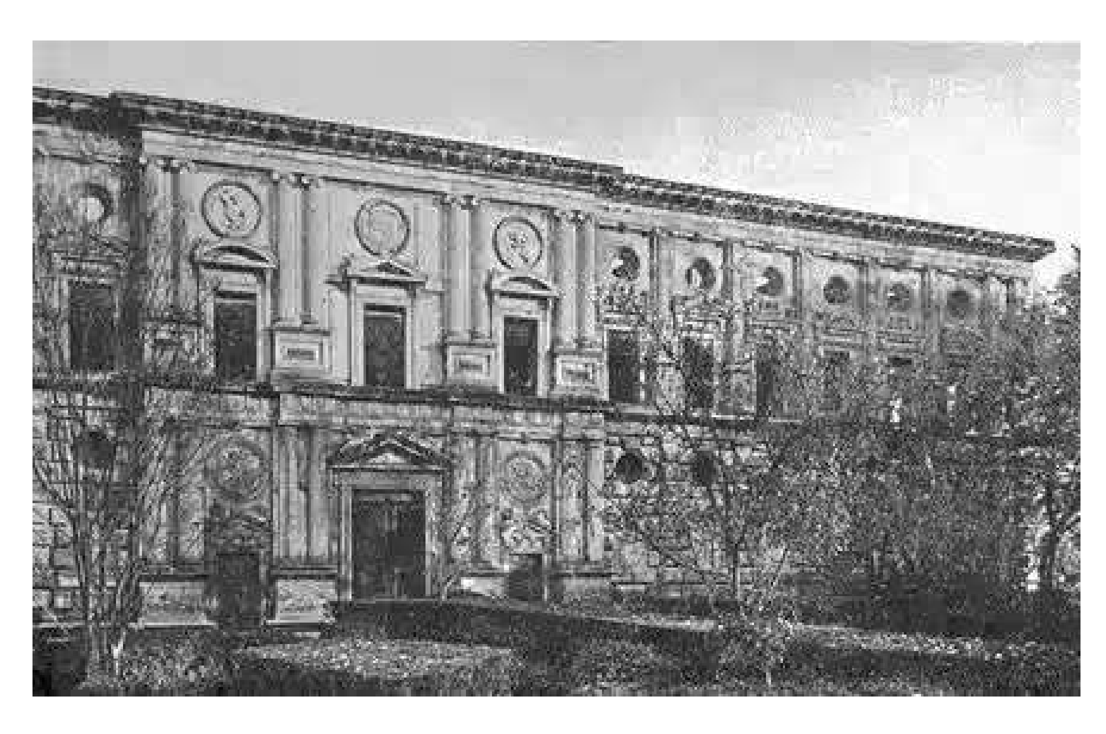
منظر عام لقصر الحمراء من برج العرفان (أومينَاخِه)



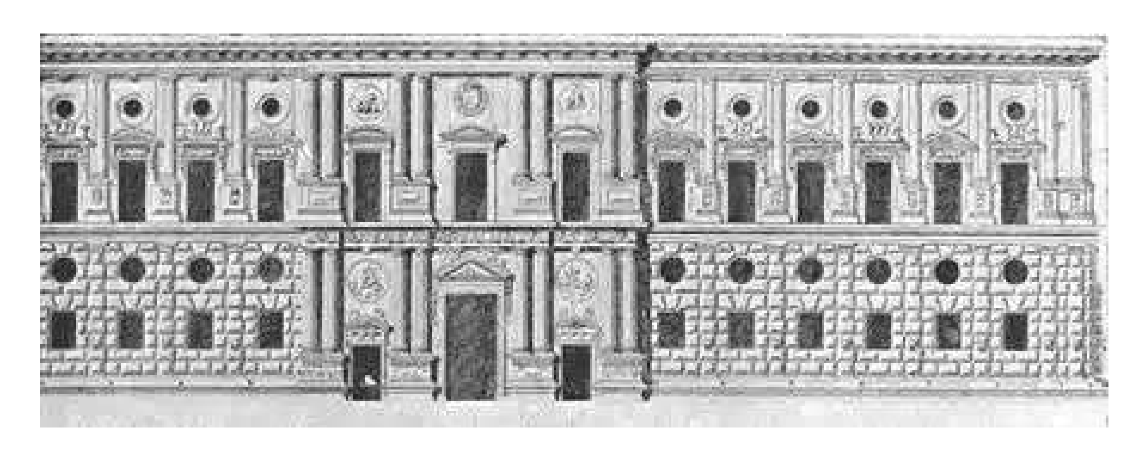
خزّان الماء القديم. مطلع القرن الرّابع عشر للميلاد



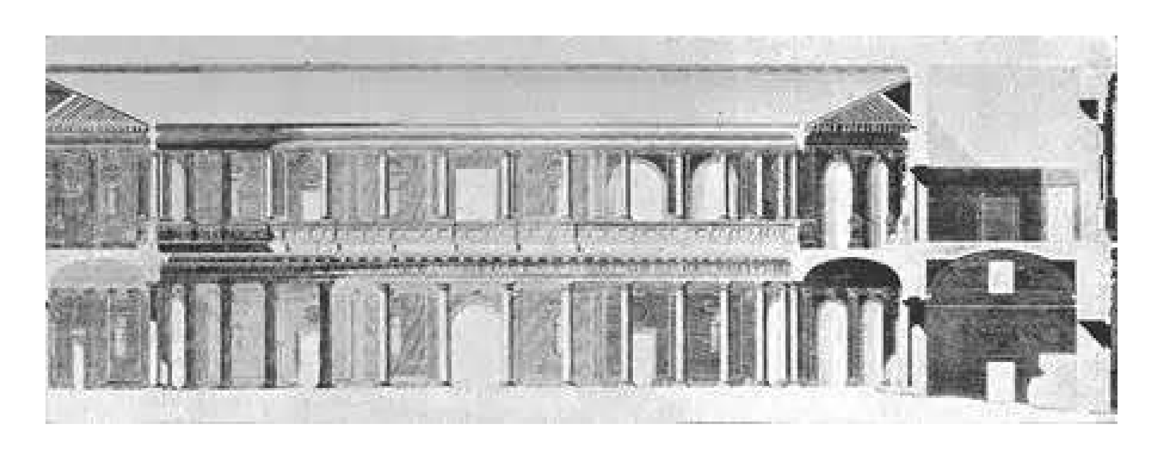
قصر الحمراء (لوحة تمّ رسمها خصّيصاً للسّلسلة الإسپانيّة)



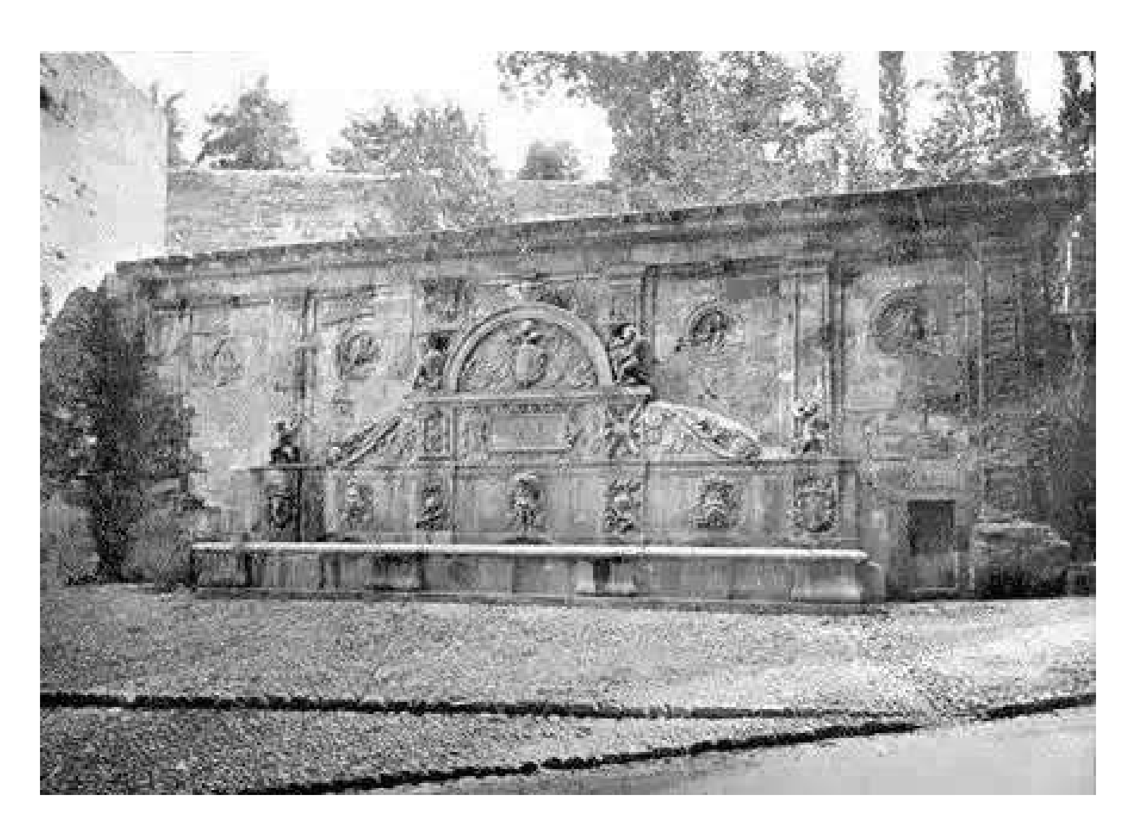
جزء من خارج قصر كارلوس الخامس (شارلكان)



مسقط طولي (ارتفاع) قصر كارلوس الخامس



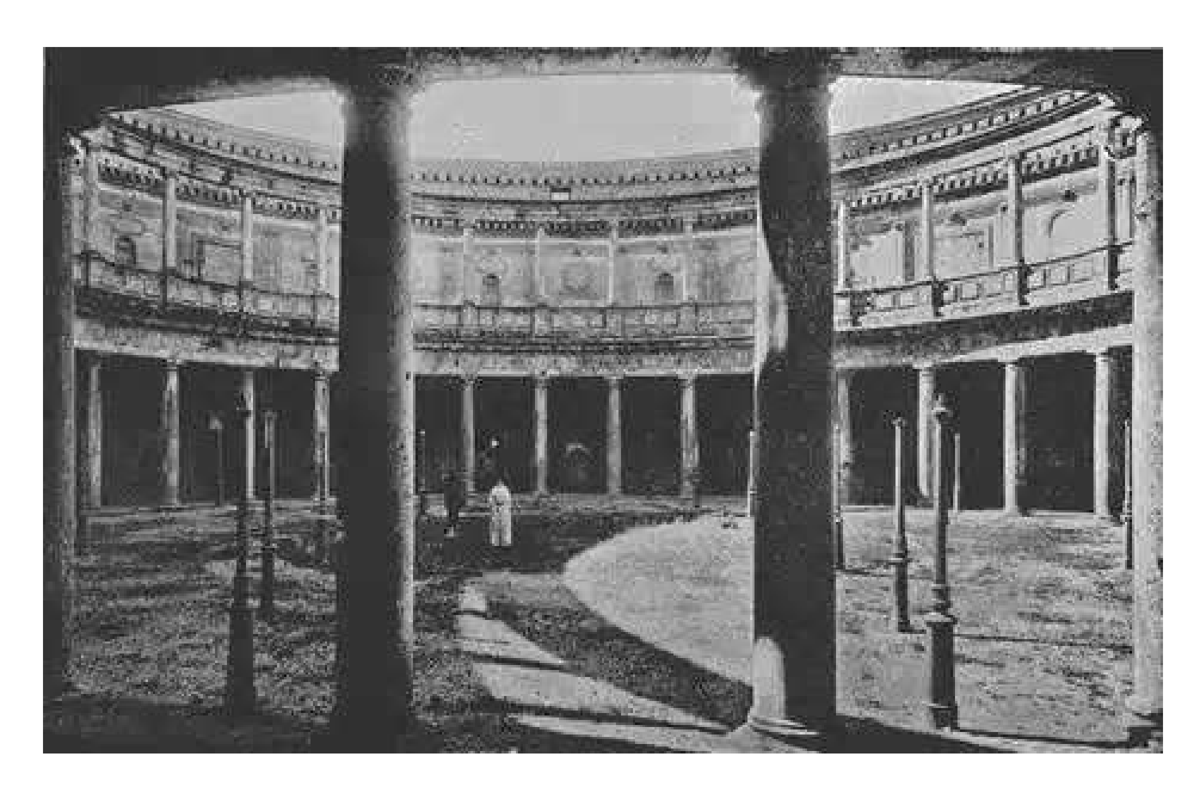
مقطع لقصر كارلوس الخامس



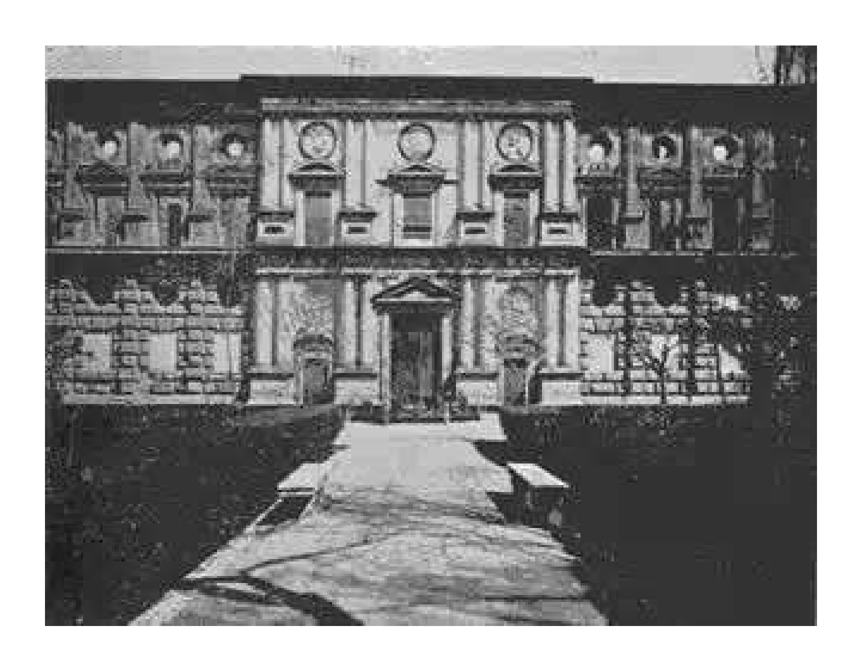
نافورة الإمبراطور كارلوس الخامس (شارلكان)



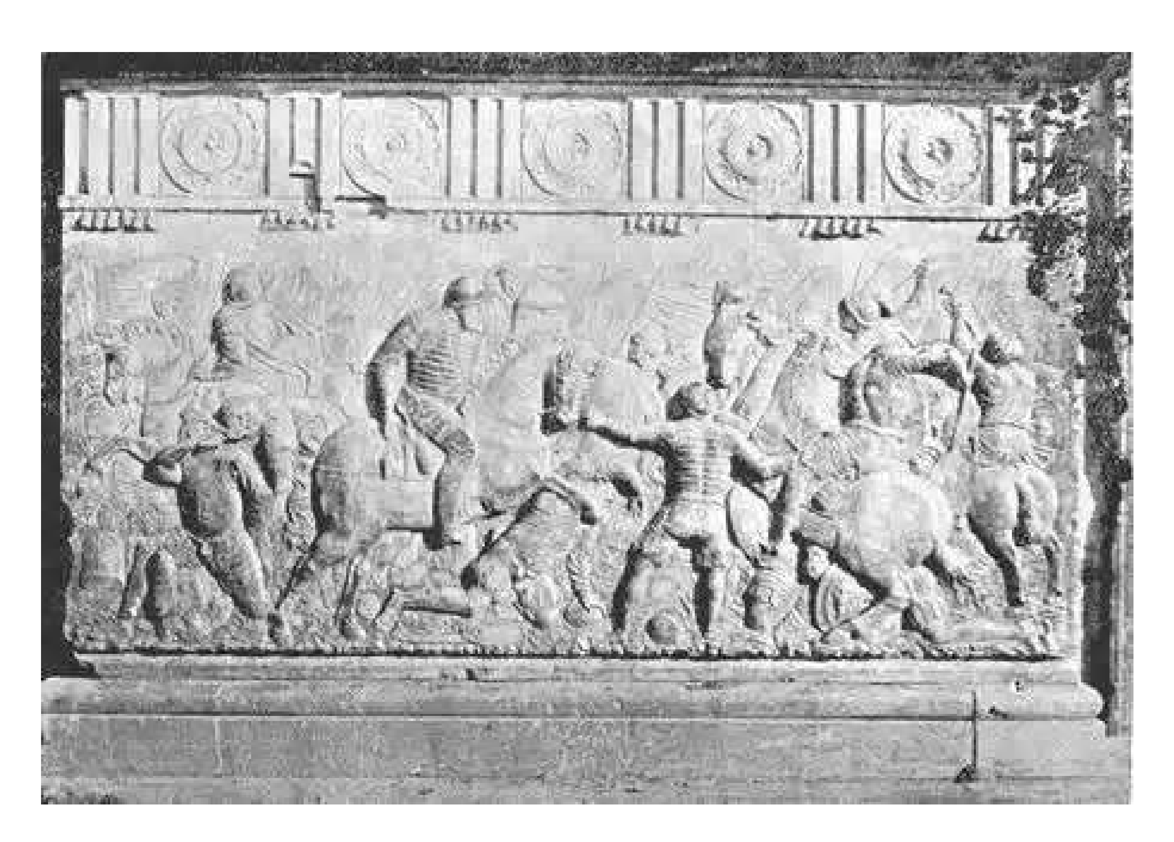
منظر لقصر كارلوس الخامس من برج العرفان (أوميناخِه)



داخل قصر كارلوس الخامس



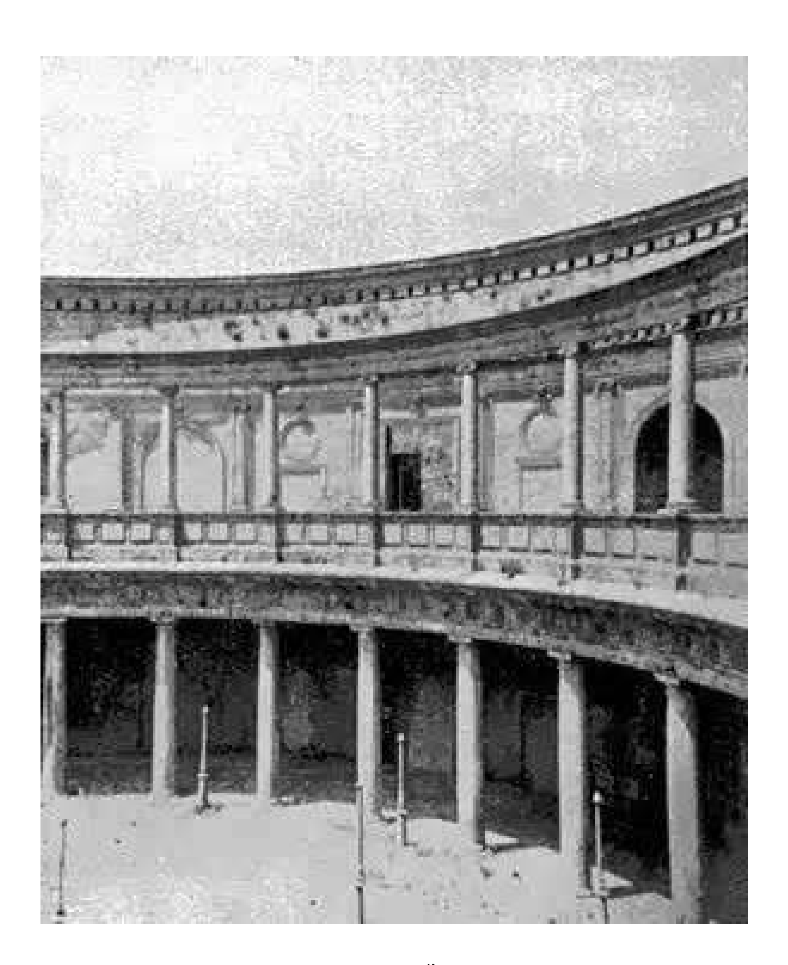
بوّابة قصر كارلوس الخامس



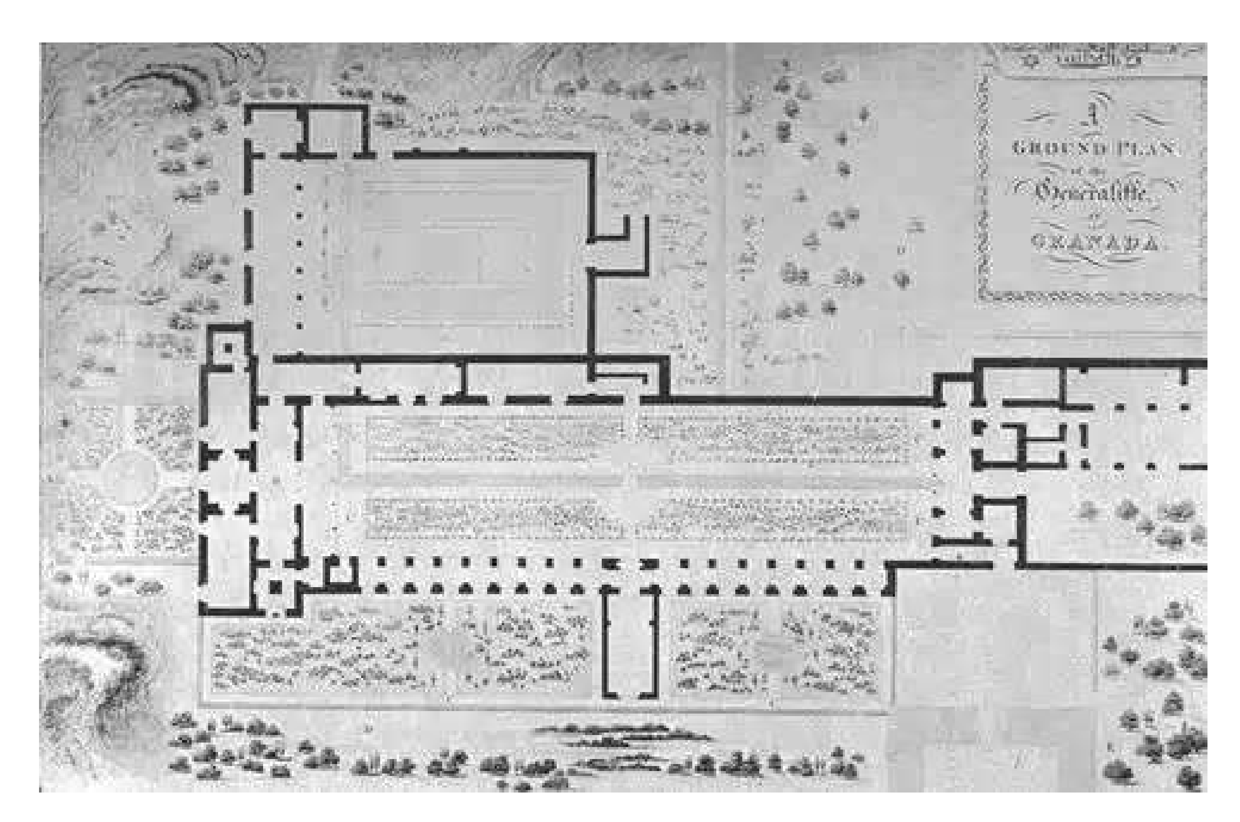
نقش ضئيل البروز في قصر كارلوس الخامس



مدخل مروّق لقصر كارلوس الخامس يرى من جهة الغرب



الفناء الّروماني، قصر كارلوس الخامس



المسقط الأفقي الأرضي لجنّة العريف في غرناطة



جنّة العريف



الفناء الرّئيسي لجنّة العريف



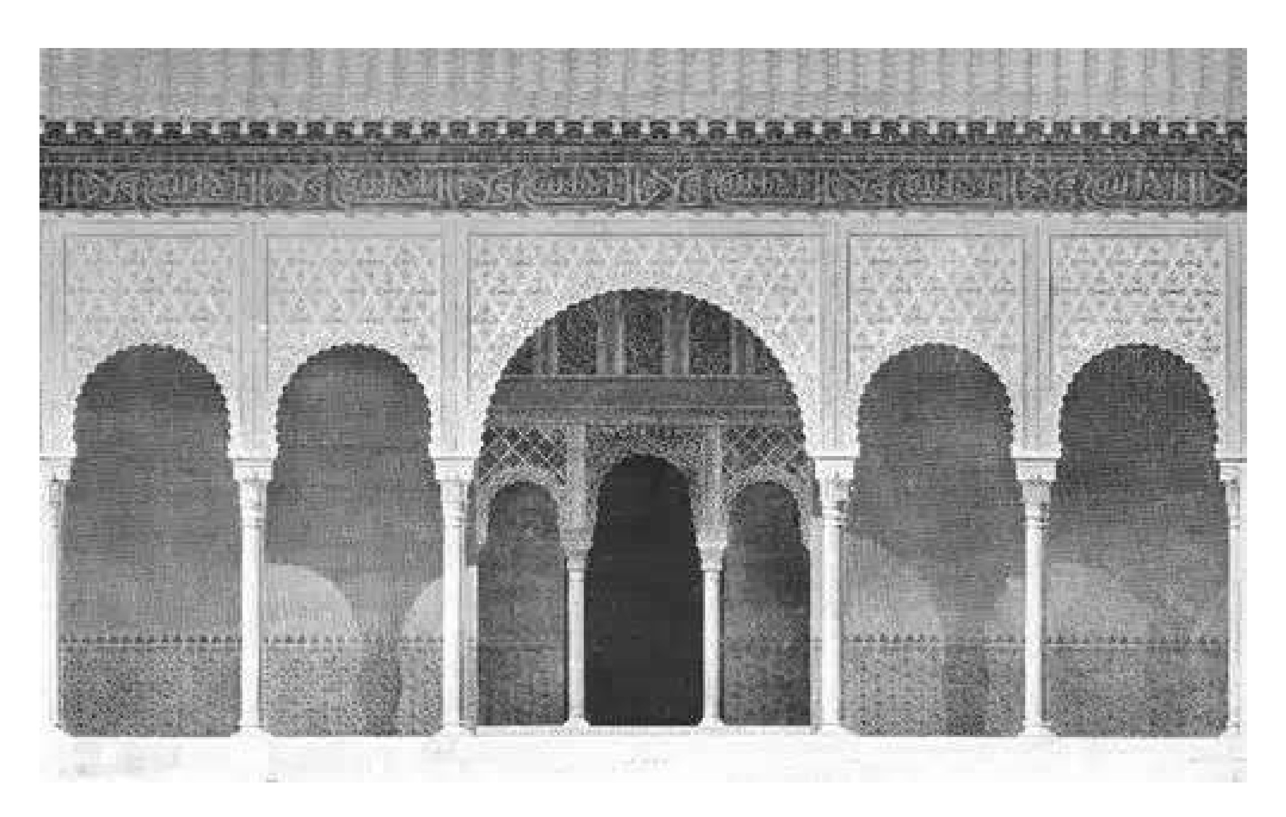
فناء بركة السّمك في جنّة العريف



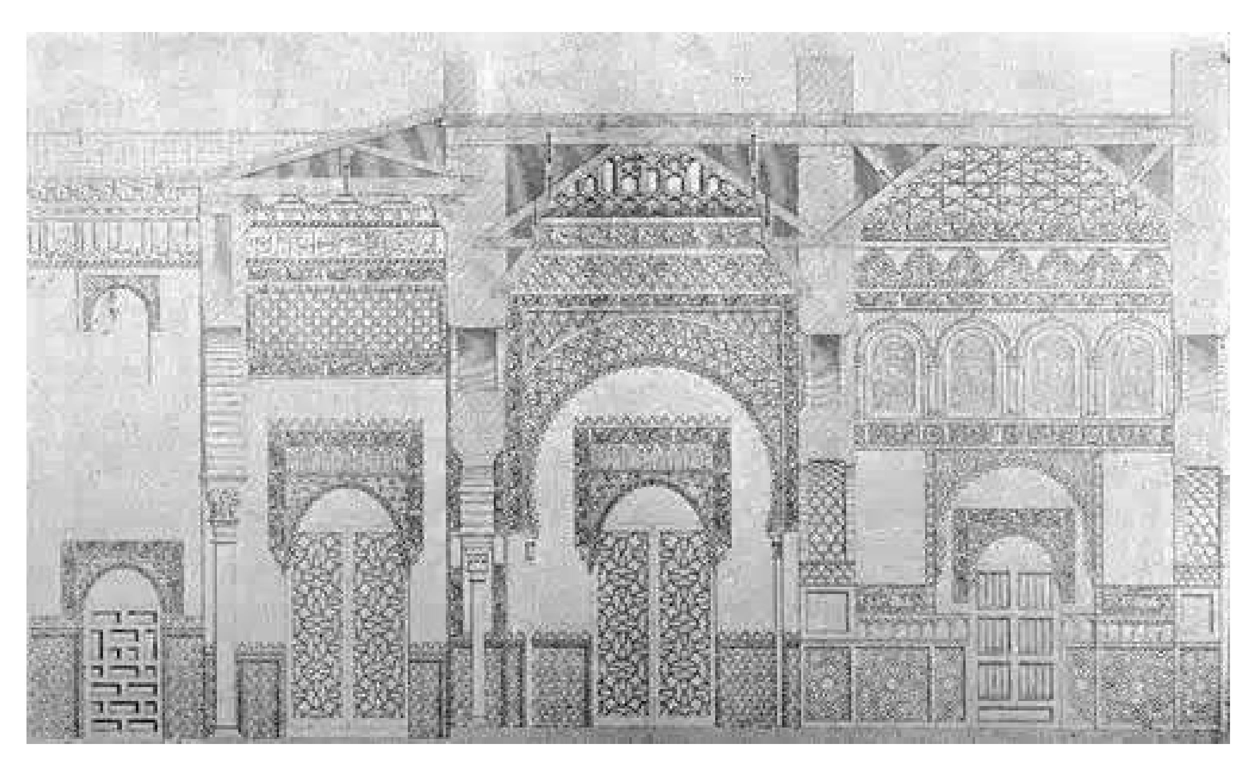
النّزهات والحدائق في جنّة العريف



جنّة العريف



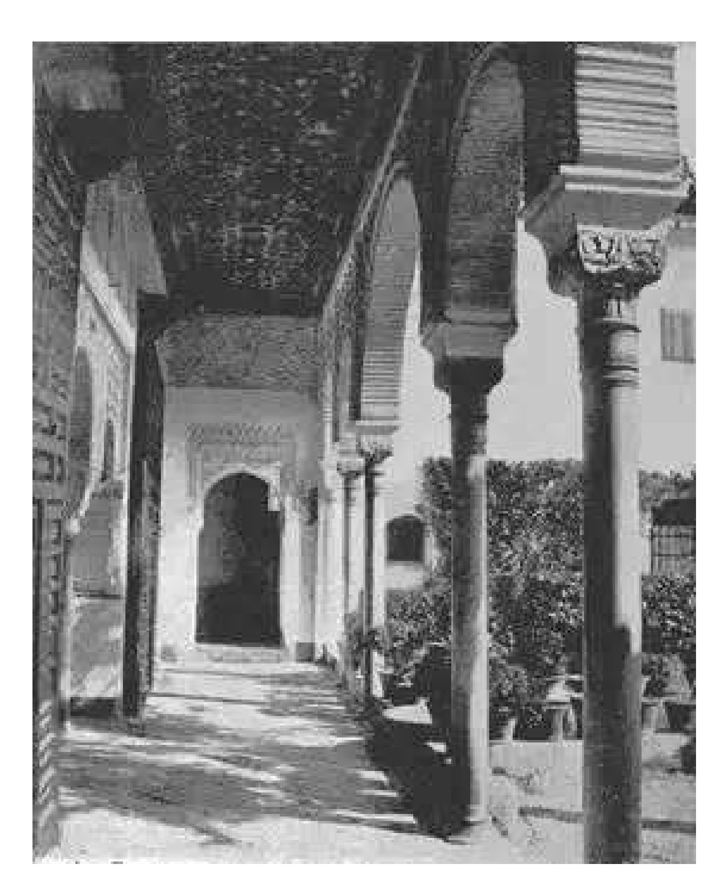
مشهد أمامي لرواق جنّة العريف المعقّد



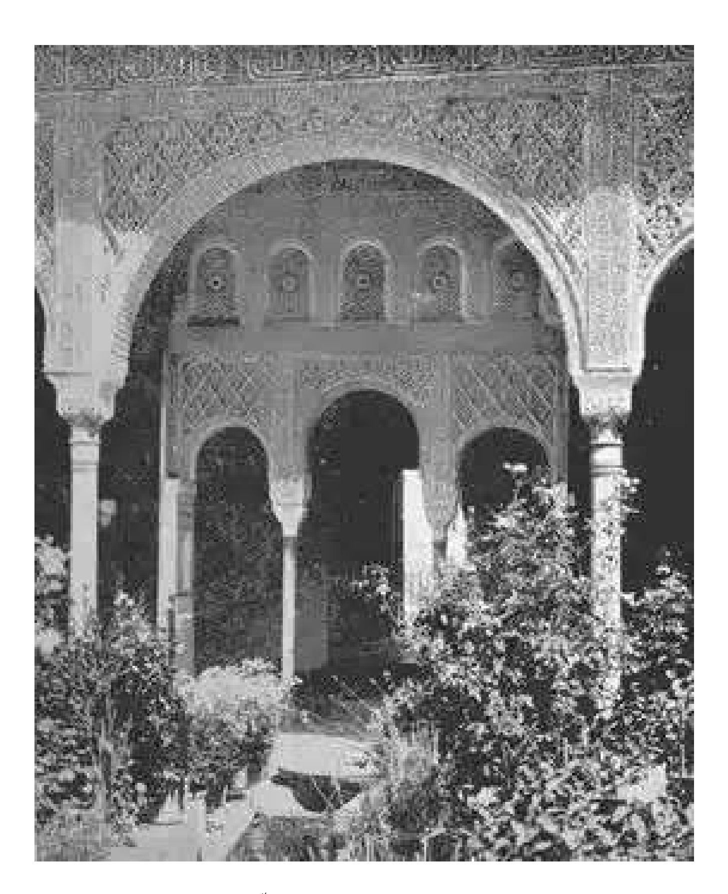
مقطع عرضي للڤيلّا الملكيّة في جنّة العريف



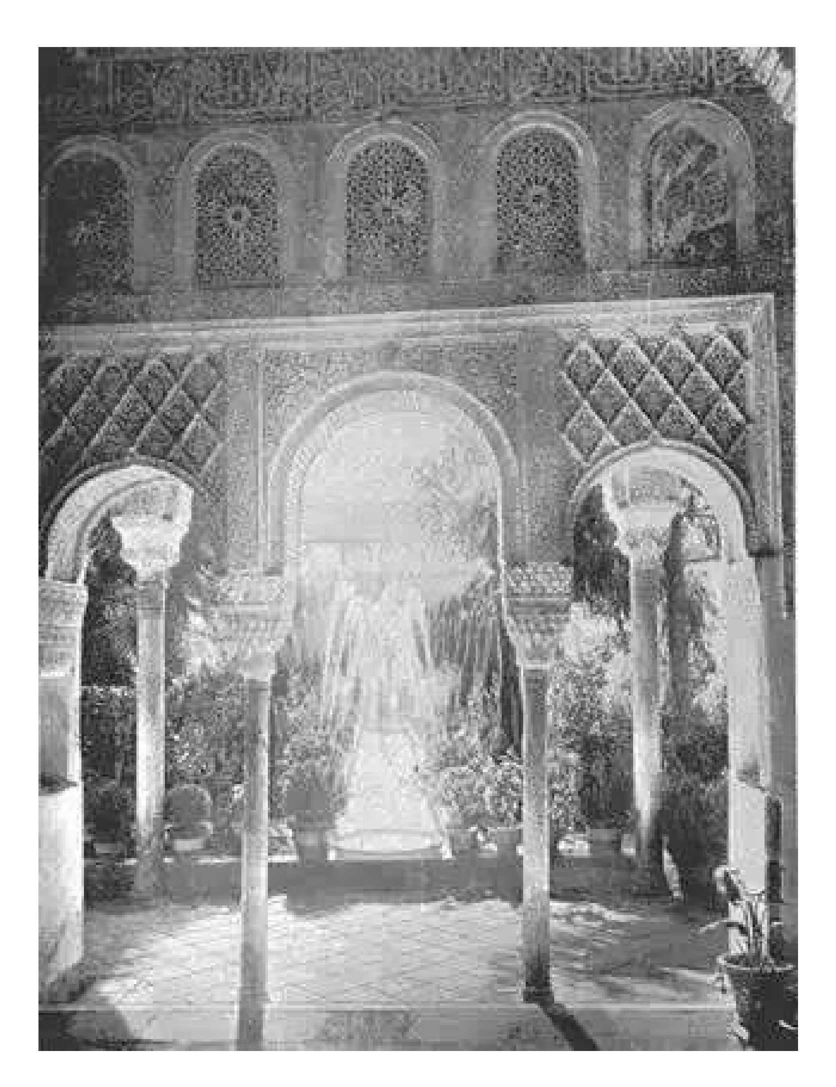
رواق في جنّة العريف



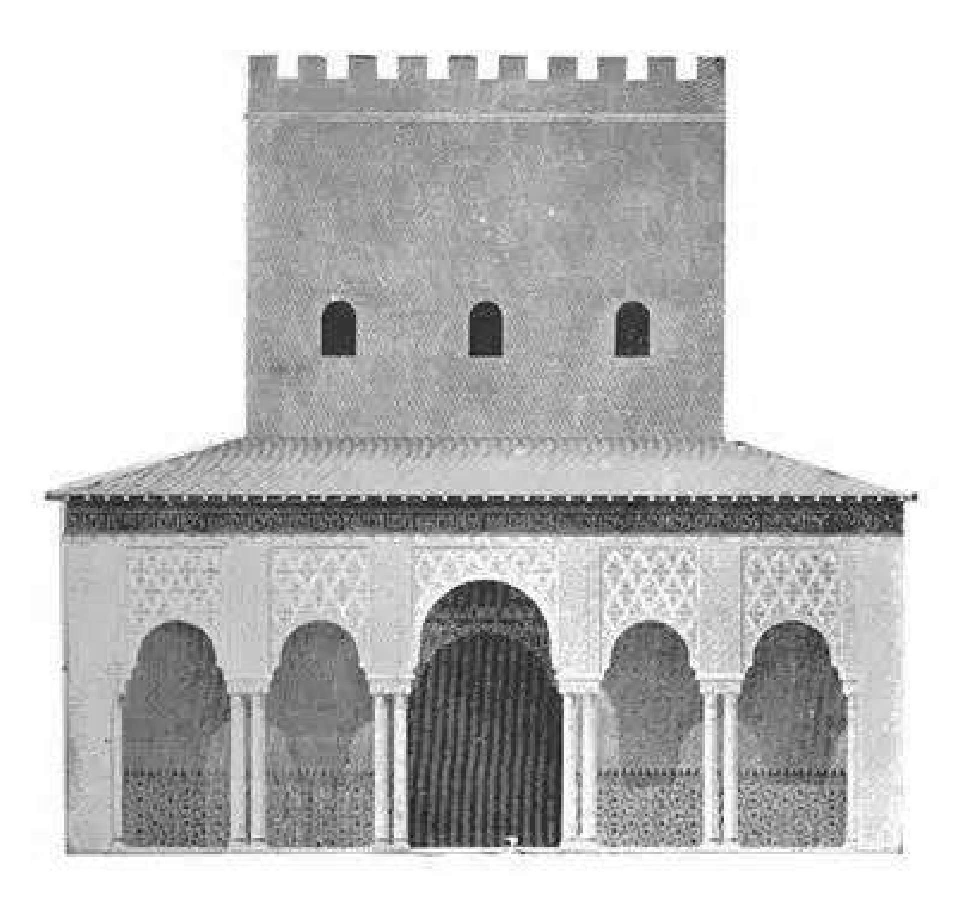
جنّة العريف. رواق في فناء السّقيّة



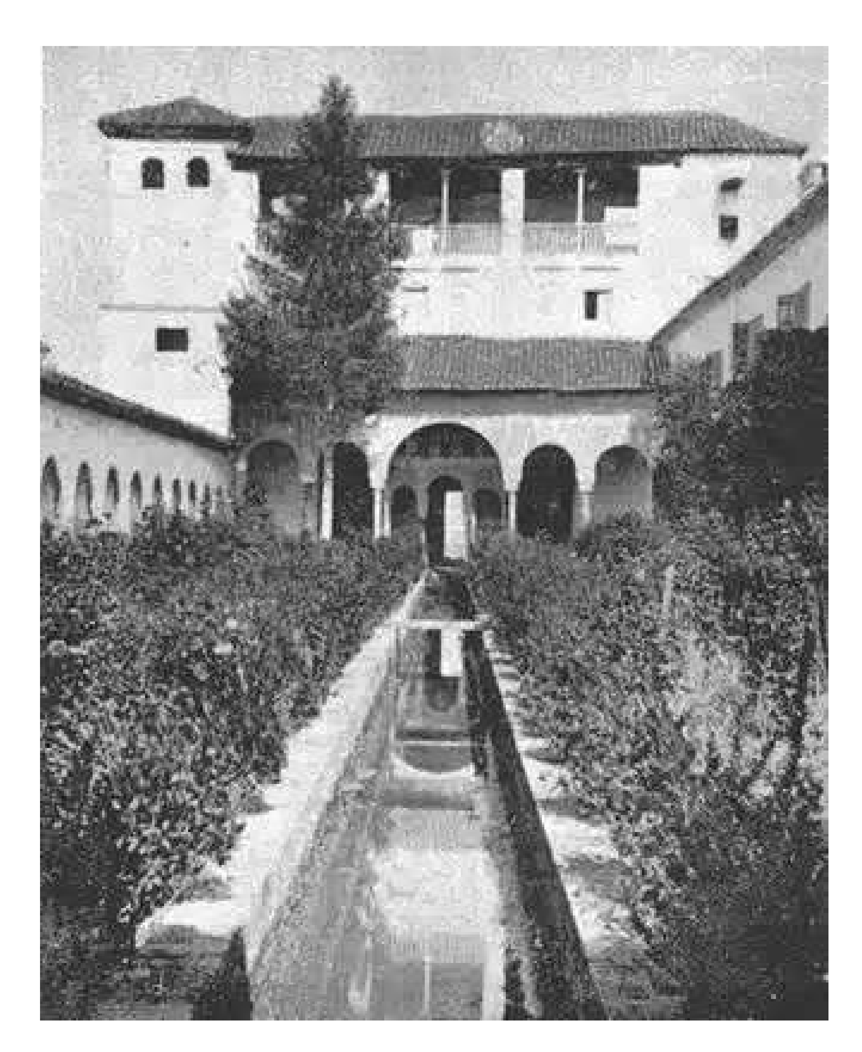
جنّة العريف. المدخل إلى رواق اللّوحة الشّخصيّة



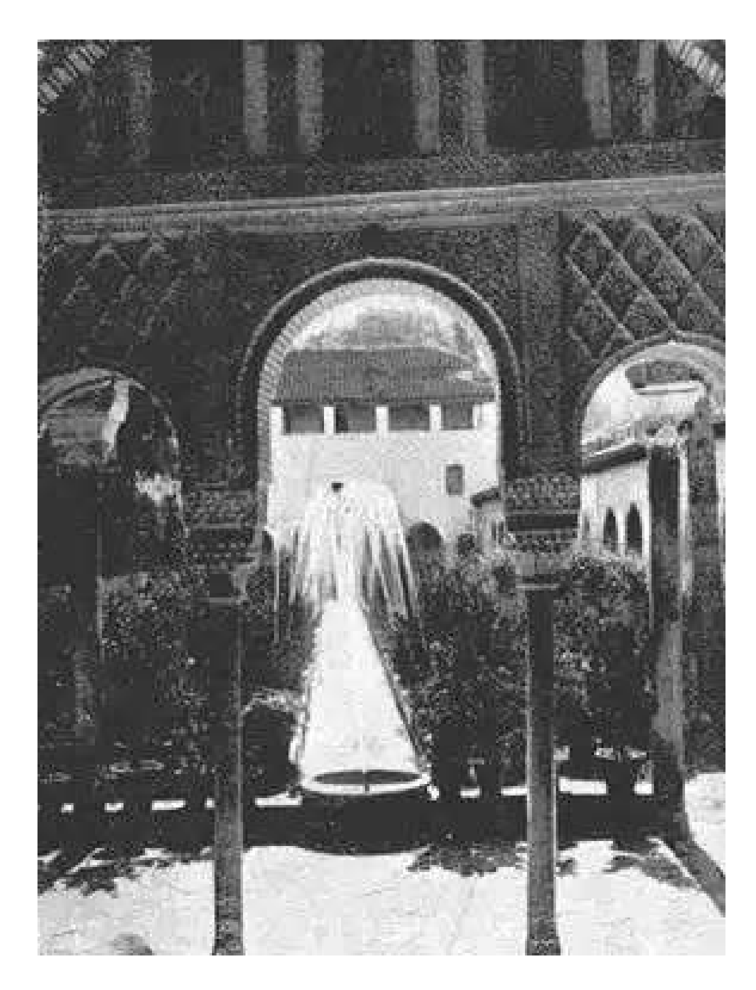
حديقة جنّة العريف



ارتفاع رواق جنّة العريف المعمّد

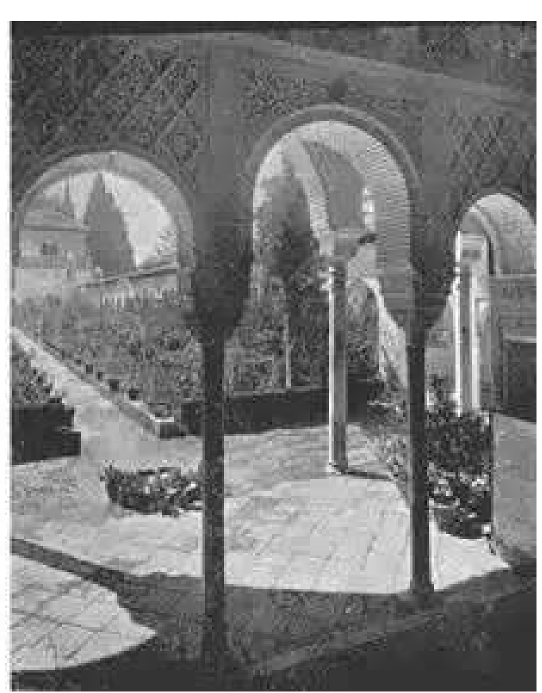


فناء السّقيّة في جنّة العريف



ركن من فناء السّقيّة





فناء السّرو. ركن في فناء السّقيّة



سروة السّلطانة في جنّة العريف



سقف في جنّة العريف



جنّة العريف. فناء السّقيّة من المدخل الرّئيسي



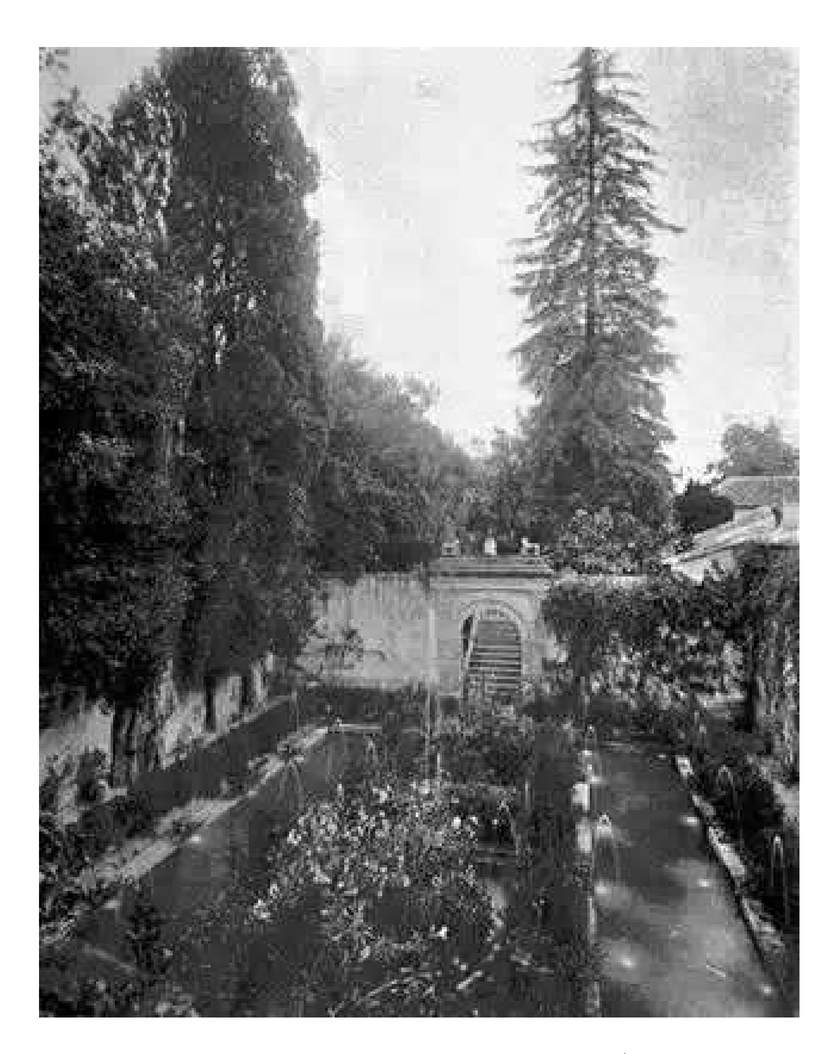
جنّة العريف. فناء السّقّية من الدّاخل



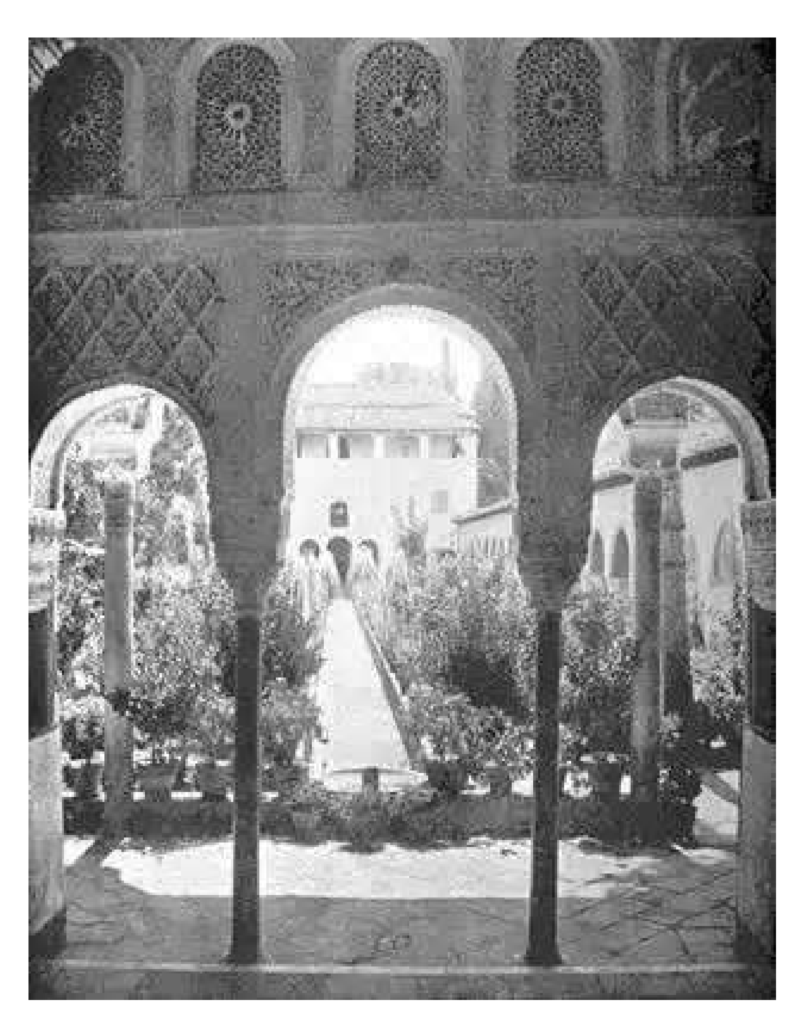
منظر خارجي لجنّة العريف



المدخل إلى جنّة العريف



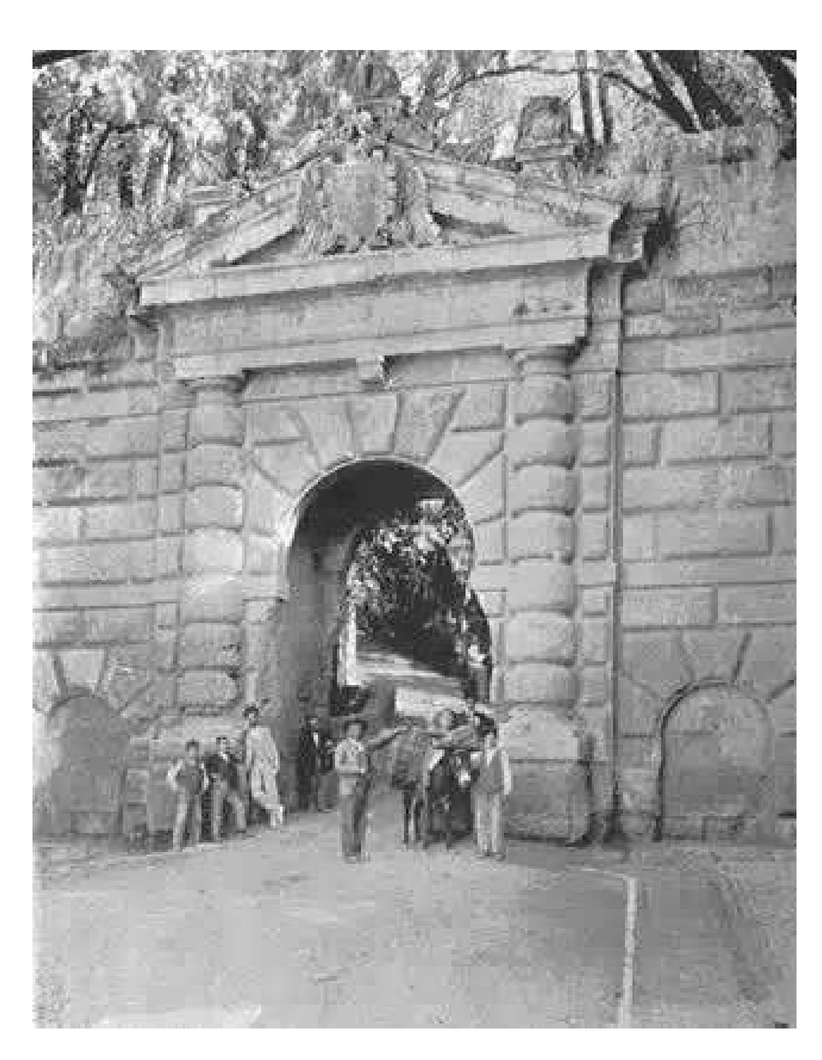
جنّة العريف. فناء سروة السّلطانة



جنّة العريف. فناء السّقيّة من الدّاخل



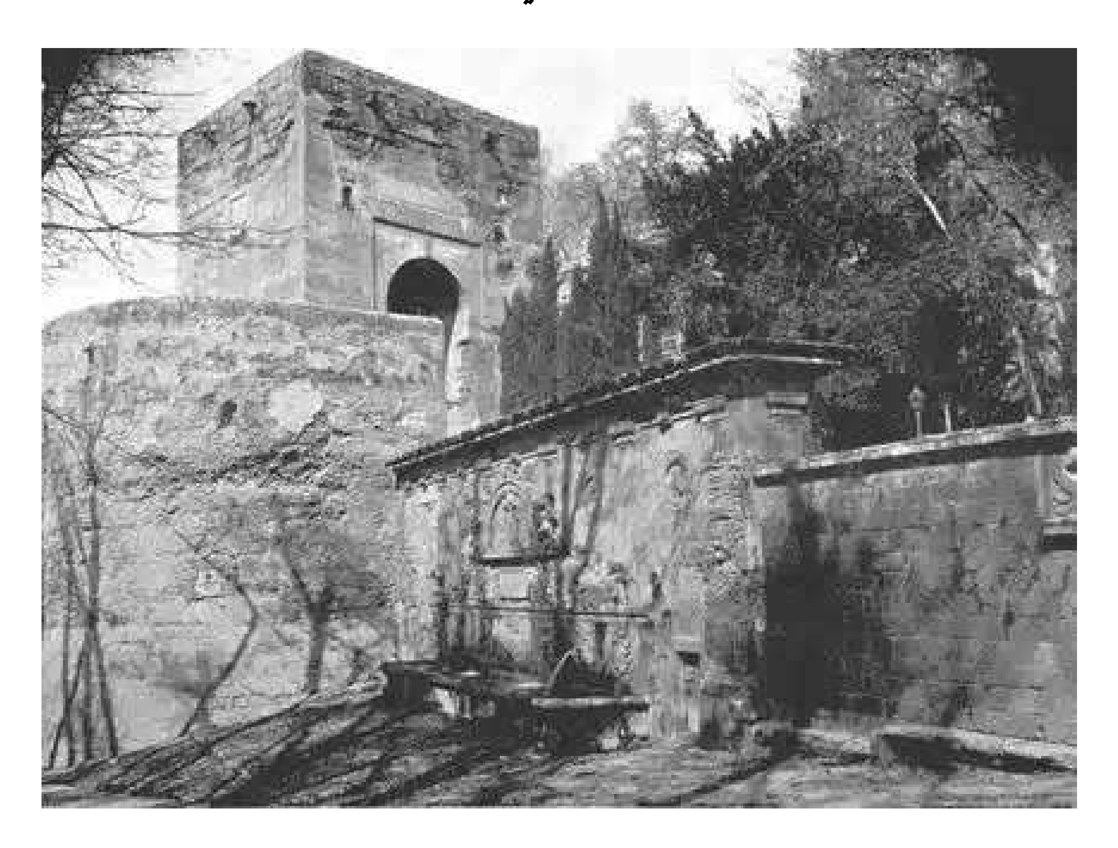
الواجهة الغربيّة لقصر كارلوس الخامس (شارلكان)



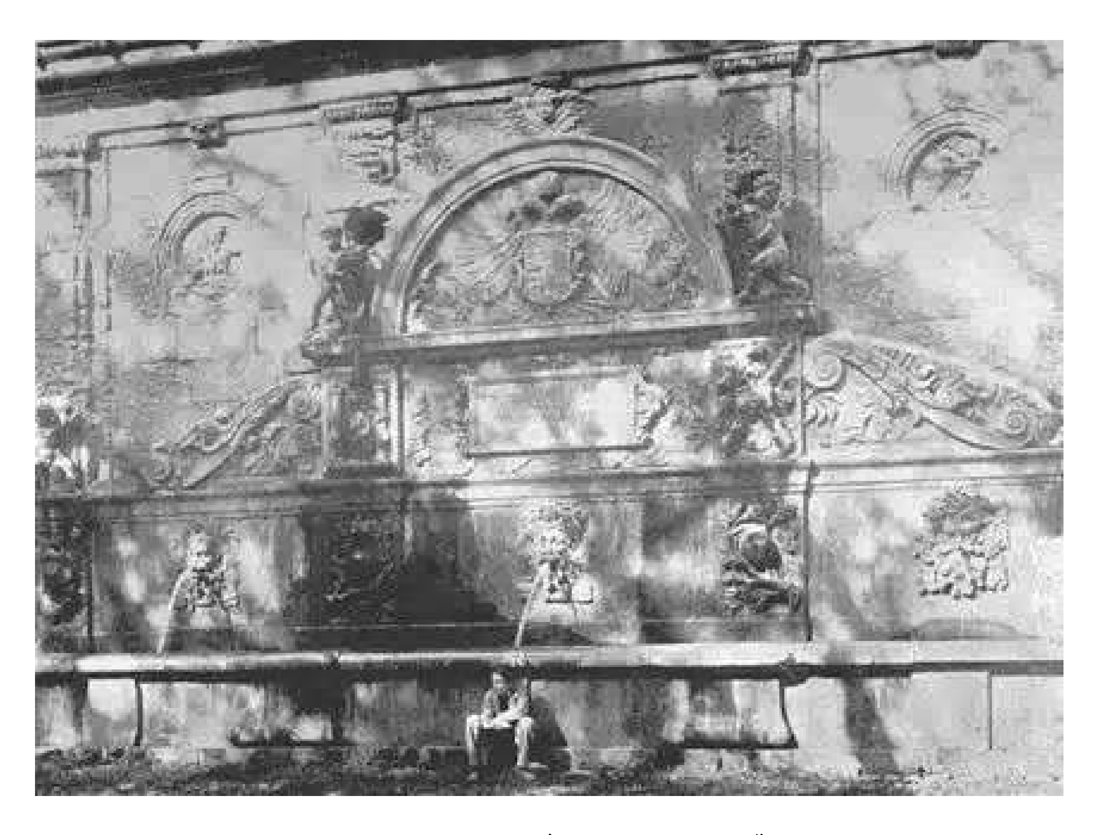
باب الغراناداس



النّزهات والفنادق في قصر الحمراء



باب الشّريعة ونافورة كارلوس الخامس



جوار قصر الحمراء . نافورة كارلوس الخامس



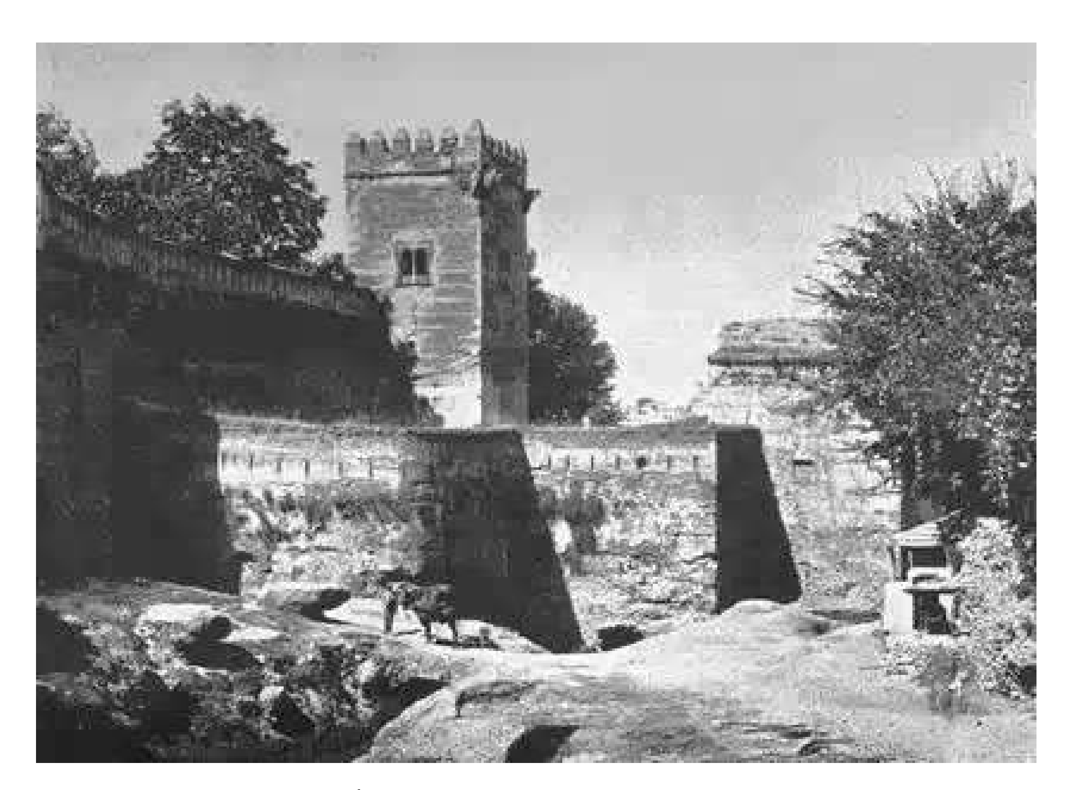
باب الشّريعة. المدخل الرّئيسي إلى قصر الحمراء



باب الشّريعة



باب النّبيذ. الواجهة الشّرقيّة



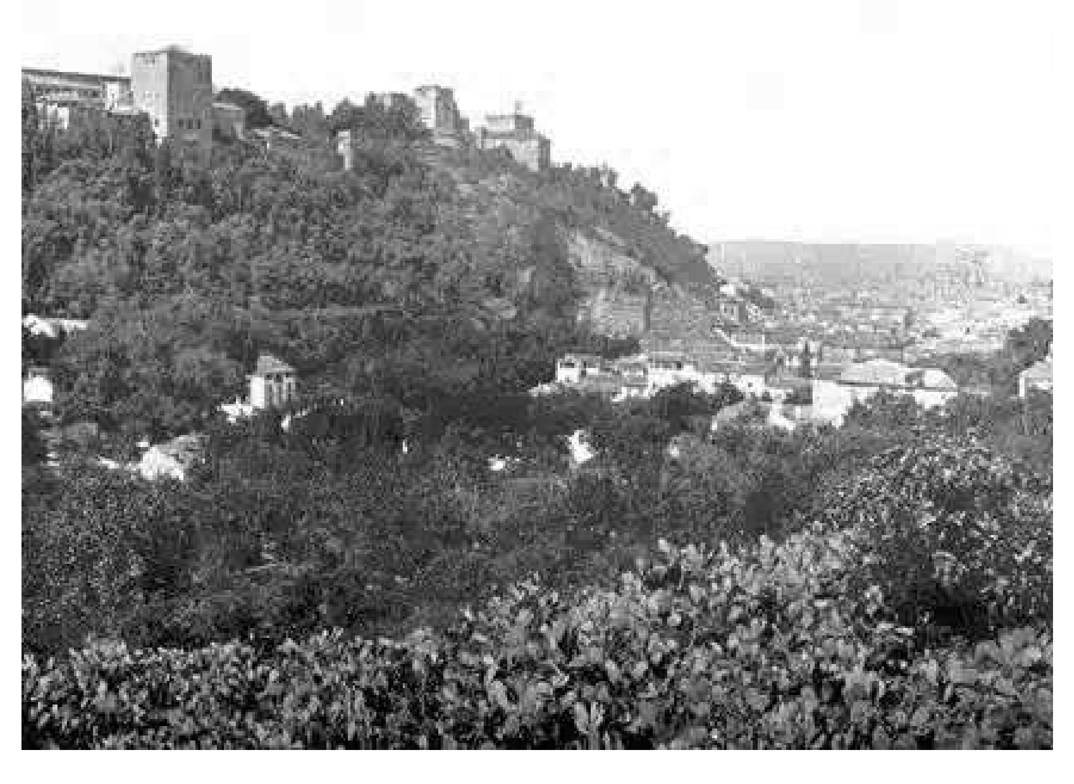
جوار قصر الحمراء . برج الآكام (الذُّرى)



برج الآكام



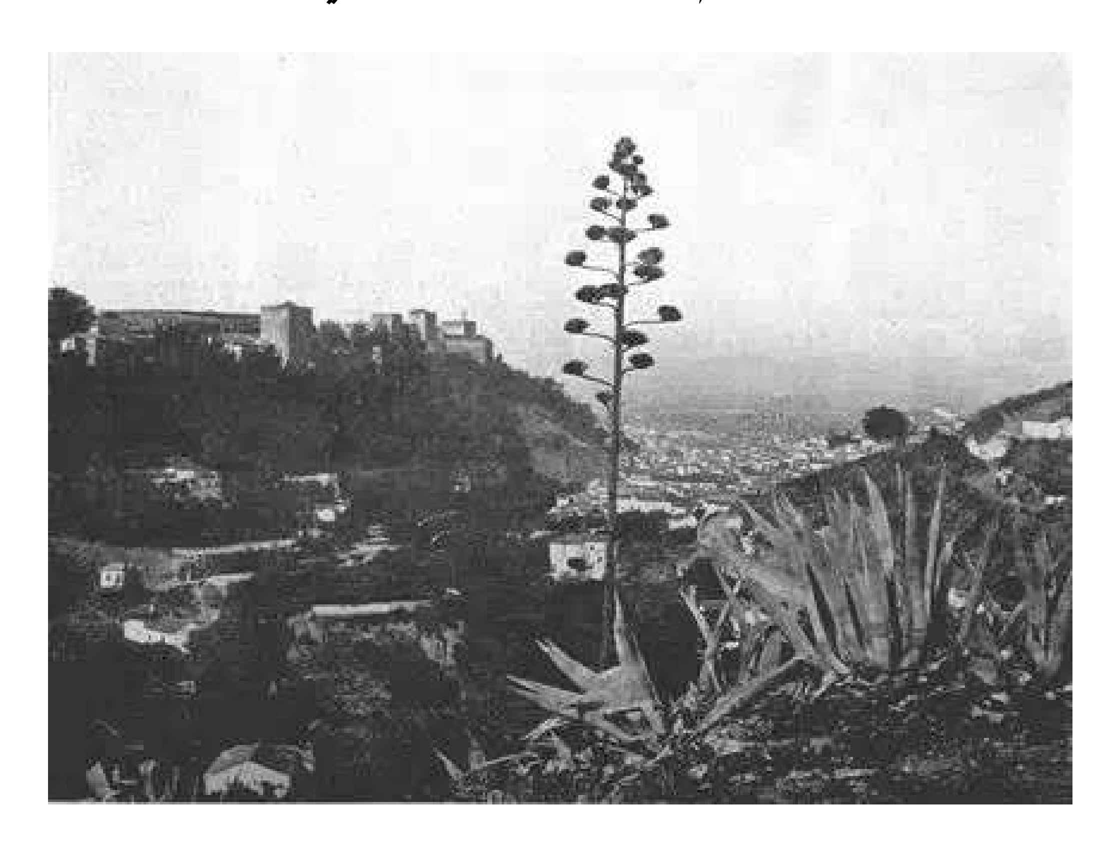
منظر عام لقصر الحمراء من كرسي المغربي (سّيا دِل مورو)



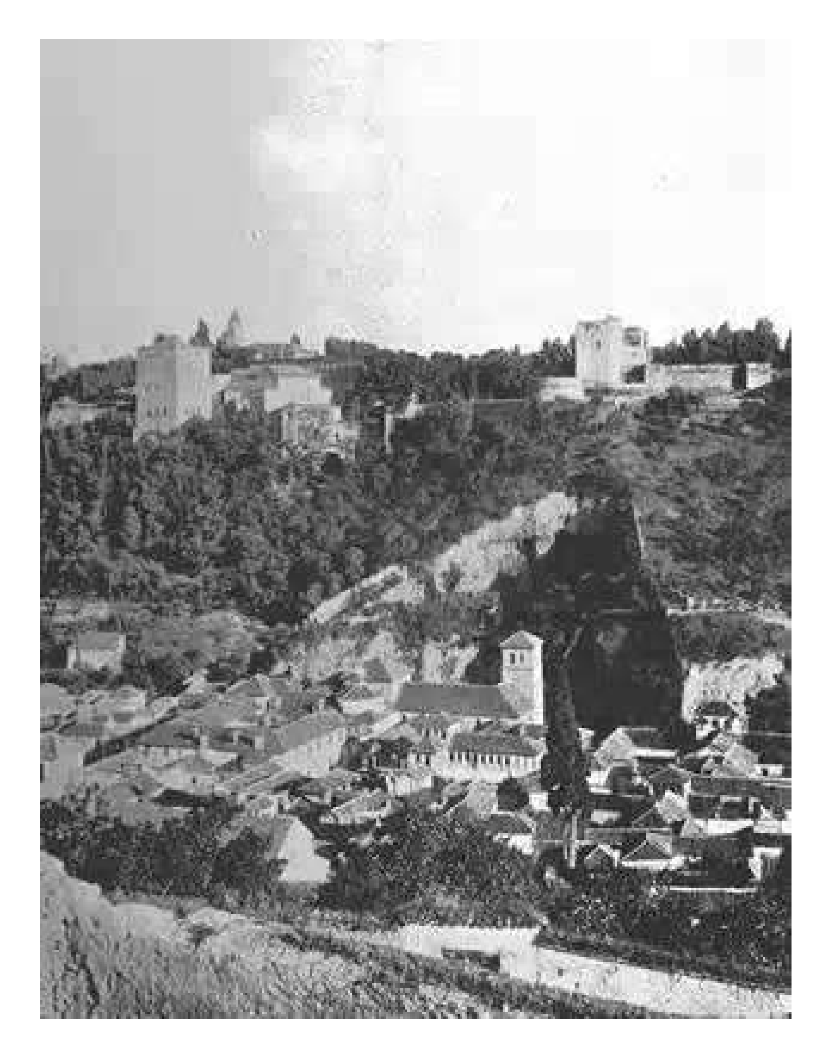
منظر عام لقصر الحمراء من حواري الغجر



منظر عام لقصر الحمراء من جنّة العريف



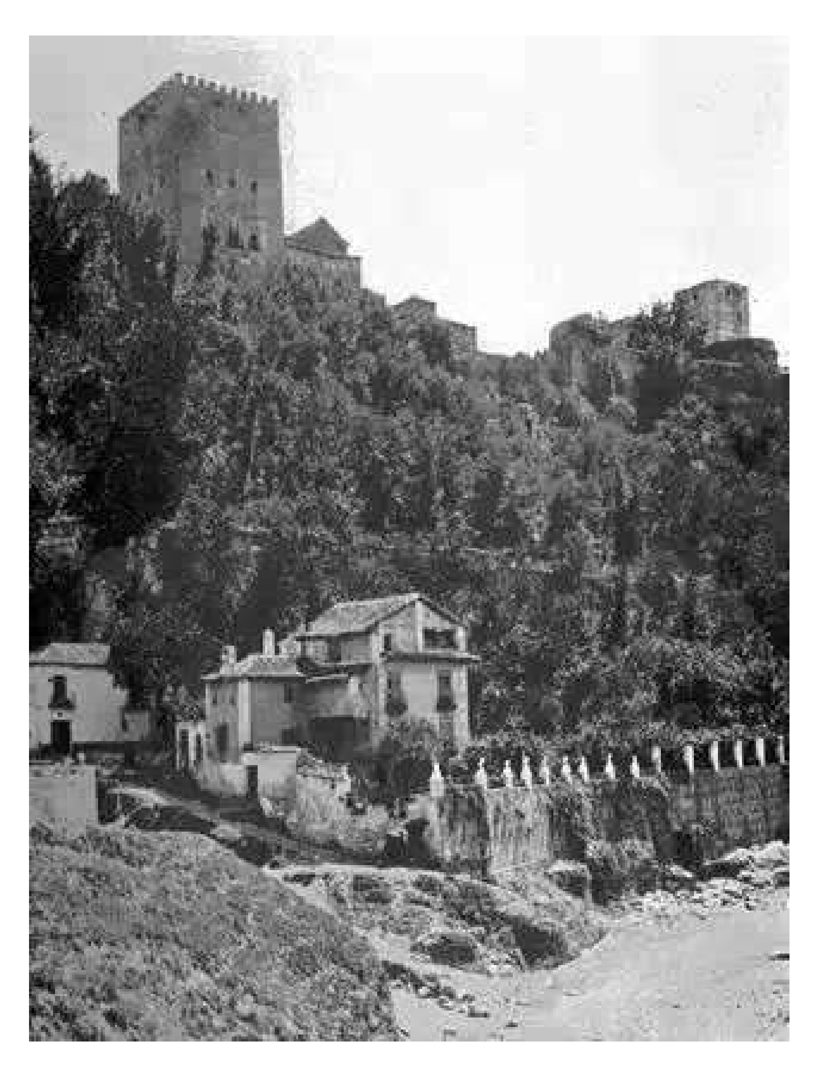
منظر لغرناطة وقصر الحمراء من جبل ساكرومونتهِ



منظر عام لقصر الحمراء من سان نيكولاس



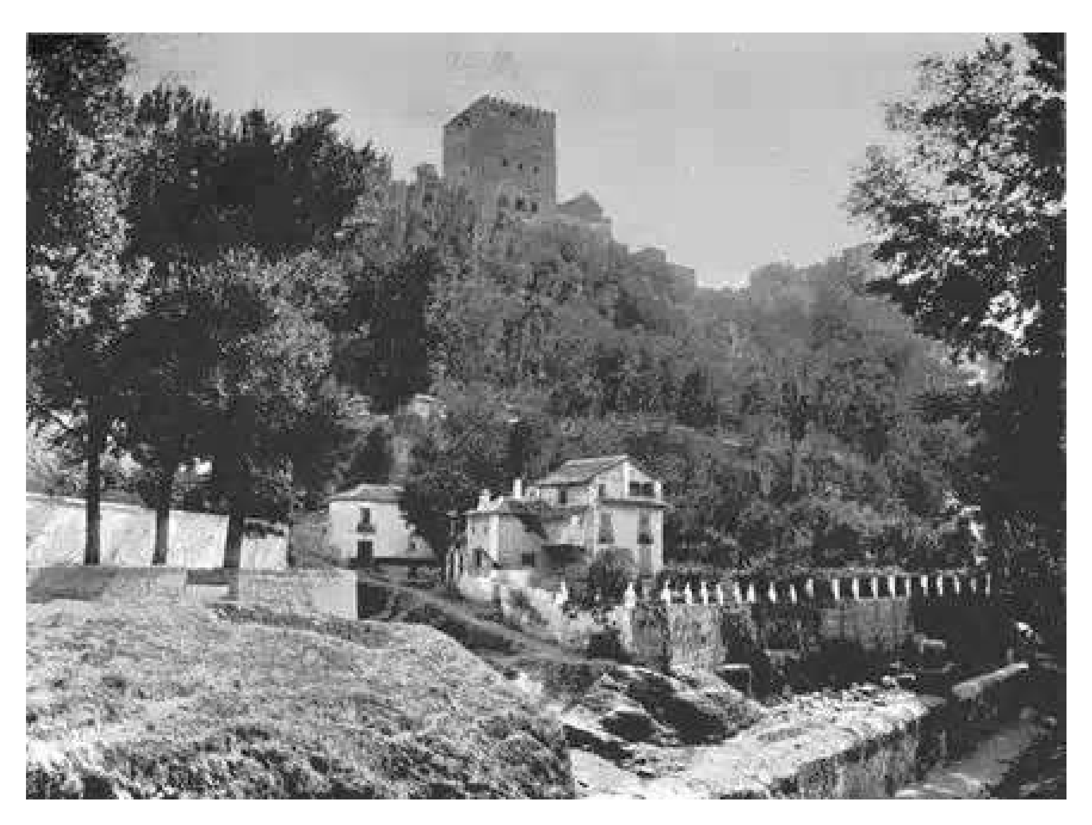
برج الحراسة، الكاتدرائيّة، وغرناطة



ڤيّلات على ضفاف نهر دارّو (حَدره)



منظر عام لقصر الحمراء



ڤيّلات على ضفاف نهر دارّو (حَدره)



برج الحراسة والكاتدرائيّة



البرج الأحمر



برج العرفان (أوميناخِه) وحواري الغجر: خارج كهوفهم



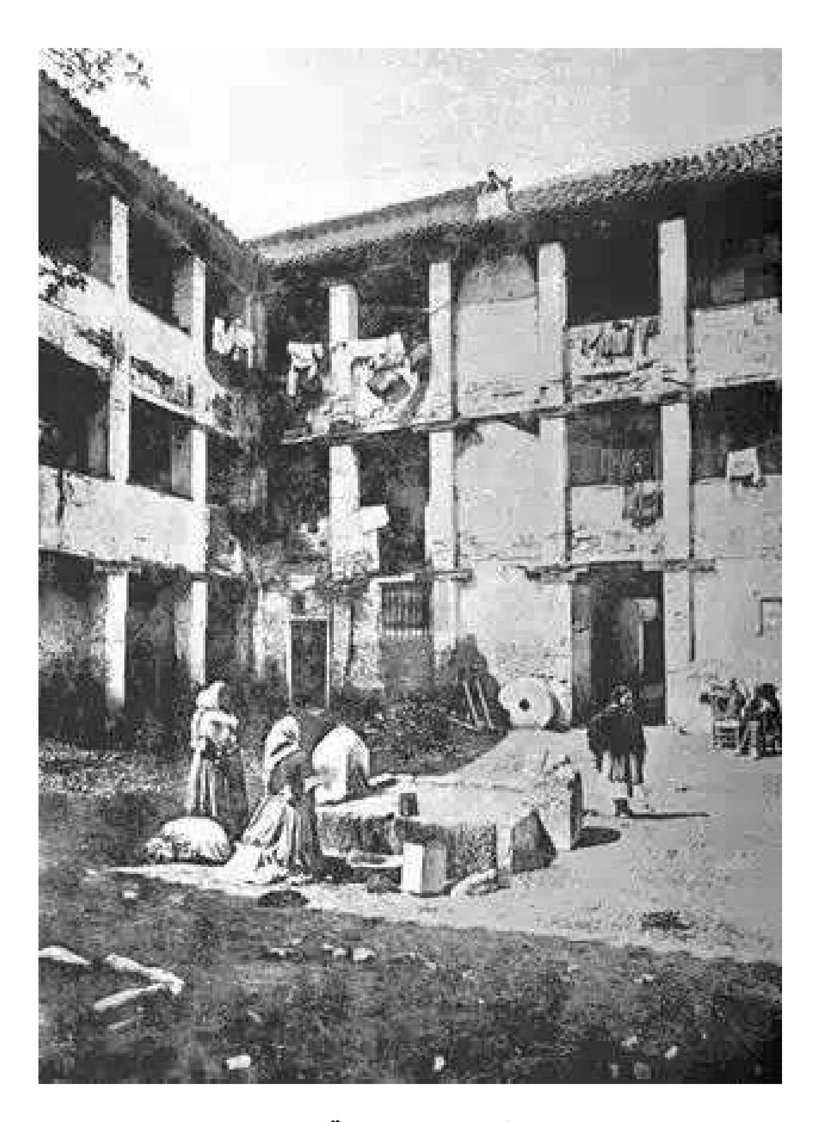
مجرى نهر دارّو (حَدره)



باب إلبيرة. المدخل القديم للتّحصينات الدّفاعيّة



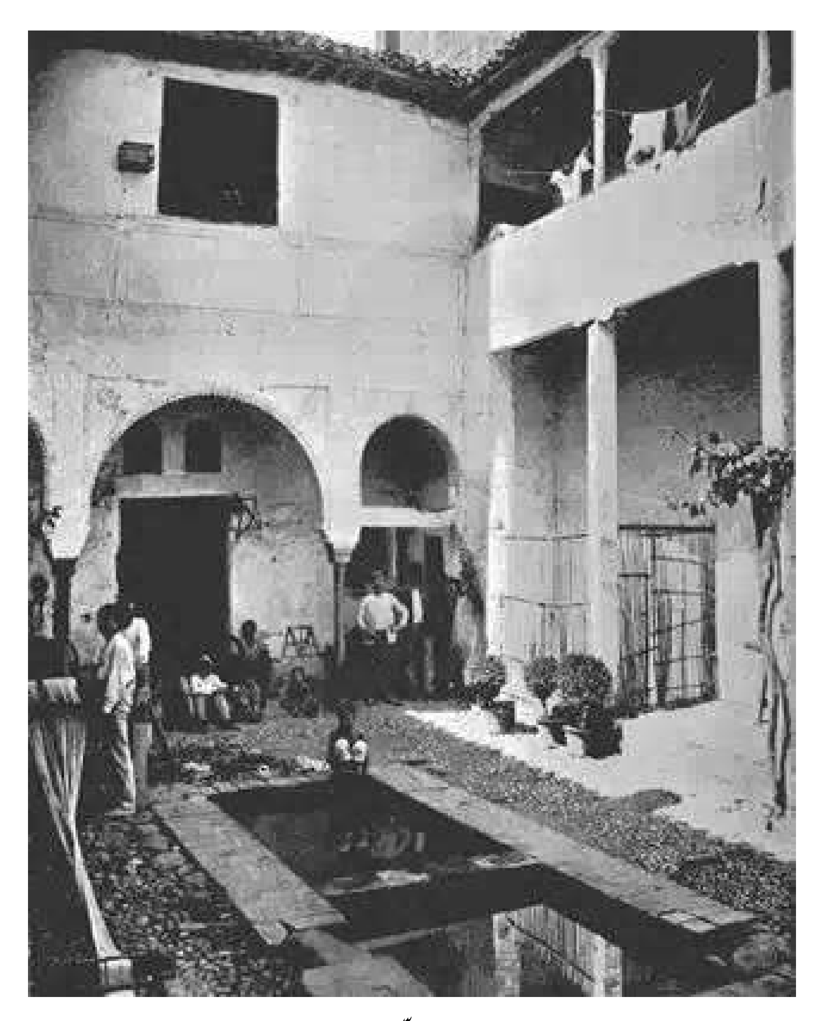
مكان الغسيل في باب الشّمس (پويرتا دِل سول)



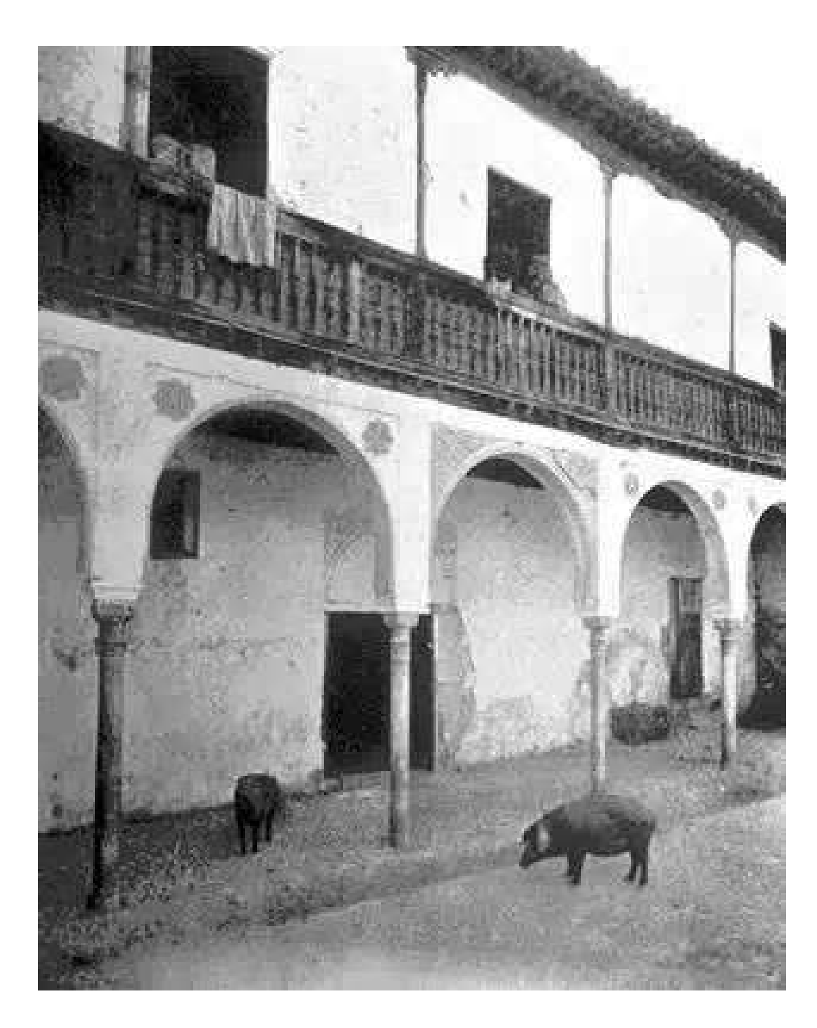
فناء دار عربّية



بوّابة مقوسنة مغربيّة



داخل دار قديمة في شارع قرن الذّهب Calle del Horno de Oro



داخل دار قديمة في البيازين



الكاتدرائيّة ومنظر عام



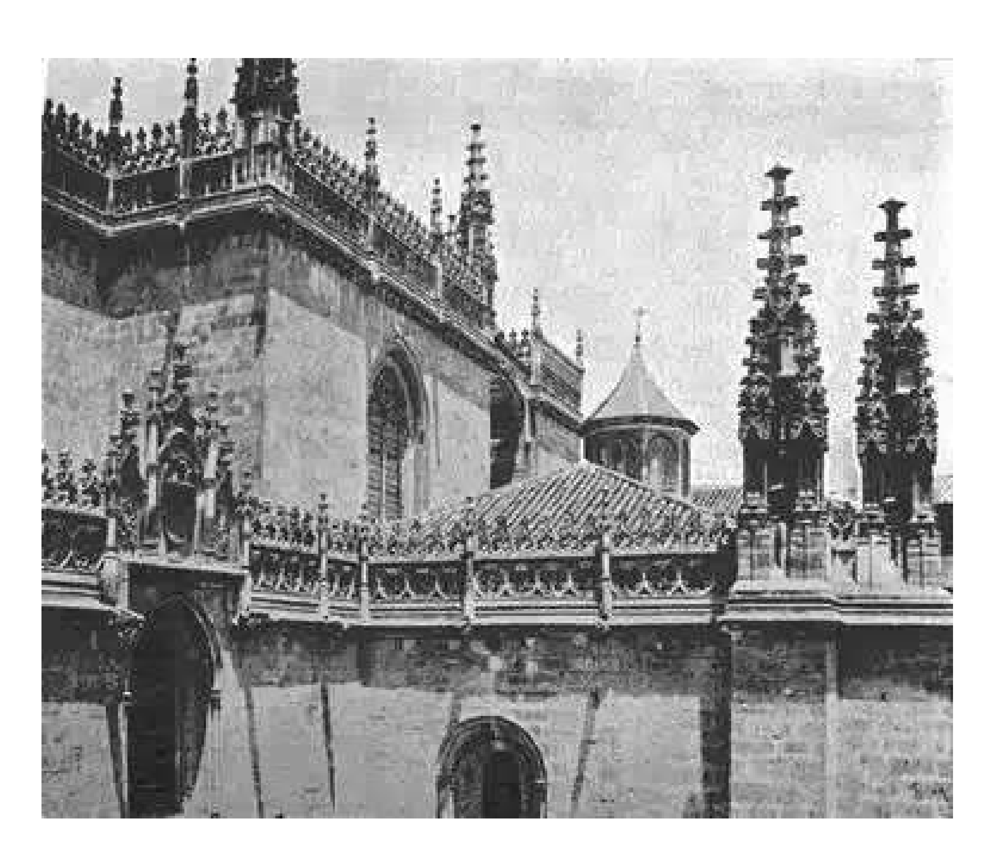
منظر عام للكاتدرائيّة



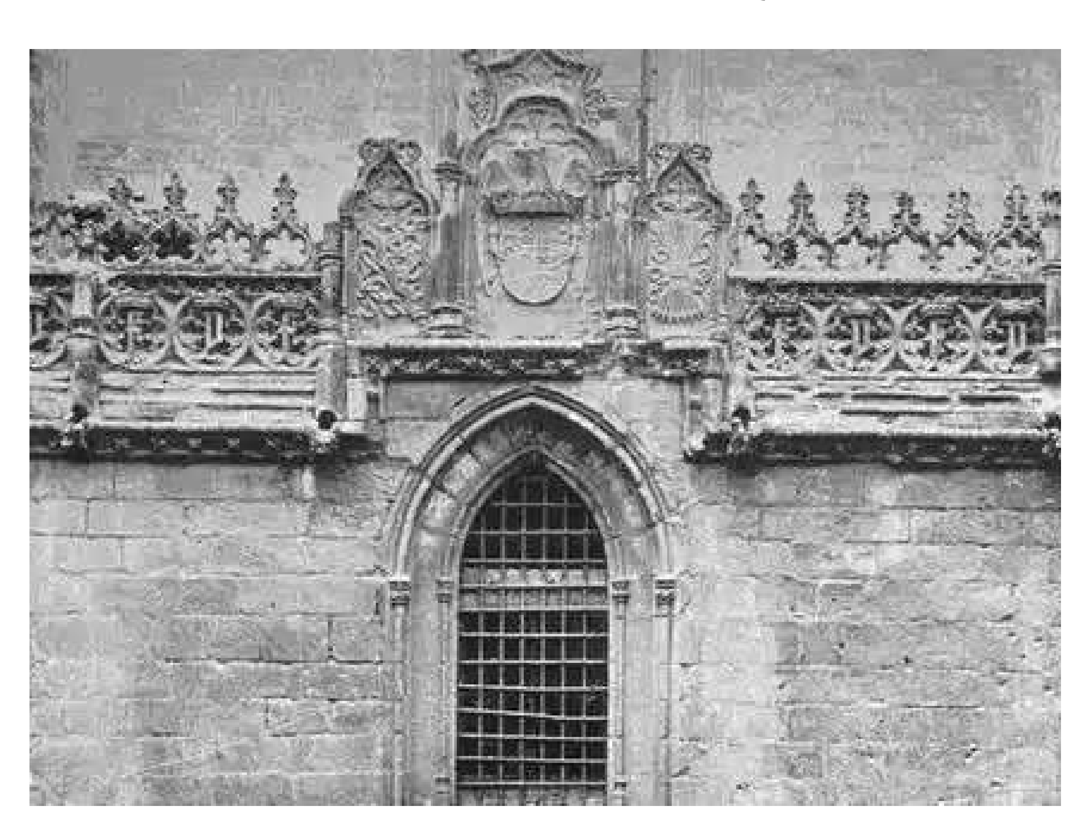
منظر عام لخارج الكاتدرائيّة



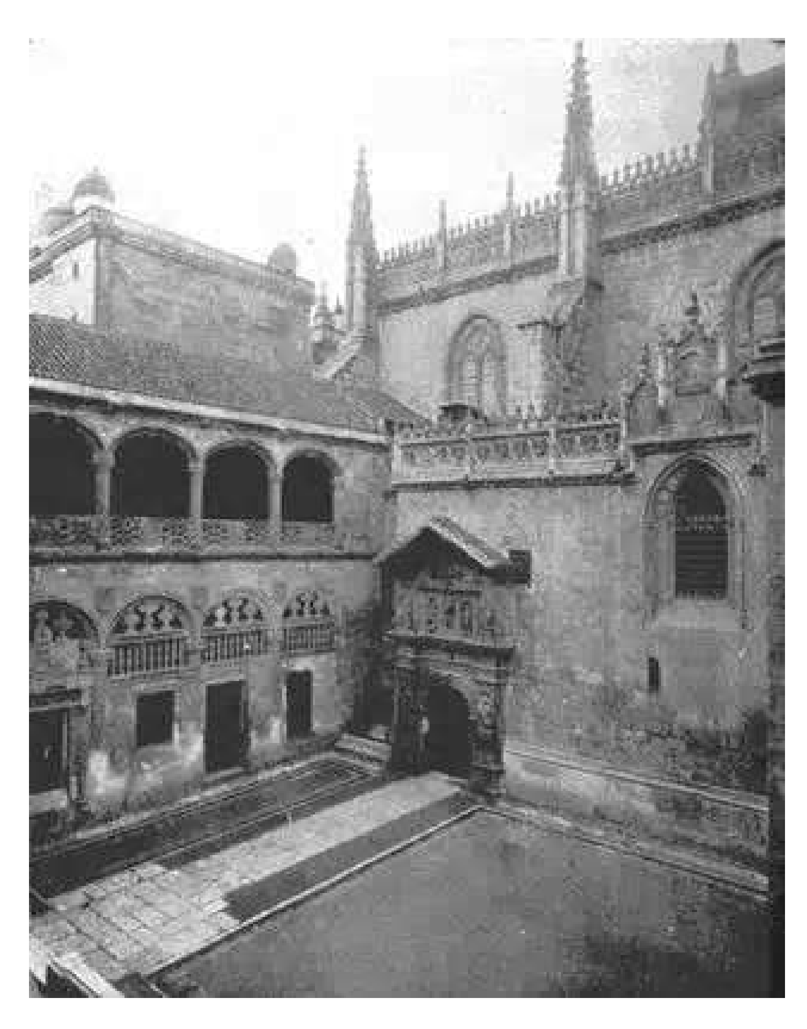
مدخل الكنيسة الملكيّة



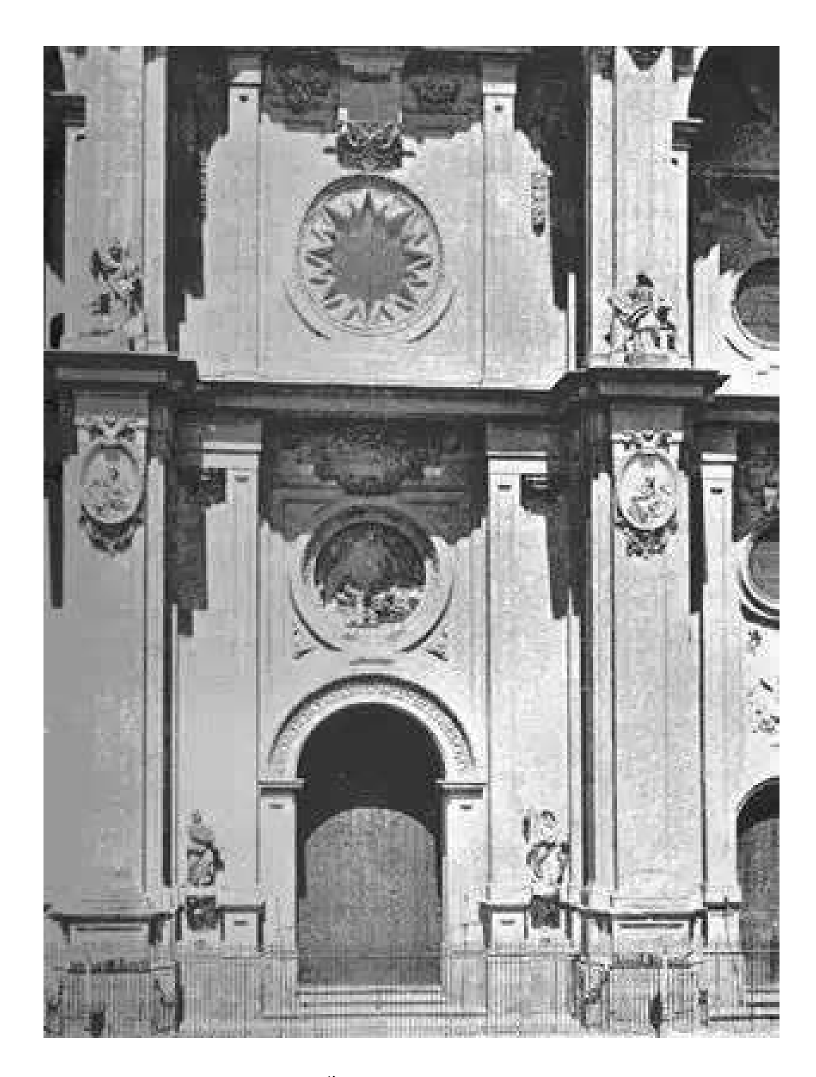
خارج الكنيسة الملكيّة للملكيين الكاثوليكيين



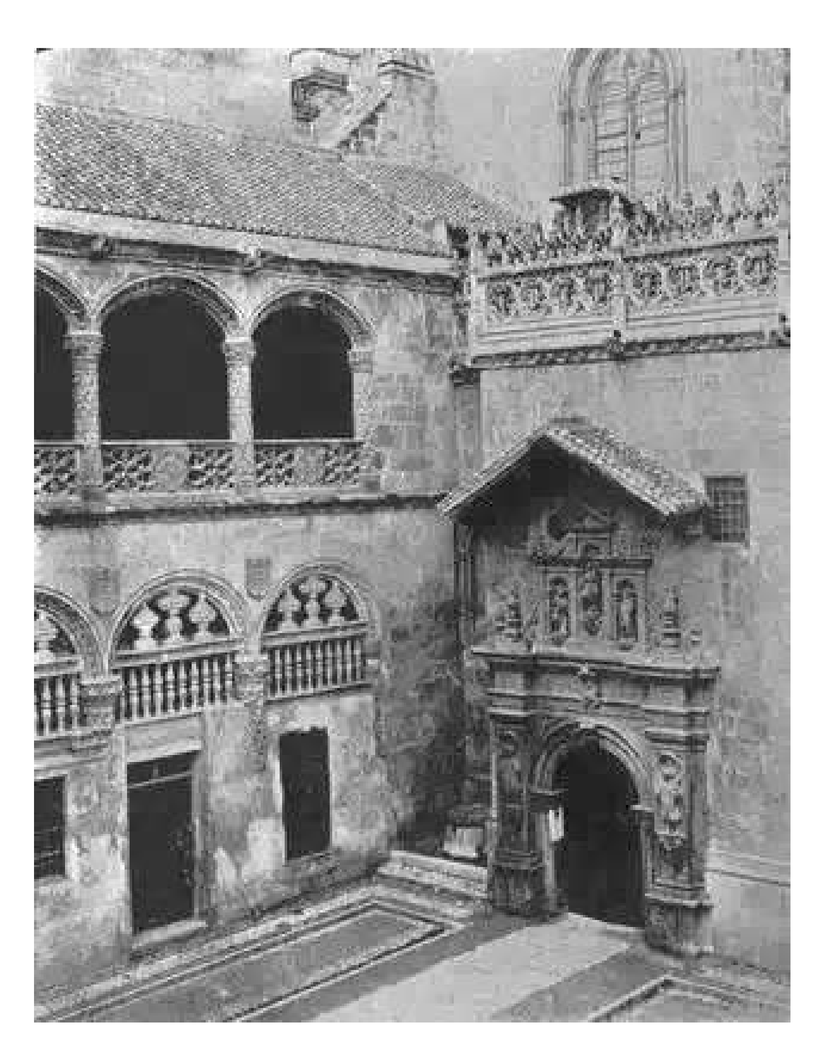
تفصيل بخارج الكنيسة الملكيّة



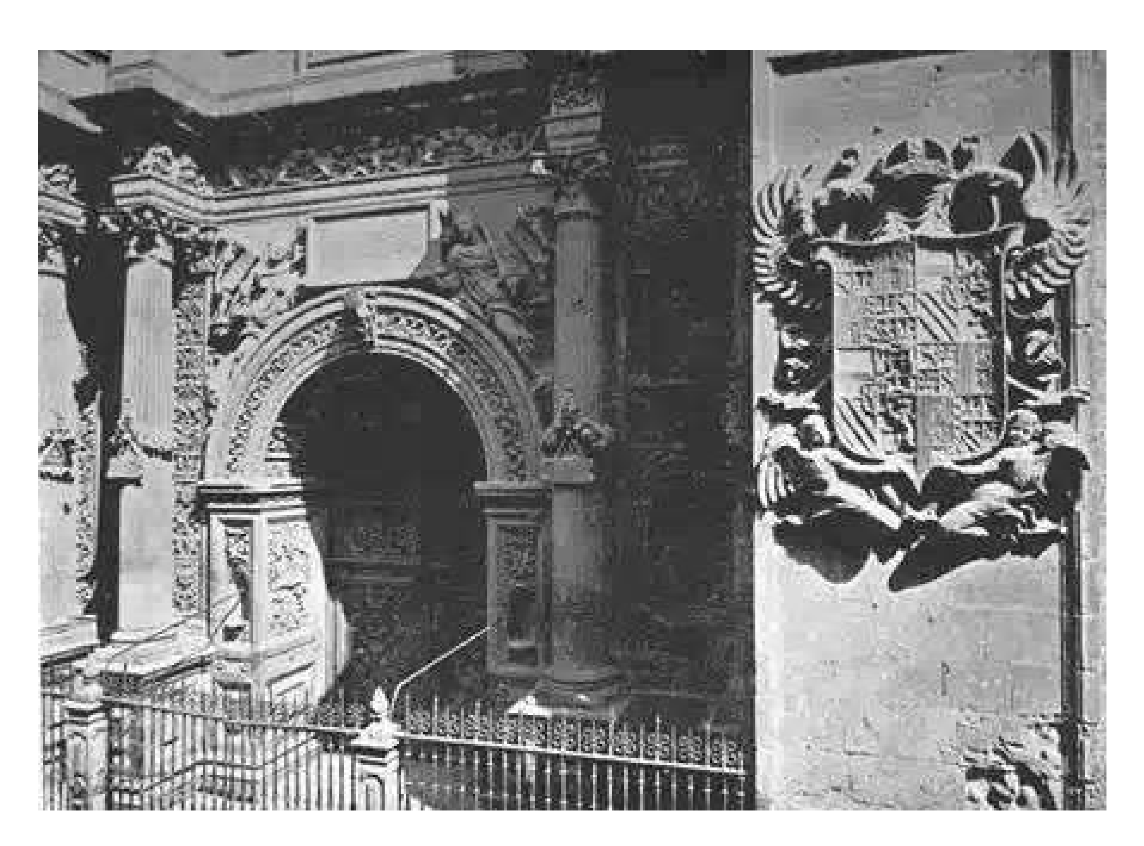
خارج الكنيسة الملكيّة



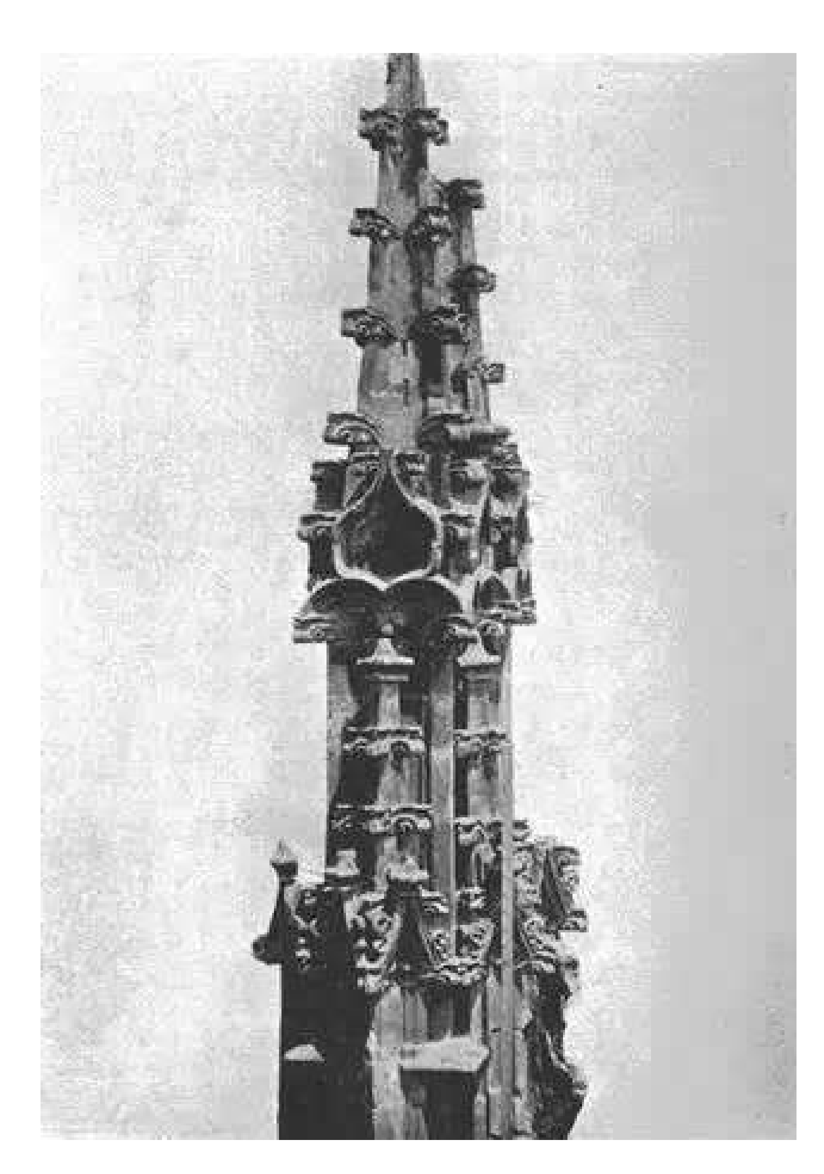
خارج الكاتدرائيّة



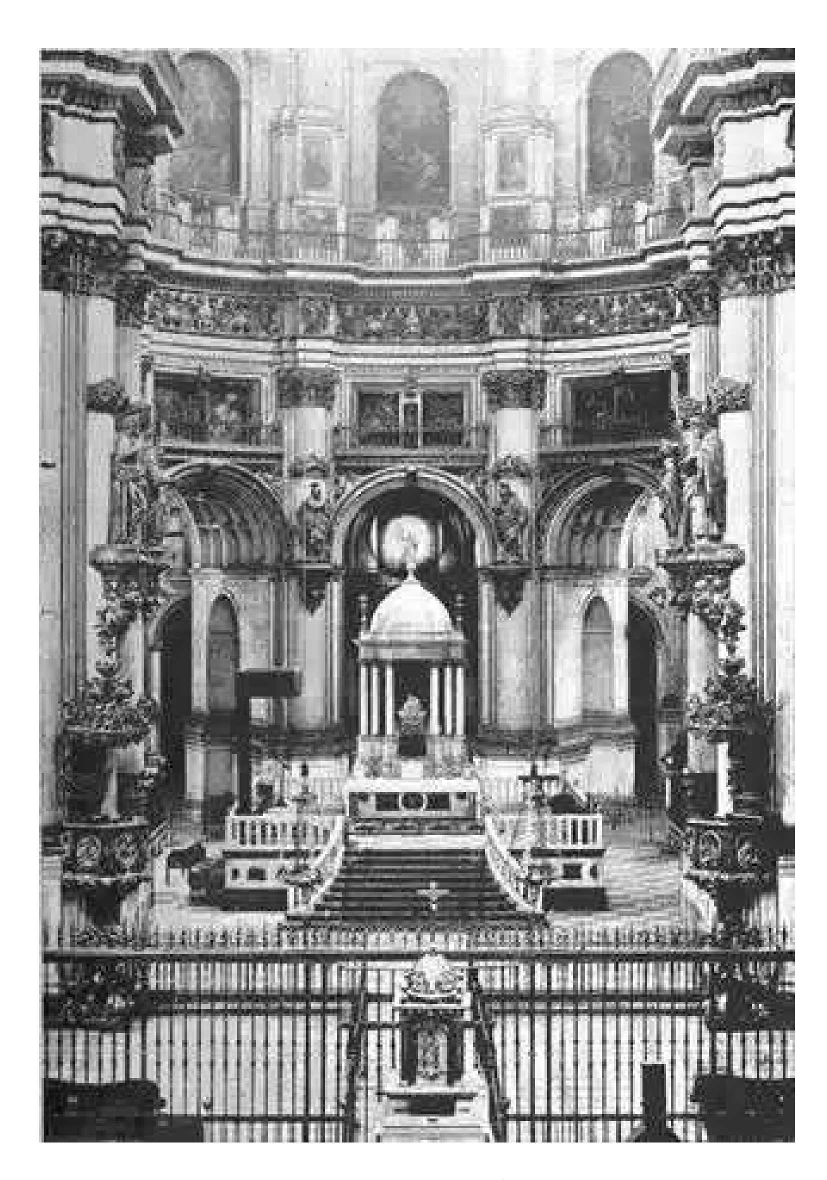
خارج الكنيسة الملكيّة



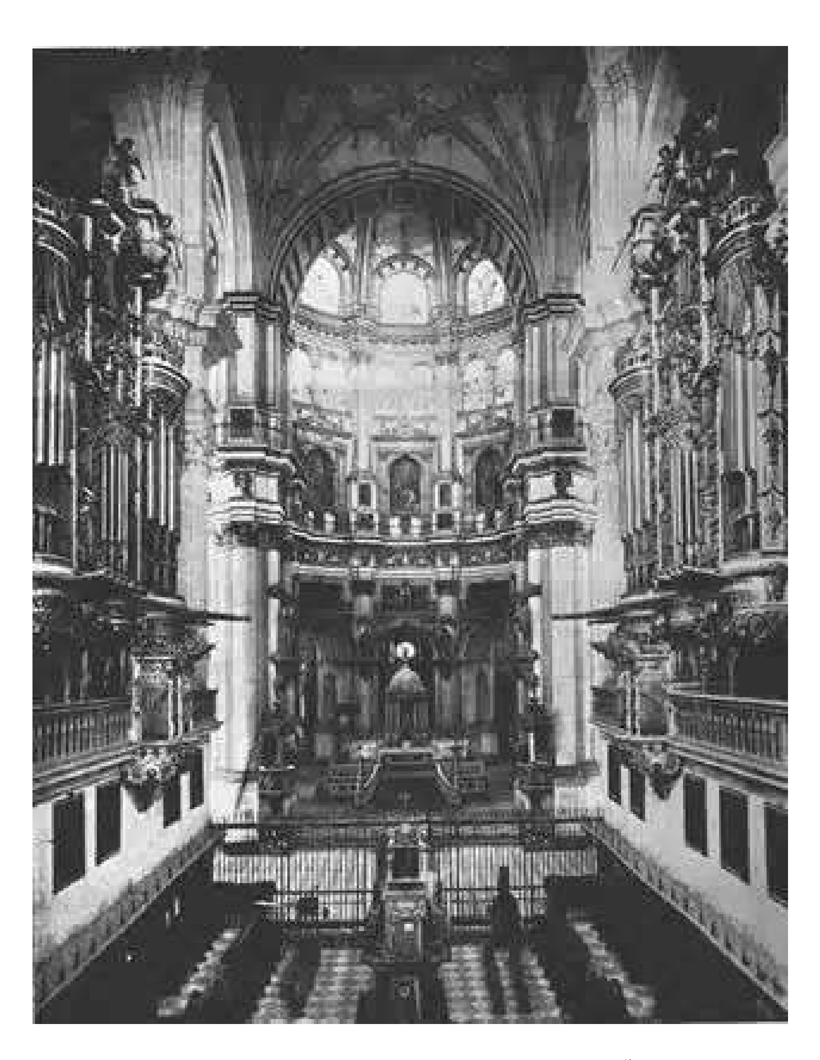
خارج الكاتدرائيّة. باب الغفران



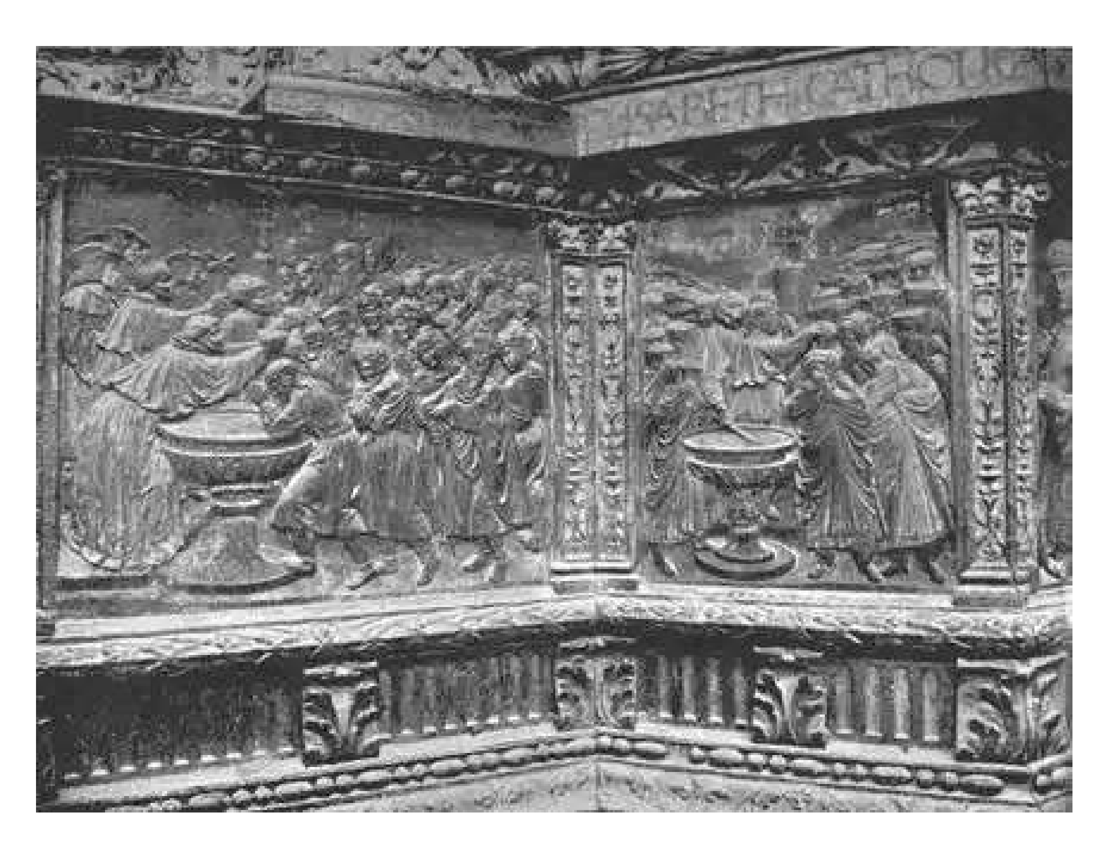
برج مُستدق قوطي على الكنيسة الملكيّة



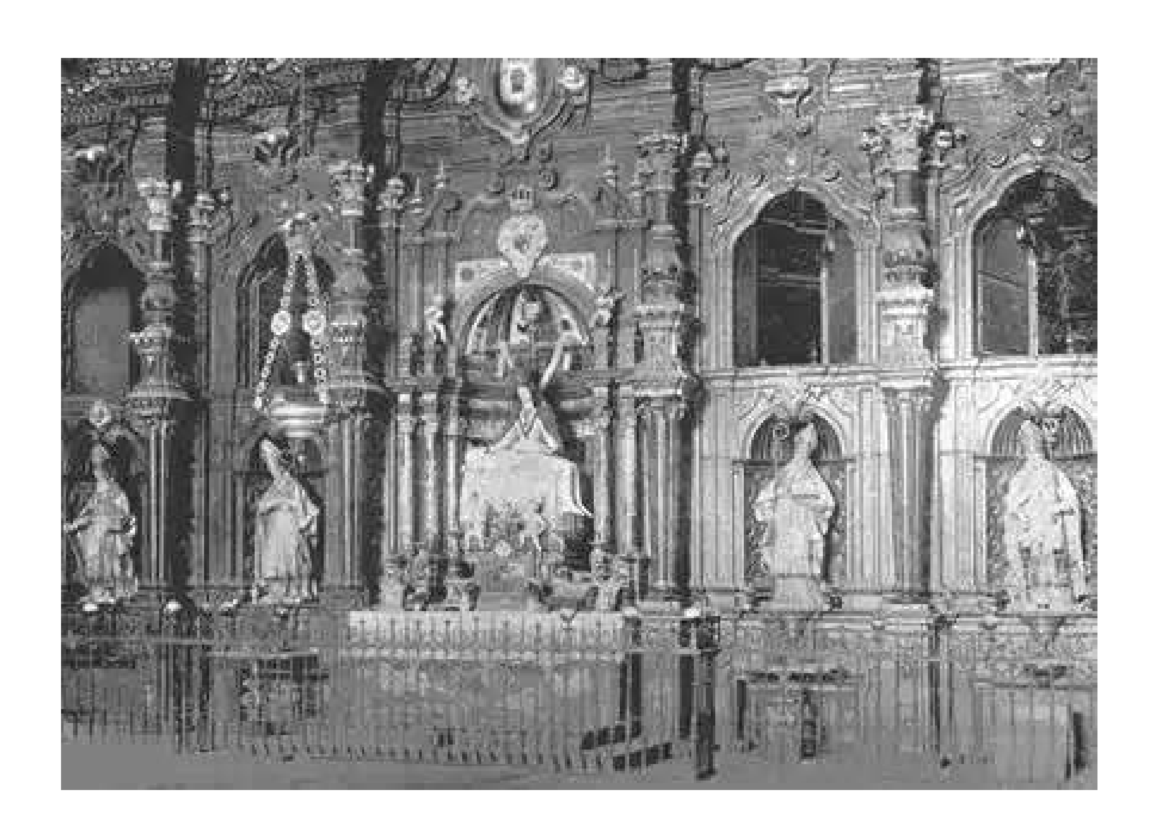
الكاتدرائيّة. منظر من الكورَس



الكاتدرائيّة. منظر عام لمذبح الهيكل والمذبح العالي



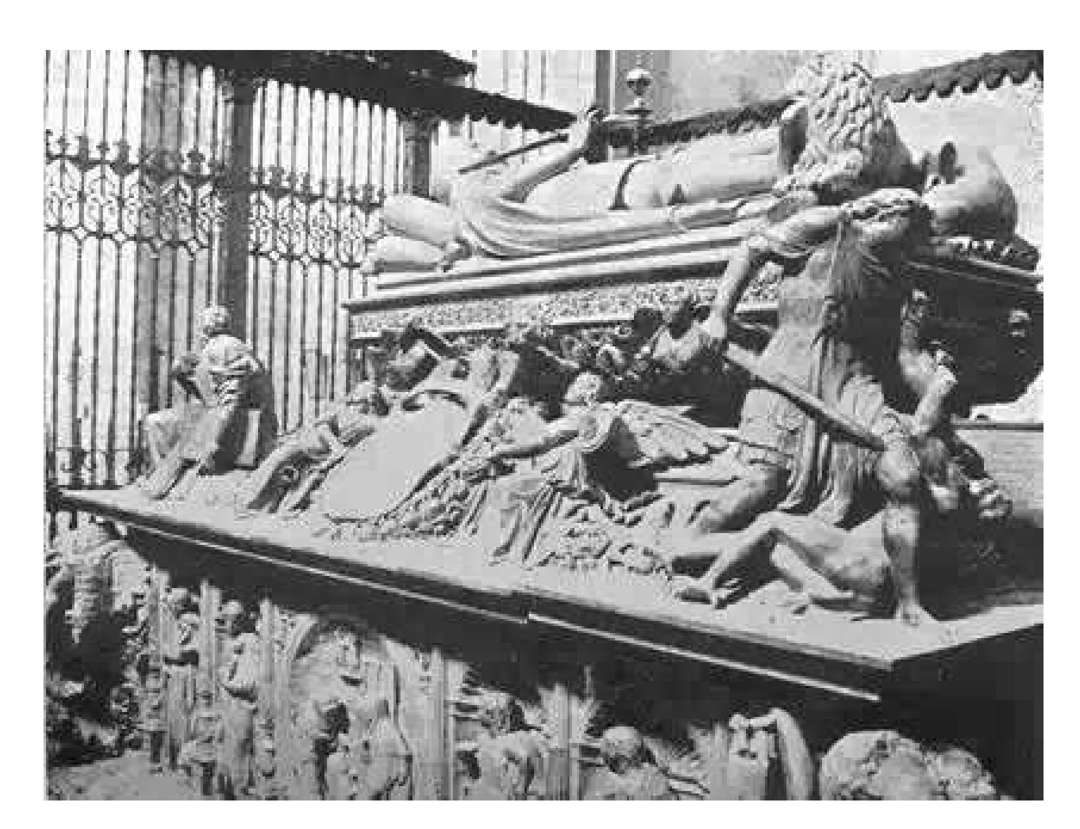
نقش ضئيل البروز في كتلة مذبح الكنيسة الملكيّة



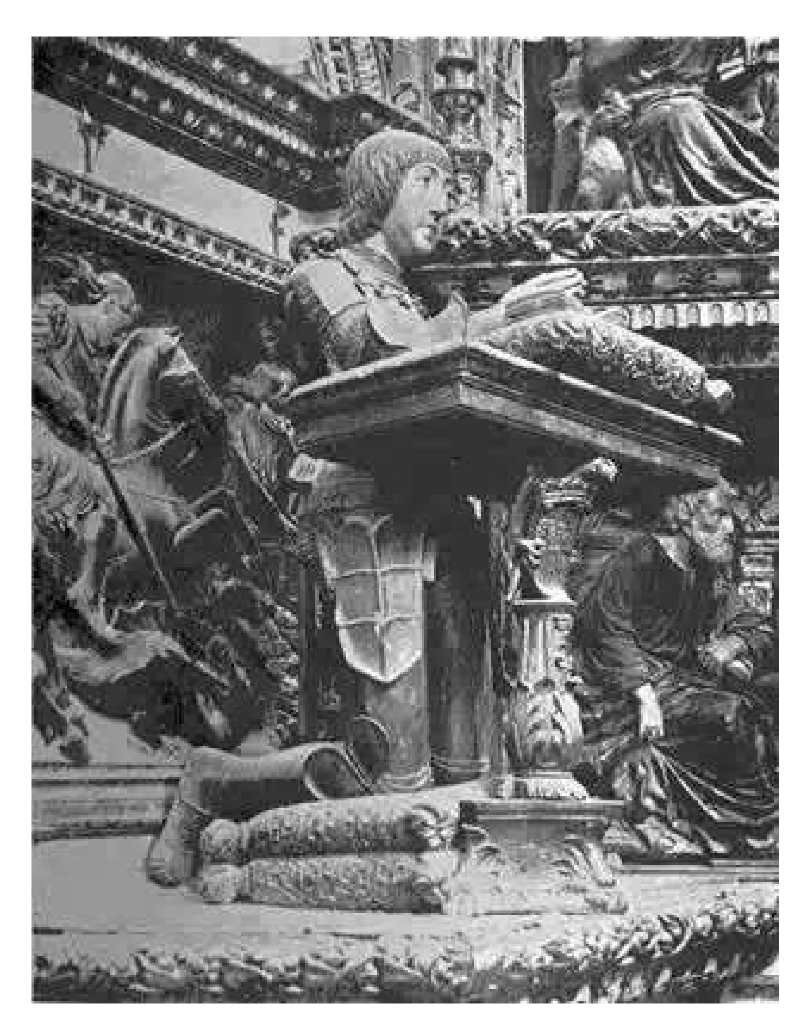
منظر عام لمذبح الهيكل في الكاتدرائيّة



الكنيسة الملكيّة. ضريح الملكين الكاثوليكيين



الكنيسة الملكيّة. تفصيل لضريح الملكين الكاثوليكيين



الكنيسة الملكيّة. ضريح الملك فرناندو الكاثوليكي



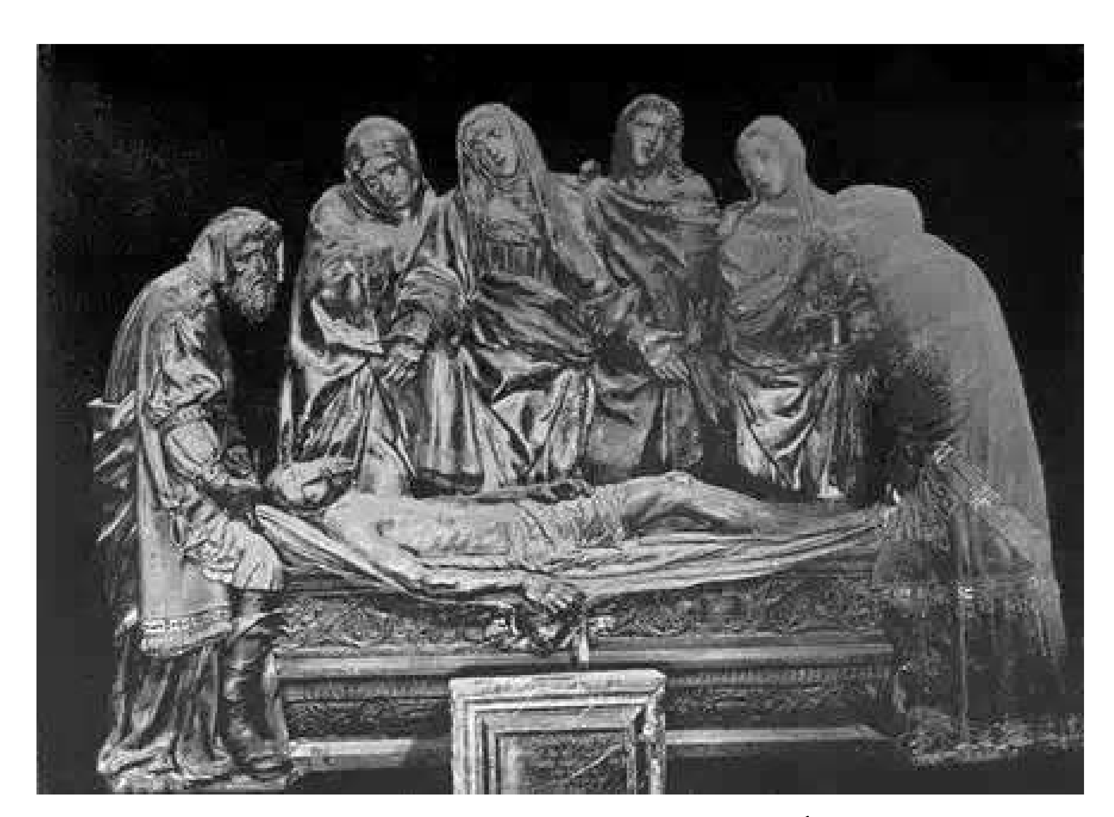
ضريح الملك فرناندو



ضريح إيسابيل الكاثوليكيّة



مدخل كنيسة القدّيس يوحنّا اللاهوتي San Juan de Dios



ضريح ألونسو كانو Alonso Cano في سان خيرونيمو



رأس يوحنّا المعمدان



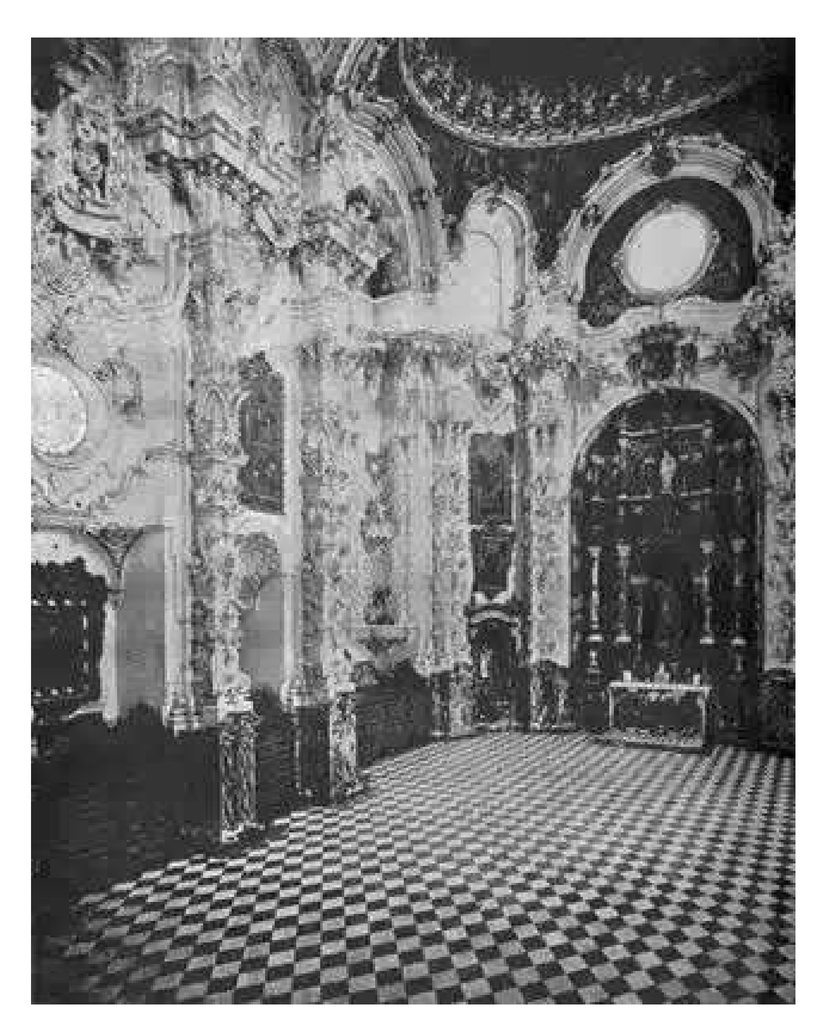
رأس يوحنّا المعمدان



رأس يوحنّا المعمدان



خارج دير كارتوخا



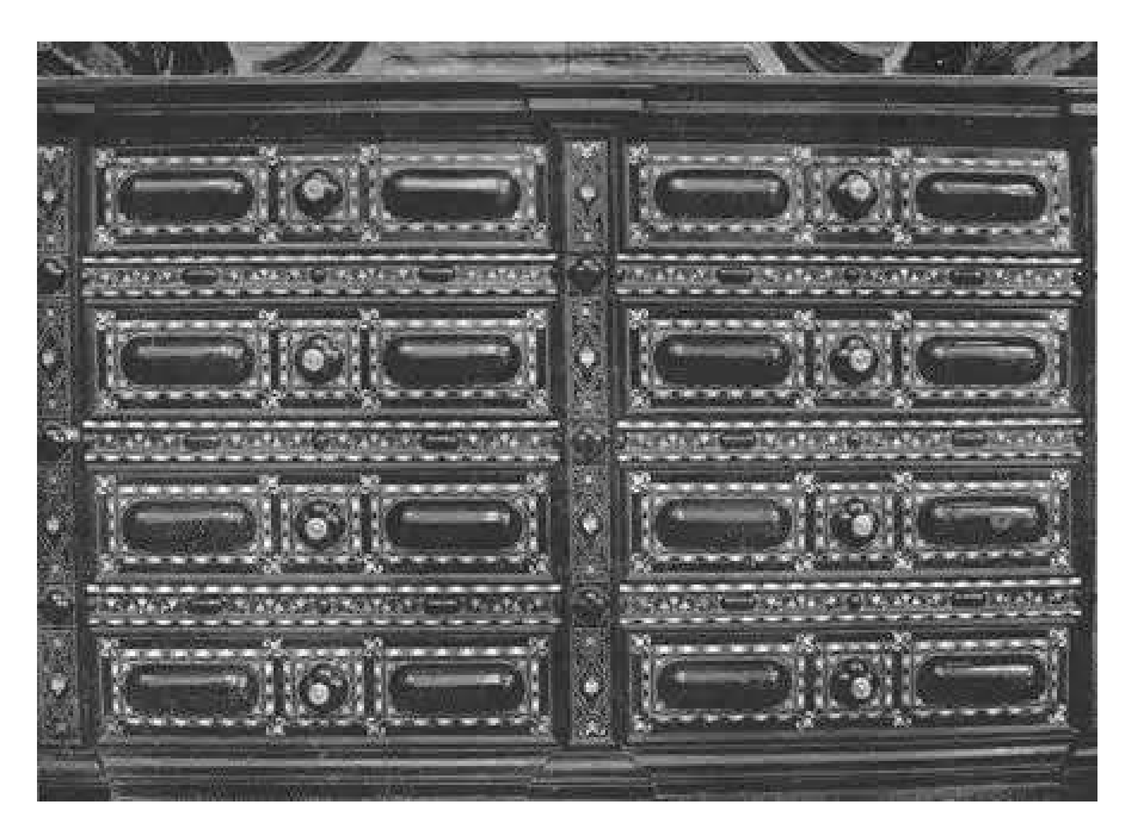
الموهف (غرفة المقدّسات) في دير كارتوخا، الجهة اليسرى



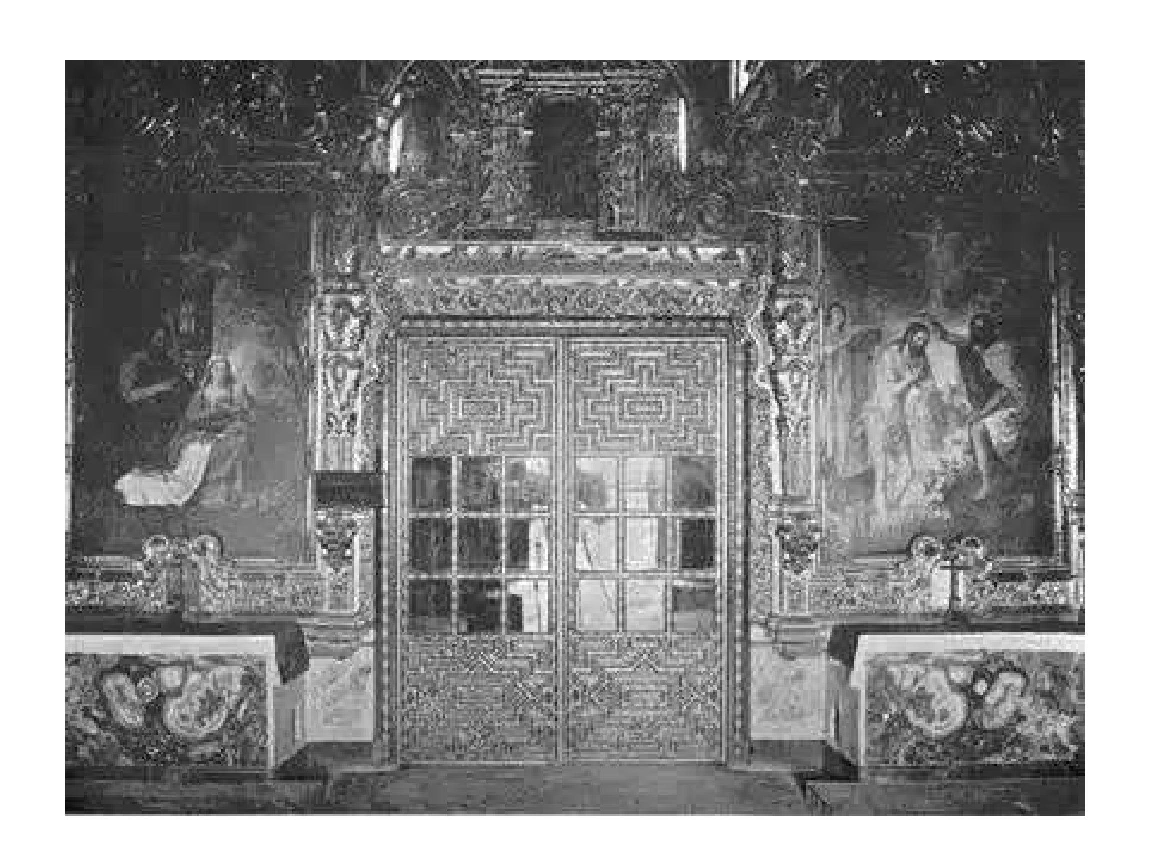
الموهف (غرفة المقدّسات) في دير كارتوخا، الجهة اليمنى



دير كارتوخا، قُدس الأقداس



دير كارتوخا، تفاصيل الخزائن في الموهف (غرفة المقدّسات)



مذابح في دير كارتوخا. لوحات من عمل سانتشيث إي كوتان، أحد رهبان سلك الدّير



دير كارتوخا، الحَبَل بلا دَنَس، عمل موريّو



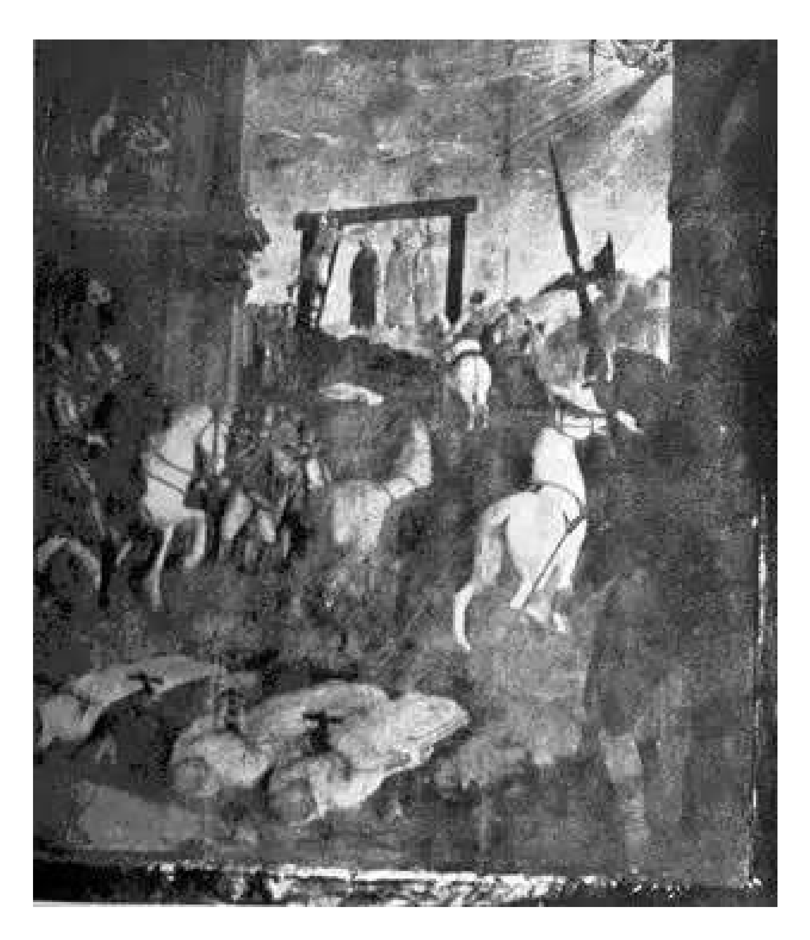
دير كارتوخا، عذراء السُّبحة، عمل موريّو



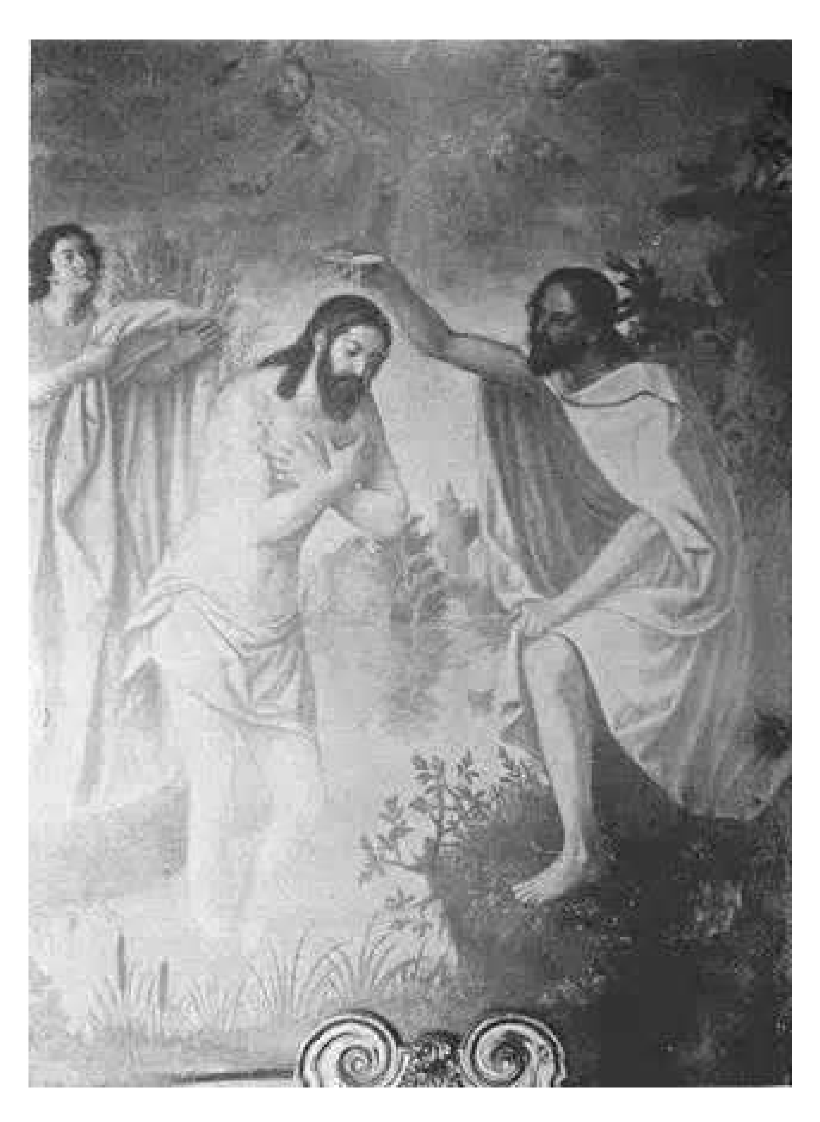
دير كارتوخا، القدّيس يوسف والطّفل. منحوتة لألونسو كانو



دير كارتوخا، القدّيسة مريم المجدليّة. منحوتة لألونسو كانو



دير كارتوخا، خيّالة يشنقون شُهداء. عمل سانتشيث كوتان



دير كارتوخا، تعميد المسيح. عمل سانتشيث كوتان



دير كارتوخا، العائلة المقدّسة. عمل سانتشيث كوتان



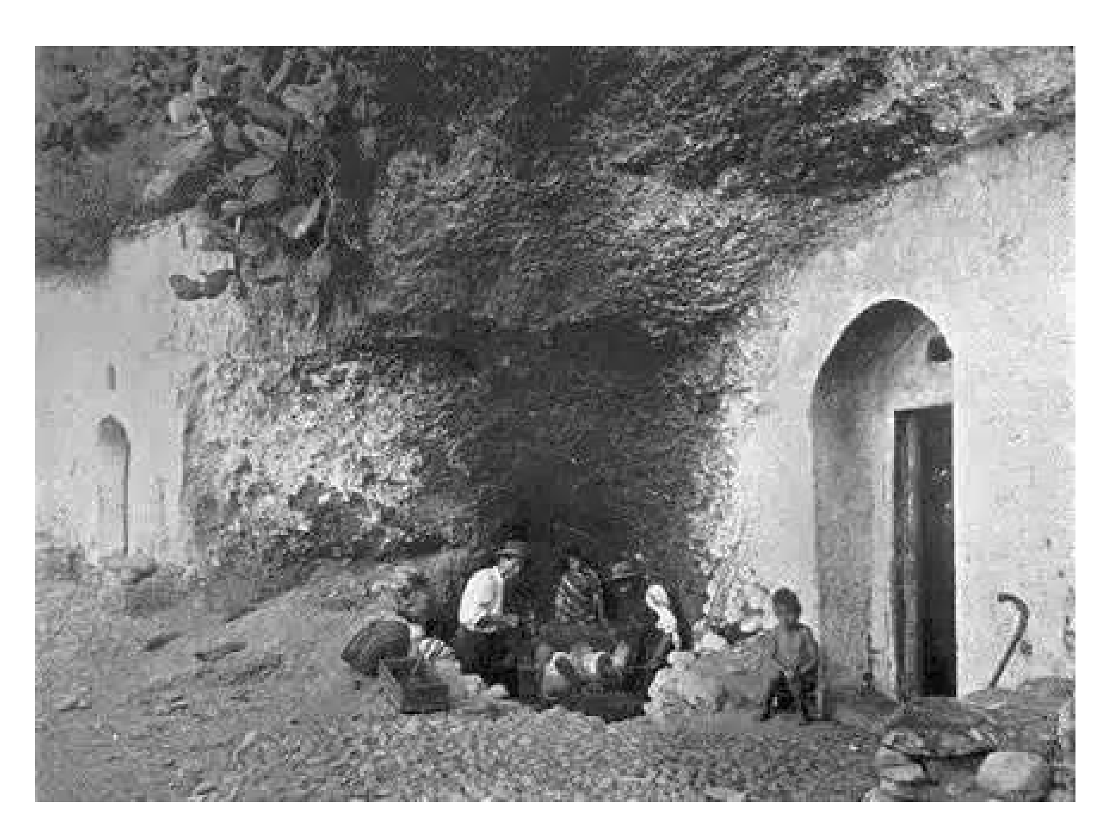
صلب المسيح. عمل مورالِس



حَبل السّيدة العذراء. عمل موراليِس



حواري الغجر. خارج الكهوف



حواري الغجر





غجر يرقصون في حواريهم



أنواع من الغجر عند مداخل كهوفهم

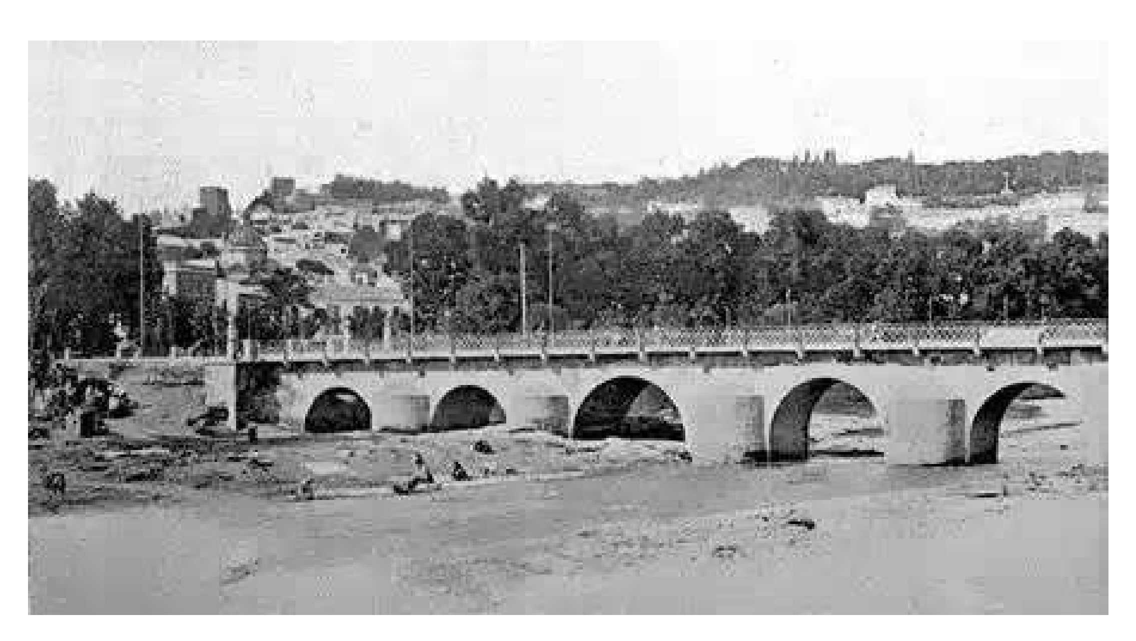


غجر يرقصون في حواريهم



راقصات غجر وقائدهن خ. أمايا

J. Amaya



جسر نهر شنيل Genil



منظر عام



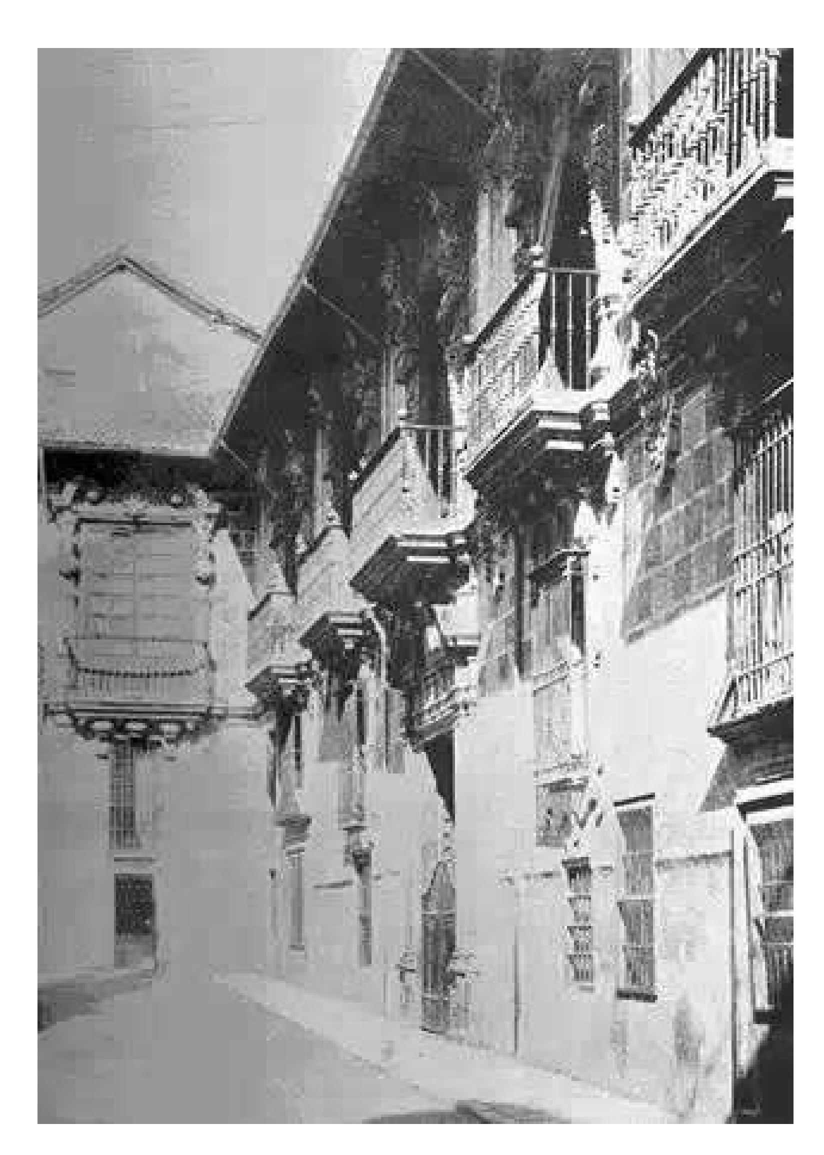
منظر عام لمحلّة البيازين القديمة



منظر عام من برج الحراسة



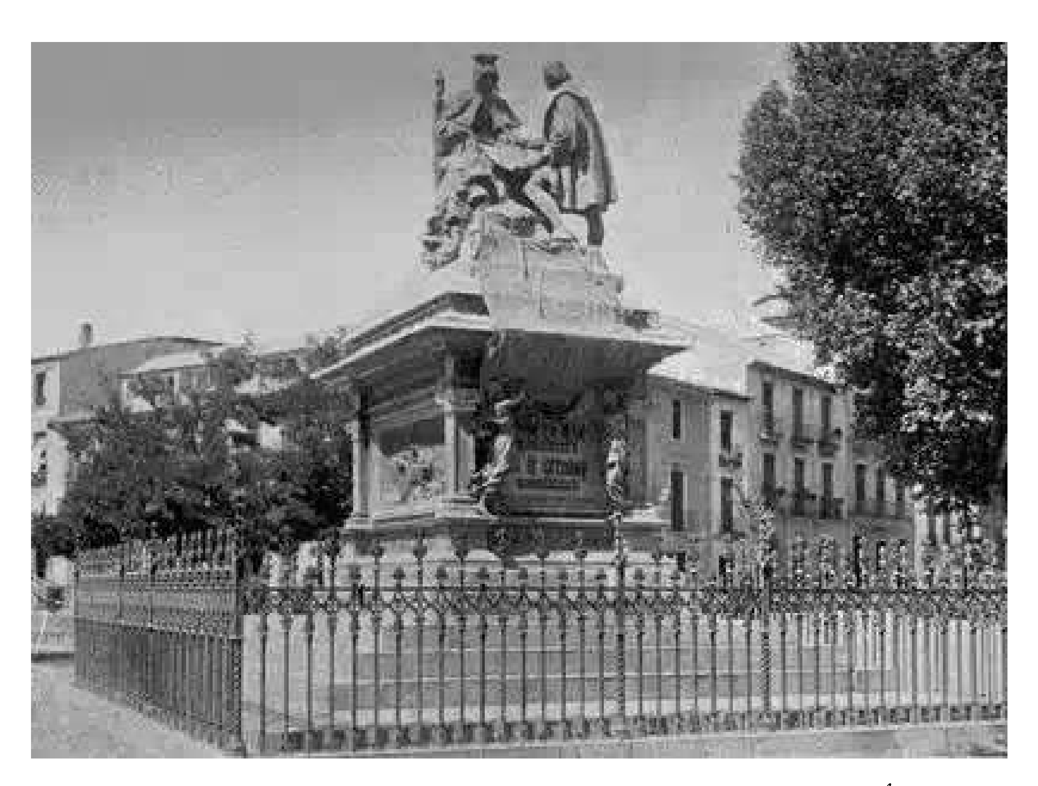
قصر عربي قديم، هو الآن في مُلك نبيل إسپانـي



دار البلدّية القديمة



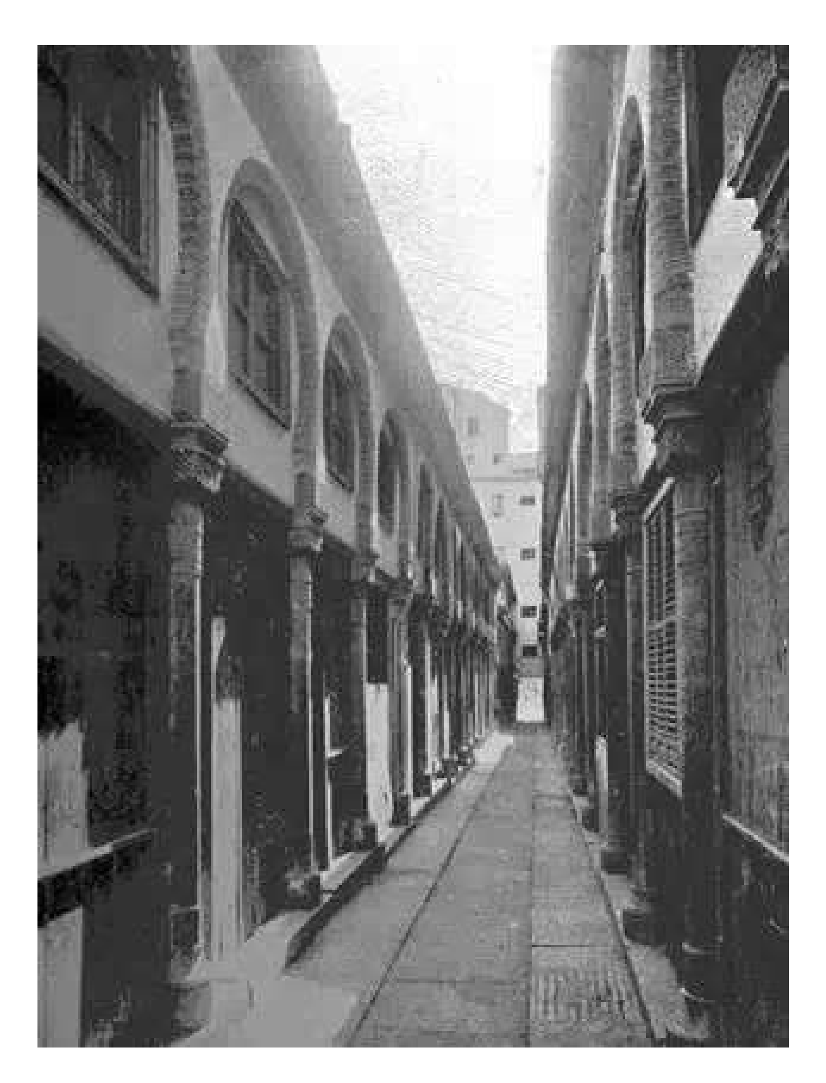
الباب الملكي وشارع الملوك الكاثوليكيين



نُصب كولومبوس في الپاسيو دِل سالون Paseo del Salón



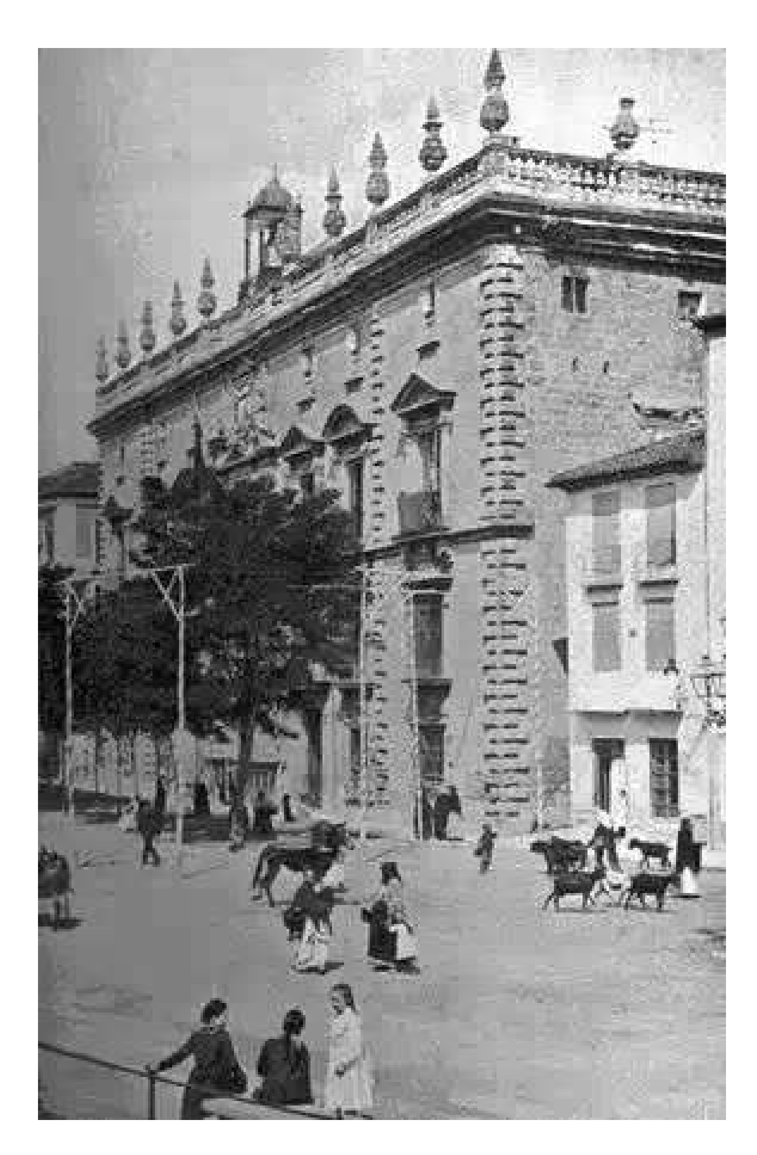
سوق الحرير الخام



سوق الحرير الخام. سوق الحرير العربي القديم



خارج دار قديمة، كويستا دِل بِسكادو (طلعة السّمك)



محكمة العدل



مجرى نهر دارّو (حَدره)



سوق ومعرض للغجر في التّريونفو Triunfo



شارع سان أنطون (كاليِه سان أنتون)



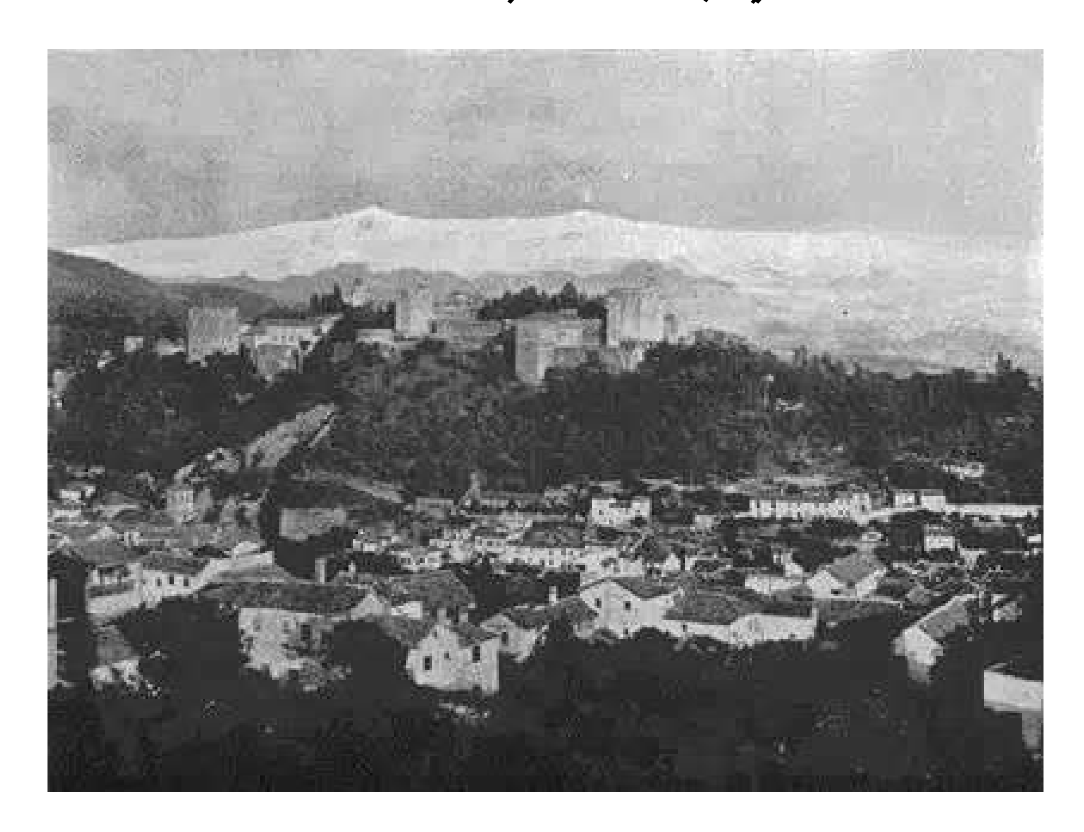
حيّ آنتيكيرويلا، والسّييرّا نيڤادا، و«زَفرة المغربي الأخيرة»



مجرى نهر دارّو (حَدره) ومنظر السّييرّا نيڤادا



ساحة ماريانا پينيدا، ودار عربيّة، ومنظر السّييرّا نيڤادا



منظر عام لقصر الحمراء والسّييّرا نيڤادا من سان ميغيل



طريق أويتور Huétor ومنظر السّييّرا نيڤادا



ڤيلّات على ضفاف نهر دارّو (حَدره)



مجرى نهر دارّو (حَدره)



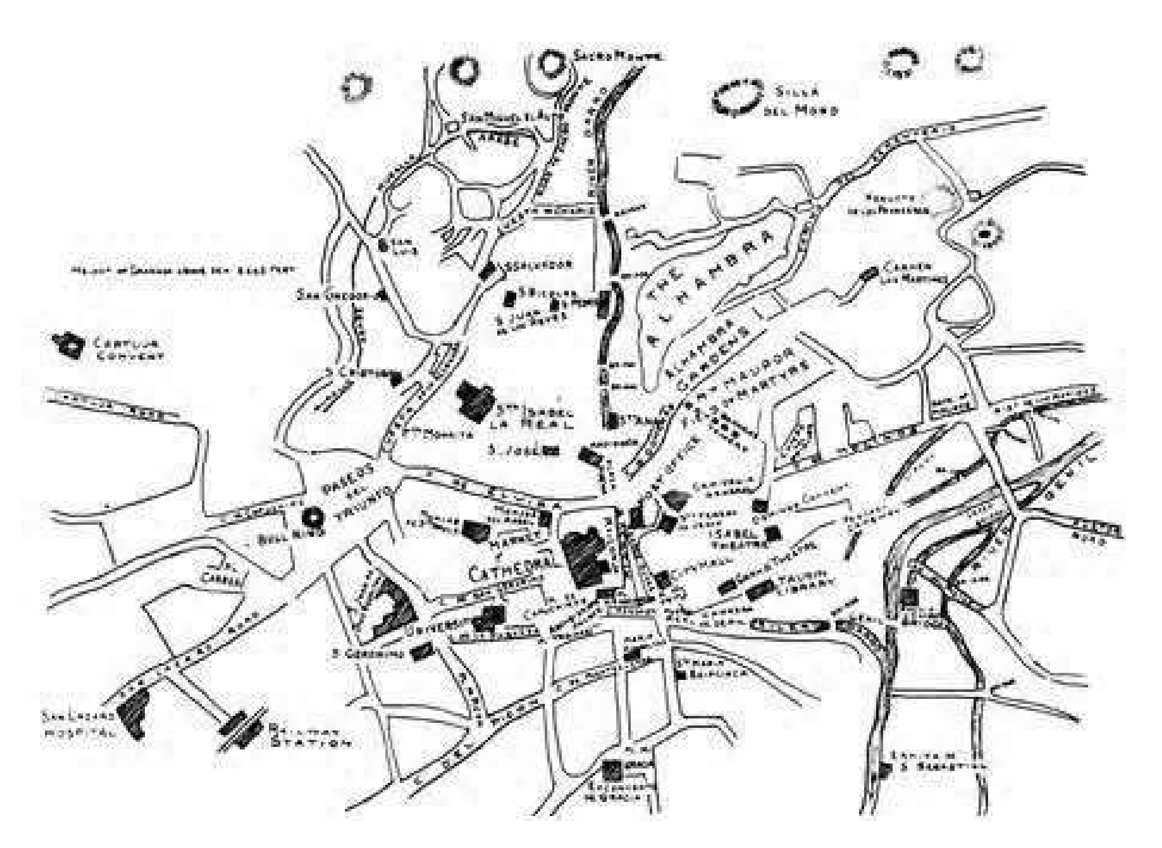
الجسر الأخضر ومنظر السّييرّا نيڤادا



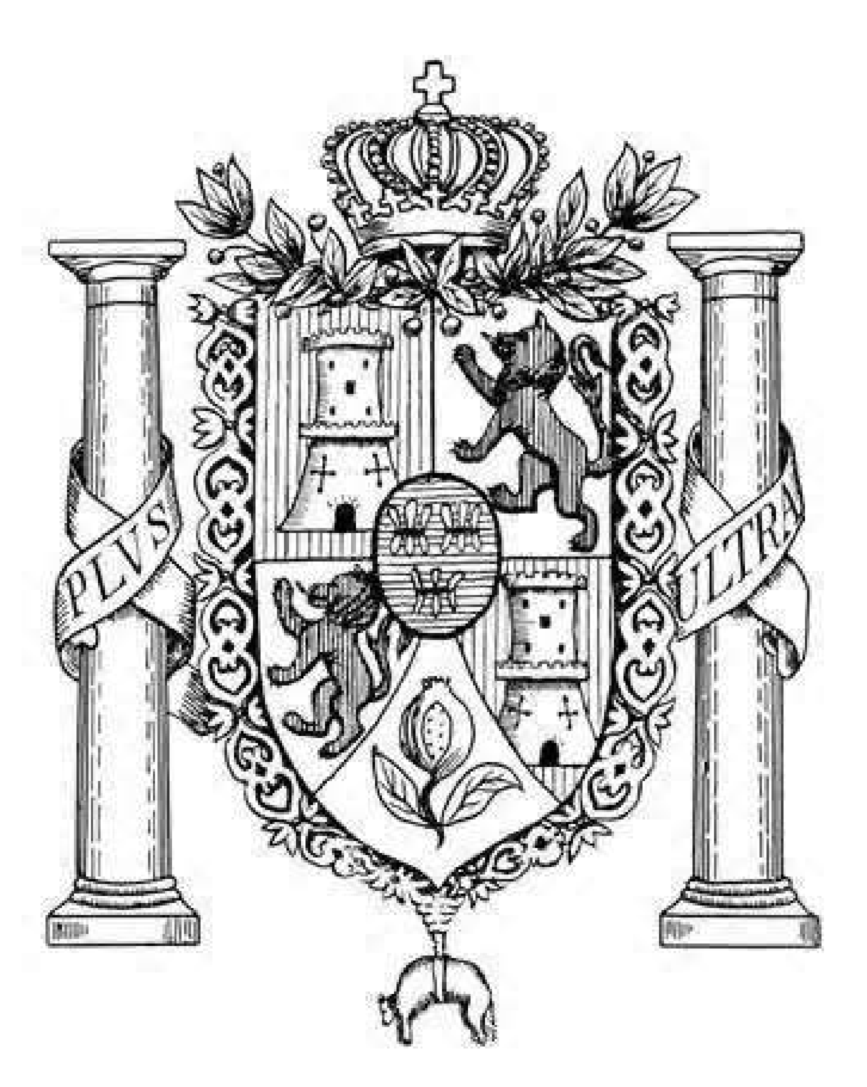
منظر السّييّرا نيڤادا



منظر عام للسّييّرا نيڤادا ونهر شنيل Genil



غرناطة (رسمت خصّيصاً للسّلسلة الإسپانيّة)



شعار مدينة غرناطة